البلاد...
وأشلاء العباد

أحمد ماضي



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : البلاد .. وأشلاء العباد

المؤلف : أحمد ماضي

رقم الإيداع : ٢٠٧٨٢/ ٢٠١٠

الطبعة الأولى يوليه ٢٠١٠

الطبعة الثانية ديسمبر ٢٠١٠



أكرموه فوضعوه مع البهائم....

عباس عبد المحسن إبراهيم النحال

عباس عبد المحسن إبراهيم النحال كلاف البهائم بمحطة تربية المواشى بدوار المصلحة التابع لوزارة الزراعة يقول تاريخه إنه حصل على هذه الوظيفة منذ أن كان شابًّا فى العشرين من عمره. وكانت هذه الوظيفة هى هدية المفتش الإنجليزى لوالده «الريّس» عبد المحسن بمناسبة عرس ولده الوحيد عباس سالف الذكر.

فالمفتش الإنجليزى شاهد رجله الأثير عبد المحسن النحال منهمكًا فى إعداد طوق كبير من الزهور، وعرف أن «مهسن» كما يناديه يجهز الليلة لزفاف ولده عباس، ولأنه كان قد رأى هذا العريس المنتظر منذ شهور قليلة فقد تعجب أن يقوم والده بتزويجه وهو فى هذه السن الصغيرة، وقد أنهى تعجبه بطلب قال فيه لرجله عبد المحسن حدائقى قصره الكائن بحدائق التفتيش الخلابة أن يمكنه من رؤية العريس بعد شهر العسل.. ثم نفحه مالًا وطعامًا وإجازة.

ولما جاءه بعد شهر العسل راح المفتش يتأمله بإشفاق وابتسامة مريرة ومنحه جنيهًا وهو يغمغم:

- «لم تعجلتم فى تزويجه؟.. إنه صغير.. صغير جدًّا»

ثم تحدث مع مترجمه بقول نقله المترجم للريس عبد المحسن:

- «خذه معك للعمل معكم فى الحدائق.. هذه الوظيفة هى هديتى لكما»

وراح الريس عبد المحسن يتخبط فى الكلام، وقد فهم المترجم أن الرجل يتمنى لو كانت هذه الوظيفة فى مكان قريب من مسكنه حتى يرحم «عباس» من السير ستة

كيلومترات فى اليوم من وإلى التفتيش..

سأله المترجم: **«وأين هو مكان العمل القريب من مسكنك؟»**

فأجابه الريس عبد المحسن مسرعًا: **«محطة التربية، قريبة من منزلنا فى البلد..»**

- **«تربية المواشى؟»**

- **«أجل»**

ابتسم المترجم فى إشفاق:

«تختار لولدك «الجلة» بديلًا عن الزهور.. هل هذا معقول. يا حاج؟»

* * *

ولا ينسى عباس النحال يومه الأول فى وظيفته المهداة، فقد فغر فاه دهشة لكل هذا العدد من الأبقار والجواميس التى تعج بها إسطبلات المحطة، فتقدم من أحد العمال وسأله:

- **«كل هذه بهائم؟.. كم عددها؟»**

تفحصه الرجل الذى لم يكن من أبناء البلد ثم سأله:

«هل أنت عباس بن الحاج عبد المحسن النحال؟..»

- **«نعم»**

فابتسم بسخرية، وقال له:

«خمسمائة.. وبعد وصولك اليوم صار عددها خمسمائة وواحدًا..»

أصابه حزن مفاجئ لهذه الإهانة، ثم عرف سر ذلك عندما قال له العامل القرفان:

- **«فما دمت وافقت أن تعمل هنا كلافًا.. بدلًا من «جناينى» فأنت ولا مؤاخذة.. جاموسة..»**

لم يلتفت عباس النحال إلى قيمة ما قاله العامل القرفان إلا عندما اتسعت مملكته البائسة بذرية كثيرة العدد، وضاق رزقه وعزّ عليه الطعام والشراب، ولم يعد يضمنهما شأن البهائم التى يطعمها ويسقيها بيديه طيلة النهار.. أما بيته الذى ورثه من أبيه وكان

يمرح فيه بحرية وهو صغير.. فقد اختنق بمن فيه، وخنق كل من فيه.

وعرف عباس إلى أىّ حد كانت هدية المفتش الإنجليزى له تحمل شكلًا بريق المنحة، لكنها تحمل جوهرًا ظلمة المحنة.. فعندما قامت ثورة جمال عبد الناصر بتوزيع الأراضى على الأجراء والفلاحين لم يدرجوا اسمه فى كشوف من سينالون هذا الحظ المفاجئ.. وعرف أن السبب هو أنه مدرج فى كشوف العمال، ولا يمكنه ـ حسب القانون ـ أن يجمع بين أرض يتملكها، ووظيفة يملكها.

يومها تحسر وهو ينظر إلى «فرحانة» المولود العاشر الذى أتى به إلى الدنيا عام ١٩٥٣ فى مسلسل ذريته البائسة.. كانت فى لفتها سادرة فى غياهب الصمت والجهالة خالية من أية فرحة.. تمامًا مثل «فايزة» المولود رقم تسعة وسابقتها «سعيدة».. ثم كبراهن «رابحة» فهن بناته اللاتى منحهن تسمية لا يدرى سرّ اختياره لبهجتها.. فالفرْح والسعادة والفوز ثم الربح لم تزد عن كونها كلمات لا علاقة لها بواقعه الحقيقى، وأصبح القول بأن البنات رزقهم واسع قول قد يكون مر على غيره من الناس. ولكنه أبدًا لم يمر عليه..

وظل أولاده يتقدمون فى العمر وتتقدم معهم كفاءتهم فى مجابهة الفقر.. فبدأ الكبير يتعلم كيف يطلق ساقيه للريح معلنًا عن خفته ورشاقته وهو يلوذ بالهرب من أيدى الخفراء وحراس محصول القمح أو الذرة فى أجران دوار المصلحة بعد أن يكون قد فاز بشيكارة مملوءة بالقمح أو بأكواز الذرة. وأصبح القفز على أسوار جرن المصلحة مهمة عائلية تليق بمن لا تنقصه وسيلة إتقان الفرار من أبناء عباس النحال.

ولما غاب عنه الرزق بأكثر مما تعود عليه قال لزوجته أم الخير الدسوقى:

ـ «سأذهب بنفسى إلى جرن المصلحة لسرقة القمح..»

فقالت له:

«أنت ضعيف وغلبان ولن تقوى على الفرار إذا ضبطوك»

فغمغم بشىء من الخوف: «ربنا يستر»

يومها نجح فى تحويل شيكارتين إلى بيته، وعندما ألقى بالشيكارة الثالثة إلى خارج السور العالى سقطت قرب ناظر الزراعة الذى كان يتفقد الجرن فى هذا الوقت من القيظ.

وقف الناظر أحمد غنيم فى انتظار اللص الذى سيلحق بسرقته الآن.. ولما أنهى عباس النحال قفزته الرشيقة مقعيًا على راحتيه وركبتيه كقرد يلهو ناداه أحمد غنيم: **«أنت يا عباس؟»**

ـ «نعم ... أنا يا حضرة الناظر...»

ـ «موظف فى المصلحة.. وتسرق المصلحة؟....»

ـ «البيت فاضى.. والعيال جياع .. ماذا أفعل؟»

ـ «أتطعمهم من حرام يا عباس؟»

ـ «نعم أطعمهم من حرام.. لأنه لا يوجد طعام آخر»

ـ «وتقولها فى وجهى؟.. ألا تخجل من نفسك؟»

ـ «اخجلوا أنتم من أنفسكم، فأنت والباشكاتب والمعاون تلقون بالطعام الفائض منكم فى الزبالة أو للخرفان والدواجن ونحن جياع، فمن منا يعوزه الخجل؟...»

وقال الناظر ذو الوجه الخواجاتى الملىء بالقطن والشاش والكدمات وهو يثرثر مع المحققين حوله فى المستشفى بعيدًا عن أوراق المحضر:

ـ «والله.. أنا كنت سأتركه وأعفو عنه رغم لسانه الطويل، فأنا أعرف ظروفه الصعبة..»

وراح أحمد غنيم يوضح للمحققين أن غريمه عباس النحال بدلًا من أن يستعطفه تمادى فى تحديه فعندما سأله قائلًا: **«مالك أنت يا عباس ومال طعامنا.. هل ستحاسب الله على رزقه للناس؟»**

إلا أن عباس الفصيح رد على سؤاله بسؤال آخر:ـ **«وهل تسمى هذا رزقًا يا بك؟..»**

ـ «إذن، فماذا تسميه أنت؟»

ـ «سرقة.. سرقة يا سعادة الناظر.. خير المصلحة يتحول إلى منازلكم ومنازل أحبابكم ونحن نتفرج عليكم..»

اغتاظ الناظر من هذه الوقاحة، فصفع عباس النحال على وجهه ثم ركله ببوز الحذاء

دون قصد أن تجيء ركلته فى خصيتى المسكين، فصرخ بأعلى صوته قبل أن يرتمى على الأرض:

ـ «آى... آى... آآآ أى الحقونى..»

وعلا صوت الاستغاثة ركض سكان البيوت القريبة من جرن المصلحة.. وفى ظل السور وجدوا عباس يتمرغ من شدة الألم.. وبالقرب منه يقف الناظر أحمد غنيم لا يعرف كيف يتصرف، ولما همدت أنفاس عباس وتمدد كهيئة الميت ظنه الناس قد مات فانهالوا على الناظر ذى الهيبة العالية ـ التى كانت ترتجف لها أبدانهم ـ وأوسعوه ضربًا بكل ما امتدت إليه أيديهم ليسجل أهل البلد أول ثورة من نوعها فى المنطقة.. ثورة كان بطلها والمحرض عليها المدعو عباس عبد المحسن إبراهيم النحال عامل الكلافة بمحطة تربية المواشى التابعة لوزارة الزراعة.. والمتزوج من أرنبة بشرية اسمها أم الخير إبراهيم الدسوقى التى أنجبت له عشرة أولاد من صنف الغيلان كما وصفهم ولد منهم منحه الله موهبة الشعر وأشياء أخرى ولد اسمه السيد.. السيد عباس النحال.



الضحك من كثرة الحزن ...

أم الخير إبراهيم الدسوقي

هى امرأة علمتها الأيام ألا تشكو.. وألا تطلب.. وألا تتذمر، وألا تندب حظها التعس، وألا تنعى نصيبها الذى أوقعها فى هذا الرجل، عباس النحال، فهو رجل لا يرزق بأكثر من نصف حاجتهم الضرورية من طعام، ثم أرسل أولاده فى شقوق الحياة يبحثون عن النصف الآخر.. دون جدوى.

قبل أن يتزوجها كان رفضه لبنات كثر عُرضن عليه طُرفة يتندر بها الناس. فكيف لهذا القصير النحيل أن يتعالى على:ـ «بنات الواحدة فيهن تفصّل ثلاثة رجال فى حجمه»

وطال معه هذا الأمر حتى صار التشوق لمعرفة من سيختارها عباس هو الحكم المسبق بتميزها عن الأخريات اللاتى رفضهن عباس «فرّاز» البنات.

ولكن أم الخير كانت تملك شعورًا غامضًا أن «عباس» وضع نظره عليها منذ أن قامت بعمل الواجب معه فى ماكينة الطحين عندما جاء بمفرده ليطحن قمحهم وساعدته على ذلك، وعندما أرسل نحوها نظرة امتنان أيقنت أن هناك شيئًا ما قد حدث فى داخله، أما هى فلم تتمكن من تفسير ما حدث بداخلها.

فيما بعد قال لها عباس:

«كنت أخاف أن ترفضينى فرحت أرفض الأخريات حتى تقبلينى، فأنا أحبيتك يا أم الخير، أنت لم تغادرى حضنى كلما هجعت إلى النوم..»

وعندما عاد إليها من زيارته للمفتش الإنجليزى ومعه جنيه ورقىّ كامل زفّ إليها نبأ

توظفه فى دوّار المواشى، وأكد لها أنها أم الخير اسم على مسمّى..

وهى لم تنكر أن الخير لم ينقطع من منزلهم منذ أنجبت لـه ولـده الأول بـدير فى عـامهما الأول من الزواج، وأن مرتبه الذى كان يسلمه لها جنيه ورقىّ فى حجم الكف، كان يغطى ـ رغم صغره ـ كل مطالب الدنيا حولها، وظل الحال فى يسر معقول حتى أفرغت له أربعة بطون فى بحر ست سنوات، بدير، والسيد، ورابحة، وأمير.

ولا تدرى لم اختلف الأمر بعد أن أفرغت له ستة بطون أخرى فى بحـر تسـع سـنوات تالية، وكان الريس عبد المحسن قـد رحـل وأعقبتـه زوجتـه أم عبـاس.. وتعجبـت بعـد رحيلها أن يحل محلها شىء آخر، هو: «النحس..»

وكبر الأولاد، ولم تكبر معهم تصرفات عباس فى محاولة سد حاجتهم.. ولم تكن تفهـم سرّ تصرفاته الغريبة التى كان يوافيها بعدها بقروش قليلة وملاليم عديدة بين يوم وآخـر، ولكنها لا تنسى تلك الليلة التى بكـى فيهـا مـن ولـده بـدير، ولا تنسـى أن «بـدير» ابـنْ السادسة عشرة لم يأبه بهذه الدموع، بل سخر منها بوجه ملىء بـالغيظ والنقمـة، ولم تفهـم من الموقف الذى أمامها سوى أنهما قد تشاجرا فى شوارع المدينة عندما ضبط بـدير والـده يتسول هناك، وأن «بدير» منذ هذه الليلة قرر مغادرة مدرسته قائلًا:

«سأبحث عن عمل أكرم لنا من هذا الهوان».

ومع اشتداد أزمتهم امتد تشرد الأولاد وهاموا على وجـوههم بحثًـا عـن النـواة التـى تسند الزير، ففى أهدأ الأحوال يلقون بخيوط سنانيرهم فى مياة الترعـة للإمسـاك بعشـوة سمك، وفى أخطر الأحوال يتسلقون سور جرن المصلحة للإفلات ببعض القمح أو الذرة ويطلقون سيقانهم للريح قبل الإمساك بهم، وفيما بين الهدوء والخطر اخترع السيد النحـال طالب الصنايع الفاشل فكرة المراهنة على كسر عـدة أعـواد مـن القصـب بضربـة سـكين واحدة.. وسجل دكان بائع القصب فرج حمدان جولات ناجحـة لسـاعد السـيد النحـال الطويل النحيل الذى كسب به سواعد رجال فى ضعف حجمـه، واحتـار النـاس إن كـان هذا الساعد الذى لا يثير شكله الدهشـة هـو مخبـأ هـذه القـوة الكامنـة.. أم أنهـا الحرفيـة واستخدام العقل؟ لكنهم كانوا يهللون له وهو يحمل القصـب جـائزة الرهـان عـلى كتفـه

ويخرج به منتصرًا، وفرج حمدان يهتف به:

ـ «ابسط يا ابن النحال واجرِ روح للغلابة خليهم يحلّوا بُقهم»

وعند أقدامهم يلقى السيد بجائزته الشهية من القصب فيتلقفونها لتتحول بعد قليل من الوقت إلى كومة من القش ثم ينامون وفى أفواههم طعم السكر، أما السيد فينام وفى فمه طعم التحدى والانتصار، ثم الشعور بفخر القوة.

أم الخير لم تضبط نفسها أو يضبطها أحد باكية، ولكنها أحيانًا تفر إلى معانقة الضحك رغمًا عنها كحالها وهى تستقبل جائزة القصب التى يأتى بها السيد فى ليالى الشتاء المظلمة الظالمة.. وكحالها عندما تقدم منها السيد ذات ظهيرة وبيده ورقة قال إنه كتب بها الشعر:

ابكى يا أم الخير ولادك واللى نيّل حظّهم
اجتهد عباس يجيبهم قبل ما يجيب أكلهم
العيال أكلوا فى بعض لما جوعهم عضّهم
«عرفه» كَلْ فى دراع «عاشور» «فايزة» عملت زيّهم
عشرة من صنف الغيلان والغيلان من صنفهم
تاهوا فى أرض العشيرة والعشيرة تهشّهم
ادعى يا أم الخير لربك لجل يقصف عمرهم

وضحكت أم الخير من كثرة الحزن، ضحكت لأنها لا تجيد البكاء.. حتى البكاء الذى أطلقته على عباس وهو ممدد بين يديها ـ يوم أن ضربه الناظر أحمد غنيم بالحذاء فى خصيتيه ـ كان بكاء مصنوعًا لم تفلح فى إتقانه.

فعندما انقض الأهالى على ناظر الزراعة بالضرب المبرح لم ينقذه سوى هربه منهم، وجاء العمدة مسرعًا فشاهد عباس النحال يجلس القرفصاء وبجواره شيكارة القمح المسروقة، فهتف به:

ـ «ما شاء الله.. ما شاء الله.. أنت قاعد مرتاح يا ابن الكلب، والبلد كلها ستدخل

السجن بسببك؟.. الناظر بلغ النيابة، والبوليس على وصول.. نام يا ابن الكلب، واعمل نفسك ميت..»

ثم شخط فى أم الخير، والنساء من حولها:

ـ «غطوه وصوتوا عليه يا ولاد الكلب..»

قالوا عنها إنها كانت مضحكة وهى ترفع صوتها بالصراخ والولولة..، حتى أن عباس اضطر أن يصحو من ميتته متألمًا من صياحها المزعج ويشخط فيها:

ـ «خرمت ودنى.. الله يخرب بيتك.. صوّتى بالراحة..»

ثم يعود إلى الموت تاركًا عويل النساء يختلط بضحكهن المستتر على ذلك الميت الذى قام فسب زوجته ثم واصل الموت.

وظل هذا الحادث هو الذكرى المؤلمة المضحكة التى لا تندمل مع الأيام وتزورهما، بلا مقدمات عندما يطير النوم من عيونهما ثم يلفهما الظلام والرغبة المتوحشة.. الرغبة التى لم يملّها عباس حتى بعد أن تقدم به العمر.

قالت له عن يوم حادثه الشهير:

ـ «والله يا عباس، من كان يراك نائمًا بين أيدينا وملفوفًا بالبطانية يظنك ميتًا، وكنت أنسى أنك تمثل الموت فأرقع بالصوت الحيانى والنساء من حولى يفعلن مثلى..»

فيقول لها:

«كنت أخاف أن أتنفس وتكون الحكومة قد حضرت فأفسد ملعوب العمدة، لكن عندما خفت على طبلة أذنى أن يخرمها صراخك العالى قمت فشتمتك..»

ثم ينظر إليها بحب واعتذار وهو يقول بصوت حنون: «عمرى يا أم الخير ما شتمتك إلا وأنا ميت..»

ويلفهما ظلام الغرفة، وظلمة الحياة وهما يطردان النوم للولوج إلى عتبات اللذة التى حفظتهما وحفظاها، ولم يعد يقلل من سحر بهجتها أىّ كلام للأسى كان يردده بين وقت وآخر:

ـ «ها نحن نضحك على الدنيا يا أم الخير من كثرة الهم.. فهمومنا يا بنت الناس صارت

تُضحك ولا تُبكى.. ألم يكن من الممكن أن أنال ميتتى بسبب ركلة حضرة الناظر فى خصيتى، وأموت وأنا متلبس بسرقة شيكارة من القمح، ويكون عباس النحال قد عاش مهانًا جوعانًا ومات مفضوحًا؟..»

وتختصر أم الخير كل آلام حسرتها فى زفرة حارة قبل أن تضمه إلى حضنها وهى تهمس له: «بعيد الشر عليك.. من الفضيحة.. ومن الموت»

ويحمد عباس النحال ربه ـ بينه وبين نفسه ـ أن فضيحته لم تنتشر، ولم يعرف أحد من الناس أن ولده «بدير» قد تعرف عليه وهو يتسول أمام أحد مساجد المدينة، فانتزع الولد الشال الذى تلثم به ـ عن وجهه ـ ثم دفعه فى صدره وراح يسوقه أمامه فى قسوة، ومن لطف الله أن أحدًا ممن يعرفهما لم يشاهدهما وهما فى هذا الموقف المزرى..



الفرار نحو الضياع ...

بدير عباس النحال

لأنه كان على رأس عشرة من الأشقاء الذين تمكنت منهم التعاسة، فقد كـان أجـدرهم بالادعاء أنه عاش طفولة خلت من هذه التعاسة، فهو الذى لحـق بـالخير العمـيم قبـل أن يتسرب ويتوزع ويختفى فى دروب الكثرة والشراهة.

وما زال بدير يذكر الأيام الثرية التى سبقت يومه الأول لدخوله المدرسة.. كانوا كلهم مشغولين بتجهيز ملابسه الجديدة.. بدلة من الصوف الإنجليـزى مـن جاكـت وبنطلـون قصير وقميص حريرى أبيض وطربوش قصير أكمل فيه هيئة مذهلة جعلت أحد أصدقاء جده يهتف:

ـ «ما شاء الله.. كأنه الملك فاروق عندما كان أميرًا صغيرًا..»

وكان يافعًا حصيفًا مدركًا واعيًا لكل ما حوله عندما قامت الثورة التى مـا إن جـاءت حتى كانت القسمات النضرة فى وجوه إخوته قد تهدلت، فما بال الحال بوجه أمه وأبيه..

فكم كان قلبه مفطورًا وعزمه مكسورًا وهو يشهد مع أهل البلد موكب ضباط الثورة الـذى فى طريقه إلى إقطاعية فؤاد باشا سراج الدين ليوزعوا أراضيها على الفلاحـين المعـدمين.. فكيـف يشارك فى فرح ليس له نصيب فيه؟ فأبوه لن يحصل على أرض مثل باقى المعدمين. لماذا؟.. لأنـه موظف ويتقاضى مرتبًا.. أجل.. أربعـة جنيهـات وقـد تقـل قلـيلًا.. وهـم اثنـا عشر فـردًا، وقـد يزيدون، فأمه ما زالت تنجب.. وأتت لهم «بفرحانة» هذا العام..

فى هذا اليوم الموعود خرج الأهالى واصطفوا على جانبى الطريـق الزراعـى.. الرجـال

يتصايحون.. والنساء تطلق الزغاريد.. والأطفال يلهـون ويمرحـون ويقـرءون اللافتـات المعلقة على أقواس الزينة المنصوبة فى أول البلد وفى وسطها وفى آخرها:

«مرحبًا برجال الثورة الأحرار»

«عاش البطل محمد نجيب ابن مصر البار»

«عاش الأبطال الذين قهروا الظلم و الطغيان وحققوا العدالة»

وقف فى مكانه دون أن يشارك فى هذه اللوثة التى عصفت بالكبار قبل الصغار.. لوثـة لم تستمر سوى دقائق قليلة كانت كافية لعبور الأبطال قلب قريتهم بكـل هـذه السرعـة.. وعندما عاد الأولاد راحوا يحكون عن زميلهم فتيان الذى ظل ممسكًا بذيل سيارة الرئيس محمد نجيب من القوس الأول حتى القوس الثالث دون أن يتركها..

وقال أحد الشهود إن الرئيس التفت خلفه وشاهدهم وهم يصيحون على هـذا الولـد العفريت وهو منطلق مع السيارة المكشوفة بنفس سرعتها، فابتسم ابتسامة حنونة ثم عـاد يلوح للناس.

وفى وقفته مع أخيه أمير وزملائه: طاهر وفريد وفتيان لمح بدير والـده يتسـلق القـوس الخشبى العالى الحامل لليفطة المكتوبة وأخذ يزيل القماش ويجمعه بـين يديـه ويلفـه حـول جسده، ففهم أن العمدة قـد كلفـه بتجميـع القـماش مـن فـوق الأخشـاب قبـل فكهـا.. واهتاجت نفسه عندما رأى أن «عباس النحال» هو الوحيد الذى لم يجدوا غيره ليقوم بهذه المهمة المجانية، وكانت هذه اللقطة قد دبرها له الحظ العنود لتؤكد له أنهم حتى فى الأفراح والمناسبات السارة لا توزع عليهم إلا أدوار الخدم.

وراح يبحث بإلحاح عبر نظراته الغائمة عن أخيه السيد، فقد يعثر معـه عـلى سـيجارة يقتسمان تدخينها معًا..

* * *

وبعد شهور عديدة ـ أصبح بعدها موكب الضباط الأحرار مجرد ذكرى ـ نظم التلاميذ مباراة فى كرة القدم مع تلاميذ قرية مجـاورة، ولم يشـارك بـدير أو أخـوه السـيد فى اللعـب

واكتفيا بالجلوس على خط الجير يدخنان سيجارة واحدة؛ لأنهما لم يدفعا القرش المطلوب من كلِّ مشارك.. قروشًا يجمعونها لشراء علبة الحلوى جائزة الفوز.

وفى لحظة مباغتة لم يحسبا لها حسابًا نادى عليهما كبير فريقهم:

ـ «استعد يا بدير.. استعد يا سيد..»

لم يكن فى ظنهما أن فريق البلد الذى منى بعدة أهداف مبكرة لم يجد رئيسه حلًّا سوى إشراك ولدى النحال بديلين عن لاعبين آخرين، فقد يتمكنان من تعديل النتيجة. أسرعا، فخلع كلّ واحد منهما جلبابه، وكأنهما قد نسيا ما يرتديانه أسفل الجلباب. ثم ظنا أن التهليل العالى الصادر من المشجعين حول الملعب كان للترحيب بهما، ولكنهما أيقنا بعد قليل أن الصياح يدور حول سروال كلِّ واحد منهما وقميصه.. فهما مصنوعان من قماش اليفط المسروق.. وصار أمر ملابسهما ذات الكتابة أكثر إثارة من المباراة نفسها؛ إذ ظهرت الآن الحقيقة التى واجهوا بها عباس النحال الذى سرق قماش اليفط.. وهو اتهام أنكره عباس بإصرار أمام عشرات الشهود الذين شاهدوه يزيل القماش، فعندما قال له شيخ الخفر:

ـ «يا راجل كلنا شاهدناك تزيل القماش بعيوننا هذه التى سيأكلها الدود..»

ورد عباس النحال بهدوء وثقة:

ـ «لا شأن لى بعيونكم هذه إذا كان الدود يملؤها منذ الآن»

وتوقفت القضية عند قول أطلقه العمدة:

ـ «انسوا الموضوع.. إنه عباس النحال.. ألا تعرفونه؟»

ولكن الجمهور تذكر الموضوع فى هذه المباراة، وراح الناس يطلقون التعليقات الساخرة.. فمنهم من يحاول تفسير الحروف المكتوبة على بطن بَدير، ومنهم من يحاول تفسيرها على ظهر السيد.. أو على مؤخرة الاثنين، فالميم والراء حرفان من كلمة مرحبًا، والباء والطاء حرفان من كلمة البطل..، وعندما سأل واحد من الناس بسخرية:

ـ «هل وجد أحدكم أى حروف من كلمة الثورة؟»

رد عليه ساخر آخر:

«الثورة ستجدها على مؤخرة عباس النحال»

وقفزت إلى أذهانهم صورة هزلية لعباس النحال وهو يرتدى ملابس الكرة كولديه وعلى سرواله بعض حروف كلمة الثورة .. فانفجروا ضاحكين..

وبعد هزيمة الفريق المنكرة صب الناس جام غضبهم عليه وودعوه بسخرية واستهجان وعقد بعضهم زفة خاصة لبدير والسيد النحال، فسارع بدير بارتداء جلبابه وغادر الملعب مسرعًا.. أما السيد، فلم يفعل ما فعله أخوه ويلوذ مثله بالفرار.. لكنه واجه الساخرين باللكم والشتائم..

* * *

وفى بيته المزدحم بالإعياء والأبناء علم عباس بانكشاف أمر قماش اليفط فلم يلق بالًا لذلك حتى وهو يتطلع إلى وجه بدير الطافح بالحقد والمرارة، فبدير لا يستطيع أن يؤنبه على سرقة القماش الذى ارتداه ذلك؛ لأنه لم يجد غيره ليرتديه.. إذن، فقد قضى الأمر، ولا مجال سوى التسليم بأهمية هذه السرقة.

أما بدير الذى كره نفسه، وكره قبلها المدرسة، وكره قبلهما مجرد وجوده فى الحياة، رأى أنه لا يمكن أن ينتقم من هذه الحياة، إنما يمكنه أن يعيد النظر فى علاقته بها.. مما يستوجب منه التحرك والفرار.

وإلى أين الفرار؟.. وكيف التحرك؟.. هو لا يدرى سوى أنه لا بد من التحرك.. ولا بد من الفرار.



التسكع في دروب الهم ....

السيد عباس النحال

السيد النحال سجل فى ذاكرة القرية أنه أطاح بأربعة شبان فاز عليهم فى منازلات منفردة أو مجتمعة حتى أسال الدم من وجوههم فى قلب الملعب وعلى مرأى ممن كان يزفونه ساخرين يوم حادث القماش.. كما أنه سجل فى هذه الواقعة مدى اختلافه عن أخيه الأكبر بدير الذى فرّ هاربًا.

والعجيب أن ذاكرة القرية سوف تحتفظ لهذا الولد العنيف بشىء آخر لا علاقة له بالعنف.. فعندما اندلعت ثورة عبد الكريم قاسم فى العراق، تقدم العمدة فجمع الناس بعد صلاة الجمعة أمام المسجد وخطب فيهم مباركًا الثورة العراقية، وبعد أن أنهى العمدة خطبته قام فأعطى الفرصة لبعض الكبار من أهل البلد لإلقاء خطبهم فى الجمهور السعيد، وقد قام بعضهم بذلك فى أداء عادى لم يدهش الناس. إلى أن تقدم السيد ابن عباس النحال وراح يخطب فى الناس بطلاقة مذهلة وصوت هادئ وكلام موزون فنال تهليلهم العالى وتصفيقهم الحاد حتى أن واحدًا من الكبار الذين خطبوا قبله قال لبعض القريبين منه:

- «**كل هذا يطلع من ابن النحال؟**»

أما العمدة، فقد قال للمحيطين به فى الدوار:

- «**خطبة الولد ابن عباس النحال هى أفضل خطبة، طبعًا بعد خطبتى**»

وبهذا سجل السيد النحال فى ذاكرة قريته شيئين قد لا يشوبهما التناقض: قوة ساعده،

وقوة عقله، وقد أضاف واحد من المعجبين به قوة ثالثة هى قوة عاطفته قائلًا:

- «فأنتم لم تسمعوا أغانى الحب التى يكتبها..»

أما ما كان يثير استغرابهم وتعجبهم هو أنه خائب فى مدرسته ودائمًا يأخذ العام الواحد فى عامين.. وأنه كما يبدو يسعى بنفسه إلى مصير شقيقه الأكبر بدير الذى هجر المدرسة منذ عامين وتحول إلى صائع كبير كما يشاهدونه فى طرقات المدينة.

فلم يكن طالب الصنايع - المهموم بفقره - بحاجة إلى معرفة أين ستذهب به الدنيا، أو إلى أين سيذهب مع الدنيا وهو يهرب من مدرسته ثم وهو يهيم على وجهه لا يلوى على شىء..

قيل إنه عشق الهروب لأنه يحب الحرية، وقد قال عن نفسه إنه يشعر بالاختناق كلما أغلقوا عليه باب الفصل.. ولاحظوا أنه لو مرت حصة واحدة على خير فى وجوده، فأغلب الظن أن الحصة التالية لن تكون كذلك. فهو يملك كل دواعى إفساد الحصص أو تحويلها فى أفضل الأحوال إلى ملهاة..

أما أساتذته، فهم يعلمون السرّ فى شططه، فها هو الأستاذ محمد فودة يضع أمام زميله الأستاذ عبد الكريم شعبان تحليلًا لحالة تلميذهما الشارد، فيقول له:

- «ولد: إخوته عشرة أولاد يعيشون تحت سقف واحد فى منزل حقير مظلم وضيق.. أبوه كلاف بهائم يكمل عشاءه نومًا - هذا إذا نال بعض العشاء - ماذا تريد منه؟ هل يستجير من جحيم البيت بقيود المدرسة؟»

ويؤيده الأستاذ عبد الكريم بتحليل موازٍ:

- «هذا الولد يعانى من تمزق، فهو يحب القراءة ويكتب الشعر والأغانى ولا يملك ثمن كتاب أو رواية أو ديوان من الشعر، ثم إنه يرى نفسه زعيمًا وسط الأولاد ولا يملك إلا بنطلونًا واحدًا وقميصًا يتيمًا.. فهل يمكنه أن يحب المدرسة ويفرح بالفصل ويشتاق للحضور؟ أشك فى ذلك..؟»

وما اتفق عليه الأستاذان هو أن انضمام بدير النحال إلى غوغاء المدينة وتحوله إلى صائع كبير برغبته قد يكون ساهم فى تردى أحوال السيد أكثر مما هى مترديـة، ولما تعلم الأخ الأكبر بدير ممارسة الأعمال الأكثر دناءة لتدبير نفقاته، فإن السيد أمسك بالأعمال الأقل

دناءة. مثل مهنة الدلّال الذى يساعد تاجر البهائم على بيع بهائمه فى سوق المواشى.

اقترب منه أستاذه عندما شاهده فى السوق، وهمس له:

ـ «أتعمل دلالًا يا سيد..؟»

ـ «موسم يا أستاذ.. موسم»

ـ «والدراسة يا ولد؟»

ـ «لكم عندى شهادة مرضية سأقدمها للمدرسة آخر العام ..»

ـ «خذ دبلومك يا ولد، هذا ثالث عام لك فيه.. أنت أخذت سنة أولى فى عامين وسنة ثانية فى عامين.. أخوك الأصغر أمير حصّلك وكنت تسبقه بأربعة أعوام»

ـ «أخى أمير راسم أن يكون دكتورًا.. أنا لست متعجلًا مثله..»

وينصرف الأستاذ فودة وهو يضرب كفًا بكفّ.. وقد عقد العزم ألا يفشى بهذا السرّ لأحد من زملاء فصل السيد النحال اتقاء لشره..»

* * *

السيد النحال انتبه إلى حد الاعتدال وهو يتأمل قرار الهجرة الجسور الذى قرره ثم نفذه أخوه بدير وغادر به البيت والمدرسة دفعة واحدة. ثم وهو يتأمل الأثر الوحيد الباقى منه فى المنزل.. مكان نومته فى غرفة الأولاد.. ولم يراوده الإحساس بالفقد قدر ما سعد أن الغرفة قد رحبت واتسعت بعد أن قل عدد قاطنيها من ستة ذكور إلى خمسة، وقد سعد أمير بهذا المكسب الطارئ فابتعد بنومته عن رأس عرفه الملئ بالقراع والدمامل التى لا تكف عن نزف الدماء..

أما الاعتدال الذى خامره وهو يتأمل قفزة بدير الجريئة، فهو ما ارتاح إليه من أن بدير قد تمكن من الاستغناء عنهم تمامًا، وأنه فى غيابه الطويل قد دبر نفسه فى مأكله ومشربه وملبسه ومأواه.. وصار المهم فى نظر السيد هو أن فكرة تحقيق الاستقلالية هى فكرة ليست بعيدة المنال. واكتشف أن «أمير» يمارس هذه الفكرة بهدوء؛ إذ بدا له أن أخاه الأصغر سقط من حالق كالطير الجائع على جرن ملىء بالقمح، فهو يصادق أولاد أثرياء المدينة، فصار يأكل على

موائدهم، ويتأخر طويلًا عندهم مستغلًا فى ذلك كونه الأول على فصله.. ثم وسامته البادية رغم ملابسه المتواضعة التى يهتم بنظافتها اهتمامه بتسريحة شعره الناعم الكثيف، كما بدا لـه أن «أمير» توغل فى هذه الصداقة حتى أنه صار يرتدى ملابسًا جديدة لا يمكن أن يعرف عباس النحال الطريق إلى شرائها ـ هذا إن كان يملك أصلًا ثمن شرائها.

وقد جاءته فرصة العمل كدلّال وهو يتسكع فى طرقات المدينة بعيدًا عن مدرسته وشاهد فتيانًا ومعه رجل طاعن فى السن يسوقان بقرة أمامهما، وعرف أنهما يتجهان إلى سوق المواشى لبيعها فناداه ساخرًا: **«إيه يا فتيان؟.. طالب ثانوى فاشل وتاجر بهائم فاشل أيضًا؟»**

رد عليه فتيان بعصبية وهو يلهب البقرة بعصًا فى يده: **«كن فى حالك يا ابن النحال»**

وأكمل السيد:

«أتذهب إلى السوق قرب الضحى أيها الخائب.. ستذهب إلى سوق انفض سامره، من باع قد باع، ومن اشترى قد اشترى»

فهتف فتيان وهو ممعن فى إلهاب البقرة بعصاه:

«ربنا يوعدنا بدلال شاطر»

ودون تفكير لاحقة السيد قائلًا وهو يقفز ناحيته ضامًّا نفسه إلى ركبه:

ـ **«وأنا هذا الدلال.. دع هذا الأمر لى.. سأبيعها لك..»**

وبدا أن فتيانًا راق له أن يرد له لكزته الأولى:

«ومدرستك أيها الطالب الفاشل؟»

فقال له السيد وقد فهم مغزى لكزته: **«سوق البهائم أفضل من مدرستى ومدرستك.. ارتحت»**

وكان النصف جنيه الذى كسبه السيد من فتيان فى هذا الضحى هو بدايته فى سوق الدلالة، وبداية تعلقه بالطرق المؤدية إلى أسواق البهائم، إلى أن عرف التجار أن هذا الولد الطويل النحيل ليس دلالًا محترفًا بل دلالًا هاويًا يلتقط رزقة يومًا بيوم وينفقه على نفسه، فطمع منهم من طمع فى عرقه، وبخس من بخس منهم مجهوده، وصار الشجار بينه

وبينهم يأخذ من أعصابه أكثر مما يأخذه صياح التسويق، فقرر العدول عن هذه المهنة.

وفى المقاهى التى كان ينفق بها دخله من الدلالة يومًا بيوم تعرف على عمال المعمار من مختلف الصنايعية: نجارين.. حدادين.. معلمين تركيب البلاط، والبناء بالطوب، وسباكين وكهربائية.. ورآهم يتحاسبون.. يتصايحون.. يمرحون.. يأكلون ويشربون.. فأعجبه أن عالمهم به سخونة وروعة أكثر من عالم تجارة المواشى.

ولما طلب من الجرسون أن يرسل كوبًا من الشاى لهذا الشاب «الذى هناك» على حسابه.. كان يقصد التعرف عليه ليساعده فى أن يعمل معهم، وما إن وصلت التحية إلى صاحبها وتعرف على من جاد عليه بهذا الكرم سارع فقدم له نفسه من بعيد:

«محسوبك السيد النحال.. دبلوم صنايع»

ـ «محسوبك الأسطى زكريا.. حداد مسلح..»

* * *

وفرك الأستاذ محمد فودة عينيه وهو يتأمل تلميذه الشارد:

ـ «من؟.. السيد النحال.. أتعمل حدادًا يا ولد؟»

فاتجه إليه السيد وهو «يزك» على قدمه اليمنى وصافحه مبتسمًا:

ـ «وقد ترانى أقود طائرة فى المرة القادمة يا أستاذ فودة»

غسله الأستاذ فودة بنظراته من أعلى إلى أسفل: **«ما شاء الله، تفهم فى كل شىء ما عدا مواد دراستك ..»**

ـ «لأنها أتفه من أن أهتم بها»

ـ «ولماذا تربط قدمك هكذا بهذا الشاش الثقيل»

ـ «عملية..»

ـ «جراحية..؟»

ـ «المقص الملعون.. مقص الحديد»

ـ «لأنك غشيم.. تدخل فيما ليس لك فيه.. يا ولد اخلص من شهادتك يا مغفل..»

نظر النحال حواليه، وهمس لأستاذه:

ـ «لا أحد يعرف أنني في الصنايع.. ولكن أطمئنك، فأنا سوف أصفي حسابي عند مقاول هذه العملية.. اسمه هريدي.. صعيدي جاء يلعب على أولاد بحري.. يحاسبني على يومية مساعد وأنا أفضل من أيّ صنايعي عنده.. اسمع يا أستاذ هذه الأغنية.. كتبتها عنه..»

وأخرج السيد النحال من جيب بنطاله ورقة معروقة متآكلة الأطراف وقرأ منها:

«حرام عليك يا زمن يبهدلني خسيس وجبان

يلين معانا الحديد.. وقلب العويل لم لان

بكره الزمن يا هريدي.. يعز أصحابه

وبكره فعل الخسيس يلزق على بابه

وقلة الأصل، دايمًا ع اللئيم بتبان»

ضحك الأستاذ مليًّا، ثم سأله:

ـ «هل ستعود إلى دراستك بعد أن تصفيّ حسابك؟»

ـ «الذهاب إلى النار ـ وليسَ المدرسة ـ أفضل من البقاء مع هذا الخسيس»

ويقول الأستاذ محمد فودة إن هريدي الذي سمع الأشعار من فوق سطح العمارة هب من مكمنه صائحًا: «من منا الخسيس يا ابن كلاف البهائم؟.. ألا تخجل من أصلك يا..»

لم يكمل هريدي سبابه وتراجع للخلف مسرعًا ليتفادى «زلطة» أرسلها إليه السيد، وراح يبحث عن شيء ما إلى أن أمسك بقطعة حديد فاتجه بها إلى مكان السلم وهو يتقافز بقدمه المصاب، فاجتمع عليه العمال ليمنعوه من الصعود وهو يهتف بهم:

ـ «دعوني أصعد لهذا الكلب حتى أضع هذا السيخ في مؤخرته»

وما رآه الأستاذ فودة بعد ذلك هو أن هريدي اختفى في مكان بعيد عن متناول السيد، وأن العمال سحبوا زميلهم الثائر المجروح إلى مكان ظليل وتمكنوا من تهدئته، فقال لواحد منهم وهو يشير إلى هريدي وأنفاسه تلهث:

ـ «اذهب إليه.. لي عنده خمس يوميات واليوم نصف يومية.. اقطع معه حسابي على

أجر صنايعي.. ويخصم جنيهًا أخذته تحت الحساب.. إن لم يستجب لذلك، فلن يظهر ليومه هذا شمس ولن يسافر إلى الصعيد إلا وهو معبأ فى صندوق..»

ولما استجاب هريدى لمطالب عامله العنيف، برر سرعته فى ذلك بقوله:

ـ «فعلت ذلك حتى أخلص منه ومن سفالته..»

* * *

أزاح عباس النحال باب بيته المطل على الشارع ودخل دون جلبة فأومأت له زوجته أم الخير أن ولديها بدير والسيد يجلسان فى غرفة الأولاد، أشرقت نفسه بمجرد أن علم أن «بدير» هنا، وتأكد أنه ولا شك يحمل معه فى هذه الزيارة بعض خيراته التى صار لا يأتى فى الشهور الأخيرة إلا محملًا بها.. وأصبحت زياراته الليلية المتقاربة ـ بما فيها من لحم مشوى وخبز طرى وهذا الشيء الذى اسمه طحينة، تثير شهية الأولاد عند سماعهم طرقاته على الباب فيقذفون بأغطيتهم ويتقاذفون إلى الصالة وهم يفركون عيونهم.

حاول أن يعرف من أين لبدير بكل هذه الأموال التى تنطق بها هيئته الجديدة، وطعامه الفاخر، حتى إنه عندما تقدم برجاء إلى بديو أن يعرض عرفه على أحد الأطباء لعلاج القراع الذى برأسه كان يأمل أن يأتى له عرفه بخيط ما يعرف عباس منه كيف يكسب بدير رزقه وفى أىّ شيء يعمل؟.. ولما ذهب عرفه إلى مشوار العلاج وعاد ببعض علب الدواء والمراهم وربطة لا بأس بها من الحلوى والهريسة راح والده يحاصره بأسئلة متناثرة لم يفهم الصغير مغزاها، إنما فهمتها أمه وهزت رأسها فى استسلام ثم لاذت بالصمت، وطاشت المحاولة الوحيدة التى حاولها عباس النحال ليفك بها لغز ثراء بدير رغم ما كان يأمله فى قدرة عرفة ذلك الصغير الحاذق الذى لم يتورع عن قلع شبكة صياد من مشبكها بالترعة وأتى بكل ما بها من سمك فى مهمة سطو يعجز عنها رجل كبير..

اقترب عباس النحال من باب غرفة الأولاد المغلق على بدير والسيد فهاجمته رائحة خيل إليه أنه يعرفها، وما إن تعمد فتح الباب بغتة حتى أسرع بدير بسحق سيجارته المشتعلة فى الأرض.. أما السيد، فقد صنع من راحته غطاء على سيجارته، وبدا مما يفعله أنه يوارى سوءة بيديه..

عاد عباس إلى غرفته، وتمدد على سريره وهو يفكر..

«إنه الحشيش.. الحشيش هو السرّ فى الغرفة المغلقة. وهو السرّ فى الحياة المفتوحة.. بدير يدخنه فى الغرفة، ويتاجر به عند الناس.. بدير الآن هو الطباخ الذى يتذوق سمه المطبوخ..»

خرج عباس إلى الصالة وارتقى السلم النقالى فصعد إلى السطح عبر فتحة فى السقف، ومن جلسته فوق كومة من القش نادى على بدير فصعد إليه.. وما إن برز فى مواجهته حتى سأله وهو متكئ:

ـ «قل لى يا بدير.. منذ متى وأنت تتاجر فى الحشيش؟»

تلعثم بدير لحظيًّا، ومع ذلك فقد أجاب بسؤال:

«وكيف عرفت ذلك؟»

حمل سؤاله شكل الإجابة بالموافقة على أنه فعلًا يتاجر بالحشيش، فقال له والده:

ـ «طباخ السم يتذوقه.. وأنت الآن تتذوق بضاعتك»

ابتسم بدير، وتذكر ما يقوله بعض الناس عن والده من أنه يمتلك عقلًا يزن بلدًا بأكمله .. ثم قال:

ـ «أتاجر به منذ ما يقرب من ستة شهور»

ـ «ومع من من التجار؟»

ـ «مع أكثر من تاجر»

ـ «إذن، فهناك قضية إتجار بالمخدرات تنتظرك فى القريب العاجل»

ـ «لماذا؟»

ـ «لأن تاجرًا من هؤلاء سيضحى بك ويقدمك سد خانة عند رجال المكافحة.. ولن تعرفه منهم ما داموا كثرة..»

لاذ بدير بصمت طويل، وهو يتأمل كلام والده، مما أشار إلى أنه يقلّب هذا الأمر منذ زمن فى عقله، وهنا اعتدل عباس النحال فى مواجهة ولده الذى جلس بجواره وهو آمن،

وقال له:

ـ «يا حمار.. إن لم تكن داهية مليئًا بـاللؤم فـلا تتـاجر فى الحشـيش.. اعمـل مـع تـاجر واحد.. ولا تكشف عن نفسك بكل هذه الملابس الجديـدة. فالنـاس تعلـم أنـك لا تملـك وظيفة بعينها حتى تكون هى سرّ نعمتك.. صحيح أن تجارتك لن تظـل سرًّا مغلقًـا مـدى الحياة، ولكن يجب أن تجعل عملك بهذا الصنف مشكوكًا فى صحته، حتـى لـو كـان يقينًـا عند بعض الناس..»

راح بدير يتأمل والده بذهول، ففى دقـائق معـدودة وقـف منـه موقـف المحقـق، ثـم اللائم، ثم الناصح، ثم الموجه، وزاد ذهوله وهو يتلقى هذا التوجيه الجديد:

ـ «خذ السيد معك.. اليد البطالة نجسة.. هل هو يعرف أنك تتاجر فى الحشيش؟»

ـ «لم أبلغه؛ لأنى لم أجد داعيًا لذلك..»

ـ «مخطئ.. خذه فى صفك، وضع سرك على سرّه.. لا تخشَ جانبه، هو مصـيبة وسـوف يفيدك»

ولأن فكرة توظيف السيد معه فى ترويج الحشيش كانت تـراوده، ولأنـه كـان يبحـث لذلك عن مدخل مناسب، فقد سارع بتقديم إجاباته الجاهزة أمام السيد الذى سـأله فـور نزوله إليه:

ـ «فى أى شىء كان يريدك هذا الرجل؟»

ـ «سألنى عن الحشيش الذى ضبطنا ندخنه معًا»

ـ «وماذا قلت له؟»

ـ «قلت له إننى أتاجر فيه»

ـ «ولماذا تسخر منه هكذا؟»

ـ «لم أكن أسخر منه.. لقد قلت له على الحقيقة»

اعتدل السيد فى مواجهته، وراح يتفحصه بدهشة.. ثم هزّ رأسه عدة مرات علامة مـن فهم شيئًا كان غائبًا عنه:

ـ «أهكذا الأمر.؟ وأنا الذى كنت أتعجب من هذا الخير الذى هبط عليك مرة واحدة.. كباب وكفتة.. ملابسك الجديدة.. وملابس عرفة والبنات وأمك.. ولما رأيتك تدخن الحشيش جاء فى مخى أن فلوسك زادت إلى حدّ عجيب، ولا أدرى لماذا راودنى إحساس أنك تعمل قوادًا؟»

فظهر الغضب على وجه بدير وهو يقول:

ـ «كيف تتهمنى بالقوادة.. وأنا الذى اهتاجت كرامته وقلبت حياتى رأسًا على عقب منذ أن شاهدت والدك متخفيًا أمام مسجد ويتسول فى المدينة؟..»

بحلق السيد فى وجهه وهو يهتف: «الكلب.. أكان يتسول؟»

ـ «ولم يُصلح حالى بعد أن ضبطته.. هجرت المدرسة والمنزل..»

ـ «ويبدو أننى سأفعل مثلك.. سأهجرهما أنا أيضًا»

ـ «ظننتك ستنتهى من شهادتك هذا العام»

ـ «وهل هذه شهادة؟»

ـ «اسمع.. فى وضعك الجديد سنكون بحاجة إلى أن تظل طالبًا كما أنت..»

ـ «وضعى الجديد؟.. أىّ وضع؟»

ـ «ستعمل معى فى تجارة الحشيش، لن تلفت الأنظار إليك وأنت طالب.. ولعلمك: والدك شجعنى على ذلك»

لم يهتم السيد بهذه الملاحظة، و قال وهو يلوح بيده فى قرف:

ـ «لست بحاجة إلى تشجيعه من عدمه.. ليظل فى حاله ويتركنا فى حالنا.. المهم.. قل لى: ما هو المطلوب منى بالضبط»

ومنذ اللحظة التى اعتدل فيها بدير فى مواجهته قائلًا له:

ـ «اسمع يا سيدى..»

بدأت رحلة من نوع جديد فى حياة السيد عباس النحال .



نابغة أغواه الغباء ....

أمير عباس النحال

لم يفخر أمير بتميز اسمه عن أسماء إخوته الذكور طويلًا.

فقد قال له السيد وهم صغار:

«أبوك سرق لك هذا الاسم من ابن ناظر المواشى.. كان اسمه «أمير».. يعنى كلاف المواشى سرق اسم ابن ناظر المواشى..»

وبعدها لم يعد لديه ما يفخر به خاصة بعد أن سجلت حوادثه الصغيرة علامات كلها لا تبعث على الفخر، فعندما دهست السيارة زميلهم زكريا مسعود سارع فجمع كتبه وكراساته المبعثرة وأخذها لنفسه.. وبعد أيام من الحادث جاءتهم الأم الحزينة تسبقها دموعها وهى معصوبة الرأس بطرحة سوداء ومعها ولداها الأكبر سنّا من زكريا، وعقدوا حلقة من الشتائم والسباب له أمام باب المنزل، ومع وقْع الشتائم والضربات الموجهة على ظهره بالمقشة من أمه الغاضبة أسرع فأتى بالكتب وأعطاها لهم.

* * *

ولما سلموه علبة الحلوى ليحافظ عليها وهو جالس على حافة ملعب الكرة لم يكن فى نيته أن يسرق نصف هذه الحلوى لولا أن أعجبه مذاقها اللذيذ الطرى فراح يأكل منها خلسة.. ولما انهدم ركن كبير من العلبة وتجمعت أغلفة حلواها فى جيبه أسرع فملأ هذه الأغلفة بالحصى وأعادها إلى العلبة.

وتلقى أمير النحال فى هذا اليوم علقة جماعية من فريق كرة ينتعل الأحذية ومملوءًا

بالغيظ .

ولم يشارك طاهر زين الدين فى ضربه، لكنه عنفه قائلًا:

ـ «لا أحد يتمتع بمثل غبائك، فما دمت قد أكلت الحلوى فلماذا تضع بدلًا منها قطعًا من الطين..؟»

* * *

وعندما دخلوا السينما انتبهوا إلى فريد هنيدى وقت الاستراحة ينهض متجهًا إلى أمير ـ الجالس بعيدًا عنهم ـ ويهمس له فى أذنه ويعود إليهم وعلى فمه ابتسامة خبيثة.

سأله طاهر زين الدين: «ما الذى كنت تقوله له؟»

فقال له فريد هامسًا: «ستعرف بعد قليل»

وبعد دقائق من إظلام قاعة السينما ومواصلة العرض انتبه المتفرجون إلى صوت صفعة على وجه ما وشتائم تصدر من فتاة.. عرفوا أنها فتاة صفعت جارها الذى أمسك بيدها فى الظلام.

واتضح أن «فريد» أوهمه أنهم فى الصفوف الخلفية يعيشون فسادًا مع فتيات المدينة فى قلب الظلام ثم قال له: **«فلا تجلس كالحمار بجوار فتاتك أيها المحظوظ حتى لا تحتقرك»**

ويعود طاهر زين الدين إلى تعنيف أمير قائلًا: «مشكلتك أنك تستدعى الغباء لمساعدتك»

* * *

وفى مدرسته الثانوية انتقل من الصف الأول إلى الصف الثانى متوجًا بالمركز الأول، وصار نبوغه تاجًا يتوج شخصيته التى كان من الممكن ألا تلفت إليه الأنظار بملابسه البسيطة التى يحرص على نظافتها.

واستثمارًا لنبوغه، فقد تقرب إليه زميله فى الفصل نجيب أمين النجار وكان أفضل ما فى هذا التقرب هو أن «نجيب» كان يقتسم معه شطائره اللذيذة فى فسحة الغداء.. ثم صار يخصه بعد ذلك بلفافة يأتى له بها فى كرم مفاجئ، ولما دعاه على الغداء فى منزله.. ثم دعاه

بعد الغداء الثرى أن يشرح له بعض دروس الجبر والهندسة والكيمياء عرف أمير أنه لا شيء فى هذه الدنيا بالمجان. وصار ينفق الساعات الطويلة فى منزل صديقه الثرى دون أن يأبه بحلول الظلام واثقًا أن تأخره عن أسرته فى البلد لن يجلب لهم القلق أو يجلب له غضب أحدهم، فقد عرفت أم الخير أن «أمير» ولدها سعيد بصداقته الجديدة مع ابن هذه الأسرة عالية الشأن فى المدينة، فهم أناس كما قال لها أمير عندهم خدم وسفرجى وسائقان لسيارتين.. وكل هؤلاء فى خدمة نجيب وأختيه.

وعندما عاد إلى أمه ذات ليلة وبيده لفافة كبيرة أسرع ففتحها أمامها وهو مملوء بالفرح: بنطلون جديد، قميص.. غيارات داخلية، جوارب، بلوفر بلا أكمام..

- «ما كل هذا؟»

- «البك الكبير.. والد نجيب.. اشتراها لى وهو يشترى لولده ملابسه..»

وما لم يقله أمير لأمه واحتفظ به لنفسه هو ما سمعه من ردّ أجاب به أمين بك على سؤال بائع شركة عمر أفندى: **«وهل هذا المحروس ابن ناظر العزبة أم ابن الباشخولى؟»**

فقد همس له: **«لا هذا .. ولا ذاك، إنه ولد غلبان يحتاج المساعدة.. زميل نجيب فى الفصل.. لكن «نجيب» يحبه ..»**

ومع هذا ومع دخول فصل الشتاء، لم يخجل أمير وهو يقول لصديقه نجيب: **«قلبى يحدثنى أن والدك سيتذكرنى وهو يشترى لك ملابس الشتاء..»**

ونقل نجيب هذه الكلمات لوالده بمسحة من الأسى على حال صديقه النابغة فابتسم الرجل وهو يرتب موعدًا لتسوق ملابس الشتاء له ولأمير..

وصارت الأناقة البادية على أمير وهو يرتدى هذا الجاكت الصوفى الثمين جزءًا من تألقه الجديد فى مجتمع المدرسة، وصار تميزه فى الشكل مكملًا لتميزه فى العقل، ثم صار انصرافه إلى بيت نجيب إقامة ونومًا وإعاشة ومذاكرة هو الانصراف الذى يبديه اهتمامًا بدروس صديقه دون أن يعلم هذا الصديق أن «أمير» اقتنص فرصته السانحة فى إقامة مجانية عالية المستوى فى منزل تسبح فيه النعمة ليبتعد بها يكفى عن جحرهم المظلم و أجوائه المقبضة.

وعلى مدى عام دراسى كامل حقق فيه عشرات الزيارات لمنزل صديقه نجيب. لم يشاهد أمير شقيقتى نجيب داخل منزله أو خارجه ولو بالصدفة، ولم يكن يعلم أن القدر ادخر له هذه الصدفة، عندما ذهب فرحًا وسعيدًا إلى نجيب فى ضحى يوم النتيجة ليبشره بنجاحهما وانتقالهما من العام الثانى إلى العام الثالث والأخير فى دراستهما الثانوية، وفتحت له نجلاء الصغيرة الباب، قدم لها نفسه، راحت تتأمله كأنها تسأله: **«أهذا هو أنت؟»**

وكأنها أجابها **«أجل هذا هو أنا»**

ثم كأنها أخبرته **«لطالما سمعت عنك»**

وكأنها أخبرها بلهفة **«وأنا.. لطالما بحثت عنك.. »**

وعاد من هذه الزيارة بحال ليس هو حاله الذى كان عليه..

وعرف أنه الحب.. الحب الذى قرأ عنه وسمع أنه يحدث من النظرة الأولى، ثم أيقن أنه العذاب، العذاب الذى سيشعل لياليه بالسهاد والأرق وهو يفكر فيها.. ثم أيقن مرة أخرى أنه الجحيم.. الجحيم الذى سيتقلب فيه طوال ثلاثة شهور هم عمر الإجازة التى ستطول بطول الدهر..

ومضى أكثر من شهرين من العام الدراسى عاود فيهما أمير مشاركة نجيب أمين النجار ليالى الاستذكار المبهجة فى بيته العامر.. وظلت بهجته ناقصة لأنه لم ير نجلاء، عداها مرة وحيدة التقى بها عند مدخل العمارة وكانت تغادرها مع إحدى صديقاتها وهو يتأهب للدخول، لم تصافحه، ولكنها ألقت إليه سلامًا مرحًا وتحية عابرة وهى تأخذ بذراع صديقتها:

ـ **«أهلًا يا أمير.. نجيب فوق.. فى انتظارك...»**

كلمات مجاملة وسريعة وخاطفة جددت عنده أشياء كانت قد غفت.. تسمر فى وقفته وهو يتابع مشيتها المرحة بعودها الممشوق وشعرها المنسدل فوق كتفيها ..

وطالت الأسابيع دون أمل أن يرى حبيبته داخل هذا المنزل الحديدى وهذه الأسرة مغلقة الجوانب .. وتمنى لو تواته الفرصة أىّ فرصة ليفعل شيئًا.. أىّ شىء يمكنه من

التحدث معها.

ولم تواته الفرصة قدر ما اختلقها أو أجاد انتهازها عندما تأكد من أن «نجيب» سيمضى يوم شم النسيم مع أصدقائه فى العزبة.. فقرر عمل مغامرة محسوبة يدخل بها بيت صديقه فى غير وجوده.

ومن مكمنه البعيد الذى ظل قابعًا فيه لأكثر من ساعتين شاهد الخادمة تغادر العمارة حاملة حقيبة التسوق.. وما إن ابتعدت قليلًا حتى أسرع بصعود الدرج.

وتعجب وهو آخذ فى الصعود أن ساقيه ترتعشان وأن قلبه يرفرف.. فكيف ذلك وهو الذى قام بهذا الصعود مئات المرات؟ ولم يتذكر أنه نفس الاهتزاز الذى ألم به وهو يستولى على كتب زميله قتيل السيارة زكريا مسعود، ثم وهو يستولى على الشيكولاتة اللذيذة من علبتها، ثم وهو يسرق لمسة غرام فى ظلام السينما من فتاة لا يعرفها، وعرف أن حظه مرهون بأحد احتمالين وهو أن تقابله نجلاء قبل أن تسرع إليه نادية إذا كانت عادت من كليتها بالإسكندرية.

ودق قلبه قبل أن يدق الجرس، ثم سمع وقع أقدام رقيقة تتجه إلى الباب وصوتًا رقيقًا ثم وهو يراها أمامه متهللة الوجه بابتسامتها العذبة:

- «من؟.. أمير؟ ألم تذهب مع نجيب إلى العزبة؟.. كلهم هناك».

- «من؟»

- «محمد ناجى، وصالح فودة، ومحمد العدوى.. أنت تعرفهم»

استجمع قواه ليضع أمامها بعض ما عنده وهو زائغ العينين مأخوذ بضربات قلبه المتوالية:

- «لعله نسينى.. نجيب.. أو تناسانى.. وهذا من حسن حظى حتى أحضر إلى هنا لأسلم عليك..»

تأملته الفتاة ببعض الشك: «إذن، فأنت كنت تعرف أنه غير موجود؟.. أليس كذلك؟»

- «لا والله.. كيف لى أن أعرف ذلك؟..».

وبوجه جديد به حزم ودهشة سألته بصوت خفيض: «وماذا تريد من مقابلتى.. هه؟»

تلجلج للحظات، ثم خفض وجهه فى الأرض قائلًا: «أنت لا تعلمين ما حدث لى منذ أن رأيتك يوم..»

قاطعته مسرعة: «إننا نقف على بسطة السلم، وأنا وحدى هنا.. وقد يسمعك الجيران»

ودون تفكير خطا خطوتين إلى الداخل وصار فى مواجهتها.. فتراجعت الفتاة مضطربة:

- «ماذا فعلت؟.. قلت لك أنا هنا بمفردى.. كيف سمحت لنفسك بالدخول؟»

انتبه إلى أنه قد فهم بالخطأ ما قالته عن أنهما يقفان على السلم وظنها دعوة للدخول.

- «ظننتك لا ترغبين أن أظل واقفًا على بسطة السلم..»

- «يا سلام.. كنت أحذرك من كلامك الغريب.. حتى تمسك لسانك ولا تحدثنى عن هذا الذى حدث لك منذ أن رأيتنى.. إياك أن تكون ظننت أن بنات الناس لعبة.. اتفضل اخرج حالًا»

وراح يؤكد لها أن ظنه البرىء قد خانه، ولما أيقنت الفتاة أنه تورط بعفوية وأن هذا النابغة أو كما يطلق عليه نجيب: «الموس» لم يبق أمامه سوى أن يقبل قدميها لتعفو عنه ألقت إليه ابتسامة ساخرة ومريرة وهى آخذة فى إنهاء الموقف. «خلاص.. خلاص.. حصل خير.. اتفضل..»

- «أرجوك.. أخشى أن يفهم نجيب ما حدث الآن على غير ما أحب..»

- «لا تحمل همًّا.. نجيب لن يعرف حتى إنك قد جئت إلى هنا.. مع السلامة..»

* * *

وكبرت نجلاء فى نظره عندما لم يعثر عند نجيب على أىّ أثر لزيارته البلهاء.. ولما استرد أنفاسه بعد أيام طويلة عاد لتأمل ما حدث وانتهى إلى أنه رغم هزيمته فقد سجل موقفًا.. ويكفى أنها قد أحست ببعض ما عنده رغم فشله فى تقديم كلّ ما عنده من حب

وشوق وسهاد، ثم أقنع نفسه بأن ما أتت به الفتاة من ذعر وغضب ثم هدوء وصلح هو الأمر الذى لا تملك غيره هى أو أىّ فتاة أخرى فى مثل موقفها.. فمن قال إنه يجب على الفتاة ـ أى فتاة ـ أن تكشف عن مكنون قلبها عند أول فرصة تتاح لها فى ذلك؟

وفجأة طرأت له فكرة أن يسطر لها خطابًا.. يسلمه لها عند خروجها من المدرسة.

أزاح كتبه جانبًا، وقرب مصباح الغاز إلى منتصف الطبلية، وتهيأ لكتابة خطاب إلى نجلاء وهو يبحث عن نداء رقيق يناديها به إلى أن وجده:

«حبيبتى.. وقرة عينى.. وفلذة كبدى: نجلاء»

* * *

وتاهت نظراته وهو يبحث عنها فى هذا الموكب المدهش المنهمر من البنات فى طريق الخروج من المدرسة.. وراح يراقب تفكك كتلة الموكب كلما تقدم فى المسير آملًا أن يعثر عليها.. وراح يعيد على ذاكرته كلّ الكلمات الرقيقة التى حفظها ليتلوها عليها وهو يسلمها الخطاب..

ـ **«أمير..؟.. لماذا أنت هنا؟.. أتبحث عن أحد؟»**

وظهرت له نجلاء.. وأتاه صوتها.. من حيث لا يحتسب.

ـ **«نجلاء؟.. أ.. أ..»**

ـ **«ما بك؟ ما الذى أوقفك مع هؤلاء الأولاد الذين يعاكسون البنات؟»**

مد يده إلى ورقته المطوية داخل كراسته وسحبها مسرعًا ثم دسها بين كتبها وهو يردد:

ـ **«لا شأن لى بهم جئت أبحث عنك لأعطيك هذا الخطاب»**

وأسرع بالانصراف من أمامها دون أن يرفع وجهه نحوها...

* * *

فى اليوم التالى لم يرتح لتكشيرة عابسة تكسو وجه نجيب النجار، ولم يرتح لتجاهله إياه أثناء الحصص، ثم لم يرتح لهمسته المقتضبة له وهم يخرجون إلى الفسحة الكبيرة: «أريدك فى موضوع».. وازداد قلقه عندما اقترب به من المكان الذى تقف به شلته من الطلبة

الموسرين: محمد ناجى وصالح فودة، ومحمد العدوى، وكان الأخير يتحدث مع فريد هنيدى قرب المقصف، وأمام هذا الجمع فاجأه نجيب بورقة مطوية راح يهزها أمام عينيه.. دارت به الدنيا.. وغامت المرئيات أمامه.. وجف حلقه، واهتزت فرائصه «إنه يلوح لى بخطابى إلى أخته!!»

- «لماذا لم تكلفنى بتوصيل هذا الخطاب إلى أختى بدلًا من أن تفضحها أمام زميلاتها فى المدرسة؟..»

ووضح له أن «نجيب» قد جهز نفسه لهذه المواجهة، فها هو محمد ناجى يتأمله بابتسامة ساخرة لاحت على ركن فمه، وهاهو محمد العدوى يطل عليه بوجه جامد.. وفريد هنيدى يقترب منهم وبيده شطيرة أتى بها من المقصف، لم يجد كلامًا يرد به على صديقه. وغرق «موس» المذاكرة الشهير فى بلاهة مفاجئة ونجيب النجار يواصل تعنيفه:

- «لماذا لا ترد أيها النذل؟.. أتدرى كيف سأعاقبك الآن؟ اخلع هذا الجاكت.. اخلع كل هذه الملابس التى اشتراها لك أبى..»

لم يجد حائطًا يسند ظهره إليه بعد أن خارت قواه، ورغم تشبثه بملابسه، ورغم تدخل الحضور لمنع نجيب من تنفيذ قراره المجنون إلا أنه تمكن من سترته فخلعها عنه وألقى بها أرضًا ثم عمد إلى قميصه فلم يفلح إلا فى تمزيقه وهو مأخوذ بلوثة استخدم معها جسده القوى.. وفى لمح البصر اختفى أمير النحال من أمامهم.. ثم اختفى تمامًا عن مقعده الدراسى فى الفصل فى كلّ الأيام التى تلت حادثه المزعج.

* * *

ولما غاب عن المدرسة لعدة أيام متتالية ذهبا إليه: فريد هنيدى ورأفت إبراهيم، فاستقبلها على باب منزله بوجه حزين، ثم خرج بهما إلى الخلاء ثم انفجر أمامهما فى بكاء طويل.. ورغم هذا الموقف الدرامى، فإن ما به من شجن لم يمنع فريد هنيدى من تعنيفه وتذكيره بما وصفوه به من قبل من أنه «حمار.. لا يفهم» ثم نقل إليه كلّ ما سمعه من أصدقاء نجيب، وكيف كان يجب عليه أن يقدر هذه الفتاة حق قدرها عندما احتفظت بسره المشين يوم اقتحم عليها منزلها.. «ولكنها لم تستطع الاحتفاظ بسر الخطاب فسلمته

لأخيها».

وقد حاول رأفت إبراهيم تلطيف الموقف قائلًا لفريد:

ـ «وما ذنبه يا فريد إذا كان قد أحب فتاة غبية أوصلها غباؤها أن تفهم أن خطابات الغرام يجب أن تعتمد من الإخوة الذكور؟»

ومن خلال كآبته البادية ردد أمير:

ـ «هى ليست غبية .. الغباء كله عندى..»

فعلق فريد على ذلك قائلًا:

ـ «كيف يكون الأول على المحافظة غبيًا؟.. لا.. أنت ضحية محاولة التذاكى.. أنت ضحية سوء استخدام ذكائك.. على كل حال.. ماذا ستفعل؟.. أراك أضربت عن المدرسة»

ـ «سأقدم شهادة مرضية.. وأدخل الامتحان من المنازل.. ولكنى لست بقادر على قراءة سطر واحد.. وكل ما كان فى مخى من معلومات طارت كلها، ولست أدرى لم تحوّل أخى السيد وقرر دخول امتحانه هذا العام؟.. إنه يشاركنى طبلية المذاكرة، وصار وجوده بجانبى يشتت أفكارى.. لقد ضعت، أضاعتنى نجلاء، ودمرنى أخوها».



أولاد النحال يصونون هيبتهم ..

لم يرتح أمير إلى وجود هؤلاء الضيوف الذين يفدون كل أصيل إلى منزلهم فيحتلون مصطبته الأمامية، وتمتد بهم جلستهم حتى قرب منتصف الليل.

ولم يرتح أكثر عندما حضر معهم ذات مرة فاروق ابن أكبر عمدة فى المنطقة وهو يصطحب معه كلبه الأسود المخيف، ثم تتابع حضوره فتتابعت خلفه أفواج جديدة لضيوف جدد كل مرة، ثم تبين لأمير أن نصف هؤلاء ينتقلون من مصطبة دار الهنادوة؛ حيث يستضيفهم فريد هنيدى إلى مصطبتهم.

قال لنفسه إن «فريد» يقدم لضيوفه مشاركتين: واحدة تتعلق بالتمارين الرياضية، والثانية تتعلق بتربية الأرانب.. ولكن: ما الذى يقدمه السيد لكل هؤلاء سوى أدوار الشاى المتعددة؟ وساءه أن تتولى شقيقاته: رابحة، وسعيدة، وفايزة، وفرحانة، مهمة تقديم الشاى دون أن يلحظن نظرات غزل بها كلمات إطراء يقدمها بعض شباب هؤلاء الضيوف. أما وأن السيد لا يلحظ ذلك فتلك هى المصيبة.

سارع أمير فوضع أمام بدير كل همومه واعتراضاته على هذا التجمع الذى لم يجد له تفسيرًا.. ورغم أن «بدير» لم يشهد هذا المنظر لكنه فهم مغزاه عندما عرف أن فاروق بن العمدة يتصدر هذه الجلسات.

«إذن، فالسيد الجسور استقطب «فاروق» ومن معه فى ترويج حشيشه»

ولما هوّن بدير من هذا الأمر أمام أمير فادعى أنهم يجتمعون عند السيد لسماع أشعاره

وتبادل الكتب معه صمت أمير على غير اقتناع، وازداد سقوطه فى بئر الحيرة؛ لأنه لم يسمع زبائن المصطبة يقتربون من الشعر، ولم يشاهد كتابًا فى يد أحدهم.

وتدريجيًّا انقطع سيل الأصدقاء وهجروا مصطبتهم.. ففهم أمير أن بلاغه لبدير أتى بثمرته، وأن ما يبدو من وضع جديد معناه أن «بدير» أجبر السيد على وقف هذه السهرات.

وتعجب أمير من ذلك الخضوع الجديد.. خضوع السيد لبدير.. ما هو سره وما هى أسبابه؟

انكفأ أمير على نفسه وقد ازدادت حيرته، ثم زاد هذا الانكفاء عندما تجاورت الحيرة مع الخوف الشديد من انتقام السيد.. فهذا التأفف الذى لا يواجهه إلا به ليس له إلا معنى واحد يعرفه أمير.. ولذا فقد بات ينتظر: أين ومتى وكيف ستأته الضربة المنتظرة من أخيه صاحب الساعد الشهير فى جز أعواد القصب؟

ولم يجد سوى الاستسلام وهو ينتظر مصيره:

«فالسيد كالحية الرقطاء التى تكمن لغريمها فى الخفاء ثم تلدغه»

هكذا قال أمير لنفسه وهو يرى أثر خسارة السيد لبهجة لقاءات العصارى اليومية مع أصدقاء المصطبة.

وفجأة عدل السيد عن فكرة الانتقام من أمير، بل إنه نسى هذه المسألة تمامًا عندما صار أمير نفسه مطلوبًا فى التكاتف معه للقيام بحملة تأديب ينالان فيها من جوهر البقال وزوجته صبيحة، ذلك أن جوهر البقال الذى يفرش بضاعته من المأكولات والمشروبات أمام باب المدرسة الابتدائية ومعه زوجته تعديا بالضرب على عرفة الصغير عندما ضبطاه متلبسًا بسرقة فحل بطاطا فى زحمة تجمع التلاميذ حولها..

الولد عرفة اعترف للسيد بصحة الواقعة بعدما فضحته الجروح الدامية التى ألمت بوجهه ولم يكن باستطاعته تأليف واقعة أخرى عندما سأله السيد عن سبب هذه الجروح، بل لقد اعترف ـ وكأنه يندب حظه ـ أنه تعود على الإفلات كثيرًا بمثل هذه السرقة عدا

هذا اليوم الذى ضبطته فيه صبيحة.

وبدا أن هذه المهانة الجديدة التى لحقت بعائلة عباس عبد المحسن إبراهيم النحال فى شكل ولد من أولاده توافقت مع محاولة السيد إضفاء روح العزة على مصطبتهم الجرداء وإيهام نفسه ثم الناس من حوله أنه أعاد إلى منزلهم بعض عزه الغابر وألقه الذى كان أيام جده الحاج عبد المحسن.

يومها جلس يندب حظهم العاثر وتورطهم الطويل فى انتظار رزق لا يجىء، فالحاجة وضيق ذات اليد والجوع يجبرون صاحبهم أن ينظر إلى ما بأيدى الناس.. وقد يحرضه إلى خطف ما بهذه الأيدى.. وعرفة لم يفعل سوى أنه استجاب لكل هذه الدوافع، وعرفة شأنه شأن باقى إخوته لا يعرفون المصروف اليومى، وعرفة لا يعلم أن «بدير» ترك المدرسة دون ندم عندما سقط فى شيئين: اليأس والمهانة.. اليأس من اعتدال الحال، والمهانة التى قابلها عند باب أحد المساجد ذات يوم تعرّف فيه على شحاذ ملثم.. تعرف عليه من جلبابه الكالح وحذائه الممزق ووجد أنه أبوه.

«وها نحن أسلمنا أقدامنا إلى سلم الهلاك والجسارة بكل يسر وسهولة ولم نجد سوى سوق الحشيش.. فهل هو سوق المطرودين من جنة النعمة الهانئة، أم الراغبين فى نار المكسب الهنىء؟»

وتخلى السيد النحال عن حواره الصامت مع نفسه فراح يتحدث معها بصوت عال وهو يشعل سيجارة من سيجارة، فجرفته ذاكرة المهانة إلى استرجاع أحداثها الأليمة يوم أن ضبطوا أباه يسرق القمح من غيط المصلحة، ثم وهو يسرق قماش اليفط، وتذكر حوادث أمير الذى نال علقة ساخنة من فريق كرة بكامل أفراده عندما سرق حلواهم، وعلقة أخرى من إخوة زميله قتيل السيارة زكريا مسعود لأنه جمع كتب زكريا من بين دمائه وأخذها لنفسه، ثم تذكر حادثة عرفه الجسور الذى عثر على شبكة صياد مليئة بالسمك فى قاع الترعة فانتزعها بمهارة وأتى بحصيلتها من السمك وكانت حصيلة تنبئ كثرتها أنها مسروقة، ومع هذا فقد أثنى عليه والده مرسلًا إليه آهة تعجب مثيرة **«كيف أتيت بسنارتك بهذه الشيكارة المليئة بالسمك، عجلى يا أم الخير بشى هذا السمك..**

عجلوا يا بنات..» ولم يفهموا أن سرّ التعجل هو أن راعى المنزل كان واثقًا أن صاحب السمك سوف يجيء.. وقد أتى الرجل فلم يجد من سمكه إلا بقايا عظام قوامها تلة عالية فى منتصف الطبلية.. ثم أتى الناس على صياحه فاقتربوا متزاحمين ليروا بأنفسهم جسم الجريمة.. وانعقدت لعباس النحال فضيحة جديدة لحقت بسابقاتها فى ذاكرة القرية.. ولم ينفض الجمع الضاحك ويفر الرجل الغاضب إلا أمام عصا السيد النحال المجنون وشتائمه المقذعة.

سمعته أمه يقول:

- «إلى متى سنظل «ملطشة» البنى آدميين.. بما فيهم جوهر البقال الذى يخاف من ظله؟»

ثم سمعته يقول: «وبدير لم يفهم قيمة الضيوف الذين يجتمعون معى على المصطبة؛ لأنه لم ير الناس وهم ينزلون من فوق حميرهم احترامًا لنا.. حتى هذا الاحترام استخسره فى بيت النحال الموصوم بقلة القيمة..»

قالت له أمه: «لسنا بحاجة إلى من ينزلون من فوق حميرهم احترامًا لنا.. بدير عندك حق.. بيتنا به أربع بنات .. كفاية الفقر علينا.. لسنا بحاجة إلى فضائح حتى لا يكون فقرًا وفضائح»

لم يرد عليها لكنه قال لإخوته أن يستعدوا للذهاب معه إلى جوهر البقال وزوجته لتكسير دكانها أولًا وعظامها ثانيًا.. وأخرج من جيبه ثلاث قطع حشيش ملفوفة فى السيلوفان ونادى على عرفه:

- «هذا الحشيش سوف تدسه فى سيالة جوهر وأنت تشتبك معه.. أنت أول من سيقذفه بالحجارة وتمسك به.. إياك أن يحس بك وأنت تدس له الحشيش.. سأغيب ساعة بالمدينة وأعود إليكم.. سنهجم عليهم كلنا.. نحن التسعة.. حتى البنات.. سأجرهما إلى مركز الشرطة الليلة: جوهر وصبيحة.. البلد لازم تعرف أن أولاد النحال لحمهم مر.. من اليوم كل واحد يقف عند حده.. »

وشاهد أهل البلد بعد ساعة واحدة معركة ضارية بين أولاد النحال وأولاد جوهر البقال، وشهدت الساحة فيما بين دكانىْ جوهر وخميسة ازدحامًا كيوم المولد توقفت بسببه السيارات التى تخترق البلد مرورًا بهذه الساحة.. وسقط جوهر غارقًا فى دمائه.. وبعده زوجته صبيحة.. وهرب أولادهما وقد تركوا خلفهم دكانًا محطمًا وأبوين مضرجين بالدماء.. فلم يكن فى ظنهم أن السيد ابن عباس النحال هذا مجرم إلى هذا الحد، وعنيف إلى هذه الدرجة، حتى أن عصاته طالت كلّ من تدخل لاحتجازه ـ رجلًا كان أو امرأة ـ ولم تتوقف الحملة إلا بعد أن خلت الساحة من أحد الخصمين.. ولم يجد أولاد النحال أمامهم من يواصلون تأديبه.. وبأمر من السيد انصرفت البنات إلى المنزل وتحرك الأولاد معه إلى دوار العمدة تمهيدًا لتحويلهم إلى مركز الشرطة.

وفى المركز وأثناء التحقيق مال أحد المخبرين على أذن الضابط الشاب بهمسة.. ووضح للواقفين أنها همسة تتعلق بجوهر البقال الذى يقف أمام الضابط مكسورًا ومهانًا وملفوف الرأس بعمامة من الشاش الأبيض 'المخضب بالدماء.

بادر الضابط فوجه إليه نظرة مباغتة، وهتف به:

ـ «**أنت تبيع المأكولات للتلاميذ أمام باب المدرسة.. أليس كذلك؟**»

ـ «**بلى يا فندم..**»

ـ «**وماذا تبيع للمدرسين والموظفين..؟**»

ـ «**ما يطلبونه..**»

ـ «**وإذا طلبوا حشيشًا..؟**»

تلجلج جوهر البقال متسائلًا:

ـ «**حشيش..؟**»

ـ «**أجل الحشيش.. الذى لا يخلو منه جيبك.. فتش هذا الرجل**»

واستجاب الجندى للأمر الصادر إليه توًّا، فأتى بكل ما فى جيوب المذكور ووضعها أمام ضابطه.. مفاتيح.. سجائر.. كبريت.. منديل.. حبات نعناع.. ثلاث قطع سيلوفان

بداخلها أجسام بنية اللون فى حجم عقلة الإصبع. فهتف الضابط وهو يمسك بها:

ـ «**هذا هو. ألم تتذكر أن تتخلص من بضاعتك وأنت منهمك فى الشجار؟. غبى.. أو: فاجر**»

مدّ جوهر راحتيه متوسلًا وهو يرسل نظراته إلى المخبر فى بلاهة:

ـ «**هذا الشىء لم يكن فى جيبى.. من أين أتيتم به؟.. والله..**»

لم يدعه الضابط يكمل قسمه:

ـ «**تقصد أننا دسسناه لك؟. ألم أقل إنك فاجر؟. افتح يا بنى محضرًا جديدًا**»

* * *

وامتلأت المصاطب بالخبر العجيب عن مصيبة جوهر البقال.. كما امتلأت معها تجمعات الناس أمام دكان خميسة.. وعند مصلى ترعة وجه البلد وفى دكان حلاقة الأسطى زين الدين.. وفى دوار العمدة.. وكلهم أجمعوا أن هذه المصيبة ملعوب السيد النحال.. فجوهر لم يلمس فى حياته قطعة حشيش ولو على سبيل الفضول.. فكيف يحتفظ فى جيبه بل ويدخل به قسم الشرطة؟.. وسرعان ما تحولوا عن إسداء الشفقة لجوهر المسكين وانصرفوا إلى إبداء الدهشة لهذا الفعل المذهل الذى لا يقوم به سوى واحد من أبناء عباس النحال.. واحد هو بالتأكيد الولد الطويل العصبى الذى يكتب الأغانى ويفوز فى رهانات القصب..

الولد الذى اسمه: السيد «اللى مبلّط فى مدرسة الصنايع من سنين»



كأرانبه: ركضه سريع وفهمه بطيء...

فتيان فتيان عبد اللطيف

فى صباه تحدث الناس عن سرعته المذهلة فى الجرى منذ شاهدوه يركض خلف حصانهم الشارد فيلحق به ويمسك بزمامه ويمتطيه ثم يعود هادئًا دون لهث. ثم وهم يشاهدونه يرفض أن يفك قبضته عن ذيل سيارة الرئيس محمد نجيب وهو يركض خلفها بنفس سرعتها ولم يتركها إلا بعد خروج الموكب عن حدود البلد..

لم يلتفت فتيان إلى الحديث عن سرعته لانشغاله بسرعة أخرى يصبو إلى تحقيقها.. سرعة تجميع أكبر عدد من الحصالات التى يضع بها مصروفه اليومى، فمع نمو هذه العادة التى صارت محببة إلى نفسه لم يجرب فتيان فكرة أن ينفق مصروفه فيما يجب إنفاقه فيه من ركوب البولمان ذهابًا وعودة من المدرسة.. أو شراء شطائر الفول والطعمية فى أوقات الفسح، أو أن يدخل السينما ولو مرة فى الشهر.. وتعلم أن يضع حصالاته فى دولاب خشبى مدفون فى حائط غرفته، وتعلم أن يحكم إغلاقه بقفل صغير يضع مفتاحه فى دوبارة أحاط بها عنقه.. ينام بها.. ويصحو بها ولا تفارقه.

والحاج فتيان الأب الذى كان يلمح فى ولده شطارة مبكرة فى التعامل مع الفلوس راق له أن يغذى فيه هذه الملكة فصار يمنحه مصروفه بانتظام ويدخر له ما يتأخر فى دفعه، غير أنه يشترط عليه أحيانًا أن يؤدى خدمة ما قبل أن يدفع له قروشه المتأخرة كأن يذهب بالحصانين إلى ترعة وجه البلد فيغسلها بالليفة والصابونة ويعود بهما الحصان تلو الآخر، أو يكلفه بالذهاب إلى أناس بعينهم لتحصيل ما لديهم من أقساط متأخرة من ثمن الأقمشة ـ التى كثيرًا ما يسوقها بالآجل ـ فيذهب مسرعًا لعمل التحصيل المطلوب بكل وجوه المطالبة الممكنة..

ولم يحدث أن عاد مرة واحدة خاوى الوفاض من أحد هذه المشاوير، المرة الوحيدة التى كان من الممكن أن يحدث فيها ذلك ويعود خاويًا ألهمه الله وقال للزبون المتعسر:

- **«حتى لا يشكوك أبى بهذه الكمبيالة سأدفعها عنك..»**

وقبل أن يتمادى الزبون فى مديحه والثناء عليه قاطعه فتيان:

- **«شرط أن تكتب لى كمبيالة أخرى تزيد عن هذه بقيمة الربع»**

وحملق فيه الرجل:

- **«أكتب لك..؟.. أكتب لك أنت يا ابن امبارح؟ هو أنت ف سنه إيه يا فتيان؟»**

- **«رابعة ابتدائى.. والموضوع دا يهمك فى إيه؟»**

- **«أبدًا ما يهمنيش ولا حاجة.. بس أنا بقول إن الحاج فتيان خلّف بصحيح. بس يعنى هو حتمًا ولا بد حكاية الربع الزيادة ده..؟»**

- **«نخليها الخمس.. ولا تزّعل نفسك»**

- **«بسم الله ما شاء الله كل حاجة عندك محلولة»**

ونجح فى هذه الصفقة، ثم نجح بعدها فى الإمساك بصفقات مماثلة، وظل شعوره بالزهو والتميز يعلو ويعليه أمام نفسه كلما تعامل مع أحد هؤلاء الفلاحين الذين لا يملكون ما يسددون به ديونهم لأبيه، فهو الفتى الصغير الذى يملك مالًا جمعه بالصبر والتحمل، لكنه كان يحس دومًا بأنه كبير وهو يجلس أمام هؤلاء الكبار، فهو كبير فى المقام وهم كبار فى السن، وقد تساوى معهم فى الجلسة لأنه يملك وهم لا يملكون.. وكونه كذلك فقد ارتفع عندهم مقامه، وكان أن عرف قيمة المال عندما وضع يده على هذه الحقيقة، حقيقة أنه لن يعلى شأنه سوى بالمال.

ولأنه كان يثق فى صديقه أحمد خلف، فقد أسر له بعدد حصالاته التى ازدحم بها رف دولابه الدفين، ولأن أحمد خلف زميله فى المدرسة كان كما يقول عنه أستاذهم ولد بعقله جوهرة فقد ألهمه عقله الثمين بفكرة نصحه بها وهو أن يقوم بتربية الأرانب.. ولم يعلم فيما بعد أن هذه الأرانب التى طفح بها سطح منزلهم وطفحت بها حياته انصرافًا وبيعًا

وشراء ستجرفه إلى ما هو أكبر منها فراح يربى النعاج والخراف بالمشاركة مع الفلاحـون.. وكان أن نصحه هؤلاء الفلاحون أنفسهم أن يكبر ويعلى من مشاريعه فيشاركهم على الأبقار والجواميس.. وقد رحل أحمد خلف عن الدنيا قبل امتحان الإعدادية وقد ترك بها صديقه فتيان تائهًا وسط أرانبه ودواجنه وخرافه وبهائمه وعلى بعد خطوات منه تقع كتبه وكراساته البائسة لا تجد من يفتحها ليعرف ما بها.

ولما مات أحمد خلف تذكر فتيان أنها المرة الثانية التى يودع فيها أحد رفاقه ويسير فى جنازته دون أن يذرف عليه دمعة واحدة.. هذا ما حدث معه منذ سنوات عندما أقبلت سيارة طائشة وقتلت زميلهم زكريا مسعود، كانوا كلهم يبكون.. طاهر زين الدين.. وفريد هنيدى.. ورأفت إبراهيم، أما هو فلم يعرف من أين يأتى البكاء، وظل يبحث عنه بعد ذلك بسنوات فى جنازة أحمد خلف فاستعصى عليه.. حتى عندما غرق زميلهم على رشاد فى البحر.. وسار للمرة الثالثة فى جنازة فقيدهم الثالث لم يستطع البكاء.. وراح يراقب طاهر زين الدين بدهشة.. فطاهر لم يكتف بالبكاء على كل هؤلاء الذين ماتوا فى عز الطفولة أثناء جنازاتهم فقط لكنه، كان يبكيهم كلما تذكرهم حتى أنه سمع فريد هنيدى يلومه ذات مرة وهم جلوس فى المصلى تحت شجرة ذقن الباشا وجرفهم الحديث إلى ذكرى أحمد خلف وعلى رشاد وهاجت ذكراهما عند طاهر فبكى.. يومها قال له فريد:

ـ «**لا تكن رومانسيًا إلى هذا الحد يا طاهر..**»

«رومانسى!!»

وراح يتأمل هذه الكلمة دون أن يفهمها، ولكنه اكتشف أنه بالتبعية «ليس رومانسيًا» كل ما يعرفه أنه «مادىّ» كما يطلق عليه فريد هنيدى. وبالتالى فهو يتهم فريد هنيدى بالإسراف؛ لأنه ينفق قروشه على الصحف والمجلات وحفلات السينما.. فما الذى سيعود عليه من فائدة من كلّ هذه المسليات؟.. والأدهى من ذلك أن فريد يشغل نفسه بتربية عضلاته وفتح على نفسه بابًا جديدًا للمصاريف.. أما السيد النحال، فهو الآخر يبحث عن نفسه وسط ركام متاعب المال الذى ينقصه.. فمن يصدق أن السيد النحال الذى يتحدث الناس عن قوة عقله وقوة ساعده بل وقوة شخصيته يذهب بنفسه حتى باب

فتيان عارضًا خدماته بأن يعمل عنده دلالًا حتى يخرج من مشواره معه بنصف جنيه على أكثر تقدير.. من يصدق أن السيد النحال وصل به الحال أن يسحب جاموسة أو بقرة ويمشى بها فى السوق خلف فتيان فتيان؟.. الواقع أن لا أحد يعلم أن السيد النحال لم يقدم نفسه لفتيان حتى يكسب من ورائه بعض المال بقدر ما سلّم فتيان نفسه للسيد حتى يكسب منه اعترافًا علنيًّا بالعمل عنده كخادم لأبقاره وجواميسه.

وكم استبد الفرح بفتيان عندما زاره فريد هنيدى وصعد إليه على السطوح ثم وضع يده فى جيبه وأخرج له جنيهين، ورجاه أن يعزل له عدة أرانب ويعلمه تربيتها.

وفور اتفاقهما الثنائى فوق السطوح، سرى نبأ هذا الاتفاق وهبط على الأرض، فقد بث فتيان هذا النبأ بخبث مقصود ليذكّر كل الرفاق أن ما يفعله هو الصحيح بدليل انضمام فريد هنيدى نفسه إلى مملكته.

وما لم يكن فتيان يعلمه هو أن اقتراب فريد هنيدى منه لن يعلى من قدره كما كان يظن، فإن ما شاهده فريد ـ عن قرب ـ فى فتيان سارع بنقله لباقى الرفاق بشىء من التعجب والاستغراب، فأبلغهم أن فتيان لم يجازف ذات مرة ويذبح لنفسه أرنبًا أو دجاجة.. ففتيان ليس بخيلًا على نفسه فحسب ولكنه عاصيًا لله لأنه لا يعرف الصدقة ولا يعطى لسائل أو مسكين مليمًا واحدًا فى السوق، ولا يعرف الزكاة عن أمواله.. فتيان مجرد آلة جائعة لجمع المال.. فتيان لا يأكل إلا الجبن والخيار والطماطم والجرجير وأحيانًا البيض..

وكان فريد قد اقترب من فتيان حتى يشاركه تربية الأرانب لا رغبة منه فى الإثراء وجمع المال كما يفعل صديقه، وإنما ليحل مشكلته مع اللحم.. المشكلة التى انفجرت فى منزلهم بينه وبين أمه حينما رأت من كثرة زياراته لعشة الدجاج ليذبح لنفسه منها كل يوم دجاجة أن ثروتهم الداجنة فى خطر.. ولأن أمه لم تصدق أن «فريد» بوضعه الجديد فى رياضة كمال الأجسام يعوزه كل هذا الطعام الذى أسماه ابنها «طعام الأبطال»، فقد صرخت فى وجهه إلى أن قذفته صرختها حتى سطوح فتيان.. ذلك أنه فكر أن اللحم لن يأتى إلا من هذا الطريق، وسرعان ما خاب ظنه عندما أمسك بأرنب كبير وذبحه لنفسه أمام دهشة وذهول وحسرة فتيان، فقال له:

ـ «هكذا لن تكفيك أرانبك وأرانبى.. يجب أن ننفصل».

ولم يكن لهذه الشراكة الفاشلة أثرها السيئ فى نفس فريد.. وهذا ما تعجب له فتيان بل وازداد عجبه عندما ناداه فريد ذات يوم فى فناء المدرسة واتجه بـه إلى غرفـة أسـتاذ التربيـة الرياضية وهو يقول له:

«أنا قلت للأستاذ فهمى عن شدة سرعتك فى الجرى، وطلب منى أن يراك ليشركـك فى المهرجان الرياضى..»

وفى غرفة التربية الرياضية سأله الأستاذ فهمى سكاروس:

- **«هل سبق لك يا فتيان الاشتراك فى أى مسابقات للجرى؟»**

- **«قصدك وأنا فى الإعدادية؟.. لا والله لم تأت الفرصة»**

- **«وهل أنت مستعد أن ندربك على مسابقة المائة متر والثلاثة آلاف متر؟..»**

- **«نجرب.. ما المانع..؟..»**

وبعد المقابلة قرر الأستاذ ألا يمـنح «فتيـان» ملابـس رياضـية مجانيـة إلا إذا وثـق أنـه يستحقها وهـو لن يستحقها إلا إذا نجح فى الاختبارات الأولية.. ذلـك أن فتيـان رفـض شراء هذه الملابس على حسابه.

وكان أن شارك فتيـان فى هـذا الاختبـار بملابسـة الداخليـة، وعنـدما خلـع بنطلونـه وقميصه بدا أن شكله يختلف عن كل المتسابقين المصفوفين معه على خط البدايـة، فكلهـم يرتدون الملابس الرياضية الأنيقة والأحذية الخفيفة البيضاء.. فى حـين تخلـص فتيـان مـن حذائه واصطف حافى القدمين..

هتف به ولد من أبناء البندر:

- **«أنت يا بنى داخل مسابقة.. ولا رايح الغيط؟»**

وهتف به ولد آخر:

- **«يخرب بيت منظرك يا فلاح يا جاموسة..»**.

وقال الولد الثالث:

- **«بإذن الله لباسك ده حيقع منك وإنت بتجرى..»**

انطلق فتيان كالسهم ودار حول ملعب الكرة خمس دورات أنهاها بنفس السرعة التى بدأها بها.. وفى كل دورة كان يزداد عدد المتخلفين عنه من ذوى الملابس الأنيقة.. واختلف صياح الطلبة حول فتيان عن ذى قبل.. فكله صياح مصحوب بالدهشة لذلك الصاروخ البشرى الذى استهانوا بمنظره قبل أن تدير رءوسهم سرعته..

ولما اتجه فتيان إلى ملابسه وأخذها من رأفت إبراهيم وارتداها فى هدوء دون أن يبدو عليه اللهث والإرهاق كان يبحث بعينيه المتوترتين عن هؤلاء الأولاد السفلة الذين شتموه قبل المسابقة وتعجب أنهم تزاحموا مع الآخرين فى الاحتفاء به..

أما الأستاذ فهمى الذى اصطحبه إلى غرفة التربية الرياضية، فقد أهداه شورتًا وفانلة وحذاء وجوربًا وهو يسأله:

ـ «من يراك يا فتيان يظن أنك تتدرب منذ زمن طويل فى أحد الأندية..»

فهتف طاهر زين الدين مسرعًا:

ـ «أندية؟.. أى أندية يا أستاذ؟.. فتيان يسير فى اليوم الواحد عشرة كيلومترات على قدميه ذهابًا وعودة من المدرسة.. هذا هو التدريب الذى يقوم به.»

ولم يشأ أمير النحال أن يظل الأستاذ جاهلًا بشىء أهم، فقال له:

ـ «وأحيانًا يا أستاذ يقطع هذه المسافة تكرارًا فى المساء إذا أراد شراء أدوية لأرانبه»

تساءل الأستاذ بحاجبيه فقط عن مسألة الأرانب هذه، فتولى رأفت إبراهيم توضيح هذا الأمر بالشكل الكافى لأستاذهم.

* * *

وفيما بعد .. ولما ألقى فتيان ـ دون اعتناء ـ بشهادتى تقدير وكأسين من النحاس اللامع فوق مكتبه تقدم إليه فريد هنيدى برجاء قائلًا: **«هذه الأشياء تشهد أنك البطل على مدارس الجمهورية فى المائة متر والثلاثة آلاف متر كيف ترميها هكذا؟.. ضع رفًا للكئوس، وبراويز للشهادات.»**

وقد برّ فتيان بوعده فصنع بروازين لشهادتيه وأقام رفًّا لكأسيه.. وكان هذا آخر عهده

برياضة الجرى ولم يأبه بكل توسلات فريد أن يستمر معه فى مزاولة رياضته، ثم لم يأبه بما قاله الأستاذ فهمى.

ـ « سلمونى فتيانًا بلا بهائم أسلمكم بطلًا أوليمبيًّا فى ظرف عامين»

ـ «أوليمبيًّا؟..» هكذا تساءل أمام فريد هنيدى الذى أفهمه:

ـ «أوليمبى يا حمار يعنى تنافس شباب العالم.. تصبح بطلاً عالميًّا.. ووكالات الأنباء تبحث عن بلدنا فى الخريطة ليقابلوك.. ويأخذوا منك الأحاديث.. ويلتقطوا لك الصور..»

كشر فتيان فى وجهه ولوح له بيديه:

ـ «يا عم.. لا أريد صورهم ولا أحاديثهم.. يخليهم فى حالهم ويخلونى فـ..»

ـ «ويخلوك فى بهايمك.. يا حيوان»

* * *

وعاود انصرافه إلى عشقه الأثير فى تربية الأرانب، وعادته المثلى أن ينجح عامًا ويرسب الآخر مشاركًا ـ بالمشاهدة والاستماع فقط ـ لكل ما يحدث فى البلد.. فقد سمع أن «فريد» اجتمع شمله بأصدقاء جدد من المدينة يتدربون فى منزله.. ويربون الأرانب على سطح هذا المنزل.. وهاله ما سمعه أن فريد يربى أرانب من نوع جديد.. نوع فى حجم الكلاب الصغيرة.. ثم سمع أن السيد النحال ينصب جلسة هو الآخر على مصطبة منزله يشارك فيها نصف من يجلسون على مصطبة فريد هنيدى.. ثم جاءته أخبار أخرى عن السيد النحال حول ظهوره الدائم عند دكان خميسه بنت الريس عفيفى بعد نجاحه فى الانتقام من جوهر البقال وأولاده.. وكان يحاول الربط بين كل هذه الأحداث بلا جدوى.. فما الذى جمع الشامى على المغربى؟.. ضيوف فريد.. وضيوف السيد.. ثم حادث جوهر البقال وعلاقة السيد بخميسة عفيفى.. ولكنه لم يجرؤ أن يتقدم بأسئلته لا إلى فريد ولا إلى السيد.. إنما لاحظ أن السيد الذى هجر الدلالة إلى الحدادة قد هجر الاثنين معًا ولم يعد يهتم بزيارته من آن لآخر عند حظيرته التى أقامها على مشارف البلد بعيدًا عن البيوت.

وعلى غير انتظار جاءه السيد بعد طول غياب عند الحظيرة. وقبل أن يجلس على أجولة العلف وبيده كتاب صغير أخرجه من سيالة جلبابه قال له:

ـ «جئت أتفق معك على مشروع رأسماله خمسمائة جنيه.. جهز نفسك»

جلس فتيان في مواجهته وقال له:

ـ «من يسمعك تطلب منى هذا المبلغ يظن أنك على علم بأننى أملكه..»

ـ «ولو لم أكن واثقًا أنك تملك أضعافه ما طلبته منك، دعك من هذا، واسمعنى».

وبهذه المقدمة نفذ السيد النحال إلى ما يصبو إليه من استخدام فلوس فتيان فى تجارة الحشيش.. بعدما تأكد أنه ببعض المال يمكنه أن يستقل بتجارة محدودة يغذيها بها كسبه من خبرة ومعارف وزبائن وشراء لذمم المخبرين كهذا المخبر الذى جنده للإيقاع بجوهر البقال..

سأله فتيان باستهانة عن المشروع الذى يتحدث عنه.. ولم تمض أكثر من ساعة حتى دارت رأسه بهذه المعلومات العجيبة عن عالم تجارة الأثاث.. وتعجب كيف اتفق السيد النحال مع أكبر مصنع فى دمياط لسحب بضائع منه من غرف النوم وغرف السفرة والأنتريهات بألفى جنيه سيدفع منها مقدمًا خمسمائة جنيه ثم يدفع الباقى من حصيلة مكسبه فى مدة لا تزيد عن عامين على أقساط متساوية.. ثم كيف اتفق ابن النحال مع عدة معارض بالقاهرة لتسويق بضاعته.. وعرف فتيان لأول مرة أن هناك شيئًا اسمه دورة رأس المال.. وعرف أن رأس ماله فى البهائم لا يدور إلا مرة واحدة فى السنة.. أما فى تجارة الأثاث، فمن الممكن أن يدور أكثر من خمس مرات..

وفى النهاية طمأنه السيد قائلًا:

ـ «إيصال الأمانة الذى سأوقعه لك لن يكون عن الخمسمائة جنيه فقط ولكن عن هذا المبلغ ومكسبه»

ـ «وكم تضع لى مكسبًا من الآن؟..»

ـ «مائتى جنيه»

ـ «فى العام الواحد»

ـ «فى العام الواحد»

ـ «لا.. هذا قليل.. أنت تقول إن المبلغ يدور خمس مرات.. البهائم أفضل..»

فلاحقه السيد:

«البهائم بضائع حية يمكن أن تفطس وتموت.. الموبليا أفضل..»

تشاءم فتيان مما يقوله ابن النحال عن موت البهائم واستعاذ فى سره، فسأله السيد:

ـ «بماذا تتمتم؟.. أتحدث نفسك؟»

ـ «لا.. أنا أحسبها بينى وبين نفسى»

نهض النحال واقفًا، وقال له:

ـ «احسبها براحتك سأمر عليك بعد أسبوع.. أنا قررت دخول الامتحان هذا العام.. حتى أسافر إلى القاهرة ومعى شهادة أتوظف بها بجانب التجارة.»

* * *

ولما نال السيد شهادته وبدأ يستعد للسفر ذهب إلى فتيان للحصول على قرضه فاتخذ الحوار بينهما اتجاهًا آخر.. وهو عن إيصال الأمانة هل يكتبه بسبعمائة جنيه، كما يرى السيد، أم بألف كما يطلب فتيان؟..

وأنهى السيد هذا الخلاف مستسلمًا:

ـ «أمرى لله.. ألف.. ألف.. هات الإيصال لأوقع لك عليه». وهنا هتف فتيان من كل قلبه:

ـ «الفاتحة يا سيد على الخائن وابن الحرام..»

وهتف السيد خلفه: ربنا على الخاين وابن الحرام وفلوسك أمانه فى رقبتى..

ـ «الفاتحة..»

هكذا نادى فتيان بحدة، فاستجاب السيد لندائه مسرعًا آخذًا فى قراءة الفاتحة بكفين ضارعين وعين مغمضة.. وقلب خاشع. وفى الخفاء: ابتسامة خبيثة.



وتركته حائراً يغني ...

خميسة عفيفي السيد حمزة

اتفقت مع نفسها أن تستجمع شجاعتها وتضع أمام السيد النحال بعض الإشارات التى توحى بحبها له.. فخميسة عفيفى إذا أرادت أن تؤرخ ليوم نقر فيه السيد النحال باب قلبها بطرقات الحب وجدت أنه يوم وقف أمام باب المسجد يخطب فى الناس بثقة وهدوء واتزان مهنئًا بثورة عبد الكريم قاسم فى العراق.. ولم يلفت نظرها أنه متواضع الملابس مقارنة بمن سبقوه من كبار الرجال أو من تحدثوا بعده، إنما شد انتباهها أنهم كانوا هم المتواضعين فى مستوى خطبهم قياسًا بخطبته ..

كانت تقف بعيدًا فى جانب نساء القرية اللاتى تجمعن لمشاهدة هذا الحفل العفوى الذى عقده العمدة بعد صلاة الجمعة، وراحت تسمع ما تنقله البنات من أوصاف يعرفنها عن السيد النحال وسمعت واحدة منهن تنشد مطلعًا لأغنية غرامية من تأليفه، وقالت أخرى إنه لولا فقر أبيه لكان قد انتهى من شهادته وعمل موظفًا وانصلح حاله، ولما قالت الأخرى أن العيب ليس فى الفقر «فكلنا فقراء» «إنما العيب به هو لأنه غاوى صياعة» همت الأولى فزجرتها.. ثم سمعت حديثًا عن مراهناته الليلية فى تكسير أعواد القصب.. وهنا قالت امرأة: «**لا تستهنى بهذا الساعد النحيف فقد قهر ساعد المحروس زوجى الضخم كساق البغل**» فتدفقت ضحكات النساء ومعهن خميسة.

نادرًا ما كانت تعثر عليه ولكنها كثيرًا ما كانت تعثر على من يروى لها عنه فترهف سمعها مستسلمة لخدر ناعم يسرى فى قلبها.. وعرفت أنه ينتقل فى أعمال مختلفة ما بين

الأسواق والمعمار ولا يستمر طويلًا؛ لأنه يضيق بالناس ولا يأنس لهم.

ولكنها علمت بانتقال مجلس الأنس من مصطبة فريد هنيدى إلى مصطبة السيد النحال، وعرفت أن فاروق بن العمدة صاحب الكلب الكبير يسعى لسماع أشعار السيد.

كانت ترهف السمع لرجل يتحدث أمام دكانها عن أمير النحال وكيف كان له فضل حصول مدرسته على المركز الأول فى برنامج أوائل الطلبة، ثم انتقل فجأة للحديث عن أخيه الأكبر السيد النحال قائلًا إن السيد هذا هو العبقرى الحقيقى ولكن لا أحد يعرفه، وراح يعدد مواهبه ويعيد ما قاله ذات مرة أستاذهم من أن بلدنا خسرت اثنين، واحدًا بالموت وواحدًا بالضياع، فأحمد خلف الذى مات وهو فى الثالث الإعدادى كان يصحح الأخطاء لبعض المدرسين، أما السيد النحال فبداخله كما يقول الأستاذ فنان وعالم ومتشرد.. ويبدو أن المتشرد هو الذى سينتصر..

وبعد موقعة جوهر البقال الذى كان السيد يشترى منه سجائره تحول السيد إلى دكانها بإرسال أحد إخوته عرفة أو عوض أو عاشور لشراء حاجته منها، ولاحظت أنه قلما يرسل فى شراء علبة كاملة، فالغالب أنه يأخذ عدة سجائر فى الصباح ومثلها فى المساء.. وذات مرة لم يكن أخوها رجب يعمل معها فى الدكان سارعت بإعطاء عرفة علبة كاملة على أن يخبر السيد أنها ليست متعجلة فى أخذ ثمنها.

وكأنها كان ما فعلته بعفوية ورضا رسالة ناطقة بها فى قلبها، وكأنها وصلت إليه هذه الرسالة وبها شىء من حرارة قلبها العاشق، ولما شاهدته فى اليوم التالى يقبل فى اتجاه دكانها من بعيد دق قلبها دقة الفرح.

وقرب وصوله إلى دكانها تطلّع إليها وعلى فمه ابتسامة واسعة.. ودون أن تدرى ردتها إليه بأحسن منها، ابتسامتين متبادلتين لخصتا حديثًا لم يبوحا به بعد، وكانت ابتسامته هذه المرة بها إعزاز وامتنان وهو يمد يده بقروشه قائلًا:

ـ «علبة جديدة.. وثمن علبة الأمس».

ـ «قلت لعرفة إنى غير متعجلة»

ـ «أعرف.. فلنؤجل هذا الكرم لوقت شحيح المال».

ـ «فى كل الأوقات.. دكانى تحت أمرك»

ـ «بصراحة..»

وقطع حديثه فجأة وهو يتأملها.. فلاحقته بشغف:

ـ «أى صراحة؟..»

ـ «لم أكن أنظر إليك إلا كبنت جميلة، لكن.. جمالك الحقيقى وصلنى فى لمسة الأمس..»

ضحكت فى دلال، وقالت له:

«الحقيقة إنك لم تنظر إلىّ أبدًا.. لا بنت جميلة أو حتى ملكة جمال»

تأملها بعمق وهو يزن كلماتها ثم امتشق سيف الجسارة: «خميسة؟..»

ـ «نعم..»

ـ «إياك أن تكونى قد..»

ولما عاد إلى قطع حديثه مرة أخرى، عادت فلاحقته:

ـ «لا تكمل سؤالك ما دمت قد عرفت ما عندى.»

ولم يكمل سؤاله، وإنما قدم سؤالاً آخر:

«منذ متى؟..»

ـ «منذ أحسست أننى الوحيدة التى يمكنها أن تفهمك فى البلد.. وتعرف مقدارك..»

خفض رأسه أمامها وهو يفكر فى شىء ما، وراح يمعن فيها النظر كأنه يراها لأول مرة وسألها:

ـ «ألم تلاحظى أننى وأنت يجمعنا شىء مشترك؟..»

ـ «ما هو؟..»

ـ «هو أنك لست فى مكانك المستحق، وأنا لست فى مكانى الصحيح..»

كانت تعرف أنه قارئ ومثقف؛ ولذا فقد اجتهدت أن تخاطبه بنفس منطقه:

ـ «المشترك بيننا أنك مثلى.. لا تترك حقك ولا تفرط فى كرامتك، والقوة التى فى يديك تقف على خط واحد مع القوة التى فى عقلك.»

هز رأسه بالموافقة على ما تقوله:

- «هذا صحيح، فالبلد كلها تعرف قصتك مع أبيك عندما تزوج صفيه حواس بعد وفاة أمك بأربعين يومًا.. ثم ما فعلته أنت بصفية عندما سرقت بضائع الدكان وحولتها إلى أهلها.. وأنقذوها من يديك وقد كادت تموت تحت أقدامك.»

- «لديك علم بكل شيء.»

- «طبعًا؛ لأن قصتك لم تكن خلف الأبواب مثل قصص الكثير من الناس.»

- «أنا فجرتها بإصرار لوقف أبى عند حده.. فكل مكاسبه من غيط المصلحة كان يضيع نصفها على الحشيش فى حياة أمي، وبعد موت أمى كان يضيع النصف الآخر على صفية وأهلها، ولما سلمها الدكان أيقنت أننى سأموت من الجوع أنا وأخى.»

- «أبوك كان يعرف صفية فى حياة أمك.»

- «وأمى ماتت محسورة.»

- «وأبوك يسرق أجور الأنفار، ويقاسم الموظفين بها، ويصرفها معهم على الحشيش..»

- «ما يكسبه بلا مجهود.. يضّيعه بأقل مجهود..»

- «الحشيش..»

- «أجل هو الحشيش..»

ابتسم فى خبث:

«كان يشتريه من جوهر البقال»

بادلته ابتسامة مماثلة:

«جوهر لا يعرف شكل الحشيش.. وأنت تعلم ذلك.»

تمادى فى التخابث:

«ألم يضبطوه فى جيبه؟»

- «بلى.. ولكن عرفة هو الذى وضعه فى جيبه..»

رفع حاجبيه وبحلق فيها بدهشة وهو يتلفت حواليه:

ـ «أهو الذى قال لك ذلك؟.. الكلب سأقطع رقبته.»

ندت عنها ابتسامة مكتومة:

ـ «أنا أوقعت بك يا كاتب الأغاني.. عرفة لم يفش سركما.. أنا عرفت ذلك من نفسي.. هل نسيت أنكم تربصتم لجوهر من أمام هذا الدكان..؟»

اكتشف أنه أمام فتاة ليست جميلة فقط كما كان يراها بشكل عابر، وليست مليئة بالجدعنة فقط كما اكتشفها بالأمس، ولكنها شديدة الذكاء:

ـ «وهل قلت للناس عن اكتشافك هذا؟»

ردت بسرعة:

ـ «إن لم تحفظ خميسة سر السيد النحال فمن غيرها سيحفظه؟»

تمتم بكلمات مبهمة، وقفز إلى سؤال مباغت:

ـ «أتعرفين نخل الهنادوة؟»

ـ «أعرفه.. بجوار سور جرن المصلحة.. لماذا؟»

ـ «تسللى من المنزل بعد العشاء وقابلينى هناك.»

صمتت طويلًا ثم رشقته بنظرة بها مسحة من الريبة والشك:

ـ «اسمع.. سأقابلك هناك.. ولكن عندى شرط..»

ـ «أى شرط؟..»

ـ «سيكون لقاءً بين رجلين.. هل فهمتنى؟»

دس علبة السجائر فى جيبه، وألقى إليها بنظرة إعجاب ومضى وهو مملوء بالسعادة.

* * *

الخلاء الصامت إلا من حفيف النخيل.. والظلام الدامس.. ورعشة فى القلب سرت حتى أطراف الأنامل.. وجفاف استبد بحلقه فتكسرت على حوافه الكلمات .. وخلوة لا يدرى لم طلبها ولم استجابت لها فتاته بكل هذه الجسارة.. وكلما أيقن أنها بين يديه أنكر على نفسه ما يراه من أنها فعلًا بين يديه..

أمسك بيديها كأنما يود التأكد من وجودهما معًا.. تركت له راحتها لتنام بين راحتيه للحظات معدودة ثم سحبتها فى هدوء.. شيطانه الغافى آخذ فى التثاؤب، دبيب يسرى فى صفحة ظهره ويعلو حتى هامته.. حاول أن يضمها.. جفلت.. اصطدمت يد الفتاة بسيفه الصلب فهبت نحوها رائحة الغدر، دفعته بكلتا يديها فى صدره فتهالك نفسه مستندًا على جذع النخلة:

ـ «ما بك يامجنونة؟..كدت أسقط على الأرض»

ـ «ولكنك سقطت فى نظرى..»

ـ «هل لأنى أضمك إلى صدرى.؟»

ـ «قلت لك إننا سنلتقى كرجلين. وعاهدتنى على ذلك.»

ـ «لم أعاهدك..»

ـ «العهد ميثاق صامت فى قلوب الشرفاء، وقد ظننتك منهم.»

ـ «إذن فلماذا جئنا إلى هنا..؟»

ـ «لأنك طلبت ذلك..»

ـ «وماذا كان فى ظنك أننا سنفعل..؟»

ـ «ظننتك ستبوح لى بما لم تتمكن من البوح به فى الدكان.»

ـ «يبدو لى أننى أحببتك..»

ـ «عندما تتأكد من ذلك، نادنى وسألتقى بك تحت الشمس.»

ـ «أنت قوية يا خميسة..»

ـ «وأنت ضعيف، خاب ظنى فيك..»

ـ «إلى هذه الدرجة؟»

ـ «إن لم تحافظ على شرف من تحبك.. فمن غيرك يفعل ذلك؟»

ـ «لا أصدق أن هناك من أحبتنى.. خاصة أنت..»

ـ «وأنا الآن فقط لا أصدق أنك أنت الشخص الذى أحببته.»

ـ «أعذرينى يا خميسة، اعذرينى يا بنت الناس، فأنا ضائع.»

ـ «كيف أعذر من حاول النيل من شرفى..؟»

ـ «أنا آسف.. الشيطان غلبنى..»

ـ «لو آمنت بعهدى ما كنت أتيت بالشيطان معك..»

ـ «ماذا أفعل؟.. إنه ملعون.. لا يتركنى لحظة.»

ـ «إنه لا يتبعك، لكنه يعيش بداخلك..»

ـ «يعجبنى حديثك.. وأنا الآن أؤمن به، خسارة..»

ـ «أى خسارة..؟»

ـ «أن تغادرى مدرستك. ولا تنضمى للجامعيات فى العام القادم.»

ـ «ومن قال لك إننى لن أفعل ذلك.. هـل ظننتى استسلمت لغباء أبى؟»

ـ «ألم أقل لك إنك قوية؟»

ـ «لو اتفقنا على تعريف القوة لاقتربنا أكثر..»

ـ «أرى أنها القدرة على تغيير الواقع الأليم.»

ـ «القوة هـى ألا يستسلم الإنسان لضعفه.»

ـ «تعرجين من جديد على حماقتى.»

ـ «لا علاقة بين ما ظللت أؤمن به وبين ما أسميته أنت حماقة»

ـ «إذن، فأنت تؤمنين بذلك من قبل..»

ـ «وكيف تفسر استجابة فتاة لدعوة مكانها الظلام مع شاب تحبه؟»

ـ «الثقة..»

ـ «وهـزيمة الضعف، والنفس الأمارة بالسوء.»

ـ «كيف لم أر فيك كل ذلك يا خميسة..؟»

ـ «لأنك لم تكن ترى إلا نفسك..»

ـ «وأنت أطلعتنى عليها الآن.. هيا بنا..»

* * *

«إلى هذا الحد هذه البنت تحبنى ..وكيف يتفق ذلك مع غلظتها الشديدة وهى تدفعنى بعيدًا عنها، كيف يملك المحب الرقيق كل هذه الشراسة؟ ما بال كل ما فى خميسة يثير الدهشة: جريئة، وذكية، وداهية، ورقيقة، وساخنة، وباردة، وجميلة، وواضحة، وغامضة. لماذا لا تكون لي؟ هى تحبنى منذ زمن بعيد، وتحبنى فى صمت، هى تعرف كل شيء عنى».

وعندما تمدد فى نومته على الأرض فوق مرتبته الخشنة، مد يده فأتى بالمصباح الغازى قريبًا منه، وقام فأسند ظهره للحائط ليكتب كلماته الجديدة:

هىّ لىّ

واستحالة تروح لغيرى

راضية بىّ

وعايشه فىّ

قمحها مبدور لطيرى

يا خميسة

يا ونيسة

ياللى حبك فى ضميرى

وخانه الشعر الذى توقف عند ندائه لها بنداء لم يجد ما يقوله بعده، لكنه أحس أن خميسة ملأت قلبه ثم ملكته، بعد أن وضعته أمام نفسه فى ساعة أطلعته فيها على نفسه، وهيجت ذكورته، وهدهدت عواطفه.. ثم تركته حائرًا.. يغنى.



عم كبير . وغم كثير ...

رأفت إبراهيم عبد الواحد

منذ اختفى طاهر زين الدين من البلد اختفت من حياة صديقه الصدوق رأفت إبراهيم عبد الواحد أشياء كثيرة.. جلسة العصارى تحت شجرة ذقن الباشا.. حكايات الأفلام التى يدخلها طاهر قبل أن يشجع صديقه على مشاهدتها.. إيثاره بحلقة شعر خاصة فى غير مواعيد دكانهم عندما يغلق عليهما بابه من الداخل.. ثم ما يشاركه فيه طاهر من حديث حول ليلى بنت العم ساكنة القلب وقاطنة القاهرة وزائرة البلد كل صيف مع أبيها وأمها وشقيقها كمال.. أسابيع يقضونها عندهم يعيش رأفت على ذكراها عامًا بأكمله حتى تعود فى الصيف التالى أبهى جمالًا وأعذب حديثًا وأقل شقاوة..

رأفت لا يدرى لم يكن للأخ الفقير فى القرية أخ ثرى فى المدينة؟.. ولم يسأل والده الأسطى إبراهيم كيف انتهى به الحال أن يكون هو الأسطى هنا مقابل أن يكون عمه حمزة عبد الواحد هو الأستاذ هناك فى القاهرة؟

منذ صغره وهو يرى أن كل الأشياء التى يأتى بها عمه من القاهرة إلى البلد تختلف عن أشيائهم.. فعمه يرتدى بدلة فخمة ورباط عنق ونظارة وله كرش كبير وتفوح منه رائحة العطر.. عمه يومئ برأسه لوالده ليأتى بالحقائب من التاكسى المخصوص الذى استقله مع زوجته وولديه. أبوه يهرول ليأتى بالحقائب.. الحقائب ضخمة ولامعة وثقيلة.. زوجة عمه تقبل أمه بشوق.. أمه ضعيفة عجفاء تكاد تختفى فى حضن سلفتها البدينة ذات الفستان الهفهاف المليء بنقش الزهور. كمال الذى فى مثل عمره أتى فى

الحقائب بملابس كثيرة ومتنوعة وبندقية الخرطوش التى سيصطاد بها العصافير.. ليلى تسرع من التاكسى إلى زوجة عمها وتقبلها، وتبحث عنه، يصافحها مسرعًا، قبل أن يهرول لرفع الحقائب.. تهمس له فى أذنه.. عطرها ينفذ إلى روحه.. وابتسامتها تدير عقله.. وكلماتها هى نفسها الكلمات التى قالتها العام الماضى.. والعام الذى قبله..

ـ «ستأتى معى لنصطاد السمك قبل أن تذهب مع كمال ليصطاد العصافير إياك أن تتركنى وتذهب معه قبلى..»

وعند الطرف القصى من ترعة وجه البلد كانا يجلسان على شاطئها فى وقت الأصيل بسنارتين، هى تحاول اصطياد السمك، وهو يحاول اصطياد ضحكاتها العذبة، وعندما اختارت أن تشدو بأغنية «أهواك» وأرى وجهه بعيدًا خوفًا أن تخجلها نظراته نحوها لكنها لم تشعر بالخجل مثله، فهى تترك نفسها على سجيتها، وحتى عندما مر عليهما رهط من أبناء البلد العائدين من حقولهم قرب المغيب ظن أنها ستتوقف عن الغناء خجلًا منهم.. لكنها لم تفعل، ولم تحس بوجودهم وهم يبادلونه النظرات الباسمة.

قال لطاهر زين الدين قبل أن يهرب من البلد:

ـ «كأنها يا طاهر تبتعد عنى عامًا بعد عام..»

ويقول له طاهر:

ـ «إنها عاقلة.. احترمت أنوثتها. أتريدها أن تظل طفلة مدى الحياة؟»

وفى الوقت الذى يتمكن فيه من الجلوس إلى فريد هنيدى إذا عاد مبكرًا من تدريباته الشاقة فى المدينة يبثه أحزانه:

ـ «ليلى لن تأتى هذا الصيف يا فريد..»

ـ «هل نسيت السبب الذى قلته لى؟. قل إنك تريد التحدث عنها، وتخلق مناسبة لذلك..»

ويبتسم رأفت فى مرارة.. ويقول لنفسه:

ـ «فريد كلامه صحيح؛ فقد عرف منى أنها لن تحضر فى إجازة هذا الصيف لأن كمال

يستعد لدخول الجامعة.. ويتلقى تدريبات مهارية استعدادًا لدخول كلية الشرطة أو الكلية الحربية، إذن فأنا أختلق أى مناسبة فعلًا حتى أهنأ بالحديث عنها..»

وقتلًا للوقت، وكسبًا لبعض المال، ولأنه لم يجد حوله من يشاركه يومه الطويل، قال لأبيه:

ـ «الريس عفيفى قريب منك فى العمل بغيط المصلحة.. أريد أن أعمل معه فى هذه الإجازة» ووافقه والده: «فعلًا يا رأفت اليد البطالة نجسة.. أنت أولى باليومية.. تساعدنا فى المصاريف..»

ولأن الريس عفيفى لم يهضم فكرة أن يكون رأفت ضمن أنفاره البؤساء وهو الذى سيقبض بيمينه على شهادة عليا بعد عدة سنوات يسارع فيعرض عليه أمرًا:

ـ «إيه رأيك يا أستاذ، تجلس فى منزلك معززًا مكرمًا وأنا سأقيد لك يوميتك وآتيك بها حتى باب منزلك؟..»

ويقول له رأفت:

ـ «بهذا الشكل تكون قد أعطيتنى صدقة، لكن من جيب الحكومة، أنا يا ريس عفيفى جئت لأعمل فعلًا.. اليوم طويل أطول من قطار البضاعة.. طاهر صديقى أنت تعلم أنه ترك البلد.. وفريد فى التدريب باستمرار.. وفتيان مع عجوله ليل مساء.. وأمير مكتئب ومرعوب من النتيجة.. والسيد أخوه عائش مع نفسه.. فأين سأذهب؟»

وما لم يقله رأفت أنه بحاجة إلى أجرة اليوم التى هى فى نظره كالنواة التى تسند الزير.. فالأسطى إبراهيم عبد الواحد ينعم بهذا اللقب شكلًا لا موضوعًا.. فهو «ظهورات» فى المصلحة وليس موظفًا بمرتب يزيد عامًا بعد عام.. ودوره الذى تعلمه هو تشغيل ماكينة الرفع التى تنقل المياه من الرياح العمومى إلى الأراضى عالية المنسوب فى أحواض الزمام.. عمل سهل وبسيط يقطعه نومًا بجوار الماكينة منذ أن يديرها وحتى يغلقها بعدورديته..

* * *

قال له أبوه:

ـ «اختر كلية الزراعة..»

ولم يتعجب.. فالمهندس الزراعى هو أعلى من تعامل معهم الأسطى إبراهيم من الموظفين.. ثم أضاف أبوه:

ـ «واختر زراعة القاهرة.. بالذات». وخفق قلبه؛ إذ أحس أن والده سيأتى بقول مهم هو يعلمه:

ـ «انزل على عمك طوّالى.. ستسكن عنده.. سيضعك فى نن عينيه.. قل له يا عمى أبى يقول لك أصبح عندك الآن ولدين وبنت.. وسأرسل لك خمسة جنيهات كل شهر..»

* * *

لم يكن قد رآها عندما استقبله عمه بوجه جامد به تعبيرات قلقة لا تبعث على الراحة، انكمش قليلًا ونعى حظه التعس أن جاءت زيارته المفاجئة فى وقت يبدو أن مزاج عمه ليس على ما يرام..

ـ «ناوى على أى كلية إن شاء الله؟»

ـ «الزراعة..»

ـ «أى زراعة..؟»

ـ «كلية الزراعة..»

ـ «أعرف.. ولكن أين؟.. القاهرة. الإسكندرية؟»

ـ «القاهرة بإذن الله..»

ـ «وطبعًا ستسكن فى المدينة الجامعية..»

ـ «لا أدرى إن كانت المدينة ستقبلنى أم لا؟..»

ـ «وإن لم تقبلك.؟»

تلجلج لحظيًّا وحار فى الإجابة، ثم تذكر رسالة والده:

ـ «والدى حملنى رسالة إلى حضرتك..»

ـ «رسالة؟.. أى رسالة؟..»

ـ «يقول لحضرتك أنت الآن أصبح عندك ولدان وبنت..»

استدار عمه بعصبية فى مواجهته:

ـ «الله.. الله.. هذا ما كنت أخشاه.. أن يفعلها إبراهيم ويرمى علىّ بلاه.. لأ يا أستاذ، البيت الذى به بنت لا يسكنه غريب.. قل له هذا الكلام»

أوشك أن يلقى أمامه بالرد الطبيعى من أنه ليس بغريب، لكنه تراجع إلى صمته لينجو بنفسه من مهانة جديدة.. ولم يطل صمتها؛ فقد دخلت زوجة عمه:

ـ «رأفت.. تعالَ يا رأفت.. أريدك فى كلمة.. بالإذن يا حاج»

وفى فراندة غرفة نومها وجدها هناك تتأرجح على كرسى هزاز، توقفت عن الاهتزاز، وقامت وصافحته، ثم جلست بجوار أمها وهى تتفحص وجهه المحتقن:

ـ «بابا صوته كان عاليًا، لا تزعل منه..»

ـ «الصوت العالى أمره سهل.. لكنى لم أكن أنتظر أن أوصف بالبلاء.. أو يضعنى فى حكم الغريب»

ـ «أنت مخطئ.. كان يجب....»

أوقفتها أمها بإشارة من يديها:

ـ «عن إذنك يا ليلى.. اسمع يا رأفت.. وحياتى عندك.. وحياة ليلى.. إياك أن تذكر لوالدك شيئًا مما سمعته الآن.. ووحياتى عندك مرة ثانية تفعل ما سأطلبه منك الآن.. لا تضع فى رغباتك زراعة القاهرة حتى إذا جاء ترشيحك للإسكندرية تكون قد أنقذت علاقة بين والدك وعمك ممكن تتحول لعداوة.. أنا أعرف عمك»

و.. قاطعتها ليلى بعصبية..

ـ «ما معنى كلامك هذا يا ماما؟.. هل بابا أخطأ؟.. بابا لم يخطئ.. وكان يجب على رأفت أن يرفض طلب عمى إبراهيم.. ولا يصنع أزمة بين أخوين..»

هاله ما يسمعه الآن.. دقق فيها النظر.. اكتشف أنها قريبة الشبه بأبيها.. ثم تذكر حادثًا بعيدًا.. لا يدرى كيف كان قد نساه:

ـ «أنا فعلًا غلطان.. لأنى وأنا فى ثانية إعـدادى والـدى حـاول يرجعنـى معـاكم مصر علشان عمى يعالجنى من البلهارسيا.. عمى رفض..»

بادرت زوجة عمه بدفاع جاهز:

ـ «لأ.. هو يومها نصحه أن العلاج متوفر فى الصحة المدرسية..»

وكان لديه هو الآخر ردًّا جاهزًا:

ـ «الصحة المدرسية تكون للطلبة الذين لا يملكون عمًّا كبير الشأن فى القاهرة.. عن إذن حضرتك..»

وخبطت على صدرها منزعجة:

ـ «تستأذن؟.. هل ستسافر على هذا الحال..؟.. والنبى.. والنبى.. اجلـس.. سـتتغدى معنا..»

ـ «غداؤكم وصل يا زوجة عمى .. عن إذنك ..»

كانت ليلى قد عادت إلى كرسيها الهزاز.. راحت تتأرجح دون أن تتطلـع إلى وجهـه أو تشارك أمها فى محاولة إثنائه عن السـفر، فـانطلق إلى موقـع حقيبتـه التـى وضـعها قـرب الباب.. تناولها بهدوء.. وخرج بهدوء.. وهبط الدرج صـامتًا.. ومـا إن اسـتقبله الشـارع الصاخب فى حى شبرا المزدهر.. وما إن ابتعد بعيـدًا وانعطـف إلى الناصـية حتـى غامـت الدنيا فى عينيه.. ولم يعد يرى أمامه.. فقد كان يبكى..



ما زال يحلم أن يصبح رجلاً ..

فريد هنيدي

طار من السعادة عندما لعب القدر لعبته التى حال فيها دون ترشيح صديقه رأفت إبراهيم لزراعة القاهرة التى يستحقها وأرسله إلى كلية الزراعة بالإسكندرية. ولأن فريد جاء ترشيحه فى معهد التربية الرياضية بالإسكندرية أيضًا، فقد قال للناس:

- **«كأنه خطأ جاء صدفة لصالحي. فأنا ورأفت أصبحنا معًا بالإسكندرية.»**

أما الأسطى إبراهيم عبد الواحد فيقول من خلال دهشته:

- **«اذهب لعمك يا رأفت وابحث معه سرّ هذه الغلطة.. دعه يا بنى يحاول تحويلك إلى القاهرة، ألم تكتب أن القاهرة هى رغبتك الأولى؟»**

ويبتسم رأفت: «**يا أبى.. فريد يقول إنها غلطة لصالحه.. أنا الآن أمنت أنها لصالحى أيضًا.**»

جذبه إليه فريد بساعديه المفتولين وضمه إلى حضنه:

- **«الخيرة فيما اختاره الله.»**

فلم يحدث قط أن كان فريد هنيدى قريبًا برغبته من أحد أبناء عباس النحّال، فرأيه بهم كان معلنًا باستمرار، ولم يحدث أن اقترب من فتيان إلا لأسابيع معدودة ظن فيها أنه يمكنه تأمين حاجته من لحوم الأرانب فى مسلسل اهتمامه ببناء جسده بالحرص على التغذية السليمة.. الوحيد الذى ظل لصيقًا به إلى أن اختفى من البلد هو طاهر زين الدين وما إن فجع - مثل أهله - بهروبه الغامض حتى وهب هذا الالتصاق لرأفت

إبراهيم، فصار يسعى إليه كلما فرغ من تدريباته، وصارت قصة طاهر هى محور حواراتها الحزينة، تليها قصة الحب الصامت الذى يعيشه رأفت مع نفسه دون أن ينسى محبوبته ليلى حمزة عبد الواحد.. ولا يفتأ فريد الذى يقرأ الكتب والمجلات أن يشاكسه وينصحه أن يدس لها ورقة فى يدها بها هذه الكلمات: «ياللى محّدش قال لك ع الشوق اللى أنا فيه، بكره الشوق يوصل لك وتجرّب لياليه»

ولأن رأفت الطيب الخجول لا يمكن أن يفعل ذلك، فقد قال لفريد:

ـ «**تنصح أميرًا باحتضان جارته فى مقعد السينما، وتنصحنى بهذا الكلام؟**»

ويضحك فريد: «**ماذا أفعل لكما؟.. واحد حمار، والثانى خائب..**»

ثم يحكى له فريد عن بنات المدينه اللاتى يترددن على النادى الرياضى ليشاهدن أبطال المستقبل من شباب الرياضة بإعجاب حتى أن إحداهن وضعت له خطاب غرام فى سترته المعلقة على الشماعة.. وتتعالى دهشة رأفت:

ـ «**بنت تفعل ذلك؟ أنا لا أصدق.**»

ولأن رأفت مؤدب فهو لا يسأل «فريد» عما فعله فى مواجهة هذه البنت، ولو كان قد سأله لكان قد سمع أنباء جديدة عن بنات أخريات قمن معه بهذه المغامرة.. فهو النجم الصاعد الذى تلتف حوله المعجبات. وهو الذى كان سباقًا فى الإعجاب بنفسه وجسمه الجميل منذ أن قرر أن يكون أحد أبطال كمال الأجسام فى القطر المصرى.

فعندما شاهد فريد هنيدى تلميذ الإعدادية صورة لبطل كمال الأجسام عبد الحميد الجندى تحتل صفحتين متقابلتين فى مجلة آخر ساعة لم يصدق عينيه أن يمتلك إنسان مثل هذه الرقبة الأسطوانية المحاطة بعضلات مشدودة الأوتار كأنها أعمدة تحمل عمارة هذا الرأس الجميل.. وانبهر أمام صدره العريض الذى يحمل ثديين برزا كجبلين بينهما واد ينحدر إلى سلسلة من العضلات فى صفحة البطن.

يومها نزع الصورة من المجلة.. وسمّرها على حائط غرفته، وظل يداوم النظر إليها صباحًا ومساء مستسلمًا لحلم يراوده أن يصبح مثل هذا البطل.. ولكن:

كيف يمكنه أن يكون مثله؟

اقترب بسؤاله من مدرس التربية الرياضية، فراح يتأمل بنيانه الجسدى الفارق عن قرنائه الذين فى مثل عمره ولم يفهم فريد إلا فيما بعد سرّ اهتمامه به.. وتشجيعه له.. فهو كما قال الأستاذ لديه الاستعداد الفطرى أن يصبح بطلاً.

لقد اقترب من هذا الأستاذ وصارا أصدقاء، وراحت علاقتهما تتوطد مع تطور نتائج التدريبات الشاقة التى نذر نفسه لها فريد، وعرف الأستاذ أن فريدًا رغم هذا التطور لا يملك برنامجًا غذائيًّا يحرص عليه، فعندما سأله عن برنامجه الغذائى أجابه قائلًا:

ـ «**أنا آكل مما يأكله أهل بيتى..**»

ـ «**كيف هذا؟.. الفلاحون يأكلون الجبن والبيض أغلب الوقت..**»

هكذا قال الأستاذ مستاء، ثم عمد إلى ورقة راح يكتب له فيها غذاء الأبطال..

* * *

رأته أمه يأتى بالفول ويهرسه فى السمن البلدى ثم رأته يقلى عشر بيضات فى كَمّ آخر من السمن وراح يلتهم فطوره الثرى بنصف دستة من أرغفة الخبز الطرى..

قالت له فيما بين الاستغراب وَالتأنيب: «**كأنك تأكل آخر زادك فى الحياة..**»

ومن فيه المكور الملىء بالطعام قال لها: «**هذا فطور الأبطال**»

سألته: «**إن كان هذا هو فطورهم، فكيف يكون غداؤهم؟**»

قال لها: «**سترين بنفسك بعد التدريب.**»

وفى الظهر كانت أمه تراقبه وهو يطبخ دجاجة سمينه فعلقت بكلمة عابرة:

ـ «هل تحولت من تلميذ إلى طباخ؟»

وتكررت حملاته المتقاربة على حظيرة الدجاج.. وزياراته المنتقاة للجزار فيأخذ لنفسه كيلو من اللحم على الحساب الذى يتولى دفعه شقيقه راضى..

وذات يوم خرج فيه من التدريب يتصبب عرقًا ـ ذهب إلى الحظيرة وأتى منها هذه المرة بدجاجتين ليطبخهما فأطلقت أمه صرخة فى وجهه اجتمع لها بعض الجيران واستيقظ على أثرها محمود ولدها الأكبر من نومة القيلولة.. «**ما بك يا حاجة..؟**»

ـ «أخوك فريد..»

ـ «ما به؟»

ـ «سيقضى على كل حظيرة الدواجن.. لم يبق إلا أن يأكل الجمل الذى حيلتنا.»

سحب محمود أمه من يدها وذهب بها إلى صورة البطل عبد الحميد الجندى:

ـ «فريد يا حاجة يريد أن يصبح فى حجم هذا البطل ..»

فسألته : «أسوف يُربى مثله كل هذا اللحم؟.. وماذا سيفعلان بكل هذا اللحم؟»

ولم تنتظر الإجابة على سؤالها، فقد خرجت وهى تهمهم:

ـ «إن كان يريد أن يصبح هكذا، فليذهب إلى عباس النحال ليعلفه مع بهائم المصلحة..»

* * *

وما إن هداه تفكيره إلى عقد مشاركة مقصودة مع فتيان فتيان ليتعلم منه كيف ينشئ مملكة على سطح منزلهم تشبه مملكة أرانبه ودواجنه الشهيرة حتى خاب أمله فيه فانسحب فريد سريعًا بأرانبه قليلة العدد وهو لا يدرى إن كانت تستحق أن ينشئ بها بدايات حظيرة أم ينتهى من كل هذه الأرانب ويذبحها ليأكلها مرة واحدة؟

فعندما أقبل عليه ابن أخيه الصغير يحمل قفصًا به ذكر وثلاث إناث من الأرانب كان يجلس على مصطبة منزلهم صديق جديد من أصدقاء النادى الذين تعرفوا عليه وهو يشاركهم التدريبات، لاحظ هذا الصديق أن فريدًا بدا متأففًا؛ لأن فتيان خصم أرنبًا «هو الأرنب الذى ذبحه لنفسه»

وجاءه هذا الصديق ومعه شاب بادر بسؤاله: «هل أنت من هواة تربية الأرانب»

ـ «أجل..»

ـ «أنا أيضًا أربيها فى فراندة شقتنا، ومستعد لمشاركتك إن كان لديك مكان فسيح..»

ـ «السطوح عندى تكفى لسباق الخيل..»

ـ «عندى سلالات جديدة.. لا أربى البلدى..»

ـ «هات ما بدا لك.. وحدد لى دورى..»

ـ «عليك الصناديق والخدمة والإطعام فقط مقابل نصف المكسب»

ـ «وأنا موافق..»

* * *

وكالغيث المفاجئ الذى يداهم أصحاب السقوف المخرومة انهمرت أرانب معتز الشرقاوى على شريكه بطل كمال الأجسام الواعد فريد هنيدى حتى صار استدعاء النجار لعمل صناديق إيواء الأرانب مهمة تشارك بها كل الأسرة.

وبعد قليل من الوقت تعلم بيت أولاد هنيدى أشياء جديدة.. وصار يستقبل كل يوم وجوهًا جديدة لأصدقاء جدد ينضمون إلى قائمة الأصدقاء القدامى لفريد هنيدى.

ولما أقبل فاروق ابن أحد كبار العمد بالمنطقة مصطحبًا كلبه المرعب معه ـ وقد أمسكه بسلسلة حديدية لامعة ـ اكتسبت المصطبة هالة من الأهمية والانتباه. فهاهم أهل البلد الذين يمرون على هذا الجمع السعيد يلقون تحياتهم باعتدال واحترام ظاهرين حتى أن ركاب المطايا منهم لا يتورعون عن النزول من فوقها تأدبًا لكل هؤلاء الذين لا يعرفونهم، وأمام هذا المد الذى يمتد فى بحر أصدقاء ولدها البطل والولائم التى يعقدها لهم من حين لآخر كانت تتعجب أم فريد وهى تتأمل كيف يمكن للأسباب الصغيرة أن تأتى فى ركابها بأحداث جسام، فقد استهانت بما يفعله فريد فى نفسه عندما يأتى بالأثقال فيحملها تارة وهو نائم على ظهره وتارة وهو يقف عاريًا إلا من قطعة قماش صغيرة يوارى بها عورته.. وكانت تسائل نفسها:

«وهل كل هؤلاء جاءوا هنا لمشاهدته أم مشاركته أم التسلى بما يفعله..؟..» ولما انهمرت سلالات الأرانب الجديدة وملأت سطوحهم التى أعاد محمود تنظيمها فركنوا القش بعيدًا وصنعوا مع النجار مظلة لاحتواء صناديق الأرانب تحتها أحست السيدة بأن الأمر أكبر مما كانت تعتقده.. فالخير الذى يسبح فى منزلهم لم يكن له مثل هذا الشأن ذات يوم فى حياتهم، وصارت وهى تثنى على هذا الخير العميم لا تملك نفسها من الدهشة وهى تتأمل أسبابه.. ثم وهى ترى الانهماك الذى يلفهم ويأخذهم باعتناء لخدمة

«التلاميذ» كما تطلق عليهم زوجة راضي.. أو الأفندية كما تطلق عليهم زوجة محمود، ولكن «بهية» زوجة راضى «ونعمة» زوجة محمود لا تنكران أن كرم «فريد» معهما ومع زوجيهما جعل خدمة الأخ الأصغر تتحول من مجرد مساندة إلى واجب، ومن مجرد تعاون طارئ إلى حق دائم، وقد أكبراه عندما كان يخص أهل منزله بعدد من الأرانب يساوى أرانب ضيوفه لينعموا بها فى ولائمه التى يعلو بها فى نظر الجميع.. من أهل وأصدقاء..

* * *

وفجأة وعلى غير انتظار فوجئت «بهية ونعمة» أن سيدهما الصغير يجهز نفسه للرحيل إلى الإسكندرية ومعه رأفت ابن الأسطى إبراهيم عبد الواحد، وقالت إحداهما:

- «**ولكن رأفت له ذراع أرفع من ذراع المطرحة.. فكيف يوزعونه مع الأستاذ؟**»

وتفهم من زوجها أن:

- «**رأفت ذاهب ليتعلم الزراعة ويصير ناظر زراعة.. لكن فريد..** »

ويلوذ بالصمت وهو يتساءل:

«**أيوه صحيح.. فريد أخويا لما يتخرج حيشتغل إيه؟**»

ويتذكر أنه لم يسبق له أن بحث هذا الأمر. لا مع نفسه و لا مع فريد..

كل ما يعرفه أن فريد لا هم له سوى شيء واحد وهو أن يصير بطلًا قويًّا أسطوريًّا كهذا البطل المعلق صورته على جدار غرفته..

ثم يتذكر أنه لم يسبق له أن سأل فريدًا حول الوظيفة التى يأكل منها هذا الجبل الصخرى الذى اسمه عبد الحميد الجندى.. لا لأن الجبال لا تأكل.. ولكن لأنها قائمة وراسية وشامخة، ويجب ألا يسأل المرء: كيف صارت الجبال هكذا؟



ميت حي يبحث عن قبره ...

طاهر زين الدين إسماعيل

ولأنه ينحدر من ظهر حلاق ابن حلاق، فقد ظن الصغار أنه ولهذا السبب وحده حباه الله بشعر جميل..أما وجهه الأجمل، فقد ظنوا أيضًا أنه كان من الملائم أن تكتمل روعة رأسه الجذاب بكلتا هاتين النعمتين معًا: شعره ووجهه..

وقد جبل طاهر زين الدين على الاعتناء بنفسه وشعره الذى يضوى بلمعان الفازلين، وعطره الفياح، وملابسه: جلابيب كانت، أو قمصانًا وبناطيل، تبدو دومًا للرائين كمن أتى بها توًّا من عند الكواء..

أما دماثته ورقته وأدبه الجم، فكلها صفات دعت كل من حوله أن يأخذهم مزيد من الارتياح الذى نالوه قبلًا من حسن مرآه..

وكلما كبر طاهر كانت تكبر معه أمنية خفية لا يُسر بها لأحد وهو أن يصبح والده زين الدين أقل قسوة مما هو فيه، وأخف روحًا، وأرق قلبًا، ولذا فقد اتفق مع نفسه أن يتفادى عواصف والده بالانحناء الدائم أمامه.. ولا يحاول أن يأتى بخطأ تافه، فقد يكون ذلك عند والده جريمة كبرى.. وتعلم أن يصرف وقت فراغه فى الدكان، ثم تعلم أن يقدم خدماته لزبائنهم متطوعًا.. ومع ذلك، فالأمر لم يكن يسلم أحيانًا من كلمة توبيخ عابرة، أو لكزة مهينة سافرة من والده.. حينئذ ينطوى على نفسه، ولا يبدو متأففًا، فهذا فى حد ذاته احتجاج يلزمه تعنيف جديد، والأولى به أن يتفادى هذا التعنيف..

أما تاريخه العاطفى، فهو الجمال الآخر الذى لا يعرفه إلا كل من يقترب منه.. ولم يعد

خافيًا على أحد من هـؤلاء القريبين أن طاهـر زين الدين وعبد الحليم حافظ صارا بالنسبة لهم شخصًا واحدًا.. حتى أنه لم يعد من اللائق أن يوصف بأنه مجنون عبد الحليم.. كيف هـذا، وهـو بالنسبة لهم عبد الحليم نفسه..؟

وهـذا ما كانوا يرونه أمامهم وهـم صغار فى المصلى المفروشة بقش الأرز تحت شجرة ذقن الباشا، فبعد انصراف المصلين كان طاهـر يعيد لهم أحداث فيلم لحن الوفاء سردًا وتمثيلًا، ثم يطعم الأحداث بالأغانى فى مواقعها كما جاءت بالفيلم.

وعلى عكس اهتمامات فتيان بحصالاته التى تزدحم دومًا بقروشه المكتنزة كانت اهتمامات طاهـر زين الدين تسفح مصروفه اليومى، فهـو يشترى المجلات وكراسات الرسم ذات الورق المقوى، ويعكف على قص صور النجوم وأولهم عبد الحليم حافظ ثم عمر الشريف وأحمد رمزى وصالح سليم وغيرهم، ويثبتها بالصمغ، وظل مواظبًا على هـذا الحال حتى زادت كراساته الخاصة عن كراسات المواد الدراسية..

وفيما بعد راح يلتفت إلى قصّات شعر هـؤلاء النجوم حتى راق له أن يقلدها فى رءوس أصدقائه، ولأنه تعلم بالممارسة التدريجية كيف يمسك بالمقص والماكينة وجرب ذلك مرارًا فى رءوس الفلاحين ـ دون تعمد فى الإبداع ـ فإن الطلبة لم يخشوا على رءوسهم أن يفسدها طاهـر الذى كان فى نظرهم يتعلم الحجامة فى رءوس اليتامى..

وكان أول من تعلم فيهم القصّة الإنجليزى هـو فتيان فتيان الذى سعد بنيل قَصَّة مجانية، ولأن شعره من النوع المفلفل فقد أبدع طاهـر فى عمل تدريجة تبدأ بدرجة الزيرو من عند الأذنين ثم تعلو عند قمة الرأس.. ولأن تلامذة الأرياف لاحظوا انتشار موضة هـذه القَصَّة بين طلبة المدينة فقد سارعوا إلى طاهر ليصنعها لهم.

لم يكن طاهـر يعلم أن هـذا التقدم المبكر منه فى صنعة أجداده يثلج صدر جده لأبيه كلما مر عابرًا على الدكان ووجده يمسك بزمام العمل رغم صغره مالئًا مكان أبيه فى غير وجوده.. فأبوه دائم الانتقال بين بيوت القرية لضرب الحقن للمرضى.. أو التغيير على جروح العمليات.. أو إجراء طهور لطفل صغير.. فزين الدين إسماعيل ليس حلاقًا فحسب.. بل هـو المرض دائمًا وواصف الدواء أحيانًا، وحلاق الصحة على طول الخط..

ولم يكن طاهر يعلم ما يعتمل فى صدر جده إسماعيل من قلق على مملكته التى صارت مرهونة بوجود ولده زين الدين.. والذى لا يملك سوى وريث واحد هو طاهر.. فهذا الدكان الذى لا ينافسه دكان آخر فى البلد قد تذروه الرياح إذا حدث مكروه لزين الدين.. وهو إذا كان قد أرسى قاعدة تمنع ـ بقوة السطوة الناعمة ـ أى صبى من الذين مروا على دكانه وعملوا به وتحولوا إلى أسطوات أن ينافسوا دكانه إذا ما غادروه ـ لأى سبب ـ بفتح دكاكين لهم. فإنه صار لا يضمن أن ينجح أحدهما خاصة الأسطى كرم هذا الصنايعى الخالى الملىء بالوقاحة والتنمر ويفلت من حصاره المنيع وينافس العائلة بفتح دكان لنفسه.

وكان الجد إسماعيل يراقب السير الهادئ لطاهر فى طريق الدراسة، وقد فكر للحظات أن يختصر له الطريق ويلحقه بالتعليم المتوسط، ولكنه أمام انخراط أحد أبناء عباس النحّال فى الثانوى العام.وكذلك الولد ابن الأسطى إبراهيم عبد الواحد استنكف أن يقل عنهما حفيده فى مستوى الدراسة.

ورغم هذا وعندما غادر الأسطى كرم الدكان على غير انتظار بعد مشاجرة زاعقة مع معلمه الأسطى زين الدين جلس الجد إسماعيل واضعًا يده على خده لبضعة أيام أمام الدكان وهو يفكر فى أمر ما..

جرب أن يسترجع قدرته فى الإمساك بالماكينة والمقص، فلم تساعده عظامه الواهنة أن يقف طويلًا، ولم يساعده نظره الكليل أن يحسن عمله، ولم تساعده رعشه أصابعه أن يقنع الزبون أنه كفء لما يقوم به..

عاد طاهر من المدرسة ذات يوم ووجد العجوز فى مأزق فركن كتبه على رف قريب وتناول «العدة» من شيخه المهموم وواصل عمله بديلًا عنه وهو يرمق امتنانه بعين خفية.

وفى هذا اليوم انجرف طاهر بحكم الموقف إلى الانتقال من زبون إلى زبون حتى حل المساء دون أن يتناول غداءه.. ولكنه لم يلتفت إلى تلك الطلة السريعة من والده عليه وعلى جده ثم انصرافه السريع دون أن يعود إلى الصالون إلى أن حل المساء.

أغلق طاهر الدكان.. وحمل كتبه بيساره.. وساند جده بيمينه.. وسارا معًا حتى المنزل.. وفى الطريق ناداه جده..

ـ «طاهـر..»

ـ «نعم يا جدى..»

ـ «أعرف أنك جـائع.. ومرهــق.. وسـوف تذهــب إلى البيـت الآن لتـنعم بالطعـام والراحة..»

ـ «بإذن الله..»

ـ «لكن يا طاهـر ماذا لو لم تجد فى المنزل طعامًا ولا خيرًا ولا راحة..؟»

ـ «أعوذ بالله.. نحن نعيش فى خيرك يا جدى..»

ـ «خير جدك.. وأبوك فى خطر يا طاهـر..»

ـ «كيف ذلك يا جدى..؟»

ـ «سمعت أن الولد كرم الخائن يبحث عن دكان لينافسنا ويسلبنا الزبائن ويسطو عـلى مملكة جدك وأبيك ..أبوك يا طاهـر تعبان ولا يفرغ وبحاجة إليك معه..»

ـ «إلىَّ أنا؟»

ـ «أجل يا ولدى.. أنت بنفسك رأيت جدك يحاول مساعدته ولولا حضورك فأين كان سيذهـب كل هـؤلاء الزبائن..؟ الولد كرم فى انتظار هـذه الورطة ليسـطو علينـا.. وقـد قصد عمل هذه المشاجرة مع والدك لعلمه بمدى أهـميته للدكان..»

ـ «فلنأت بأسطى جديد..»

ـ «والدك عصبى ولا يستمر معه أى أسطى لا جديد ولا قديم..لقد تعبت معه كثـيرًا، رجوته أن يقلل من اندفاعه وفظاظته..لن نجد من يعمل عندنا بسهولة.»

ـ «والحل؟..»

ـ «خذ إجازة..»

ـ «المدارس لا تمنح الطلبة سوى الإجازات الرسمية.»

ـ «أعلم ذلك.. ما أقصده أن تتولى الدكان حتى نجد حلًّا..»

ـ «ما قلته الآن عن والدى هـو الذى يخيفنى منه..»

ـ «تحمل يا طاهر.. باب رزقنا الوحيد فى خطر.. أختاك على وجه زواج.. وأمك مريضة.. وأنا أداوم على علاج السكر وضغط الدم.. فأين المفر؟»

ـ «يمكننى استغلال الوقت المتاح لى بعد الدراسة اليومية.»

ـ «جئ على نفسك، وركز تواجدك طوال اليوم فى العمل.»

وجاء طاهر على نفسه كما أوصاه جده الذى يحبه.. ولا حظ ارتياح والده لما أحدثه وجوده معه من تماسك فى قوام الدكان الذى كاد أن يتهاوى.. ولكنه سرعان ما تخلى عن ارتياحه عندما أهمل طاهر الدكان ذات صباح وذهب إلى المدرسة لأهمية حصص هذا اليوم فى عامه الأول بالثانوى العام..

وجده فى انتظاره على باب الدكان وهو يهبط من الأتوبيس، أشار إليه براحة كفه أن يقبل إليه.. وما أن أقبل على أبيه فى أمان واقترب منه فى طاعة حتى هوى بكفه على وجهه بقسوة ثم قبض على كتبه وألقاها أرضًا، ودفعه إلى داخل الدكان ليكمل تأديبه بطريقته ولم ينقذه سوى وجود بعض الزبائن الذين حالوا بينهما. وكان معنى هذا العقاب من والده أن يفهم طاهر أنه لا مدرسة بعد اليوم.. وأنه لا حديث فى هذا الموضوع إلا بإذنه.. وحتى يرسخ المعلم زين الدين هذا المفهوم لدى ولده كان يتعمد أن يوبخه إذا تأخر فى فتح الدكان عن موعد الساعة الثامنة صباحًا. فكم من زبون يحرص على تهذيب ذقنه قبل توجهه إلى عمله، وكم تعود أصحاب المصالح أن يضربوا مواعيدهم باللقاء فى دكان زين الدين قبل أن ينطلقوا إلى أعمالهم.. وكم يقصده فى الصباح من يطلبون حَقْنهم أو شراء علب الحبوب التى لا تخلو من سيالته دائمة الانتفاخ والتكدس.

ولم يكن أمام طاهر سوى انتظار إجازة يوم الإثنين بفارغ الصبر حتى يلحق بزملاء جلسته الهائنه، جلسة المصلى على ترعة وجه البلد ليسفح أمامهم تفاصيل مصيبته الكبرى، مصيبة يومه الطويل الملئ بالقهر والمهانة على يد والده .. ولما كانت دموعه فى كل مرة سهلة الانهمار، فقد كان فتيان فتيان يتأمل هذه الدموع الطيّعة باستغراب ودهشة، ويتذكر تاريخ مراقبته لها منذ الصغر وفى جنازات زكريا مسعود، وأحمد خلف، وعلى رشاد.. هؤلاء الذين ماتوا فى عز الطفولة.. ولم يلبث أن ازداد عجب فتيان عندما سألهم طاهر

زين الدين فجأة.

ـ «هـل تتذكرون زكريا مسعود وأحمد خلف وعلى رشاد؟.. الله يرحمهم..»

سأله فريد هـنيدى: «وما الذى أتى بهم على بالك؟..»

فقال طاهـر زين الـدين: «لا أدرى لمـاذا تطـاردنى ذكراهـم وصورهـم وذكريـاتهم باستمرار..لماذا يزورونني فى المنام؟ لماذا أحس دائمًا أنهم ارتاحوا مبكرًا من هـذه الدنيا..»

فلاحقه فريد بسخرية:

«إياك أن يكون أجلك قد اقترب وسوف تلحق بهم يا طاهـر..»

صمت طاهـر طويلًا، ثم رفع رأسه نحوهـم..ودقق النظر فى فريد هـنيدى:

ـ «ولماذا تقولها هـكذا بسخرية.؟ أنا الآن أشهد موتى وأنا على قيد الحياة.. أنا مت فعلًا يا فريد ولحقت بزكريا وخلف وعلى رشاد.. فاقرءوا علىّ الفاتحة..»

ولما سأله رأفت باحتجاج:

ـ «ما هـذا الذى تقوله يا مجنون؟»

فرد وهـو سارح:

ـ «لست بمجنون، أنا الميت الحى.. أنا الميت الوحيد الذى يبحث عـن قـبره المناسـب بنفسه»

ولم تمض شهور قليلة حتى اختفى طاهـر زين الدين من البلـد، ففهـم الأصـدقاء أنـه ذهـب ليبحث عن قبر مناسب بعيدًا عن قبره الذى يعيش به هنا.. فى البلد.



أول من نزل عن حماره خضوعاً

عنتر مكاوي

واستقبلتهم المدن الكبرى بلا أدنى اهتمام.. السيد عباس النحال وأخوه أمير ذهبا إلى العاصمة الزاهرة. وفريد هنيدى ومعه رأفت إبراهيم ذهبا إلى الثغر الجميل.

لم يحرص السيد على وداع والده لكنه كان حريصًا على أمرين، أحدهما من قلبه الذى تربعت فيه خميسة عفيفى، والثانى من عقله الذى يتربع فيه بشكل مؤقت صديقه اللدود المرابى فتيان فتيان.

فعندما أسرع إليه بعد ظهور النتيجة ليُمسك بمبلغه المنتظر قابله فتيان بوجه عابس:

ـ أنا حسبت الحسبة ووجدتها خسرانة..»

وفهم السيد أن مموله العنيد يطمع فى زيادة أرباحه، فقرر ألا يناقشه أو يراوغه:

ـ «قل إنك تطلب ضعف القرض.. أى ألف جنيه موافق.. أعطنى ورقة أيها المفترى»

ابتسم فتيان فى خبث لا يخلو من خيلاء:

ـ «هكذا أنت يا سيد..تجعل من الحبة قبة، وتحمّل الأمور أكثر من طاقتها..»

وكأنه لم يسمعه وإنما راح يتحدث وهو يكتب إيصال أمانة قيمته ألف جنيه، وحديثه كله يتعلق بنيته فى إرسال عنوانه الجديد فى مصر المحروسة عاصمة البلاد وحلم العباد ليزوره فيها خاصة بعد استقرار العمل فى مشروع الموبيليا الذى سينقلها إلى عالم الثراء الحقيقى.

* * *

ذهب السيد إلى منزله وأغلق باب غرفة الأولاد على نفسه وأتى بحزام من القماش ربطه على بطنه قبل ارتداء ملابسه الداخلية وأخفى به المال ليس خوفًا من النشالين، وإنما خوفًا من أن يموت بعيدًا عن ثروته التى سيغزو بها عالم الحشيش.

سلم على أمه وما تيسر من أخوته، وتجاهل نظرة ذات مغزى فى عينى أمه.. فقال لها:

ـ «ابقى سلم لى عليه..»

فراحت تتأمل ظهره وهو يغادر الباب:

ـ «وكأن عباس أبوكم لا خلّف.. ولا ربّى..»

كانت خميسة فى عمق الدكان حين عادت إلى الواجهة فوجدته يقف أمام البنك يتأمل كتبها المدرسية المرصوصة على منضدة أسفل الأرفف ومنها كتاب مازال مفتوحًا عن قلم يرقد بين دفتيه. عرف أنها عقدت العزم أن تعوض عامها الماضى الذى ضاع هدرًا وتدخل من المنازل امتحان الصف الثانى الثانوى بقفزة واحدة، فقال لها وعينه على الكتاب:

ـ «لو كنت مكانك لدخلت الثانوية العامة مرة واحدة»

ضحكت بأسى وهى تدقق فى حقيبة سفره التى ركنها على البنك واتكأ عليها، ثم قالت:

ـ «لو ظللت هنا فى البلد وتوظفت بها لشجعتنى على ذلك.»

علق على فمه ابتسامة مراوغة، وقال لها:

ـ «عندما تلحقين بى بعد عامين إلى القاهرة وتلتحقين بالجامعة، ربما أكون فى وضع يسمح لى أن أخطب طالبة جامعية، هذا إذا وافقتْ هذه الطالبة أن ترتبط بواحد لا يحمل إلا دبلوم الصنايع..»

ـ «..أنت تعلم أنى لن أختار غيرك من وسط مئات يحملون الدكتوراه»

ـ «هذا البلد لا يتسع لأحلامى يا خميسة.. ولا أفكر مثلك فى شهادة عالية»

عادت إليه بوجهها المشرق الطافح بسعادة تطل من عينيها، وقالت له:

ـ «البوسطجى يسلمنى كل خطابات أهل البلد لأسلمها لهم، سأنتظر منك خطابًا بمجرد وصولك.. اكتب على المظروف اسم أخى رجب.. واكتب عنوانك بالداخل..».

* * *

وقبل أن يتسلم عمله فى مطابع الصباح بشارع القصر العينى كان قد أدى بعض المهام التى لا بد منها. فاستأجر شقة صغيرة من غرفتين وصالة بحى المنيرة، وزودها بالمفروشات اللازمة.. ثم انطلق إلى المدينة الجامعية باحثًا عن أخيه أمير.

رُدّت الحياة لأمير وهو يرى أخاه السيد أمامه وجهًا لوجه، واحتفظ لنفسه بكل عبارات الاحتجاج التى كان قد حفظها لينطقها مرة واحدة أمام أخيه السيد الذى تركه أسبوعًا بلا مال إلا أقل من نصف جنيه المتبقى من رسوم المدينة.

لم يعطه مالًا فقط، لكنه ساح به أمام فترينات شارع قصر النيل لينتقى له بدلة أنيقة وعدة قمصان ورباطى عنق وحذائين.. ولأن السيد أنفق عشرة جنيهات كاملة أو يزيد دون أن يهتز له جفن فقد تعجب أمير أن يتولى السيد هذا الإنفاق بكل هذه الكفاءة، وعاد إلى سؤاله: كيف تعهدا ـ بدير والسيد ـ أن يتوليا الإنفاق عليه وهو لا يعلم لأىٍّ منهما وظيفة معينة ذات دخل ثابت؟»

ولما عرج به على محل جروبى ليتناولا بعض المشروبات ويرتاحا من مشاوير التسوق، تعجب أمير أن ينتقى أخاه هذا المكان المكلف، وتذكر ما قاله له فريد هنيدى بعد معركة جوهر البقال من أن السيد له علاقة بعالم الحشيش، وأنه جند المرشد للإيقاع بجوهر.

ـ «إذن، فهذه كلها أموال حشيش!!»

مال عليه هامسًا:

ـ «ظننتك ستأخذنى لنرتاح فى منزلك بديلًا عن هذا المكان المكلف يا سيد؟»

لم يفاجأ السيد بهذا السؤال اللئيم المصنوع بمهارة، فقد كان مستعدًا للإجابة عليه:

ـ «لم أعثر على شقة لنفسى، أقيم بشكل مؤقت عند أحد زملاء المطبعة، على أية حال فى حال احتياجك لى اتصل بى فى مطابع الصباح، وهذا هو رقم التليفون..»

وفى شقته فك الخزينة وراح يعد ما تبقى معه وليحسب مقدار ما أنفقه.. أربعون جنيهًا كاملة ضاعت فى ترتيب أمور الاستقرار والوجاهة.. أصابه فزع خفيف، ورأى أن يبدأ حملته المرسومة سلفًا للإمساك بخيط الحشيش من منبعه العتيد فى حى الباطنية..

* * *

ارتدى طاقمه الريفى المكون من جلباب بلدى وكوفية حريرية ودخل لأول مرة إلى حى الباطنية فى هيئة المعلمين. فقد وجد أن الكوفية يمكنها أن تتحول إلى لثام يوارى به وجهه عند اللزوم.. ولكنه طرحها عن وجهه وهو يحتل مقعده فى المقهى، ثم وهو يختار نفس المقعد فى اليوم التالى.. واليوم الثالث إلى أن تحول إلى موضع استغراب وتساؤل لكثرة تردده دون أن يفصح عن مطلبه..

واقترب منه شاب متين البنيان، كث الشعر، أسمر الوجه، بعينيه جسارة وبلهجته تهكم:

ـ «كأنى رأيتك من قبل»

ـ «إذن، ربما قد رأيتنى فى الإسكندرية»

ـ «هل أنت من الإسكندرية»

ـ «الأنفوشى»

ـ «أجدع ناس، وماذا تعمل؟»

ـ «أنا كاتب أغانى.. ولكنى بلا عمل»

ـ «أو تكسب من الأغانى؟..»

ـ «جئت لأقدم نفسى للإذاعة والملحنين والمطربين، وقيل لى إن بعضهم يتردد على الباطنية طلبًا لأمور المزاج فقلت لنفسى أقابلهم هنا، هل يمكن أن تدلنى عليهم؟»

ربت الشاب على ركبتيه بسرور قبل أن ينهض:

ـ «عن إذنك يا أستاذ.. سأغيب قليلًا وأعود إليك.. لم تقل لى عن اسمك؟»

ـ «السيد عباس.. أنا فى انتظارك.. لا تتأخر»

ثم تأمل ظهر الشاب وهو يبتعد عنه فى همة ملحوظة ورنا إلى صاحب المقهى خلسة وعرف أن هذا الشاب الناضورجى يسرع الآن بمعلوماته الطازجة إلى معلميه كى يطمئنهم عن زائر الحى الوجيه الغامض.. وسرعان ما سوف يعود بعد قليل بعد أن يقدم تقريره اللازم.

وعاد إليه الشاب بوجه متهلل وواصل الحديث معه كأنه لم ينقطع:

ـ «قلت لى إنك جئت لمقابلة الملحنين..»

ـ «هذا ما فكرت فيه.. أريدك أن تدلنى عليهم»

ـ «الأمر يتوقف على الأسماء التى تفكر فى أصحابها»

ـ «الموجى، وبليغ حمدي، ومنير مراد..»

ـ «أنت تقول إنك بلا عمل.. ومجاملات الحشيش مكلفة.. فمن أين لك بهذه المقدرة»

ومرة أخرى يرسم السيد على وجهه علامات الثقة وهو يهز رأسه قائلًا:

ـ «إن كنت قلت لك إننى بلا عمل.. فليس معنى هذا أننى بلا مال.. فواحد مثلى والده يملك عدة سيارات لورى للنقل لا يمكنه أن يحيا بروح العاطلين..»

تأمله الشاب باعتدال: «الآن فهمت..»

ولاذ بقليل من الصمت، ثم رفع إليه وجهه الطافح بالمودة وقال له:

ـ «أنا لاحظت أنك لم تطلب فى شيشتك حجرًا واحدًا مغمسًا بالحشيش..»

رفع السيد يديه إلى الهواء بحبور مقصود:

ـ «حشيش؟..هل هذا المكان به حشيش..؟ كدت أكفر بهذه الشائعة..»

قام الشاب وفرد طوله ثم وضع يده فى جيبه ونادى على الجرسون:

ـ «خذ ياعبد العال، خذ هذه.. جهز للأستاذ كراسيه منها..»

وتناول الجرسون قطعة دسمة من الحشيش، وغاب بها فى الداخل، ثم عاد بشيشة جديدة تناولها السيد وسحب منها أنفاسًا نهمة حتى اشتعلت النار فى رأس الحجر، فصاح الشاب:

ـ «الله الله يا أستاذ.. أنت حشاش قرارى، آى والله.. إنك حشاش قرارى..»

وقال السيد وهـو يواصل شد الأنفاس العبقة:

ـ «تسألنى عن اسمى فتعرفه، ثم تبخل على باسمك»..

ـ «أنا اسمى عنتر مكاوى.. من السكاكينى.. ابن المنطقة.. وخادمك.. ورقبتى سدّادة»

ثم صمت قليلًا، وتأمل وجه السيد:

ـ «أفهم من هـذا أنك قد تحتاج الحشيش لجهتين: جهة ناحية الفنانين الأكابر.. والتانية جهة السواقين ورجال السيد الوالد.. عجيبة.. ما أبعد هـذا عن ذاك؟»

هـزَّ السيد رأسه بالموافقة وهـو ينفث نافورة من الدخان ملأت أنفه وفمه.

فواصل عنتر مكاوى أسئلته: «بكم ستحتاج فى أول الأمر من الحشيش؟»

كان السيد قد غرق فى موجة دخان أخرى، فرفع له إصبعين فى الهـواء.. فهتف عنتر متسائلًا:

ـ «جنيهان؟»

ثم ظهرت على وجهه علامات السخرية وخيبة الأمل: «يارجل..؟ أوجعت قلبى من الصباح ثم...»

أفرغ السيد فاه من الدخان وتهيأ للكلام:

ـ «مائتا جنيه ياعنتر.. إصبعىّ هـذان الإصبع الواحد بمائة جنيه..»

ضحك عنتر ملء فيه:

ـ «قل هـكذا.. تِسْلم وتِسْلم أصابعك. أنا فهمت خطأ وانزعجت..»

نهض عنتر هـذه المرة وهـو يوجه حديثه إلى عبد العال:

ـ «عن إذنك يا عبد العال، أنا سأجهز الحجر بنفسى للمعلم السيد..»

أيقن السيد النحال أن ما يفعله عنتر مكاوى الآن هـو أنه نزل عن حماره احترامًا وتقديرًا لشخصه الجديد، شخصه الذى يملك أموالًا طائلة ..

وباهتمام بالغ واعتدال واضح راح عنتر مكاوى يؤدى مهمة التخديم على ضيفه

الممتلئ مالًا وتجربة، وكان وهـو يفعل ذلك يفكر فى أشياء كثيرة راحت تشغله، وهـا هـو يفصح عن شىء منها فهمس للسيد:

ـ «اسمع، أنا أشم فيك رائحة الرجولة.. أنت تحلم بشـىء كبـير، أنـا أعرفـه، ومعـك المال، وأنا أحلم بنفس الشيء ولا أملك المال.. فدعنى أجرب معـك شـغلًا عـلى أسـاس متين، دعك من التمثيلية التى دخلت علىَّ بها. إنت داخل على سـوق جديـد عليـك.. أنـا معك، ونتعامل مع بعض من النهاردة بصراحة»

ـ «إذن سأصف لك مكانًا بعيدًا عن هنا تقابلنى فيه»

* * *

وفى محل جروبى شاهـد عنتر مكاوى رجلهِ الجديد يرفل فى بدلة رائعة ومجلـلًا بالأبهـة والأناقة فهتف وهـو يصافحه ويعانقه:

ـ «هـذا ما قلته لنفسى أنك ابن أكابر..»

ـ «هذا من لطفك.. وأنا قلت لنفسى أنك ابن ناس.. ولن أخشى جانبك.»

ـ «إذن، فضع أمامى شروطك..»

ـ «قل لى بصراحة، ما الذى قلته عنى للمعلم الكبير عندما تركتنى أول مرة وانصرفـت لتقابله؟..»

تململ عنتر قليلًا وصّوب إليه نظرة استغراب، ثم قال بصوت خجل:

ـ «قلت له عنك إنك ريفى عبيط جاء لمقابلـة محمـد المـوجى وهــو يشـترى الحشـيش ليتعرف عليه، وضحك المعلم وكل من معه حتى تمنوا أن لو كنت أحضرتك معـى إلـيهم ليتسلوا بك..»

ـ «جميل.. وماذا قلت له بعد انصرافى؟»

ـ «كان قد ترك الوكالة وخرج ولم يسألنى عنك بعد ذلك»

ـ «أى وكالة؟»

ـ «وكالة أعشاب وعطارة.. مجرد ساتر أمام الحكومة كل تجار المخدرات لديهم سـواتر

لزوم التخفى.. معارض ومحلات ومقاهى.. إلخ»

«اكتشف السيد النحال فجأة أنه يملك ساتره الخاص الموجود فعلًا.. خميسة عفيفى.. فدكان البقالة فى البلد لن يقل مفعوله عن وكالة العطارة فى الباطنية.. أمام الحكومة أو أمام الناس»

انفتحت أمامه كوة مضيئة فى حائط مظلم.. وقرر للتو أن يتولى بنفسه وبهدوء وتأن نشاطه مع بدير فى البلد .. ثم يسلمه لعنتر قبل أن يتجه إلى مكان آخر.. المهم الآن هو أن يستلم البضاعة وبسعر معقول يحقق له ربحًا مغريًا.

عاد فأكمل جلسته مع عنتر، باحثًا معه تفاصيل كثيرة كان لا بد منها، ثم وجد أنه من الملائم أن يحصل على البضاعة ويذهب بها إلى بدير حتى يستعد لمهمته الجديدة وصنفه الجديد:

- «تلزمنى عينة.. ويلزمنى الاتفاق على سعرها.. وأستلم بعد عشرة أيام..»

- «إذن، نتقابل غدًا فى الباطنية.. وتعال بالجلباب والبالطو..»

* * *

سارع فكتب إلى خميسة خطابه الأول، وتعجب أن عينه لم تكن على قلبها قدر ما أصبحت تتلمظ دكانها.. الدكان الساتر الذى يمكنه أن يكون غطاء بريئًا فى مستقبل الأيام..

ولم تجد خميسة تفسيرًا لكل هذه التنبيهات التى رصدها السيد فى خطابه.. فعنوانه لا يجب أن يعرفه أحد غيرها.. وخطابه يجب أن يوضع فى مكان أمين حتى لا يقرأه أحد آخر.. وهو إذا زار البلد فسوف تكون زيارة سريعة لن يهتم فيها بمقابلة أحد سواها.. حتى أنه إذا ترك رسالة لأخيه بدير فسوف يتركها عندها.. وكل رسائله لبدير الذى لا يستقر فى مكان بعينه ستكون مشتروات لإخوته يقوم بدير بتوزيعها بنفسه عليهم، وهو إن لم يتمكن من الحضور لسبب ما فسوف يبعث برسائله مع صديق هو يثق فيه اسمه عنتر مكاوى.. «وهو من بلد قريب لنا تقطن فيه زوجته التى يزورها كل أسبوع..»

ووجدت الفتاة تعليمات.. وأوامر.. وتنبيهات.. وخطط مقابلات.. ولم تجد خميسة ما

كانت تنتظره بشغف: أغنية هي بطلتها وملهمتها.. أو كلمات الحب التى لا تزدهر إلا فى خطابات الغرام..

فماذا دهاه هذا الرجل؟.. هل به خشية أن يقع خطابه فى يد أبى..؟

ذات ظهيرة فوجئت به أمامها وجهًا لوجه.. أنيقًا كما لم تشاهده من قبل، كل شىء فيه يلمع.. بدلته.. رباط عنقه.. حذاؤه.. ساعته.. وجهه.. شعره.. ابتسامته..

ورقص قلبها من الفرحة عندما تأكدت أنه لم يبدأ إلا بها فى هذه الزيارة التى تجىء بعد ستة أسابيع غابها عن البلد.. وصاحت عندما قدم لها هديتها ثلاثية القطع: حقيبة يد.. وحذاء.. وبلوزة..

ـ «كل هذا لى؟»

ـ «وفى المرة القادمة سأكون عثرت لك على الجيب الملائم لهذه البلوزة..»

رمقته خميسة بذهول:

ـ «هل الناس فى مصر المحروسة يصيبهم الجمال بكل هذه السرعة..؟ كدت لا أعرفك يا سيد..»

ـ «المكان يمنح الحب لمن يحبه يا خميسة.. وأنا ما كرهت هذا البلد بما فيه إلا لأنه كرهنى..»

ـ «يكاد يغمى عليّ ياسيد من الفرحة، رائحة القاهرة عالقة فى قماش البلوزة وجوف الحقيبة وجلد الحذاء.. رائحة متمدينة.. ليست هى العطر.. وليست هى البخور.. وليست هى رائحة حقولنا فى الصباح.. ولكنها خليط ساحر من كل هذه الروائح الجميلة..»

ـ «هكذا تشمينها عن بعد.. وتحسين بها عبر المسافات.. اجتهدى ياخميسة وانتهى من شهادتك والحقى بى هناك..»

وقبل أن ينصرف توقف فجأة، وقال لها:

ـ «آه.. ذكرتيني.. صديقى الذى حدثتك عنه فى الخطاب اسمه عنتر مكاوى.. من بلد

هـنا يجاور بلدنا.. يحضر كل مدة لرؤية عائلته.. أنت تعـرفين أن منزلنـا لـيس قـدر المقـام حتى يذهـب برسائلى إليه.. سأترك الرسائل عندك حتى يحضر بدير لاستلامها.. ولا أحد يستلمها غير بدير..»

فردت مسرعة:

ـ «منذ أن قلت لى عنه فى خطابك.. وأنا فى انتظاره؟»

* * *

ثم طار إلى بدير فعثر عليه ثم اختلى به وأخرج له من حقيبته ثلاث تُرب مـن الحشـيش ما إن رآهـا بدير حتى شهق من المفاجأة، ثم ازدادت شهقته عندما عرف أن هـذه الكميـة هى أول الغيث الذى سوف يتسلمه كل عشرة أيام على الأكثر فى شـكل رسـالة مـن عنـد خميسة عفيفى.

ـ «هـل أشركتها معنا؟..»

ـ «هى كالحمار الذى يحمل الأسفار.. لا تعلم ما سـتأخذه مـن عنـتر مكـاوى منـدوبى إليها، ولا تعلم ما سوف تأخذه أنت منها.. ولكن ما سوف أحرص عليـه هــو أن تصـل أنت إليها بعد وصول عنتر بساعتين على الأكثر..»

ـ «ألن تذهـب إلى البلد لترى أمك وأباك»

ـ «فى المرة القادمة.. سلم عليهما.. والبركة فيك.. ضع عينـك فى رأسـك يـا بـدير.. فى الأول سـتتعب حتـى تأخـذ مكلنـك بـين التجـار، وأن ترتـب لنفسـك رجـالًا مخلصـين يساعدونك، والله معك..»



اعتبروني خادماً عندكم ...

لم يمض أكثر من شهر واحد على بدء الدراسة حتى زاره أمير في مقر عمله بمطابع الصباح في شارع القصر العيني.. وبشكل لاإرادى تحسس حزامه الخزينة، وعرف أن الأمر لن يكلفه سوى خمس دقائق يغلق فيها باب الحمام على نفسه ويسحب له من الحزام خمسة جنيهات..

ولا حظ السيد أن أخاه بعد أن تناول ورقة البنكنوت ودسها في حافظته ما زال متململًا، وكأنه يبحث عن مدخل لحديث آخر، فسأله باهتمام:

ـ «هل هناك ما يضايقك؟.. هل الولد نجيب النجارموجود معك في نفس الكلية؟.. أو أحد من الذين يعرفون قصتك معه؟»

ـ «لا..لا..ليس هناك شيء من ذلك.. فهو لم يحصل على الثانوية لا هو ولا صديقه محمد ناجى..»

ـ «إذن..فماذا لديك؟»

ـ «البدلة..»

ـ «ما بها؟.. ها أنذا أراك بها فخيًا، وأراها عليك فخيمة..»

ـ «لم أعد أظهر إلا بها.. وأحبس نفسي في غرفتي، ولا أخرج حتى يحضرها الكواء»

ـ «.. فهمت.. إذن، فأنت تريد بدلة أخرى..»

ولاذا معًا بصمت مشترك.. الصمت عند أمير كان علامة الإيجاب والموافقة..

والصمت عند السيد جاء لانشغاله بفكرة وجوب تغذية الأبهة والأناقة اللازمة لحالتهما ـ هو وأمير ـ الجديدة.. حالة أنهما أولاد ناس.. أو كما وصفه عنتر مكاوى أنه «ابن أكابر» .. وما دام أمير قد عرف طريق عمله فى المطابع فسوف يزوره من آن لآخر.. ولا يجب فعلًا أن يظهر فى كل زيارة ببدلة وحيدة لا تتغير.. فأمير يجب أن يكون حالة من الوجاهة يكمل بها وجاهته.. ولما انتهى بينه وبين نفسه إلى قرار، خرج عن صمته وواجه أخاه بوجه ملىء بالود، ثم قال له:

ـ «انتظر معى هنا حتى موعد الانصراف.. سنتمشى حتى ميدان طلعت حرب؛ لنأتى لك بالبدلة الجديدة..»

* * *

وأمام زميله الريفى الذى يقاسمه غرفته بالمدينة الجامعية، وزميلين آخرين كانا فى زيارته، ألقى بأكياسه الثرية فوق سريره بحبور وراح يفضها أمامهم.. بدلة كاملة.. وبنطلونين.. وزوجًا من البلوفرات الصوفية الخفيفة، وقميصين..

ـ «ما كل هذا.. ما كل هذا..؟ مبروك.. مبروك»

هكذا هتف زميله الأول وهو يأكل الملابس بعينيه.. فألقى أمير بجسده على كرسى مكتبه وهو يزفر علامة التعب ويردد:

ـ « قابلت أبى صدفة ومعه سائقه فى شارع القصر العينى.. الرجل قام بالواجب كما ترون»

وهنا هتف زميله الآخر:

ـ «هذا ما يجب أن يكون عليه الآباء..»

* * *

ناداه نصار عبد العليم رئيس اتحاد طلبة الكلية وعضو اتحاد طلاب الجامعات المصرية وكان يجلس فى بقعة ظليلة بحديقة الجامعة وسط عدد من زملائه وزميلاته:

ـ «أمير.. لماذا لا ترشح نفسك فى أىّ لجنة من لجان الاتحاد.. اتحاد الطلبة؟»

تاه رده وسط صيحات الزملاء المرحة وهم يبدون موافقتهم نيابة عن زميلهم المختار.. ووسط هذا الهرج أتاه صوت نصار مرة أخرى:

- «**ليتك تلحق بى فى غرفة الاتحاد.. أنا ذاهب إلى هناك**»

وعرف وهو فى طريقه إلى نصار عبد العليم طالب السنة النهائية ونجم الكلية البارز أنه بدأ فى تلقى ثمار وجاهته وأناقته ونجوميته وسط الطلبة الجدد، لكنه لا يدرى سر هذا الهاجس الذى تملكه ويحثه ألا يعلن موافقته أمام نصار دفعة واحدة، فلماذا لا يُبدى رفضه للترشيح ويختلق أىّ مبرر تجود به قريحته؟

قابله نصار عبد العليم بابتسامة واسعة وحديث مرح قائلًا:

- «**واحد مثلك صاحب شعبية رغم أنه بدون عضوية نحن أوْلى به فى الاتحاد.. لعلمك هذا ليس رأيى وحدى إنه رأى بعض زملائك..**»

أتى أمير النحال بكل البراءة الممكنة فأغرق بها ملامحه قائلًا:

- «**اعطنى فرصة أحصل فيها على رأى أبى**»

فسأله نصار: «**وهل سيكون لوالدك رأيه المختلف؟**»

وأكمل أمير النحال رأيه:

- «**كان الطلبة قبل الثورة عندما يثورون يقيلون الوزارات.. ولم يعد لهم الآن أى دور سياسى.. لأن الثورة تقوم بكل الأدوار.. هذا ما يقوله أبى.. وتفهم من هذا أن كل أنشطتنا سطحية لا تستحق أن نضحى فى مقابلها بوقت المذاكرة**»

- «**ومن قال إن الطلبة لم يعد لديهم دور سياسى؟.. الآن وعيد الثورة العاشر يقترب نقوم بتحضير مشاركة الطلبة فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية.. موعده فى مايو القادم.. وسيعلن فيه جمال عبد الناصر الميثاق الوطنى..**»

زم أمير النحال شفتيه وبدا كمن يستعد لقول مختلف:

- «**يقول بعض الخبثاء إن هذه كلها محاولات لتضميد الجراح.. جراح الانفصال عن سوريا.. الانفصال الذى ضرب الثورة فى مقتل..**»

بحلق فيه نصار عبد العليم وسأله باهتمام ظاهر:

ـ «ومن هم هؤلاء الخبثاء؟..»

ـ «هم الذين لا يصل رأيهم إلى السلطة.. وصاروا خبثاء فى رأى السلطة.. فهم يقولون: ما لنا نحن وما لسوريا والوحدة معها..؟ ولماذا لا تلتفت الثورة إلى الفقراء وجياع هذا الشعب.. هناك من يتضورون جوعًا بعد عشر سنوات من الثورة»

ـ «كيف يقولون ذلك ومكاسب العمال والفلاحين من الثورة لا يمكن أن ينكرها إلا جاحد؟»

ـ «كله كلام فى كلام.. هل تصدق أن هناك أسرة تعدادها اثنا عشر فردًا يعيشون بأقل من ستة جنيهات فى الشهر؟»

ـ «هٰذا غير معقول..»

ـ «والدى..» ثم لاذ بالصمت

فناداه نصار:

«ماله والدك؟»

فأكمل أمير:

«يعرف أسر كثيرة من هذا النوع تعيش تحت خط الفقر..»

ـ «أرى أنك متأثر جدًّا بتجربة وأراء السيد الوالد.. ليتك تجمعنى به.. هل تقيمون هنا فى القاهرة..؟ ما أعرفه عنك أنكم ميسورون، هل هو يعمل هنا؟»

ـ «هو يقيم فى العزبة، طلق السياسة وعاش للخيول والأزهار وتدخين السيجار»

ـ «لعلها فرصة أن نمرح معك بالعزبة ذات إجازة»

ـ «سأدعوكم فى إجازة نصف العام.بإذن الله»

ـ «عمومًا.. لا تجعل هذه الآراء تؤثر فيك.. يجب أن يكون لك رأيك المستقل.. تقدم للترشيح ولا تهدر فرصتك بنفسك..»

* * *

وما إن خرج أمير من غرفة الاتحاد حتى أغلق نصار بابها على نفسه وأتى بورقة وأخرج قلمه وراح يكتب:

السيد اللواء رئيس مباحث أمن الدولة.

تحية طيبة.. وبعد...

ووضع طرف القلم بين شفتيه، ثم راح ينقر به على أسنانه مفكرًا في كلمات معبرة للإبلاغ عن حالة عداء للثورة مدسوسة بين طلبة كلية التجارة جامعة القاهرة..

ولما سمع نقرًا خفيفًا على الباب سارع فأخفى الورقة في درجه، ثم صاح بالطارق: «أدخل»

* * *

كان عباس النحال داخل إسطبل البقر الفريزيان حين اقترب منه زميله عوض ونادى عليه:

ـ «**يا عباس.. يا عباس.. تعال.. تعال بسرعة**»

وكان يقف خلف المنادى رجلان من البكوات الكبار ومعهما ضابط المركز ومخبر، فاتجه أحد الرجلين إلى عوض وسأله:

ـ «**من هذا الذى تنادى عليه؟.. نحن نريد عباس بك؟**»

ـ «**عباس بك؟**» ثم أكمل عوض «**لا يوجد عندنا عباس بك. عباس الوحيد الموجود عندنا هو زميلنا عباس النحال الذى يرفع الروث من تحت أرجل البقر**»

وفى الإسطبل أطل عليهم عباس من أسفل بطن البقرة وسألهم وهو غارق فى بلاهة مفاجأة: «من؟.. من أنتم؟»

ـ «**أأنت عباس النحال؟**»

ـ «**أجل.. أنا هو.. ماذا تريدون؟**»

سارع زميل له فلكزه فى كتفه زاجرًا: «**اجر على الحوض.. واغسل نفسك.. بسرعة**»

لم يستجب لطلب زميله.. لكنه استدار إلى أحد البكوات قائلًا:

- «نعم يا باشا.. أنا ليس لى شأن بما فعله أولادى مع جوهـر البقال..»

فسأله أحدهم: من هو جوهر البقال؟

فرد عباس مسرعًا: «الرجل الذى وجدوا الحشيش فى جيبه فى نقطة الشرطة»

فقال له الرجل الكبير: «جوهـر وعرفناه.. فمن هـم أولادك؟»

- «أولادى بدير.. والسيد.. وأمير.. و..»

- «عندك ولد اسمه أمير؟..»

- «نعم يا بك وهـو مازال تلميذًا و..»

- «تلميذ.. وأين يدرس؟»

- «فى الكلية.. فى مصر..»

- «أى كلية؟..»

راح يتذكر اسم الكلية فلاحقه أحد زملائه موجهًا الحديث إلى البك:

- «التجارة.. التجارة يا باشا.. كلية التجارة..»

استثمر ضابط أمن الدولة حكاية جوهر البقال لإيهام المحيطين به أن زيارتهم لها علاقة بهذا الموضوع فقال لعباس:

- «أنت واثق أنك لا علاقة لك بموضوع جوهـر والحشيش!..»

- «أى والله العظيم يا باشا لكن الموضوع ده فات عليه شهور..»

لم يجعله يكمل قسمه وأشار له على إحدى سيارتين جاءوا بهما: «اركب..»

ثم لاحقه: «اغسل نفسك أولًا»

* * *

وفى مبنى مباحث أمن الدولة، كانوا كلما نظـروا إلى عبـاس النحـال يأخذهـم بعـض الإشفاق ويتولاهم كثير من الضحك كبيرهـم فقط هـو الذى أبدى إعجابه بالولـد أمـير ابن هـذا الرجل المسكين وأثنى على خياله الجامح الذى أوهـم رجلهم نصار عبـد العلـيم بانحداره من ظهر أب أرستقراطى يربى الخيول ويزرع أشجار الورد ويدخن السيجار

ـ «هـاتوا أمير هذا، وتحدثوا معـه.. ثـم جنـدوه.. فواحـد بهـذه القـدرة والبجاحـة لا تفرطوا فيه..»

* * *

وما إن دخلوا به على أبيه وشاهـده أمامه حتى ارتبكت فرائصه، وتركوهـما يتحـدثان على انفراد ظاهـر، وباتصال خفى تنقله سماعاتهم راحوا ينصتون:

ـ «أبى.. ما الذى أتى بك إلى هـنا.. ماذا فعلت؟»

ـ «أنا الذى فعلت؟.. اسألوا أنفسكم ماذا فعلتم؟»

ـ «تقصد من؟»

ـ «أنت وإخوتك.. وما فعلتموه مع جوهـر البقال..»

ـ «قضية جوهـر لم يعد لنا علاقة بها.. من الذى أفهمك ذلك..؟»

ـ «البكوات الذين أتوا بى من داخل إسطبل البقر..»

ثم دقق عباس النظر فى بدلة ولده الفخمة، ثم أمسك بقماشها يتفحصه:

ـ «ما شاء الله.. كشمير أصلى.. من اشتراهـا لك؟ السيد.. هـل أطلعك على سره.؟»

ـ «سره؟.. أى سر؟..»

ـ «سر أمواله الكثيرة، زار البلد وشاهـده الناس فى ملابس الباشوات، وأعطى لخميسة بنت عفيفى هـدايا كثيرة ولم يكلف خاطره بالمرور علينا..»

ـ «ما كل هـذه الألغاز التى تقولها.. أنا لم أفهم منك أى شىء؟..»

ـ «ولن تفهم إلا إذا استعملت مخك.. السيد وبدير يلعبان فى الممنوع.. فى المخـدرات.. وأنا تعمدت أن ألف وأدور على البهوات الذين خطفونى من الإسطبل.. ودخلت بهم على قضية جوهـر لأصرف نظرهم عن إخوتك قل لى: أين أنا الآن؟..»

ـ «أنت فى مصر..»

ـ «فعلًا.. السيارة قطعت بنا مسافات، ونمت منهم فى الطريق حتى شبعت..»

ـ «فى أى شىء تحدثوا معك؟»

ـ «كلام يا ولدى لا أعرف له أول من آخر.. جمال عبد الناصر.. والثورة.. والشيوعيين.. والإخوان المسلمين.. والإقطاعيين.. والشيوعيين الإقطاعيين.. مالى أنا وكل هؤلاء.. قلت لهم لا أعرف أحدًا منهم..»

ـ «ألم يتحدثوا معك عن بدير والسيد؟..»

ـ «بلى يا ولدى.. وهذا ما تعجبت له.. أخشى أن يكون الأمر يتعلق بك»

وفى الحجرة المجاورة أطفأ كبيرهم الميكروفون ورفع يده إلى أعلى قائلًا لرجاله:

ـ «أحضروه الآن..»

فتحوا عليهما الحجرة قبل أن يعلق أمير على تساؤل والده، وبعد ساعة واحدة من حصار الأسئلة المرهقة تركوه مع نفسه وهو يتصبب عرقًا، فالتقط أنفاسه وراح يسترجع كل الاتهامات التى واجهوه بها:

ـ «التشنيع.. والتستر.. والتضليل.. وخلق أعداء للثورة، والإضرار بأمن البلاد.. والتنكر لأهداف الثورة.. ما كل هذا؟.. هل أنا قمت بكل هذه الجرائم؟ أنا لم أتحدث عن الثورة إلا مع نصار عبد العليم.. قلت له رأيًا وهميًا من صنع خيالى مدعيًا أنه رأى أبى، أبى الذى صنعته من خيالى أيضًا.. أنا كاذب.. كاذب فقط.. هل هم يقبضون على الكذابين؟ أم لأننى فى اعتقادهم أتستر على بدير والسيد اللذين يتاجران فى الحشيش..»

دخلوا عليه وأفاق على واحد منهم يتحدث مع كبيرهم:

ـ «لم نفلح فى حمله على الاعتراف، يبدو أنه فى حاجة إلى تشريفنا هنا لعدة أسابيع أو بضعة شهور حتى يعترف.. هذا إذا أمرت سيادتك بذلك»

فتوجه إليه كبيرهم بالحديث:

ـ «يا أمير.. إذا كنت تتعلم بالمجان على يد الثورة.. فكيف تعاديها وتشنّع عليها؟ ثم إنك تتستر على إخوتك تجار الحشيش.. يعنى أنت وقعت فى مصائب كافية لتدمير مستقبلك..»

انفجر أمير فى البكاء ومن خلال بكائه المتقطع راح يتحدث حديثًا مضطربًا يؤكد براءته إلى أن تحدث أحد الضباط مع كبيرهم:

ـ «هـو يقول يافندم أنه كان يكذب، وما عدا هذا فهو خامة طيبـة.. وإذا وجّهنـاه فلـن نخشى جانبه.. ثم إنه غير مسئول عن إخوته تجار الحشيش»

تهيأ كبيرهـم للانصراف، وقبل أن يدير ظهره لهم توقف فخاطب هـذا الضابط:

ـ «ما دمت دافعت عنه ياوجدى.. سـأتركه لـك.. أنـت المسئول عنـه.. تصرف معـه بمعرفتك..»

ثم وجه حديثه إلى أمير:

ـ «ستذهـب مع الرائد وجدى إلى مكتبه.. الرجل تصـدى لإنقـاذك.. افهـم منـه مـاذا يريد.. واسمع كلامه».

* * *

وما هـى إلا ساعة واحدة حتى كان قد فهم من الرائد وجدى ماذا يريدون..

وضحك داخل نفسه من كل هؤلاء الضباط الذين أرهقـوه وأرهـقوا أنفسـهم بكـل هـذه المقدمات التى لا لزوم لها.. فالمطلوب منه أن يكون هـو نصار عبد العليم السـنوات القادمة..الرائد وجدى لم يفصح له عـن هـذا الإرث الـذى فى انتظـاره، لكنـه عـرف أن الدور الذى سيؤديه سيصل به إلى هـذه الغاية.

هم يريدونه أن يصبح عينًا رسمية لهم.. عينًا من لحم ودم.. عينًا تترجم لهم ما تـراه فى تقريـر مكتـوب، عـين تجـوب لهـم قاعـات المحـاضرات والنـدوات وحـدائق الجامعـة والكافيتريات بحثًا وتنقيبًا عن قلب ضال أو كلب مارق.. وأن يصبح لهم يدًا.. فيده التى لم تتمكن من الأخذ والعطاء آن لها أن تـتمكن مـن الانتقـام.. «**أصـبحت الآن فى حضـن النظام**».. هكذا همس لنفسه بفرحٍ طاغٍ

وتهلل وجه الرائد وجدى عندما قال له أمير وهـو يتناول رشـفة مـن كـوب الليمـون المثلج الذى أمامه:

ـ «اعتبرونى من الآن يافندم خادمًا عندكم، ومنفذًا يـا فنـدم كـل توجيهـاتكم.. ولـن يخيب ظنك بى أبدًا.. يا باشا»



نحن أوفياء النظام ..

نصار عبد العليم

أسرع فى اليوم التالى إلى مباحث أمن الدولة ليرى ماذا فعلوا بأبيه..

قابله الرائد وجدى بابتسامة حنونة:

- «لو قلت لى إنك أتيت بتقرير فسوف تجعلنى أعيد النظر فى كل رجالنا الآخرين..»

- «لم آت بتقرير.. جئت أطمئن على أبى»

* * *

أيقظه من نومته فوق المقعد الخشبى فنهض وهو يفرك عينيه:

- «هل جئت؟ ظننتك الرجل الذى يأتى لى بالطعام»

- «خلاص.. ها أنت.. ستخرج من هنا فى الغد، زمان أمى وإخوتى يأخذهم القلق»

- «فليأخذهم الجنون.. ماذا يريدون منى؟، أنا هنا آكل اللحم والدجاج»

- «عجيب.. وأنا الذى لم أهمد حتى أحضر لك واسطة لإخراجك من هنا..»

- «واسطة.. هل الخروج من هنا يحتاج واسطة؟»

- «طبعًا.. لأنك لا تعلم ماذا كان سيحدث لك..فأنت اسمك يشبه اسم واحد شيوعى»

- «آه.. فهمت.. الرجل الثانى اسمه عباس بك.. متولى زميلى قال لى..»

- «مضبوط.. ولذلك إذا سألك بدير والسيد عن سبب القبض عليك قل لهما هذا الكلام.. وقل لهما إننى الذى أخرجتك بواسطة.. وإننى لم أعرف منك مسألة الحشيش هذه.. أو أن الحكومة عرفت هذا الكلام حتى لا يعيشا فى قلق..»

ـ «لا تقلق من هـذه الناحية، فأنا قمت بالواجب ودافعت عنهما فى غيابهما..»

طرق أحد الجنود باب غرفة الحجز لينهى أمير زيارته لوالده، فقام مسرعًا وهـو يعيد توصياته لأبيه.. ويعده مكررًا بقدومه غدًا عند الظهر لإخراجه.

وأسرع إلى مكتب الرائد وجدى.

وبعد جلسة طويلة معه عاد إلى المدينة الجامعية بـرأس مـزدحم.. وقلـب مضـطرب.. ومشاعر قلقة.. فالتعليمات، والتوصيات، والتحذيرات، والتفاصيل كلها تشير إلى أنه قـد رُشح لعمل خطير.. عمل يعتمد على نظام دقيق، وحساس، وجـرىء.. عمـل لا يحتمـل نسبة ضئيلة من الخطأ أو التهاون.. «**فأعداء البلاد يتربصون بها فى كل مكان.. فلا تفترض حسن النية فى كلمة عابرة.. أو نظرة شاردة.. أو نكتة ساذجة.. فالعابر والشـارد والسـاذج قد يكون به مكمن الخطر..**»

وفى المدينة الجامعية فوجئ بالسيد يهبط الدرج.. وما إن رآه حتى هـتف به:

ـ «**أين كنت؟.. أبحث عنك منذ ثلاث ساعات، هـل عرفت ما حدث لأبيك؟**»

فتقمص مسرعًا سيماء الهدوء:

ـ «**أنا قادم من عنده الآن**»

هـتف السيد:

ـ «**وأين هـو؟.. ولماذا قبضوا عليه؟.. وماذا فعل؟.. وما هـو مصيره؟..**»

تمادى أمير فى أن يكسو صوته وملامحه وانفعالاته بمزيد من الهدوء:

«**لا تقلق هـكذا..أنا أخذت بعض معارفى اليوم إلى هـناك وعالجت الموضوع**»

ـ «**هـناك؟.. فى أى مكان هـو؟**»

ـ «**مباحث أمن الدولة..**»

ـ «**يا نهار أسود**»

ـ «**قلت لك لا تقلق، أنا تدخلت وعالجت القضية..**»

ـ «**أى قضية.. أفهمنى.. ما علاقة والدك بأى شـىء يتعلـق بـأمن الدولـة.. أكيـد فيـه خطأ**»

- «هـو كما قلت تشابه فى الأسماء..»

وصمت قليلًا، ثم أوضح بلهجة الفخر:

- «ولكن ليس معنى هـذا أن يخرج فى اليوم الثالث.. لقد أخرجناه بمعجزة»

- «هـل أخذت معك محاميًا؟..»

- «لا.. لا.. معارفى الكبار وقفوا بجانبى وأنهوا الموضوع.. ثقة بى»

تفحصه السيد ببعض الذهـول والشك:

- «يعنى بسم الله ما شاء الله أنت صرت من ذوى المعارف المؤثرة إلى هـذا الحد؟..»

- «تعال معى غدًا لترانى وأنا أتسلمه.. لا.. لا.. لا داعى أن تحضر معـي.. لا داعـى أن تظهر هـناك أصلًا»

- «نعم؟!! ما معنى كلامك هـذا ؟..»

- «اعذرنى.. لا أستطيع أن أوضح لك.. يكفى أننى اطمأننت عليه»

- «ولا داعى أن أطمئن أنا؟..»

- «واطمئن أنت أيضًا.. بناء على اطمئنانى»

وما إن أنهى أمير كلامه المراوغ حتى اندفع السيد منصرفًا من أمامه فى غضب ودون سلام.

* * *

وبعد يومين ناداه أحد الزملاء فى صالة المطبعة:

- «ياأستاذ سيد.. تعال رد على التليفون.. بدير أخوك»

وفهم من بدير شيئين.. الأول أن والده قد عاد بالأمس فعلًا.. أمـا الشـىء الثـانى أن عنتر مكاوى سلم لخميسة رسالتين ليس فيهما ما يمكن أن يلفت نظرهـا أنهـا رسـائل بهـا حشيش.. فالرسالة الأولى بها ثلاث دست من الكراسات والكشـاكيل وحـذاءين واحـد لعاشور والآخر لعوض.. وأما الرسالة الثانية، فكانت أقمشـة للبنـات وأمهـن وزوجـين آخرين من الأحذية أحدهـما لعباس النحّال والآخر لولده عرفة.. ولم يفهـم أحد ممن سمع المكالمة أن هذه ليست هدايا للأهل إنما هى رسالتىْ حشيش.

أسرع فجلب لخميسة الجوب الأبيض وانطلق إلى البلد ليقابل والده.

وهناك راح يطرح عليه الأسئلة الباحثة عن إجابة بعينها:

ـ «هـل نما إلى علم أمير خبر عن نشاطي أنا وبدير؟.. النشاط الذي تعرفه..»

ـ «لا يا ولدي؛ لأني قد فهمت أنكما لم تخبراه بذلك..»

ـ «والناس الذين قبضوا عليك ألم تشعر أنهم يعرفون شيئًا عن هـذا الموضوع؟..»

ـ «أيضًا، لا يا ولدي.. ومن أين سيعرفون؟..»

ـ «وهـل أمير فعلًا هـو الذي اجتهد وقام بفك سجنك من هـذا المكان؟»

ـ «أمير كان في هـيئة البشوات الذين حضر معهم وخلصوني..».

ثم وصل السيد إلى السؤال الأكثر غموضًا وأهـمية:

ـ «وكيف عرف أمير أنك مقبوض عليك وموجود في سجن مباحث أمن الدولة؟»

تلجلج عباس النحّال.. ولكنه سرعان ما عثر على منفذ لسؤال لم يكن في الحسبان.

ـ «كانوا قد عرفوا مني هـنا في البلد أن لي ولدًا في كلية التجارة.. وأنا طلبت مـنهم أن يحضروه لي..»

ولما شاهـد علامات الارتياح تبدو على وجه السيد داخله هو الآخر ارتيـاح مماثـل وصـفق لنفسه أن خرج من هـذا التحقيق بما يحفظ وجهه أمام أمير دون أن يفكر في سر توصـيات أمـير وتحذيراته.. وسرّ مطاردة السيد لخطوات أمير.. ثم سرّ إقحامه للتوفيق بين مطلبيهما..

* * *

وعند خميسة تخلى عن تأففه وهـو ينتظـر انصراف بعـض الزبـائن مـن عندهــا وكـان يتأملها بود وشغف حرص أن تلحظ الفتاة أنه ود المشتاق وشغف العاشق الغائب.

وما إن خلا أمامها جو الدكان حتى أسرع فسحب هديتها من حقيبته الصغيرة، وقـال لها:

ـ «كما وعدتك.. لم أشأ أن يحملها لك عنتر مكاوي شأن هـدايا إخوتي..»

ـ «حملك ثقيل يا سيد.. يكفي ما أنت فيه من هـم إخوتك التسعة.. واحد منهم معـك هـناك.. ستحمل هـم من ثم من ؟..»

ـ «حظهم إن عنتر يأتي إلى أهله هـنا مرتين في الشهر.. الرجل خفف عني..»

ضحكت ببراءة:

ـ «هـو خفف عنك التوصيل، وأنت أثقلت على نفسك بالشراء»

بادلها السيد نفس ضحكتها البريئة:

ـ «من ناحيتى أنا ضامن ألا يزهـق لأنه يحبنى.. المهم ألا تزهقى أنت»

لم تدعه يكمل حديثه:

ـ «هـل هـو وحده الذى يحبك؟.»

ثم لمعت عيناها فجأة :

ـ «على فكرة جاءنى فتيان هنا.. وسألنى عن عنوانك فلم أعطه له.. لمـاذا يسـأل عنـك بهذا الاهتمام؟»

ابتسم فى لامبالاة.. وأخرج قلمه وطلب منها ورقة صغيرة.. وراح يكتب عنوانه:

ـ «هو طبعًا سيعلم أننى كنت هنا عندك اليوم وسـيأتى لسـؤالك عنـى.. فأعطـه هـذا العنوان»

راحت تقرأ ما كتبه بصوت مسموع:

ـ «شبرا ـ ٦ شارع الخازندار ـ المؤسسة القنية للمصاعد ـ عنوان من هذا؟»

ـ «هو عنوانى وكفى.. أعطه الورقة.. لا أريده أن يعرف مكانى.. فتيان مزعج..»

هزت رأسها بتساؤل: «هل تضلله؟..»

ـ «أجل»

ـ «ولم..؟.. فإما أن تعطى له العنوان الصحيح.. أو تتخلى عن ذلك»

ـ «حتى لا يزعجك كل زيارة بالسؤال»

ـ «الإزعاج بالسؤال أهون من أن يسخط عليك إذا عرف أنك ضللته..»

ـ «لا تأخذى الأمور بكل هذه الجدية.. الخطوط المنحنية أحيانًا تكون هى الأفضل»

ابتسمت فى إعجاب: «هل هذا شعر جديد؟.. أم حكمة خرجت بها من الشعر؟»

ـ «هى تجارب الحياة.. وخلاصتها المقطرة..»

ـ «خطابك الوحيد لى كان مليئًا بالأوامر والتعليمات..»

ضحك مليًّا: «هل ضايقك ذلك؟»

ـ «كنت أحلم بحديقة زهور.. فأمسكت بمخزن أخشاب..»

واصل ضحكاته وهو يمسك حقيبته استعدادًا للانصراف:

ـ «إذن، سأعود للزهور.. لا تنسى أن جدى لأبى كان جنايينيًّا..»

* * *

وفى الاجتماع الأول لاتحاد الطلبة المنتخب لم يكن أمير النحال العضو الجديد قريبًا فى جلسته من مقعد نصار عبد العليم، ولكنه كان فى مواجهته يتأمله فى هدوء ويتفحصه فى صمت.

أيقن أن نصار عبد العليم وضع يده على حقيقته، واكتشف أن الرجل الأرستقراطى الذى يربى الخيول والزهور ليس والده لأنه غير موجود إلا فى خياله المريض، وأن «عباس» النحال الحقيقى هو جامع الروث، وحامل الأتربة، ورفيق البهائم «هذه هى الحقيقة، ولكنى لن أعترف بها فليظل عباس النحال كما هو زارع الزهور ومربى الجياد والقابض على سيجار الفخامة بيد مرصعة بخاتم من الماس.. فكل الذين حول نصار عبد العليم ما زالوا على قناعتهم أننى ابن الرجل الميسور صاحب العزبة.»

أفاق على مختار يناديه وهو يضع برامج الأنشطة الطلابية:

ـ «وأنت يا أمير صرت مخيرًا بين الإمساك بإحدى لجنتين.. إما اللجنة الثقافية.. أو لجنة الرحلات»

فرد عليه مسرعًا:

ـ «الرحلات.. إذ يمكننى أن أدعى أننى أملك برنامجًا لها ليس تقليديًّا..»

ـ «إذن، فما هو أهم ما فى برنامجك؟»

ـ «الريف.. جنان مصر المنسية.. كلهم يركزون على الآثار.. لا مانع.. رغم أنها فى تظرى أحجار ميتة نحن نجتهد فى استنطاقها.. أما الطبيعة الناطقة بروح الإبداع الإلهى وجهود الفلاح الفنان، فهذا ما لم نلتفت إليه..»

ـ «إذن، فنحن على موعد أن تكون الرحلة الأولى فى عزبة السيد الوالد.. إنها كما أعلم

مليئة بالزهور والخيول والطبيعة الخلابة..»

ـ «أنا فعلًا وعدتك بزيارة خاصة إلى عزبة السيد الوالد والآن أعلن أنها ستكون زيارة جماعية..»

وبعدها صار الاثنان لا يعلمان سرّ تربع كلّ منهما فى عقل الآخر يعنفه فى صمت ويوبخه فى غيظ.. ويتأمله بمنظار خاص.. خاص جدًّا ..

وبعد انتهاء الاجتماع وانصرافهم تباعًا طلب نصار عبد العليم من أمير بالبقاء.

وبكل هدوء وثقة تمهل أمير وهو يرنو بنظرات مراوغة إلى هذا الشاب النابه الوسيم الذى كاد أن يلقى به فى نار الجحيم بخطاب مكون من صفحة واحدة إلى مباحث أمن الدولة.. ولولا اجتماع كل مظاهر الحقارة والوضاعة فى حال والده لما أمكن نسف مفعول هذا الخطاب.

رماه مختار عبد العليم بنظرة ثاقبة وهو يبحث عن كلمات يبدأ بها حواره:

ـ «أريد أن أعترف لك يا أمير أننى حتى الآن فشلت فى أن أفهمك..»

ـ «هذا عكس حالتى، فأنا قد فهمتك وأحببتك حتى أنك صرت مثلى الأعلى..»

بحلق فيه مختار وقد تدلى فكه إلى أسفل تعجبًا مدة لا بأس بها.. إلى أن قال له:

ـ «أمير.. من أنت؟..»

ـ «أنا ابن إقطاعى يربى الخيول والزهور.. بفارق واحد أنه هو وخيوله وزهوره من صنع خيالى، أليس هذا ما تريد أن تتأكد منه؟..»

ـ «ولكنك يا أمير وعدت اللجنة كلها بقضاء يوم فى عزبتكم الوهمية..»

ـ «ها أنت قد قلت إنها وهمية.. فأين سيعثرون عليها؟..»

ـ «وكيف ستتصرف؟»

ـ «قبل الرحلة بأسبوع سأعلن حزنى بطريقتى الخاصة على الملأ؛ لأن والدى جن فى عقله وباع العزبة»

ـ ندت عن مختار ضحكة مفاجئة وهتف:

«أنت.. شيطان»

ثم واصل إعجابه:

«سأكتب «للجماعة» ألا يستهينوا بك»

فهم أمير على الفور من هم «الجماعة».. ولكنه لم يفهم معنى ألا يستهينوا به.

ـ «تقصد أن الكتابة «هذه المرة « ستكون فى صالحى»

ـ «وهل تشك فى ذلك؟ أنت مكسب غير مسبوق لحراس النظام..»

ـ «هل تسميهم هكذا؟..»

ـ «ونحن أوفياء للنظام..»

ـ «ونحن اسمنا هكذا؟..»

ـ «أجل نحن أوفياء النظام ..»

* * *

واكتشف فى نفسه كثيرًا من الملكات المختبئة وهو يوظفها فى موقعه الجديد، وانتشر فى كل اللجان مدعمًا وناصحًا ومقترحًا، فهو فى لجنة الرحلات وعينه على اللجنة الثقافية، وكانت مقترحاته فى الأخيرة سببًا فى أن يوكل إليه نصار عبد العليم بعض مهامها دون أن يحس رئيسها بتوفر بعض سوء النية فى تهميشه، فقد استولى أمير النحال على صلاحياته بنعومة ويسر. ثم وعينه على نصار عبد العليم يشرع فى كتابه كلمات مأثورة من خطب الزعيم على ورق مقوى يعلقه على واجهات المبانى والطرقات حريصًا أن تكون بها بروفيل لعبد الناصر بابتسامته الواسعة.

ولما جاءت إجازة نصف العام لم يعد إلى القرية مثل فريد هنيدى ورأفت إبراهيم؛ لأنه كان يقود رحلة الكلية إلى الأقصر وأسوان. هذا ما قاله بدير لفريد ورأفت، وهذا ما عرفه بدير من السيد الذى كان يضرب كفًّا بكف متعجبًا من انقلاب حال أخيها أمير الذى لم يعد يطلب لنفسه مالًا، ويرفض ما يعرضه عليه السيد من مال.

ـ تُرى على أىّ منهما وقع أمير: «امرأة لعوب أم رجل شاذ؟»

ولم يتمكن بدير من الإجابة آملًا ألا يكون أمير «الخفيف» قد وقع فعلًا فى إحدى هاتين المصيبتين.



أخي فريد كالأولياء الصالحين

وكان نشاطه ملحوظًا وهو يعمل على ضفاف المؤتمر القومى الموسع ، فقدم أشياء كثيرة وفهم أشياء أكثر.. ورأى من يقدم الفكر السليم: كيف تكون منزلته عند الناس، وكيف يكون حجمه عند النظام.. رأى المفكر المستنير خالد محمد خالد يحاور جمال عبد الناصر بقوة وثقة على الهواء ويعرف ـ كل من كانوا لا يعرفون ـ أن هذا المفكر له كتاب مهم اسمه «من هنا نبدأ» قرأه جمال عبد الناصر، وراح يتحدث الزعيم عنه باهتمام واعتدال أمام الناس.

ثم رأى بعد ذلك من حفظ الميثاق عن ظهر القلب وراح يتلوه أمام جمال عبد الناصر فأثار انتباهه، ثم سجل لنفسه مكانًا بهذا الحفظ لينال بعد ذلك مكانته كواحد من أوفياء النظام حتى أنه صار وزيرًا.. حيث لم يكن فى ظن المحامى المغمور حافظ بدوى أن يشب إلى هذا المقعد العالى.

واكتشف أنه قد يختلف أمر الصعود عند مفكر رصين يقود.. وعند قرد ذكى يقاد.. ثم اكتشف أن هناك منطقة وسطًا بين العقل الرزين العاقل والقرد اللذيذ الشاطر.. وهى منطقة التماثيل، ووجد أنه بقدر ما هنالك تماثيل حجرية خرساء، فهناك تماثيل بشرية صنعتها الكلام..

وقدر له أن يلتقى أحد هذه التماثيل ووجده محاطًا بهالة من الاهتمام وهو يلبس الجلباب البلدى وله كرش بارز، وقيل له إنه أمين الفلاحين.. فتساءل:

ما معنى أن يكون للفلاحين أمين يجوب العاصمة بين الكاميرات والمنتديات؟.. ما دوره؟.. أو ما مهمته؟.. ثم جَرُأ على نطق السؤال الأجدر: ما أهميته؟ فقيل له إنه يمثل الفلاحين..

ـ «يمثل الفلاحين؟..»

هكذا تساءل أمام مختار عبد العليم، وواصل تساؤله:

ـ «بأمارة إيه؟.. الفلاحون فى بلدنا ليس لهم كروش ولا يرتدون هذه الملابس الحريرية الفخيمة.. فلاحو بلدنا يا مختار يسرقون القمح من غيط الحكومة الذى يطلقون عليه غيط المصلحة.. فلاحو بلدنا يأخذون من واحد اسمه فتيان ثمن شيكارة الكيماوى بالآجل، ويدفعون له ثمنها مضاعفًا عند جنى المحصول..»

وهنا أتى له مختار عبد العليم بوصف جديد اهتدى إليه من حالة أمين الفلاحين الذى لا علاقة له شكلًا أو موضوعًا بالفلاحين، فقال له:

ـ «إذا كان رجالنا واضعى المحامى هذا فى خانة القرود، فإننى أضع أمين الفلاحين فى خانة التماثيل..»

ووثق أمير فى هذا الكلام عندما أضاف مختار إليه كلامًا جديدًا قائلًا:

ـ «والدليل على ذلك أن أمين الفلاحين هذا رتبوا له زيارة إلى روسيا فرأى سيادته أنه من اللائق أن يرتدى بدلة، فأبلغوا جمال عبد الناصر بما يتجه إليه ممثل الفلاحين من رؤية وكان رأى الزعيم مضحكًا»:

ـ «نحن ما أخذناه إلا من أجل جلبابه.. فليرسل الجلباب ويبقى هو.. قولوا له ذلك على لسانى»

وعرف أمير معانى كثيرة حول أدوار القرود وأدوار التماثيل.. وتأكد أن القرد إذا عمل فهو يلهو، وإذا لهى فإنه يرقب العصا بيد القرداتى، ولا ينسى الحبل الذى فى رقبته، كما تأكد أن التماثيل لا يمكنها أن تحتج إذا أوقفوها على قواعد لا تناسبها.. ولا يمكن أن تشعر بالفخر إذا نصبوها على قواعد شائقة..

ثم انتهى إلى قناعة مثبتة وهو أنك لكى تنجح فى عالم السياسة فأنت مطالب أن تكون أحد شيئين هما أن تصبح قردًا أو تتحول إلى تمثال.. أما العقل الرصين الذى ما زال فى وجدان خالد محمد خالد فهيهات أن يلتفت إليه أحد.. أى أحد.

* * *

وانتهى العام الدراسى كما أسر أمير لنفسه: «على خير»

والخير هنا هو أنه لم تدفعه الحاجة إلى الامتثال أمام السيد ليعطيه مما أعطاه الله،

والامتثال هنا هو خضوع الآخذ للمانح.. فماذا لو كان هذا المانح يمثل له قنبلة موقوتة من الممكن أن تنفجر فيه فى أى لحظة..؟ فحراس النظام الذين يعمل عندهم اتهموه عند تجنيده أنه يتستر على أخويه اللذين يتاجران فى الحشيش.. وقد أقسم لهم أنه لا يعرف هذا الأمر.. إذن، فأولى به أن يبتعد عن أخويه حتى لا يناله سوء بسببهما.. أما كيف وصل خبر بدير والسيد إلى هؤلاء الرجال من الساهرين على أمن النظام..؟ فهذا ما أكبرهم فى نظره، وأيقن يقينًا لا شك فيه أنهم فعلًا يحسون «بدبة النملة»!!

ولأنه كان قد نجح فى كسب ثقتهم بأعمال تدخل فى نطاق لغة القرود تارة وهيئة التماثيل تارة أخري، فقد تابع لغته المكتسبة معهم قبل أن ينتهى العام الدراسى، وسجل فى تقريره الأخير بكل وضوح وصراحة رغبته أن يواصل عمله معهم فى الإجازة الصيفية بالاندساس فى معسكرات الطلبة الترفيهية والعلمية لا أن يكتفى بمعسكر واحد طلب منه تنظيمه فى حلوان، وهى كلها معسكرات تثقيف اشتراكى تناثرت مابين الهرم وأبى قير والمكس ومرسى مطروح.. وكانوا أسرع منه فى قبول طلبه ليضمن بذلك إجازة مليئة بالعمل والانتقال ومواصلة كتابة التقارير..

ولأنه نجح فى أن يغذى تقاريره بما يضمن له ولها استمرارية التواصل، ولأنها صارت لها أهمية القبول كما شاهد ذلك فى عينى الرائد وجدى فإنه اكتشف أنه ليس من اللازم فى كل حين أن يحتوى تقريره على بلاغ ضد طالب شيوعى أو إخوانى أو بلاغ ضد أستاذ لا تدور أفكاره فى عجلة النظام.. وتعويضًا عن هذا التقصير الذى من الممكن أن يؤخذ عليه اخترع رصفًا جديدًا راح يعبّد به دروب هذه التقارير، كأن يلقى الضوء على أحوال المجتمع الطلابى ومدى اهتمامات الطلبة: الثقافية والفنية والسياسية، وأن يسجل أحدث النكات الشعبية المتداولة مهما كان بها من جنس بذىء أو إسقاط سياسى..

وفيما بعد، وبعد اندلاع ثورة اليمن وصعود نجم مفجرها عبد الله السلال، لم يتوان أمير النحّال عن تسجيل النكتة التى انتشرت بعد أن أعطى عبد الله السلال لنفسه رتبة المشير، والنكتة تقول إنه أرسل إلى مصر هذه البرقية العاجلة: «رقينا إلى رتبة المشير فابعثوا لنا وردة» وبراءة النكتة ظاهريًّا تفيد بمحتوى ساذج وهو أن يرسلوا له «زهرة».. ولأن النكت لا

تؤلف لهدف ساذج، فقد كان محتوى هـذه النكتة الحقيقى أن يبعثوا له بالمطربة وردة الجزائرية؛ لأنه صار مشيرًا كالمشير عبد الحكيم عامر الذى تقول الشائعات إنه كان على علاقة بها.

وهـكذا اكتسبت تقارير أمير النحال صـفة خاصـة عنـد حـراس النظـام؛ لأنـه يضـع أيديهم على نبض المجتمع الطلابى ويشير إلى اتجاه الريح عندهـم، وعـلى مـن يقـرأ هــذه التقارير أن يكتشف مدى علاقة هـذا الاتجاه باتجاه رياح الشعب..

مرتان قدّم فيهما ضحيتين مستحقتين: أولهما الشاعر صابر منير الذى نفذ له مـن فجـوة صنعها الشاعر بنفسه.. فجوة تقع بين منطقتين يقول فيهما شعره.. فالشـعر الهـادئ الـذى يلقيه من على منصة الندوات الشعرية ليس هـو الشعر الثائر الذى يلقيه وهـو يتمدد عـلى سريره متكئًا فى غرفته بالمدينة الجامعية محاطًا بالأصدقاء الذين حفظـوا نصـوص قصـائده الموجهة إلى جمال عبد الناصر ومنها قصيدة تقول:

ياللى زرعت ميتين فاروق

وطردت م الأوطان فاروق «يقصد الملك فاروق»

هـو أنت فينك م الفاروق « يقصد عمر بن الخطاب»

اللـى مـلا الدنيا عدالة

واللى ملا الإسلام شروق

دانْتا مَلِيت الراس كلام

وزرعت للأجيال خازوق « يقصد روسيا الشيوعية»

وفى مباحث أمن الدولة كان على صابر منير الطالب الفقير ابـن العامـل الأجـير أن يجيـب ـ تحت وقع السياط على سؤال ـ واحـد: **مـا هــو الخـازوق الـذى زرعـه عبـد النـاصر للأجيـال القادمة؟..**

ثم كان على باقى الطلبة أن يتساءلوا: **أين اختفى فجأة زميلهم صابر منير..؟**

ثم كان عليهم أن يتساءلوا مرة أخرى: **كيف وصلت قصيدة الخازوق إلى أمـن الدولـة وقبضوا على صابر منير بسببها؟..**

ثم كان عليه هو نفسه أن يتساءل بعد أن عاد عن سرّ الانكسار الذى اجتاح نفسه وأقلع بسببه عن قول الشعر.. لكنه لم يقلع عن مداومة الصلاة والانزواء والذبول..

أما الدكتور راضى أستاذ مادة إدارة الأعمال وصاحب السيارة الفيات الصغيرة الحمراء الذى عاد إلى تلاميذه بعد فترة انقطاع طويلة فقد اختلف حاله قبل الانقطاع عن حاله الذى كان قبله.. صحيح أن رأيه الخاص فى النظام الاشتراكى لم يقترب بعد من رأى النظام، لكنه لم يعد يحشو به هوامش محاضراته فى خروج على النص خلال هذه المحاضرات كما كان يفعل قبل غيابه المفاجئ الطويل الذى لا يعلم سرّه سوى تلميذه أمير النحّال..

فالاشتراكية ـ كما نقلها أمير على لسان أستاذه ـ نظرية عديمة الجدوى؛ لأنها تحمى النظام ولا تحمى الناس.. فالناس بها سوف تتحول إلى سنون صغيرة وتافهة بل ومتآكلة فى ترس النظرية الذى يدور لصالح النظام.. وأنه لن يحدث أبدًا أن سيعثر الفرد على ملكاته الخاصة ومواهبه وإبداعاته لتحقيق الثراء المشروع لشخصه ومن ثم لأسرته وأخيرًا لدولته فى ظل هذه الاشتراكية..

وفى تقريره حول هذا الموضوع وإكمالًا لتقاريره السابقة كتب أمير النحال لأسياده عن أستاذه بعد خروجه من السجن:

«أنه يحاول أن يكون صمته وتحاشيه الحديث عن فترة اعتقاله شيئًا أبلغ من الكلام.. ويبدو أنه يقاوم ألا يبدو منكسرًا وهو يرسم لنفسه صورة البطل الذى قاوم السلطة بآرائه المعلنة.. وإذا كان من المشكوك فيه أنه ما زال مؤمنًا بكل آرائه السابقة إلا أن المؤكد أنه آثر الآن أن يحتفظ بها لنفسه..»

* * *

ومن الإسكندرية عاد فريد هنيدى ومعه رأفت إبراهيم إلى البلد لقضاء الإجازة الصيفية ولم يجدا بها «أمير» النحال، ثم لم يجدا من يمكنه أن يجيبهما على سؤالهما الفضولى عن سرّ غياب أمير وأين يقيم طالما أن المدينة الجامعية أغلقت أبوابها وعاد كل الطلبة إلى أهليهم.

سارع رأفت إبراهيم إلى الريس عفيفى ليلحقه بعماله الموسميين فى غيط المصلحة استثمارًا لشهور الإجازة وكسبًا لبعض المال، ناهيك عن الخبرة المتاحة لطالب الزراعة..

وكعادته وهـو يجلس أمام دكان خميسة شاهـد «بدير» النحال يتناول من خميسـة لفافـة مغلفة بأوراق الصحف ومربوطة بالورق المصمغ والدوبار.. وعرف أنها رسالة من السيد إلى إخوته ووالديه، ثم عرف من بدير أن «أمير» مكلف من إدارة الجامعة بـالإشراف عـلى المعسكرات الطلابية وأنه قلما تتاح له فرصة قضاء بعض وقت الإجازة فى البلد..

ولم يمض أكثر من أسبوعين حتى شاهـد رأفت رجلًا غريبًـا يضـع عـلى البنـك أمـام خميسة لفافة أخرى وهـو يبادلها حديثًا وديًّا، وينقل لها تحايا الأستاذ، وعـرف رأفـت أنهـا رسالة جديدة لم يمكث فى جلسته طويلًا حتى جاء بدير لاستلامها.

لم يلق رأفت بالًا لهذين الحادثين إلا أنه انتبه لما قالـه فريـد هـنيدى تعليقًـا عـلى هــذه الرسائل التى أحيط بها علمًا فى ثرثرة عابرة من رأفت. وكان ما قاله فريد هـنيدى هـو:

ـ «أغلب الظن أن هـذه الرسائل ليست بريئة..»

وراح يؤكد ظنه الآثم بتحليلات منطقية.. فحامل الرسائل شـخص واحـد لم يتغـير.. وكيف يتفق وصول هـذا الرجل الغريب من القاهـرة ثم حضور بدير النحال خلفـه بعـد قليل من الوقت..؟ ثم تساءل فريد:

ـ «ولماذا دكان خميسة بالذات، أليس من الملائم أن يقوم هذا الرجل بتسليم الرسـالة إلى عباس النحال فى داره مباشرة طالما أنها تحتوى على هدايا لأولاده من أخيهم المسافر..؟»

وفى الجانب الآخر كان بدير النحال قد انتابه القلق من جلسة الأصـيل الطويلـة التـى يقضيها رأفت إبراهيم عند خميسة بحكم عمله مع أبيها والتى أتاحت له أن يشاهد رسائله الخطيرة مرتين متتاليتين فأسرع بمحادثة السيد أن يعدل خططه فى التسـليم والاسـتلام أو يبكر بإرسال عنتر مكاوى عند الضحى، وقد ثبت أن السـيد اختـار تعـديل الوقـت دون تعديل المكان وحقق عدة رسائل جديدة لم يشاهدها رأفت فى هذا الوقت من النهار..

ولأن فريد هنيدى يثق فى قرارة نفسه أن ولَدْى النحال يعمـلان فى تـرويج الحشـيش، فقد ظل متمسكًا بسؤال رأفت عن أخبار رسائل السيد كلما أتيح لـه ذلـك وفـوجئ مثـل رأفت أنها انقطعت منذ أكثر من ستة أسابيع..

وبينما كانًا سويًا جاء فتيان إلى فريد لأمر يتعلق بالأرانب التى صارا يتبـادلان المصـالح

بشأنها.. وتطرق الحديث حول أمير الذى لم يزر البلد منذ غادرها إلى الكلية.. ثم تطرق الحديث إلى السيد الذى بالكاد لم يزر البلد سوى مرتين.. ثم تطرق الحديث حول رسائله إلى أهله تلك التى يتسلمها بدير من خميسة.. واتفق أن فتيان كان قد شاهد «بدير» ذات صباح يخرج من دكان خميسة بلفافة كتلك التى يتحدثان عنها ـ فريد وأمير ـ وعندما سرد لهما ما شاهده أعمل فريد هنيدى تفكيره فى أن الرسائل مستمرة وأن تغيير موعد وصولها من الأصيل إلى الضحى تم بفعل فاعل حويط هو السيد النحال..

لم يكشف فريد عن ظنونه الآثمة أمام فتيان حول ماهية هذه الرسائل، ولكنه لاحظ أن فتيانًا طرح على استحياء سؤالًا واحدًا مرتين:

ـ «**هل أحدكما يعرف عنوان السيد النحال فى القاهرة؟..**»

وهنا ركز فريد نظراته الفاحصة فى وجه فتيان سائلًا عن سرّ اهتمامه بهذا الأمر، ولم يجد فتيان مفرًّا من الاعتراف بجزء من مصيبته مع السيد النحال وهو المتعلق بالعنوان المضلل الذى تركه له عند خميسة والذى لم يجد أن له علاقة به..

ومرة أخرى حاصره فريد عن سرِّ اهتمامه بالبحث عنه فى القاهرة..:

ـ «**ما الذى يجمع الشامى على المغربى يا أستاذ؟**»

ولم يحاول فتيان أن يعلن قصة تورطه مع ابن النحال هكذا أمام زميليه حتى لا ينتشر خبر غبائه الشديد فى بلد نصفه يكرهه..

وإزاء ما تبين لفريد هنيدى من استمرار الرسائل عجيبة الهدف أشار على رأفت إبراهيم أن يحاول استدراج خميسة لعلها تعرف خبايا هذه الرسائل وفى أقل الأحوال لعلها تأخذ حذرها.

وعاد رأفت إلى فريد بأخبار أخرى نسفت كل ما كان يفكر فيه من مساوئ حتى أن رأفت تناوله بالتأنيب.. فالفتاة المتعاطفة مع حالة السيد النحال حولت الإجابة على سؤال رأفت إلى منظومة مدح فى ابن النحال الذى ظهرت أياديه البيضاء على كل أفراد أسرته، فها هو عباس النحال ينتعل حذاء جديدًا وجلبابًا صوفيًّا، وها هم عوض وعاشور وعرفة يمتلك كل واحد منهم أكثر من طاقم جديد من البنطلونات والقمصان والأحذية..

«**وانظروا إلى البنات اللاتى صرن يتباهين فى البلد بما يرسله لهن السيد من ملابس**

وفساتين وأحذية.. ناهيك عن الأطعمة التى يرسلها فى لفائفه حتى العجوة يرسلها لهم..»

ولا يدرى فريد هنيدى لم توقف متأملًا الحكمة من اختيار السيد النحال لرسالة عجوة يرسلها لأهله من مصر المحروسة.. ولا يدرى لمَ هداه ظنه السيئ إلى مدى مرونة العجوة فى احتواء أى جسم صلب بداخلها إذا غلفته بها.

ومع هذا فقد اختار فريد أن يلوذ بالصمت ما دامت هذه الرسائل تحولت بالفعل إلى ملابس متعددة الأشكال والأصناف كثيرة العدد بكثرة أولاد النحال.

لكنه كان صمتِ المراقب الذى يرهف أذنيه كالخفافيش الكامنة فى الظلام.. يفعل ذلك رغم مشاغله المتعددة ما بين النادى الرياضى فى الصباح ولقاء صحبة الأرانب عند الأصيل، ثم القراءة المتنوعة قبل النوم المبكر رغبة فى الاستيقاظ المبكر لبدء تمارينه الشاقة التى تبدأ باختراق الضاحية ركضًا لمسافة عشرة كيلومترات نصفها خروج عن البلد والنصف الآخر عودة إليه على مرأى من كل من يتلقون تحاياه ويردونها إليه من الفلاحين والفلاحات الذين بكروا مثله قاصدين حقولهم.

وفى حديثهم عنه بعد أن يتجاوزهم بركضه المثير وملابسه الرياضية الناعمة يعاود الفلاحون الإشادة بابن بلدهم الذى يضع اسمه بمهارة شديدة وبتأن حاذق بين الأبطال الصاعدين فى كمال الأجسام، وإذا راق لهم المقارنة بينه وبين فتيان فتيان الذى كان من الممكن أن يصبح بطلًا فى الجرى يأخذهم الضحك ويتملكهم الاستهجان لابن بلدهم فتيان الذى باع كل شىء فى سبيل الأرانب والبهائم.

وهنا لا ينسى أحدهم أن يذكّرهم بما استطاعه فريد هنيدى من الجمع بين رياضته المفضلة وهواية فتيان المفضلة.. وأنه بذكائه الشديد ومهارته استطاع أن يقيم حقلًا للأرانب فوق سطوحهم ففاض حتى طفح بها وأنه زرع الخير عند أهله ومضى إلى كليته تاركًا لهم مهمة زيادته والعكوف على صون نعمة الله المهداة.. حتى أن راضى هنيدى قال لأحدهم متعجبًا:

«كنت أظن أن أخى فريد يتسلى بحمل الحديد ثم راق له أن يتسلى بتربية الأرانب إلى أن وجدت الله يبسط له فى جسمه ويبسط لنا الرزق على يديه، فتأكدت أن أخى هذا به شىء لله كالأولياء الصاحين».



التمادي في نسيان الماضي ...

أبحرت خميسة عدة شهور فى دراستها المنزلية للتقدم لشهادة الثانوية العامة هـذا العـام ولم تكن قد التفتت أو شغلت نفسها بما هو أزيد من براءة وإنسـانية الرسـائل الجمـة التـى يبعثها السيد إلى أهله ولكنها هامت بخطاباته التى قال عنها إنها أعادتـه إلى حـدائق جـده الجنايني عبد المحسن النحال فراح يقطف لها من زهورها العطرة كل يوم باقة منتقاة .

لكن الريس عفيفي السيد حمزة لم يعد هادئ البال عندما اقترب منه على بن جـوهر البقـال بـلا مقدمات وهو يبدى استغرابه أن يكون حق الجيرة عند خميسة معكوسًا.. فكيف تمد حبال الود مـع أولاد النحال وهى تعلم أن والده نال على أيديهم حكمًا بالسجن مدته ثلاث سنوات؟ وعرف منـه عفيفى أن ابنته استقبلت السيد النحال عدة مرات وتستقبل أخاه بدير بكثرة ملحوظة..

قال له: «**يا بنى.. إنه دكان، إن لم يدخله الناس صار خرابة، ويلزم قفله والعياذ بالله..**»

وما كان من الفتى إلا أن فاجأه بهذا التعليق:

ـ «**لو كان بدير يأتى للشراء فسوف أخجل من نفسى لو علقت على ذلك ، إنما مـا أراه أن الدكان صار مكتبًا للطرود التى لا يأتى بدير إلا لاستلامها..**»

لم يفهم الريس عفيفي عمق ما يعنيه هذا الفتى ولم يأبه بما قاله إلى أن لفت نظره سـؤال واحد راحت صفية زوجته تكرره أمامه كلما تجاهل الإجابة عليه:

ـ «**على بن جوهر؟.. فى أى شيء كان يتحدث معك؟**»

وبحدسه الريفى الصائب أحس الريس عفيفى أن حديث هذا الفتى لـه هـو الحـديث التالى لحديثه مع صفية فى نفس الموضوع.

ومع هذا فلم يجد الريس عفيفى بدًّا من أن يُحيط ابنته علمًا بما يدور بين غريمتها صفية وابن جوهر غريم أبناء النحال.. وأنهى كلامه معها قائلًا: «**وبما أنك يا ابنتى ليس لك لا فى الثور ولا فى الطحين فالتزمى الحذر، والباب الذى يأتى منه الريح فلنسده.. ونستريح**»

* * *

وهى ساهرة على دروسها استرجعت خميسة ما قاله لها والدها.. ثم تذكرت تحذيرات رأفت إبراهيم الطيب وفريد هنيدى صاحب الجسد الرشيق والقلب الرقيق.. وكان محتوى تحذيرهما هو ألا تأمن أبناء النحال.

حينئذ.. أغلقت خميسة كتابها وأطفأت مصباحها وتمددت على السرير.. ثم غرقت فى سيل الحب الجارف المنهمر فى خطابات السيد لها، وارتجف بدنها وهى تتأمل هذا الغموض الذى صار يحيطها فبعضه أطل من داخلها، وأغلبه أطل من عيون الآخرين وتحذيراتهم..

* * *

وفى ثيابه الجديدة المتجددة راق لأمير أن يسعى لأخيه فى مطابع الصباح وكل همه أن يراه السيد فى حال من استغنى عن سؤاله، بل إنه قد استغنى عنه وإلى الأبد..

اتجه السيد بأمير إلى مكانه المفضل فى محل جروبى، ورأى أمير مدى الاحتفاء بأخيه من كلّ الجرسونات حتى أن أحدهم اقترب منه مبتسمًا وهو يشير إلى أمير قائلًا:

- «**هذا هو الآخر أخ لك.. فهو قريب الشبه منكما أنت والأستاذ بدير..**»

ووافقه السيد بابتسامة قبل أن يسأله أمير فور انصراف الجرسون:

- «**هل بدير يأتى ليجلس معك فى هذا المكان؟**»

- «**يحضر إلى هنا كل شهر..**»

- «**تقول كل شهر؟**»

- «**طبعًا يا أستاذ.. يأتى لأخذ المصاريف لوالديك وإخوتك..**»

ووجدها السيد فرصة لمحاصرة أمير، فهو لم يقتنع بما قاله قبل قليل أنه عثر على وظيفة جعلته يستغنى عن مساعدته.. لكنه لم يشأ أن يذكر له شيئًا عن وظيفته إلى أن قال له السيد:

ـ «لن أضيع وقتى معك فى هـذا الأمر غير المهم؛ لأنى عندى أخبار أكثر أهـمية..»

ـ «أخبار أكثر أهمية؟ أى أخبار؟»

ـ «طاهر زين الدين..»

نطق السيد باسم طاهـر بهدوء شديد، وتلقاه أمير بعكس ذلك حتى كاد أن يقفز فى الهواء.

ـ «طاهـر؟.. هـل قابلته؟.. هـل هـو هـنا فى القاهـرة، أين هـو؟..»

ظل السيد على هـدوئه وهـو يصوب نظراته الفاحصة مـن آن لآخـر نحـو أمـير، ثـم تحدث بنفس هـدوئه فحكى لأخيه عن اشتعال رغبته منذ فترة أن يجرب الحلاقة فى ميدان روكسى عند مصـطفى عباس الـذى يقـوم بعمـل إعلانـات عـن صـالونه فى الصـحف والمجلات، ويضع صور بعض نجوم الفن وكرة القدم داخل إعلاناته..

وقال إنه لم يصدق عينيه وهـو يخطو خطواته الأولى داخل الصالون عنـدما فـوجئ أن الواقف أمامه الآن هـو طاهـر زين الدين بشـحمه ولحمـه، ويبـدو أن طاهــرًا لم يصـدق ذلك عندما تعرف عليه للوهـلة الأولى.. فتعالت نداءاتهما لبعضهما الـبعض كـأنما مسـافة الفراق والبعد ما زالت قائمة..

ورأى السيد مدى الحلاوة والطلاوة التى صار عليهما طاهـر، فقد امتلأ جسـمه النحيـف امتلاء مقبولًا، وصار وجهه أكثر نضارة وحيوية، أما شـعره النمـوذجى فقـد صـار مذهــلًا بتسريحته المتموجة ذات الشرفـة الممتـدة، وأمـا الجاكـت الكمـونى الشـمواه وبنطالـه البيج وقميصه الحريرى المقلم بخطوط من اللونين الأبيض والبنى الغامق فقد ذكـره هــذا الـذوق الرفيع بما كانوا يعرفونه عن طاهـر من حرص تعلمه فى صغره أن تكون ملابسه نظيفة وأنيقة.

اختار السيد أن يقوم طاهـر بالقص لـه كواحـد مـن خمسـة كـراس وخمسـة صـنايعية ينتشرون فى الصالون، وأثناء استغراقه فى العمل لم يتوقف طاهر عن الحديث الهـامس مـع ابن بلده وأول من يقابله الآن من أهـل البلد بعد رحيله المفاجئ والشهير..

لم يخصه بأى حديث حول هـجرته لبلده فى وقت عصيب، لكنه اختار أن يلتقيا مسـاء وبعد انتهاء العمل بالصالون، فى حديقة الميرلاند التى تقع على مسافة قريبة من الميدان.

لم يتوسع السيد فى سرد كل ما دار بينه وبين طاهـر زين الدين أو يذكر بعض مـا عرفـه

من أسراره، لكنه أسهب فى وصف خطيبته فوزية التى تعمل فى محل كوافير للسيدات على مقربه منه فى ميدان روكسى..

وقال إن طاهر دعاه إلى زيارته فى منزل أصهاره المنتظرين بحى عين شمس، ثم قال إن طاهر إذا كان قد ضحى بأهله الحقيقيين وهرب منهم اتقاء لقهر أبيه، فإن الله عوضه بأناس أسياد ينتمون إلى أهل الصعيد الأصلاء..

وقال إن البنت رائعة الجمال، وأنها وطاهر على خير حال، وأن فوزية هذه لها قبيلة من الأعمام والعمات والأخوال والخالات يحتلون شارعًا طويلًا تقع بيوتهم على جانبيه..

وخرج أمير من هذه المقابلة مذهولًا ومعه عنوان طاهر زين الدين وقد عقد النية أن يزوره غدًا..

* * *

وحول بحيرة حديقة الميريلاند التى يسبح فيها البط وتنساب فوقها القوارب الصغيرة بالأطفال المرحى جلس أمير قبالة مضيفه طاهر زين الدين يتأمله بدهشة وشوق وهى الدهشة التى اصطحباها معهما من صالون الحلاقة حيث التقيا منذ ساعات.

ذكره أمير ضاحكًا بجلستهما المفضلة على المصلى المفروش بقش الأرز على حافة ترعة وجه البلد تحت شجرة ذقن الباشا . فقال طاهر وصوته مشحون بالأسى:

ـ «أدفع عمرى لمن يمنحنى سعادة يوم واحد من هذه الأيام»

فقال أمير محتجًا: «أى سعادة يا رجل؟.. فالمكان بأيامه وصحبته لا يجلبون لى إذا تذكرتهم إلا الشعور بالاستخفاف والشفقة والقرف»

ـ «أنت حرّ فى مشاعرك.. وبمناسبة الصحبة.. السيد قال لى إن «فريد ورأفت» فى الإسكندرية.. وفتيان يجمع بين تنمية أمواله فى البلد ودراسة الآداب منتسبًا.. وخميسة عفيفى ستحصل على الثانوية العامة منازل هذا العام..»

ـ «وأنا مثلك لا أعلم عنهم سوى هذه الأخبار»

ـ «أنت مثلى؟.. كيف هذا وأنا البعيد عنهم رغمًا عنى.. ولكنك تحيا بينهم ليل نهار..»

ـ «أفضل ما قمت به يا طاهر أنك ابتعدت عن البلد بكل ما بها»

ـ «وهل تظن أننى فى غاية السعادة لأنى فعلت ذلك؟»

ـ «ما أراه أمامى الآن هو أنك باشا ابن باشا.. لا تقل بريقًا عن زبائن صالونك»

ـ «إنه بريق كما قلت أنت.. أما السعادة، فلم أقابلها منذ هروبى.»

ـ «هل أنت نادم على ما فعلت؟»

ـ «بدأ الندم عندى بعدما علمت بما استقر عليه فتيان من الجمع بين العمل والدراسة.. وهو نفس ما نجحت به خميسة. ولولا قسوة أبى الفظ والإهانات اليومية التى كان يغمرنى بها حتى كتم أنفاسى لفعلت مثلهما..»

ـ «ولكنك أفضل منهما وبكل أموالها..»

ـ «الآن فهمت ما مقاييسك.. فالمال هو أفضل ما تتمناه»

ـ «ألم تهرب من أجل المال؟»

ـ «بلى.. هربت بحثًا عن روحى الضائعة. وكرامتى المهانة..»

ـ «وهل وجدتها..؟»

ـ «لن أجدهما إلا فى البلد.. يكفى أننى لا أتحدث لا بخير ولا بشر عن أهلى أمام أهل خطيبتى.. كرامتى الغائبة يا أمير تكمن فى أننى لا أحمل فى غربتى تاريخًا أفخر به»

ـ «ومن قال إن تاريخك الذى تعرفه هو التاريخ الذى يجب أن يعرفه الناس.. ما دمت غريبًا فاصنع لنفسك تاريخًا بعينه وقدمه للناس»

قال طاهر فى إشفاق وهو يتذكر أن أميرًا فى عز فقره كان يتمسح فى أبناء الأثرياء

ـ «يبدو لى أنك تقدم لى نصيحة أنت تقوم بها، ويبدو لى أيضًا أنك كرهت البلد»

تلجلج أمير لحظيًا، ثم عثر على ما يرد به:

ـ «لقد استجبت لمستجدات هى التى أجبرتنى على ذلك ولن أعمل على تغييرها..»

فضحك طاهر قائلًا: «منحتنى الآن لقب باشا، ابن باشا، فماذا منحت نفسك؟..»

ـ «أسرفت فى هذا المنح.. فجاءتنى الثمار مضاعفة.. الناس تخدعها المظاهر»

ـ «السيد يقول إنك نلت مكانة عالية فى الجامعة»

ـ «لأنى لم أنكفئ على نفسى وأسلم بالأمر الواقع»

ولم تغب عن فطنة طاهر زين الدين حالة الإسقاط التى يقصدها أمير النحال بكلماته الأخيرة.. لاذ بصمت قلق، ثم رفع وجهه نحو صديقه القديم:

«لم يكن أمامى سوى أن أفرّ من وجه أبى رغم حزنى على كرامته التى سيقول الناس إنها أهدرت على يد ولده طاهر، ولن يلتمس لى أحد عذرًا وأنا أُنقذ أهم ما فى حياتى: مستقبلى وكرامتى..»

ثم واصل طاهر حديثه المتألم:

«فأبى لم يلق بالًا لمغادرتى مقاعد الدراسة رغمًا عنى، ولم يلتفت إلى آدميتى وهو يلطمنى على وجهى أمام الزبائن لسبب تافه، ونسى فى لحظة واحدة أنه هدمنى مرتين.. ولما ألمت بى فكرة الهروب، ولما ارتحت لذلك اكتشفت أن هذه الفكرة نفسها كانت طاقة النور وبصيص الأمل اللذين جعلانى أقوى على تحمل إهدار كرامتى لوقت طال بى حتى اقترب من العام..»

ويسرح ببصره قليلًا قبل أن يواصل:

كنت أهرب إليكم عصر يوم الاثنين من كل أسبوع فى المصلى المظلل بشجرة ذقن الباشا عند ترعة وجه البلد، لأبثكم أحزانى حينًا، ولوعتى أحيانًا، ولم يلحظ أحدكم أننى كنت أغيب عنكم بضعة أسابيع متوالية..

لو كنتم سألتم عنى فهيهات أن تعثروا على، فأنا فى هذه الأيام جندت نفسى للعثور على هذا الحلاق الشهير الذى اسمه مصطفى عباس فى ميدان روكسى لأراه رأى العين، وأتأكد بنفسى أن هذه الإعلانات الكثيفة التى لا تخلو منها صحيفة أو مجلة هى فعلًا لحلاق.. حلاق مثل أبى.. حلاق يخاطب زبائنه بالصور المثالية لرأس حليق.. وتذكرت كل الصور التى جمعتها ولصقتها فى الورق السميك لكراسات الرسم إلى أن تأكدت بنفسى أن الحلاقة مهنة محترمة.. وعندما شاهدت وأنا أقف على مقربة من مدخل سينما روكسى هؤلاء الوجهاء وأولاد الذوات ولاعبى الكرة وهم يعبرون مدخل السينما الفسيح إلى دكان الحلاقة فى الداخل كنت أنتظرهم وهم يخرجون لأرى شكلهم بعد «الشغل» ومقارنته بشكلهم قبله.. ثم أسرع بالعودة إلى البلد يراودنى حلم الالتحاق بهذا

الصالون. كنت أنظر إلى أصابعى وأتأملها كمن يهمس لها ألا تخذله إذا دخلت هذا المكان وقابلت صاحبه ليضمنى إلى عماله فمن المؤكد أنه سيعقد لى اختبارًا..

وفى اليوم المشهود يوم هروبى تقدمت إلى مصطفى عباس وأنا فى أبهى ملابسى المتاحة.. فحدثته بأدب.. وتحدث معى بأدب .. ولم يكن مجازفًا عندما أسلم لى رأس زبون شاب له شعر همجى نظيف، وكنت جريئًا وواثقًا وأنا أسلم لهما ـ هو والزبون ـ قصة مدهشة لأتمتع منذ الساعات الأولى بثقته ورعايته وحبه.. وصار الصالون من فرط حب المعلم مصطفى لى فى ذمتى عند غيابه.. أحبنى أكثر من أىّ صنايعى قديم.. ولم أجعل من ذلك الحب سببًا لاندلاع الغيرة فى قلوبهم ضدى بل جعلته ميزة لى ولهم وساعدنى على ذلك أنهم أحبونى مثله.. وصرنا الأصدقاء الجدد الذين انصرفوا لبعضهم نتكامل ونتواصل ونعقد الفسح الأسبوعية ونملؤها باللهو والضحك.. وعندما أقع فى بئر الصمت فجأة أكون قد تذكرتكم فى البلد وتخيلت أمى وشقيقاتى البنات يبكيننى، ثم تخيلت الجحيم الذى تركته خلفى لأبى الظالم الذى لن يعترف ـ حتى داخل نفسه ـ أنه السبب.

وإزاء كدرى المفاجئ انسحب من جلسة اللهو إلى بعيد.. لأتفحص ما أنا فيه.. قائلًا لنفسى.. كنت زمانك يا طاهر طالب فى الكلية على وشك الإمساك بشهادته العالية، فأى لذة فى الحياة تسعى إليها.. أى هدف عندك يا طاهر يمكنك أن تقول للناس أنك تسعى إليه؟ كان هروبك هو الهدف، وحققته.. فماذا بعد الهروب؟..

من الواضح أنك يا أمير تنظر إلى ماضى أسرتك بعين النقمة والازدراء، فقررت أن تصنع لنفسك ماضيًا بعينه تزينه بكل الفخر الكاذب والجمال المصنوع.. أما أنا، فما استطعت أن أفعله هو أن أنسى هذا الماضى كأنه لم يكن حتى أن مصطفى عباس ما زال حائرًا فى أمرى فهو لم يصدق المعلومة الوحيدة التى لم يعرف عنى غيرها وهو أننى من بلد فلاحين، وأن أبى كان يرعى دكانًا متواضعًا للحلاقة وأنا معه..

لم يعد يزعجنى أن أتمادى فى نسيان الماضى.. لأنه صار من المزعج لى أن أتذكره.. البلد إذا طافت ذكراها حولى فلا يعبئ أنفى منها سوى رائحة مجرور الجامع إذا تسربت رواسبه على كوم السباخ الذى يطل عليه شباك الدكان.. ورائحة ماء الفسيخ الذى يلقيه إبراهيم

الفسخانى فوق هذا الكوم البائس.. لتجتمع روائح البراز والفسيخ والسباخ العفن فى كيمياء قاتله هى الباقية فى أنفى حتى الآن.

وكم أسخط على هذه الذكرى إذا سبحت فى عالم الرضا والنشوة وأنا أقترب من هوانم روكسى فى المحلات الراقية والمطاعم الفخمة وتقترب من أنفى رائحة البارفان الراقى يطير بى إلى عالم من الدهشة والذوبان فى عشق الجمال وأهمس لنفسى لو كان هروبى من البلد سببه فقط الابتعاد عن كوم السباخ والمجرور وأشم عوضًا عنهما عطر الحسناوات فأنا الكاسب، ولفرط غربتى داخل نفسى صرت أهرب بى وبنفسى إلى كل ما يبعدنى عن النوم.. صرت أكره النوم لأنه يأخذ من وقتى الفائض بعد وقت العمل ساعات أنا أولى بها أجوس فيها عالم القاهرة الليلى البديع.. السينمات.. والمسارح.. والمطاعم الفاخرة.. ومحلات الملابس الراقية واكتشفت أن هناك سرًّا فى داخلى وعقلى الباطن يأمرنى أن أنهب هذه السعادة نهبًا فقد تضيع منى فى أية لحظة.. ثم اكتشفت أننى ما زلت أخشى الزمن وأخاف من الأيام مما جعل سعادتى دومًا منقوصة.. وبذلك أصبحت أنا السعيد فى الظاهر.. والبائس المحروم فى الباطن..»

تنهد أمير وهو لا يصدق أن طاهرًا بكل ما فيه من وسامة وأناقة يحمل فى قلبه كل هذا الهم:

ـ «إذن، فأنا وأنت يا طاهر اللذان يقولون عنا إن الهدوم توارى خلفها بلاوى كثيرة..»

فقال طاهر:

ـ «هذا على الأقل بالنسبة لى، فأنت ستحصل على شهادتك وتترقى عامًا بعد عام، أما أنا فليس من المنتظر أن أترقى لأنى أعمل بأرقى صالون حلاقة فى مصر.. ولو تركته لسبب ما إلى صالون آخر فلسوف انخفض درجات.. عذاب شديد ألا يكون لديك هدف أكبر..»

لمعت عينا أمير وهتف: «هذا هو عذابك الحقيقى فعلًا، فأنا أحيا أمل الارتقاء والصعود.»

وأيده طاهر قائلًا: «الفرق بينى وبينك هو أنى قطعت طريقى مرة واحدة.. لكنك تسير فى طريق يحدوه الأمل كلما واصلت المسير..»



الهارب من قريته ...

كانت المرة الأولى التى يتغير فيها موعد لقاء فريد هنيدى ورأفت إبراهيم فى محطة الرمل إلى ظهر يوم الإثنين بدلًا من مساء يوم الخميس، ذلك أن فريدًا قال لرأفت: «اترك كل ما فى يدك مهما كانت أهميته يا ابن الأسطى إبراهيم عبد الواحد وقابلنى فى هذا المكان وفى هذا الزمان فسوف ترى عجبًا..»

وكان رأفت إبراهيم هو الأسبق فى الحضور إلى المحطة، وظل يرقب ويراقب الهابطين من ترام الرمل ولسان حاله يقول:

ـ «ترى ما هو العجب يا ابن هنيدى هذا الذى أغريتنى به لأترك محاضراتى وأنتظرك هنا فى منتصف النهار؟»

* * *

وبرشاقة ملحوظة قفز فريد من الترام الذى ـ وصل إلى محطته الأخيرة ـ واتجه باسمًا نحو رأفت ثم أمسك بيده وراح يسرع الخطا به وهو يتحدث بسرعة فائقة معتذرًا عن تأخره ذاكرًا بعض أسباب هذا التأخير، وخوفه أن يمل صديقه طول الانتظار فى تريانون:

وهتف رأفت:

ـ «تريانون؟.. نحن الآن بجانب تريانون.. من هو صديقك هذا؟..»

وبدلًا من أن يغيثه بإجابة شافية أغاثه بالوقوف المفاجئ أمام طاهر زين الدين الذى يغادر مقعده ـ الذى اختاره فى مواجهة باب الدخول ـ ويقف أمامها فاردًا ذراعيه كنسر رشيق ملىء بالمهابة والبشاشة:

ـ «حبايب قلبى.. حبايب قلبى.. حبايب قلبى»

ولم يصدق رأفت إبراهيم نفسه، فسارع بالارتماء فى أحضان طاهر وشاهد رواد المحل لقاء حميميًا مدهشًا بين ثلاثة يبدو أنه قد أضناهم الفراق وأهاج أشجانهم اللقا..

وبعد حين فهم رأفت إبراهيم أن طاهرًا هو الذى حدد هذا الموعد فى هذا المكان عبر خطابه لفريد على عنوانه الذى حصل عليه من أمير النحال..

ولم يكن للسنوات الأربعة التى غاب عنها فيها طاهر نصيب من الحكى والشكوى قدر هذه الشهور القليلة الماضية التى قابل فيها طاهر ولدى عباس النحال: السيد، وأمير، فالسيد فتح لنفسه نفقًا فى جبل آل فوزية وصار كثير المرور إليهم حتى أنه إذا غاب عنهم أسبوعًا كاملًا أحسوا بالحاجة إليه وإلى سهراته العامرة بالحشيش.. هكذا امتلك شبابهم من أبناء العمومة والأخوال من آل فوزية. فصار يشعل لياليهم فى عين شمس بالبهجة هو ورجله الأثير عنتر مكاوى.

ولما طلب منه رأفت إبراهيم أن يصف له شكل عنتر مكاوى هذا..

اكتشفوا أنه هو نفس الشخص الذى يسلم الطرود إلى خميسة عفيفى.

وهنا سأله فريد:

ـ «السيد وعرفنا أنه يروج الحشيش عند آل فوزية فى عين شمس وبواسطة خميسة فى البلد.. فما الذى يروجه أمير..؟»

فقال طاهر متبسمًا: «**يروج نفسه..**»

ـ «عند من؟..»

ـ «عند فوزية نفسها»

فبادره فريد بنظرة غيظ: «**وأين أنت أيها المعجبانى؟..**»

ـ «أنا أتلقى أفعاله السيئة بغضب.. ثم تتحول هذه الأفعال إلى مادة للشجار بينى وبين فوزية.. وعرفنا الخلاف لأول مرة منذ ظهورهما. حتى أن فوزية تحلل عزوفى القديم عن الحديث حول أهلى ومعارفى إلى أننى رجل يعيش فى مشكلة داخل نفسه ولا يحب الناس.. ويهرب منهم.. ويعاديهم بلا سبب.. وهذا تقريبًا مجمل ما نجح أمير فى بثه بنفس فوزية»

فقال فريد: «طبعًا لأن أميرًا لسانه حلو.. وكلامه ناعم»

فأيده طاهر قائلًا: «بالضبط حتى أنه استطاع إقناعها أن تنضم إلى رحلة سيعقدها بعد امتحانات آخر هذا العام فى شهر يونيو القادم إلى الإسكندرية.. ووافقت على الانضمام معها رغم أنفى حتى لا ينفرد بها هذا الكلب.. »

بدا الانزعاج على وجه فريد وتساءل بغيظ: «إلى هذه الدرجة صار مؤثرًا فى خطيبتك؟» ثم سأله:

ـ «هل فوزية تحمل شهادة ؟»

ـ «أجل.. دبلوم تجارة.. وأعرف مغزى سؤالك: أمير يشاغلها بمجتمع طالبات الجامعة الذى تشتاق إلى معرفته لأنها حرمت منه ..»

ابتسم فريد فى مرارة: «**جميل أن تكون أنت نفسك قد وصلت إلى هذا التحليل..**»

وهنا قال رأفت:

ـ «لا مجال للتعامل مع الثعابين إلا بقتلها.. الثعابين التى عرفت الطريق إلى قفص العصافير»

وقال فريد:

ـ «أو الابتعاد عنها.. تزوج فوزية وتحكم فى منزلك يا طاهر.. تحصنك بالشرعية سيحمى بيتك من تطفل الأغراب.. معركتك تفرض نفسها.. فوزية ستضيع منك فى أقرب فرصة»

وبعد ما عادوا مرة أخرى إلى ذكرياتهم فى البلد اقترب فريد هنيدى إلى المنطقة الحرجة فى الحديث بادئًا بإلقاء هذه الأبيات من الشعر:

أيها الهارب من قريته
أرضنا أضأل من أن تخْفِيَكْ
قالت الأرض لمن ودّعها
عد إلى أمك كيما تَحْمِيَكْ
أين ترجو هربًا يا ولدى
عد إليها.. وتلفَّع ماضِيكْ

ثم سأله فجأة: «ما رأيك فى هذا الشعر يا طاهر؟..»

هز طاهر رأسه فى أسى، وقال له :

ـ «أعده علىّ مرة أخرى.. يا فريد..»

فأعاد فريد أبياته التى تحث الهارب من قريته أن يعود إليها ففيها الحماية وفى ماضيها الدفء، وتنهد طاهر طويلًا، وأسند ظهره إلى ظهر المقعد وهو يتأمل صديقيه ويردد مكررًا:

ـ «ومع هذا فلن أعود.. لن أعود..»

ولاذوا جميعًا بالصمت الذى قطعه طاهر بحديث حاول أن يقنعهما به على أنه على حق مؤكدًا لهما أنه حاول أن يقنع نفسه بالعودة ووجد أنها مغامرة بلهاء سيخاطر فيها بمكاسبه المعنوية، فهو لم يهرب من الفقر لأنه لم يكن فقيرًا، لكنه فر من القهر.

ـ «فكيف أعود، وأتلفح هذا الماضى.. برداء من النار؟.. هيا بنا أنتما مدعوان للغداء على حسابى فى مطعم مصطفى درويش.. استأذنكما فى الذهاب إلى دورة المياة..»

وتحرك أمامهما ببدلته الصيفية الرائعة وقميصه الحريرى الناعم ورباط عنقه السولكا، فراحا يتأملانه بحب وإعجاب، لكنه الحب الذى لا يخلو من الشفقة والإعجاب المفعم بالمرارة، ولذا فقد مال رأفت برأسه قرب فريد وقال له:

ـ «من الواضح أنه لم يعلم أن جده قد مات وأن أمه فى حال سيىء، وأن أباه كاد أن يفقد رشده فهل نبلغه بكل هذه المآسى؟..»

فقال فريد:

ـ «بما أنه لم يسألنا عنهم وبما أنه متمسك بعدم العودة فلترحمه من عذاب جديد سيضاف إلى عذاباته..»

* * *

ولم تكن فوزية ابنة المعلم حمدان عبد القادر القط تعرف الحب إلا حين تعرفت على طاهر زين الدين، كذلك طاهر لم يكن يعرف الحب إلا حين رآها. فهما أبناء المهنة الواحدة يمارسانها فى أبهى صالونات هذا الحى الراقى، وقيل لها إنه ماهر ومهذب وكريم وطيب..

وتأكدت من كرمه عندما أصر فى مقابلة لهما عند خزينة المطعم أن يدفع لها ثمن ما ابتاعته من الشطائر.. ولما تحركت بينهما لغة القلوب لم يرضخا لصمتهما طويلًا.. حدثته عن وسامته البادية وأناقته الملفتة ثم حدثها عن جمالها الأخاذ وشعرها المذهل. وارتاحا لكل ما استجابا له من تصرفات قاما بها بدعوة من الحب، فكانت تنصرف قبل موعدها بساعة لتلبى دعوته على العشاء فى الميريلاند، ثم تنطلق إلى بيتها فى عين شمس فهناك من يرقبون تمام لحظة وصولها المعتاد. وكانت تأتى بعذر كاذب عند ربة عملها لتلحق حفلة السينما النهارية تلبية لدعوته الشيقة، أو تطلب إجازة ليوم الغد وهو نفس اليوم الذى طلب طاهر إجازته له لينطلق بها إلى كل الأماكن التى زارها فأعجبته..

عامان انصهرت فيهما نفوسهما قبل أن يقرر أن يتجه إلى منزلها فى عين شمس ليطلب يدها.

قال لأبيها إنه مقطوع من شجرة، وكانت أمها تعرف، وقال لجدها إنه ناجح فى عمله، وكانت أمها تعرف، وقال لعمها إنه كان يرقب حسن التصرف الذى تتسم به فتاته وراقبها عن بعد وسأل عنها عن بعد، وكانت أمها تعرف أنه يكذب..

وعاد الأب الصعيدى إلى ابنته ليرى إن كانت تقبل رجلًا بلا أهل، فقالت له: لعله ما جاء إلينا إلا لنصبح نحن أهله، فاقبله يا أبى فهو المهذب الأمين..

وها هما العامان قد مرا مرور السحاب وهى تتمنى لو سمعت منه كلمة عن أمه أو أبيه أو أخته أو أخيه أو ذكرى مع صديق فى طفولته أو قريب فى ذاكرته.. دون جدوى.

وعرفت فوزية أنها أحبت رجلًا عجيبًا لا يملك ماضيًا وإنما سقط على الحاضر من عالم الغيب.. رجل كل ماضيه هو يوم الأمس الذى تعرفه.. أما يوم الغد، فهو كل ما يعرفه عن المستقبل ..

فوزية حمدان لم تعبأ بكل ذلك.. لكنها أولت اهتمامها لخدر الحب الناعم الذى بدّل حالها منذ التقت بطاهر الصنايعى الوسيم الذى سمعت عنه قبل أن تراه، ثم احتفظت به فى قلبها منذ أن رأته.



أمان القلب البليد ...

وكانت رحلة طاهر الثانية إلى الإسكندرية برفقة فوزية فى ضيافة أمير النحال هى الرحلة الخالية من البهجة بجانب أنها رحلة مسروقة.

وكما قال طاهر لصديقيه فريد هنيدى ورأفت إبراهيم فإنه وافق على هذه الرحلة المسروقة رغمًا عنه بعد أن تشبثت فوزية بالموافقة عليها.

وجدها قد أعدت المايوه ضمن متعلقاتها، ووجدته لم يفعل مثلها، ولكنه لم يعلق عندما وجدها واحدة ضمن عشرات مثلها من فتيات الرحلة يخرجن من الكبائن إلى البحر سربًا مذهلًا من القوالب الربانية الناطقة. وكان أن رأى لأول مرة كيف أن الجمال المتخفى تحت ملابسها ينتصر كثيرًا على جمالها البادى. كما تأكد وللمره المائة أن «أمير» النحال شاب مغموس فى السفالة وبجاحة النفس التى لا تلوم صاحبها، فبدلًا من أن يرافقه فى جلسته تحت الشمسية إلى أن تعود فوزية من سباحتها يسارع بمشاركة الفتيات لهوهن لهوًا بحث فيه طاهر عن البراءه ولم يجدها.

ألحت عليه خطيبته أن يشاركها السباحة فأقسم لها أنه لا يستطيع، عادت فألحت عليه مرة أخرى وهى غاضبة وبدلًا من أن يعتذر هذه المرة أمسك بيدها وتحسس بها ورما فى فخذه الأيمن فهتفت به:

ـ «ما هذا ؟»

ـ «كيس دهنى.. فى فخذى لو خلعت ملابسى فسوف يؤذى منظره العيون»

كانت مشغولة وهى تسبح وتلهو وتضحك، وكلما نظرت إليه من بعيد وجدته سادرًا فى

الصمت والانكسار إلى أن قررت أن تتخلى عن لهوها وتذهب إليه وتجالسه تحت الشمسية..

سألته:

ـ «ماذا بك يا طاهر.. جئنا للمرح والانطلاق ألا تخرج مما أنت فيه؟»

ـ «كم تتملكنى السعادة وأنا أراك تمرحين مع صديقاتك الجدد، ولكنها السعادة المنقوصة بسبب تطفل هذا الأمير الذى لا يحمل شيئًا من اسمه.. هذا الكلب يأكل جسدك بعينيه يا فوزية.. ذرات جسمى يأكل بعضها البعض وأنا جالس هنا بمفردى»

وفجأة وبلا مقدمات، وبقرار لم يستغرق منها سوى لحظة قالت له:

ـ «إذن، فهيا بنا.. سنسافر.. لن أكمل هذه الرحلة طالما أنها تجلب لك كل هذا الكدر..»

* * *

ولما ودعا المعسكر بإصرار، ولما لم يحصل أمير على إجابة شافية تقنعه بسر إصرارهما على قطع الرحلة، ولما رماه طاهر بنظرة تحقير وهو يشير إلى تاكسى ليقله من أبى قير إلى محطة مصر.. أحس أمير بالغيظ عندما فرت منه فوزية قبل أن يحقق مأربة فى السطو على عقلها ومن ثم قلبها.

وكانت إجازة الصيف الطويلة سببًا فى انشغاله عن فوزية وصالونها وبيت أسرتها فى عين شمس لتفرغه لرحلاته المتعددة التى يغطى بها نشاطه السياحى والثقافى فى الاتحاد.

وكالعادة لم يفتقد السيد النحال شقيقة أميرًا، بل قد يكون شملته السعادة لابتعاده المختار عن القاهرة. فهو قد أحس بقرون استشعاره المدربة أن أميرًا لم يعد يهتم بصديقه طاهر قدر اهتمامه بفوزية خطيبته. ثم أحس السيد أن هذا الصراع الصامت بينه وبين أمير على كسب قلبها إنما حدث لشدة رقتها ووداعتها ثم هشاشة القبضة التى تمسك بها، قبضة طاهر زين الدين.

فالسيد ينجرف قلبه بهدوء إلى فوزية ولم تعد تشغله خميسة إلا فى حدود ما اختاره من دور رسمه لها فى غيبة منها لاستلام وتسلم طرود الحشيش. ومع ذلك فهو يكتب لها من

آن لآخر، بروح المحب الحريص على مستقبلها.. ولم تتوقف خطاباته الخاصة المكتوبة لها حتى عندما توقفت رسائله العينية إثر إشارة من بدير أن: «"تمهلوا" فالجو "غير مطمئن" والتجار يراقبون نشاطنا وصرت أخشى جانبهم».

وإن كانت خميسة قد أسعدها حرص فتاها على مصلحتها ونصيحته لها ـ قرب امتحانات الثانوية العامة ـ أن تترك الدكان لأخيها رجب حتى تتفرغ للمذاكرة، فإنها تمنت لو استمرت الرسائل حتى تنفذ ما اتفقت عليه مع نفسها أن تفتح إحداها للتأكد بما صارت تشك فيه من أنها فعلاً رسائل ليست بريئة كما أشار لها بذلك فريد هنيدى.

وعندما استمرت رسائلة الغرامية لاحظت الفتاة أن ذلك لم يقترن بتوقف رسائله العينية، ولكنها التفتت إلى أنه لم يعبأ كثيرًا بذلك الخبر التاريخى الذى كتبته له وتبشره فيه بقبولها منتسبة فى كلية الحقوق جامعة القاهرة.

* * *

ومع استئناف الرسائل التى يتلقاها بدير من مصر المحروسة ـ محمولة بيد شاب معروف الهيئة تأكدوا بطريقتهم أنه ممتد النشاط حتى حى الباطنية ـ لم يهجع رجال المكافحة ومعهم التجار المنافسون، وربما يكون على بن جوهر البقال قد انضم إلى هؤلاء مساهمة منه فى الإيقاع ببدير حال تسلمه إحدى رسائل الباطنية من خميسة.

كان الوقت فى غبشة المغرب، وكان رأفت إبراهيم يجلس على الدكة الخشبية يثرثر مع الصبى رجب عفيفى عندما هبطت خميسة بأبهى ملابسها من البولمان أمام الدكان قادمة من المدينة ومعها بعض المشتروات اللازمة للدكان.

قال لها رجب بصوت عال:

ـ «منذ نصف ساعة حضر الرجل الذى اسمه عنتر وترك لك هذه الربطة..»

أسرعت خميسة فوضعت ما بيدها من مشتروات داخل الدكان، ثم خرجت إلى منزلها مسرعة وبيدها اللفافة، ولم يمض كثير من الوقت حتى قدم بدير النحال، ثم لم يمض وقت أطول حتى جاء بوكس الشرطة فى أعقابه، فاندفع الجنود والمخبرون حول الدكان وإلى داخله.

بادر الجنود فأمسكوا باللفائف التى أتت بها خميسة من المدينة وأخذوا يفضونها ويبعثرون ما بها ثم انهالوا على الرفوف يعيثون فيها فسادًا..

حاول بدير النحال أن يفر من المكان فشدوا وثاقه بالقيود الحديدية حتى لا يفلت منهم، والضابط يوجه إليه سؤالًا بعينه: أين خميسة؟..

قرر رجب الصغير أن يلحق بأخته فى منزلهم حتى تأخذ حذرها.

انفلت من باب الدكان وهو يصيح كالمجنون: خميسة.. خميسة..

وكانت الدقائق القليلة الفارقة بين سرعته وسرعة الجنود خلفه كافية أن يخبر فيها أخته بما يحيطها من خطر، فدفعته إلى الخارج وأغلقت الباب على نفسها، ثم بدأت رحلة هروبها الطويل من فوق سطح منزلها.

* * *

وظل السيد النحال قلقًا على بضاعته ردحًا من الوقت وهو لا يعلم مصيرها كما لا يعلم مصير خميسة التى اختفت من البلد فى جنح الظلام، وتعجب كيف نجا رجلاه: عنتر مكاوى وشقيقه بدير من هذا الكمين المحكم.. وإن كان بدير النحال قد تم الإفراج عنه من سراى النيابة فذلك لأنه لم يضبط متلبسًا بحيازة مخدرات، فالرسالة الملفوفة التى جاء لتسلمها ووجدوها فى غرفة خميسة لم تكن سوى كميات من الكراسات والكشاكيل ومجموعة من الطرح النسائية، ولا يوجد بها آثار للحشيش.. إذن، فأين اختفت البضاعة رغم أن اختفاء جسم الجريمة أنقذهم جميعًا..؟

كان بدير قد أسرع إليه بعد يوم من الإفراج عنه، وأوقفه على كل التفاصيل وهو مأخوذ بالدهشة، فأين اختفت خميسة؟ وأين اختفت البضاعة ؟

* * *

فى اليوم الخامس لهذه الأحداث وجدها هناك.. تقف على الرصيف المقابل لمبنى المطابع..هادئة إلا من كدر يبدو جليًّا فى ملامحها.. نظيفة الثياب.. لا يبدو عليها الإرهاق.. لم تناده باسمه، لكنها أشارت إليه عندما يمم وجهه نحوها صدفة، فهم للتو أن خميسة تبحث عنه هنا منذ ثلاثة أيام على الأقل.. وهى الأيام التى انقطع فيها عن

عمله، وسخط على نفسه أنه لم يفكر فيما فكرت فيه فتاته الذكية أن تلوذ به في فرارها، فهي تحفظ عنوانه عن ظهر قلب من رسائلهما المتبادلة..

سار بجوارها وهمس لها: «اتبعيني..»

سارت خلفه في شارع القصر العيني حتى طال بهما المسير دون أن تسمح لنفسها بمحادثته رغم ابتعادهما عن موقع المطابع وضجة انصراف الموظفين..

دلف إلى باب مطعم تنبعث منه رائحة الشواء، توغل إلى عمق المطعم فتوغلت خلفه، جلس على منضدة ثنائية المقاعد فجلست أمامه.. سارع بضم يديها بين يديه فأسلمت راحتيها له.. تأملها بعمق وابتسامة منكسرة، فبادلته التأمل بابتسامة حزينة..

ـ حمدًا لله على سلامتك

ـ وسلامتكم جميعًا.. أنت وبدير وعنتر..

ـ شيء لم يكن في الحسبان..

ـ حسبان من؟.. أنا أم أنت؟

تلهى عن الإجابة بالنداء على الجرسون، لم يأخذ رأيها فيم تود أن تأكله، فطلب ما طلبه ثم عاد إليها:

ـ «خميسة؟»

ـ «نعم»

ـ «أنا في خجل شديد منك..»

ـ «وأنا في خجل من نفسي أمام أهل البلد.. آخر ما يمكن أن يقترن باسمي هو ترويج المخدرات، هل هذا يرضيك؟»

ـ «قلت لك إنني خجلان منك ومن نفسي»

ـ «ليس هذا هو المهم في نظري.. المهم أين الحب؟»

ـ «الحب؟ موجود أين سيذهب؟»

ـ «لا.. إنه غير موجود.. وذهب إلى حال سبيله منذ زمن بعيد.. منذ الوقت الذي

فكرت فيه أن تعرضنى لسجن مؤبد.. أسوأ ما خرجت به من هذا الحادث هو الاقتناع بأنك لا تحبنى.. وأنك تحب نفسك حتى الحدود التى تستدعى شنق حبيبتك..»

تنهد بحرارة مصنوعة وأرسل عباراته المملوءة بالشجن .

ـ «صحيح أننى كنت أنانيًّا، وألهث بجنون إلى جمع المال لكى أهيأ به لنا منزلًا يليق بك. إلا أن ما حدث نسف كل ما كنت أحرص ألا تعرفيه وهو أننى سلكت طريق الشيطان حتى أعثر على ملاكى الحارس».

وظلت منشغلة بتناول أول طعام يجمعها بالرجل الذى أحبته، إنه هو نفسه الرجل الذى نقمت عليه طوال الأيام الأربعة الماضية وهى واقفة بانتظار دخوله إلى مبنى المطابع.

كانت فى انتظار سؤاله المحتوم: كيف هربت؟.. وأين كنت تقيمين ؟

وراحت تعيد على نفسها دقائق اللحظات الحرجة التى هبت عليها فجأة مع نداءات شقيقها رجب وطرقاته المجنونة على الباب وأمامها طرد خبيث ملىء بقوالب الحشيش المغلفة بالسيلوفان والمحاط من كل جوانبه بعدد من الكراريس والكشاكيل وأغطية الرأس النسائية.

أسرعت فألقت قوالب الحشيش الواحد تلو الآخر فى الكنيف ولما غاصت البضاعة الثمينة فى بحر الفضلات رأت أنها قد عطلت مهمة التفتيش إلى حين طويل يسمح لها بالهرب..

وفوق سطوح البيوت المتلاصقة أسرعت بالفرار دون أن تأخذها لوثة الخوف، فهناك شىء ما بداخلها يحثها على الهدوء، وهناك رباطة جأش ألمت بأعصابها فأنارت لها درب الاختفاء فى نفق المجهول الذى لا ترى فى نهايته القائمة إلا صورته هو: السيد النحال.. نصيبها ومصيبتها.. حبيبها.. وخيبتها.. فرس رهانها الخائب.. ومنقذها بالغ الإجرام..

كانت قررت إلى أين ستكون وجهتها: «إليه هو، السيد النحال، فى مصر.. معى فلوس، وملابس نظيفة» وكانت واثقة أنها تفر إلى بعيد هربًا من جريمة لم تتورط بها حتى الآن، وإن جاء التورط فلن يكون من نصيبها.

ولما أطلعته على تفاصيل رحلة هروبها، كان أهم ما اطلع عليه وعرفه هو المكان الذى استقرت فيه بضاعته.. الكنيف.. وسط مخلفات الريس عفيفى وأسرته، وصار ما يشغله

ـحو كيف يمكنه إخراجها من هذا المكان.. فقال لها:

ـ إذن، فبضاعتى صارت بيد رجل واحد.. وهـو جمعه الصيفى الرجل الذى ينزح لكم لكنيف.

تعجبت أن بطلها لم يهتم فى روايتها إلا بمصلحته:

ـ «أراك لا تأبه بالسيف المعلق على رقابنا.. ومازلت مهتمًا بمصير بضاعتك..»

وبكل برود راح يجفف فمه بفوطة المائدة، وهـو يقول:

ـ «إنها كمية كبيرة.. كان السوق عطشانًا.. لو تعلمين ثمنها لالتمست لى العذر..»

ـ «أى عذر؟ جوهـر البقال نال على يديك ثلاث سنوات من السجن عن ثلاث قطع فى حجم عقلة الإصبع، وأبى قد يحكم عليه بالسجن المؤبد.. ألا تحمل هـمًا لـذلك؟ أليسـت لديك رحمة؟ أهـكذا تلقى بى إلى الهلاك أنا وأبى.. من أىّ طينة أنت مخلوق؟»

ـ «تمالكى أعصابك..لا تتمادى فى إهانتى.. أنت أكثر ما تكونين بحاجة إلىّ الآن..»

ردت عليه بهدوء:

ـ «لا تحمل هـم أعصابى فلولاهـا ما كنت أمامك الآن بكل ثباتى الـذى حملنـى فـوق سطح البيوت، وظلمة الحقول، ومتاهـة القرى حتى جئتـك إلى هـنا، أمـا عـن حـاجتى إليك فلا تظن أننى بحاجة إلى ذلك، حظى خدمنى أن كانت أغلـب أمـوالى فى حقيبتـى.. وبذلك سوف يصير أمرى بيدى..»

نهضت فجأة بما يشير إلى رغبتها فى الانصراف، فجذبها وأعادهـا إلى مقعدهـا، وسألها بدهشة:

ـ «أفهم من هـذا أننا صرنا خصمين؟»

ردت مسرعة:

ـ «عن نفسى، وبعد اكتشافى لموقعى عندك فإننا لم نعد حبيبين»

ـ «فقدت ثقتى عندك»

ـ «كان يجب أن أفرط فى هـذه الثقة منذ وقت مبكر يوم حاولت النيـل منـى فى الظـلام

عند نخيل الهنادوة وكان بيننا عهد سابق أن نتعامل كرجلين..»

ـ «يااه.. يا خميسة.. قلبك أسود..»

ـ «بالعكس إنه أبيض بأكثر مما يجب.. من الآن فهو أسود معك.. أنظر أين أنا الآن؟. وكيف سيتضور أخى جوعًا إن استولت صفية على الدكان»

ـ «ألن تعودى إلى البلد؟»

ـ «لو ضمنت لى أنهم لا يتربصون بى، وألا تكون صفية وأبناء جوهر البقال يراقبون وصولى»

خبط على جبهته كمن تذكر شيئًا:

ـ «إذن، فهم المتربصون بنا..»

ـ «ويعلمون علم اليقين أن الربطة التى نقلتها إلى منزلى من الدكان هى ربطة الحشيش..»

ـ «وكيف أتاك هذا الشك؟»

ـ «ليس شكًا.. على بن جوهر البقال نبه أبى إلى أن بديرًا يتسلم منى طرود تأتى من مصر بانتظام. طرود مشكوك فى أمرها وأبى حذرنى مثل فريد ورأفت، لكننى كنت مسروقة..»

ـ «مسروقة؟..»

ـ «والسارق يجلس أمامى الآن..»

اعتراه خجل جديد.. وتذكر حالة الحب الذى اعتراه يوم آمن بقوتها ونعومتها وهتف من قلبه: «إنها لى» وكتب شعرًا فى ذلك لم يتمكن من إكماله.. وتساءل أين ذهب هذا الحب؟.. من منا كان الأعمى..؟ هل كان السبب بُعدها عنه أم اقترابه من فوزية؟..

دفع الحساب.. وقام واقفًا ووجهه عابس:

ـ «هيا بنا..»

سارت بجواره وهـو يتجه بها إلى نيل الروضة.. لم يجب عـن سـؤالها: إلى أيـن؟ وظـل على صمته وهـو يسير بها على غير هـدى. ولما توقف فجأة كان ذلك ليسألها:

ـ «لماذا لم تكتبي لى بما كان يدور بينكم.. أنت وفريد وإبراهـيم وأبيـك وصـفية وعـلى جوهـر.. ألم يكن هـذا أفضل لآخذ حذرى..»

ـ «هـذا إذا كنت أنا على علم بما تفعله.. فرسائلك لى كانت تتحول إلى ملابس وأحذية وأدوات مدرسية لعائلتك.. ولم أكن أشك فيك..»

ـ «الآن فقط عرفت أننى ظلمتك»

ـ «لا بل دمرتنى.. وشردتنى»

ـ «ليس إلى هـذا الحد.. والدليل ما سوف أطلبه منك الآن»

فهمت بحدسها المتيقظ ما سوف يطلبه:

ـ «يبدو أنك ستعرض زواجك منى..»

ـ «والآن.. فورًا..»

ـ «وهـكذا ستؤكد للناس وأولهم أبى أننى كنت شريكتك..»

ـ «لم يخطر هـذا ببالى..»

ـ «ليس من المهم أن يخطر ببالك.. فعقلك الباطن تتحرك فيه منطقة اللاوعى بأكثر من الوعى نفسه.. أنت كسبان دائمًا حتى ولو لم تقصد ذلك..»

ـ «إذن، فأنت مكسبى..»

ـ «زوجة فى صورة خادمة، وقد توظفها فى ترويج بضاعتك.. وكله بالمجان.. فياله مـن مكسب..»

ـ «أنت رهـيبة»

ـ «تقصد ذكية.. لأنى صرت أعرفك جيدًا»

وعاوده الصمت وهـو يراها تنال منه بالتوبيخ الناعم حينًا، والهجوم الحاد أحيانًا.. ثم بهذا الصد الذى لم يتوقعه منها..

ساقها المسير حتى كوبرى الملك الصالح.. انعطف يمينًا فوق الكبرى.. اعترضت طريقه عجوز تتشح بالملابس السوداء تحمل غلقًا صغيرًا فوق رأسها. أوقفته بيدها وهى تضع غلقها على الأرض.. عرف أنها بدوية تضرب الودع وتقرأ الطالع، حاول أن يهملها ويستمر فى سيره.. جذبته مرة أخرى متوسلة أن يبقى لتقرأ له طالعه. دعت له بأشياء كثيرة منها أن يحفظ له تلك المليحة التى معه، لم يأبه بدعواتها وراح يجذب خميسة التى اهتمت بالعجوز وراحت تتفحصها وهى تنادى عليها:

ـ «**قرش واحد أتغدى به**»

تسمرت خميسة فى وقفتها وأخذت تبحث فى حقيبة يدها عن قرش، فأوقفها ضاحكًا:

ـ «**ماذا تفعلين؟ إنهم هنا أكثر من الهم على القلب.. ستظلين هكذا.. تفتحين حقيبتك طوال الطريق**»

رمقته بغيظ وهى تمد يدها بالقرش للمرأة:

ـ «**تقول إنها لم تتغد.. ونحن أكلنا كبابًا..**»

أمعن فى الضحك وهو يرنو إلى العجوز التى تصوب نحوه نظرات غاضبة.. فبادلها النظرات وهو يقول:

ـ «ما دمت حصلت على طلبك.. فهيا يه خبيرة.. اضربى رملك ووشوشى ودعك»

وبعد أن أدليا باسميهما ـ كما طلبت العجوز ـ أسند ظهره لسور الكوبرى وراح يراقب خميسة باستخفاف وهى تتابع ضاربة الودع باهتمام..

وكانت الكلمات الأولى موجهه إلى الفتاة والسيدة تحنو إليها بنظرات حب وامتنان:

الطيبة يا بنتى راس مالك

حتزيح الظلم اللى جرالك

وتنوّر لياليكِ الحالكة

وحتبقى أميرة أو ملكة

وتروحى لحُر مكان سجان

بس ارمى حمولك ع الرحمن

وراح السيد النحال يعابث قارئة الطالع، ويسألها من أين حفظت هذا الشعر المعاد الذى تقولينه لكل الناس. فرمقته المرأة بنظرة لوم:

يا معجبانى ارحم نفسك، يرحمك الله

هربان من القهر، وطايح فى عباد الله

جنة أمانك فى مغارة من غير مفاتيح

هربان من الماضى بحاضر، كذاب ومريح

اجر براحتك لنهاية ماالهاش ذكرى

لو النهاردة مش خايف، خاف من بكره.

استمر فى معابثته رغم ما سرى فى جسده من قشعريرة لا يدرى مصدرها، فإن ما سمعه من هذه المرأة الآن لا يمكن إلا أن يكون سوى شعر محفوظ له صاحب لا تعرفه هذه المرأة.. وهو شعر مكتوب فى شخص مثله.. أليست هذه الكلمات بها كل المفردات التى سبق له أن استخدمها فى شعره البائس: الخوف والمغارة والمفاتيح والسعى والهروب والذكرى والأمان.

سحب خميسة من يدها.. دون أن يعلق على «كلام ضاربة الودع..» وإن كان قد تمنى فى باطنه أن يعود إلى المرأة ليكتبه حرفًا حرفًا.

وكانت هى تفكر فيما سمعته من العجوز: الشر والسجن والمحنة الحالكة.. والشهم الذى سيصونها والسجان.. سجانها.. ثم ماذا عن الأميرة والملكة التى ذكرتها هذه المرأة..؟

توقفت فجأة:

- «إلى أين تذهب بى؟»

- «إلى النيل.. لقد اقتربنا منه جدًّا»

- «لماذا؟»

- «حتى ينشرح صدرك للحياة، أمام النيل العظيم.. باعث الحياة.. هذا هو»

وفى منتصف كوبرى الجيزة شهقت من الدهشة، فقد ظنته هو الفرع الصغير الذى يجرى أسفل كوبرى الملك الصالح.. لكنه بكل رحابته الآن أمامها قويًا جسورًا عفيًا ومليئًا بالكرم.

ـ «ما رأيك»

ـ «كريم.. وسخى»

ـ «المنظر»

ـ «لا يعنينى.. رغم جماله.. المهم: العطاء»

ـ «ستصبحين فيلسوفه يا طالبة الحقوق»

ـ «أكاد فعلًا أضع يدى على بؤس النفس التى تأتى منها الفلسفة.. أريد أن تأذن لى بالانصراف.. للمرة الثالثة»

ـ «إلى أين؟»

ـ «إلى حال سبيلى.. ولا تشغل نفسك بى»

ـ «صدقينى.. أنا أريدك.. لم أحس بك أكثر سوى اليوم.. أنا نادم.. اغفرى لى.. سأكون زوجك وصديقك وأباك وأخاك»

ـ «دعنى أفكر..»

ـ «سأقوم بتوصيلك إلى المكان الذى تقصدينه»

ـ «لا.. أرجوك.. امنحنى حريتى فى ذلك..»

ـ «وكيف سأعرف أخبارك..»

ـ «الخطابات.. كما قلت لك..»

ابتسم فى إشفاق:

ـ «نتراسل ونحن نعيش سويًا بالقاهرة»

أحست أنه يستدرجها ليعرف مكانها:

ـ «ومن قال لك أنى أعيش بالقاهرة؟ سيد أرجوك لا تتلاعب بى..»

ـ «آسف..»

ثم وضع يده فى جيبه.. وأخرج بطاقة صغيرة قدمها إليها: «السيد عباس.. شاعر..»

ـ «هذا تليفون عملى»

ـ «شاعر؟ تكتب فى بطاقتك شاعر؟»

ـ «ألديك شك فى ذلك؟»

ـ «لكن الناس تكتب وظائفها.. ولا تكتب هواياتها»

ضحك مليًّا وهو يرنو إليها بسخرية:

ـ «فى هذه الحالة يجب أن أكتب: حرامى.. مجرم.. حشاش.. هل هذا ما تقصدينه؟»

بادلته النظرة.. ولكن بمرارة.. وهتفت به:

ـ «سيد؟»

ـ «نعم..»

ـ «تذكر ما قالته لك قارئة الطالع منذ ساعة»

ـ «ماذا قالت لى؟»

ـ «ارحم نفسك.. وارحم من حولك»

ووقفت على الجانب الآخر.. فوقف معها.. وجاءت سيارة تاكسى.. أشارت لها.. ثم همست له:

ـ «لا تركب معى.. إياك»

توقفت السيارة أمامها..

تقدمت هى إلى الباب ففتحته وجلست، ثم رنت إليه بهدوء.

تذكرت أنها لم تصافحه..

لكنها هتفت به قبل أن تتحرك السيارة:

ـ «مع السلامة»



بنسيون السعادة ...

كان فتيان فتيان عبد اللطيف صريحًا ومباشرًا بالقدر الكافى وهو يتحدث مع أمير عباس النحال بسحنة مقلوبة فى غرفة اتحاد الطلاب بمبنى كلية التجارة.. جامعة القاهرة. عندما قال له:

ـ «أخوك اقترض منى مبلغًا، وأوهمنى أنه سيعمل به فى تجارة الموبيليا.. ومعى إيصال أمانة سوف أدخله السجن به.. لقد تلاعب بى وأعطانى عن طريق خميسة عنوانًا وهميًا لم أجده به، منذ هذه الواقعة.. تأكدت أن أموالى عنده فى خطر.. دلنى عليه وسأمنحك عشرين جنيهًا..»

ـ «إذن، فأنت أقرضته مبلغًا كبيرًا.. ما دمت سخيًّا هكذا فى رشوتى»

ـ «أنتم لا يملأ عيونكم سوى التراب.. خذ رشوتك وأعطنى العنوان..»

ـ «لا تحمل همًّا.. اعطنى فرصة.. سأتصل بك فى الوقت المناسب»

* * *

وأسرع أمير لأول مرة منذ أوائل الصيف الماضى إلى منزل فوزية بعين شمس فى يوم إجازتها. فجعبته مليئة بأخبار سيئة عن السيد لو تمكّن من وضعها أمام فوزية فسوف تنهار الصورة البرّاقة لضيفهم المبجل، وصديق أسرتها الرزين الذى تضعه الفتاة فى مكانة عالية قياسًا بمكانته هو كطالب جامعى.. فمنذ أن انسحبت من رحلة الإسكندرية فى يومها الثانى وهو يعيد النظر فى سياسته معهم جميعًا: السيد وطاهر وفوزية. هناك شىء ثالث.. يجب وضعه بين أى اثنين منهم.. السيد وفوزية.. أو طاهر وفوزية.. أو السيد

وطاهر.. شيء يشبه القلق أو يقترب من النفور أو كليهما معًا.

وفي ضحى يوم إجازتها، وفي غرفة الصالون، جلس قبالة فوزية التي ما جبرت خاطره حتى ولو بسؤال زائف عن سرّ غيابه، ومضى وقت طويل قبل أن يعيد تأمل وجهها ويكتشف أنه مليء بالحزن.

- «ما بك يا فوزية»

- «طاهر..»

- «ماذا به؟»

- «ورم الفخذ الذي عنده ليس كيسًا دهنيًّا..»

- «إذن، فهو كيس من أي نوع؟»

- «إنه ورم»

- «وما الفرق بين الكيس والورم»

ابتسمت الفتاة في إشفاق وأنهت المناقشة: «لا تشغل بالك.. ما أخبار السيد؟»

- «ظننت أني سأعرف أخباره منك»

- «لم يعد يحرص على زيارتنا مثلك حتى لقد ظننت أنكما اتفقتما على ذلك»

- «نما إلى علمي أنه يلهث خلف فتاه اسمها خميسة ليتزوجها، ومازال يهرب من رجل اسمه فتيان مدين له بمبلغ كبير.. فتيان هذا يسعى لإدخاله السجن»

قلبت فوزية شفتيها بامتعاض ولم تعلق، ولم يدر هل هي تمتعض منه أم من السيد؟ ولما لم يجد ما يقوله إثر صمتها.. ولما وجد نفسه يتحدث وحده قرر الانصراف.. وهو يلعن في سره ذلك الشيء الذي أصاب فخذ طاهر، وأصاب عقل فوزية حتى أنها لم تعد تلتفت إلى من يتحدثون معها.

* * *

أسرع فتيان عبد اللطيف إلى القاهرة إثر خطاب استدعاء وصله من أمير. تقابلا في الجامعة.. وتحرك به أمير إلى شارع القصر العيني.. ووقف به أمام أحد المباني.. ثم مد يده

نحوه:

ـ «يدك على المبلغ»

ـ «أى مبلغ؟»

ـ «العشرون جنيهًا»

ـ «سأعطيها لك عندما أمسك به»

ـ «لا تراوغنى.. وإلا سأنصرف حالًا»

راح يجذب له أوراق البنكنوت من حافظته وهو يحدثه بقرف:

ـ «إياك أن تخدعنى أنت الآخر.. سأنال منك بأسرع مما تتخيل»

وضع أمير المبلغ فى حافظته، ثم أشار إلى المبنى واللافتة:

ـ «هذا هو مكان عمله.. مطابع الصباح.. اجلس على هذا المقهى.. تربص لـه.. ستراه بنفسك ينصرف مع الموظفين.. عن إذنك..»

* * *

أما السيد النحال الذى يكره الصبر، فقد تحلى به رغم أنفه وهو يقطع مشاويره المتقاربة إلى جامعة القاهرة لعله يعثر على الطالبة المنتسبة خميسة عفيفى.. لقد غابت عنه عصفورته الشاردة بأكثر مما يجب، فحادث حملة المكافحة مضى عليه أكثر من ستة شهور.. ولقاؤهما الوحيد بعد الحادث لم يتكرر.. وبدير يؤكد له أن خميسة لم تظهر بعد فى البلد وأن الريس عفيفى يتحدث مع نفسه..

ولما طالت الشهور صار لبدير رأى آخر:

ـ «خميسة هربت بالحشيش.. كيف تواصل كل هذا الهروب بكل هذا الإصرار إن لم يكن لديها ما تنفق منه؟.. خميسة حويطة وذكية وضحكت علينا»

وكان للسيد تحليل مختلف:

ـ «خميسة لن تعود إلى منزل هى تعلم أن به لغمًا من الحشيش ملقى فى الكنيف.. أولاد جوهر البقال ومعهم زوجة أبيها كانوا يراقبون البضاعة.. وهم الذين أبلغوا عنها.. ومن

المؤكد أنهم فى انتظارها حتى يقدموها مرة أخرى للمكافحة لتعترف أن هذه بضاعتى وبضاعتك.. أولاد جوهر لن يناموا عنا.. وصفية لن تنام عن خميسة.. التربص قائم.. قائم..»

وعلى إثر ذلك قرر بدير أمرًا لم يتحدث به مع البسيد.

* * *

جمعه الصيفى كاسح المجارير وناقل مخلفات الأكنفة من بيوتها إلى الخلاء، لم يحدث فى حياته أن نزح كنيفًا فى مثل هذا المهرجان.

فعندما يلقى بصفيحتيه الواحدة تلو الأخرى المملوءتين من كنيف الريس عفيفى يقترب منه أحد ضباط مكافحة المخدرات دافنًا أنفه بمنديله اتقاء للرائحة ثم يرسل معه زوجًا من المخبرين يروحان ويجيئان معه وهو يحمل صفيحتيه المعلقتين على كتفيه بعصا غليظة تتدليان منها.

وفى البقعة التى اختارها فى الخلاء يلقى بحصيلته التى يسرعان بتقليب محتوياتها الزاكمة بعصا طويلة وقد عصبا مناديل فوق أنفيهما. أما أهل البلد، فهم موزعون حسب اختيارهم فيما بين الوقوف أمام منزل الريس عفيفى أو التحرك مع جمعة الصيفى أو انتظاره عند المقلب المختار ليروا خبيئة الحشيش التى جاءت الشرطة لضبطها فى هذا المكان العجيب.. وهم فى كل أماكنهم يطلقون الدعابات الساخرة حول هذه المهمة التى تتولاها الحكومة بتجريدة عالية من الضباط والجنود..

وينتهى البحث بالعثور على أربعة قوالب من الحشيش مغلفة بإتقان شديد داخل لفائف من المشمع اللامع، وتم اقتياد الريس عفيفى وزوجته صفية دياب إلى مركز الشرطة، المرأة تصيح وتلطم خديها وتهذى بأسماء ولدى النحال بدير والسيد «لأنهما أس البلاء»، والرجل مشمول بالصمت والكدر ولم يبدِ اعتراضًا على كلامها إلا عندما ذكرت اسم ابنته.. لحظتها لكزها بقوة ثم عاد إلى صمته من جديد.. وفى مقدمة البوكس الذى حملهما كان ضابط الحملة سعيدًا منتفخ الهيئة لنجاح حملته دون أن يعزى هذا النجاح إلى صاحبه.. وصاحبه مجهول.. فالبلاغ الذى أُفشى به هذا السر جاءه خاليًا من التوقيع .

لم يعنف أخاه بديرًا على سوء فعلته، ومع هذا فقد داخلته السعادة لأنهم قبضوا على الريّس عفيفى وزوجته.. إذ عاد فقال لأخيه: «خيرًا فعلت.. فلم يعد أمام خميسة إلا أن ترتمى فى أحضانى وتظهر من مخبئها..».. ثم راح يردد:

ـ «سوف نجىء.. سوف نجىء.. لم يعد لديها سوى أن تجىء»

ومرت الأيام والأسابيع دون أن تظهر له خميسة أو تحدثه بالتليفون.

فقرر أن يعاود تحركه العشوائى إلى كلية الحقوق بحثًا عنها ـ رغم علمه أنها منتسبة بهذه الكلية وليست منتظمة ـ فقد يتصادف أن يعثر عليها.

وتسلح بمزيد من الصبر وهو يحقق عشرات المشاوير التى يجوس فيها تجمعات الطلبة والطالبات باحثًا منقبًا سائلًا دون جدوى.

وفى لحظة مواتية وقبل أن يهبط من التاكسى أمام الجامعة لمحها تقف على محطة الأتوبيس، عرف أنها منصرفة إلى منزلها.. اتفق مع السائق أن يتبعاها.. استقلت أتوبيسًا.. ظلا يتبعانها حتى هبطت منه فى ميدان رمسيس.. ترجلت عند مسجد أبناء عنان متجهة إلى شارع إبراهيم باشا.. ترجل خلفها.. توغلت فى سيرها حتى منتصف الشارع.. توقفت فابتاعت شيئًا.. ظل ينتظرها.. انعطفت يمينًا بشارع صغير.. لمحها تدخل عمارة تحتل ناصية الشارعين.. قرأ اللافتات.. أسماء شركات.. وأطباء.. و.. بنسيون السعادة.. إذن، فهى تقيم به.. اقترب من المدخل.. دفع بابه الثقيل.. تقدم من الحارس النوبى.. سأله عن البنسيون.. عرف أنه يحتل ثلاثة أدوار.. سأله عن الآنسة خميسة التى تسكن به.. «فى أى دور تقيم؟»

قال له الحارس: المزمازيل خميسة موظفة فى البنسيون مع مدام مارى، هى المسئولة عن البازار.. اضغط على الثالث فى المصعد.

فغمغم السيد وهو ينصرف: «ليس الآن.. ليس الآن..»



٢٠ أرض الزيتون ...

جلس فى ركن قصى من الهول الواسع بعيدًا عن مرمى بصرها يراقب فتاته الشاردة بعقل شارد مفعم بالأحاسيس المضطربة.. ورأى أنها ازدادت جمالًا وأناقة.. كما رأى أنها تتعامل مع زبائنها القلائل فى البازار بلطف واضح.. هكذا كانت فى دكانها العامر بالبلد.. إذن، فهذا هو العمل الذى لاذت إليه واستوعب وقتها واستغنت به عنه .

شاهد خوجاية فى خريف العمر خفيفة ورشيقة تهبط من الدور العلوى وتتجه إلى البازار، تحدثت مع خميسة. ثم تمضى إلى عمال الكافتيريا فتتحدث مع أحدهم، ثم تدلف من أحد الأبواب وتختفى فى الداخل.. إذن، فهذه «مدام مارى».. صاحبة الفندق أو القائمة بأعمال المدير.. وإذن، فهى التى احتضنت خميسة طوال الشهور الماضية.

لم يسبق له أن جرب شرود العقل واضطراب القلب والتردد فى أن يقوم بعمل ما أو لا يقوم به.. وياللمهزلة: فهذا العمل هو أن يتقدم من خميسة ويفاجئها بوجوده، فأول ما سوف تسأله عنه هو: كيف عثرت على؟ وإذا كذب عليها فسوف تشم رائحة كذبه، فهذه الرائحة سريعة النفاذ إلى أنفها بحكم ما قد كان..

وضع نظارته السوداء، واتجه صوبها، وقف لصيقًا برخامة الكاونتر لم تكن قد عرفته وهى مشغولة بشىء فى يدها. سمعت الواقف أمامها يطلب طلبًا غريبًا:

ـ «علبة كليوباترا على الحساب يا خميسة»

التفتت مسرعة ناحيته.. وكتمت شهقة الهلع والمفاجأة.. وتلفتت حولها.. ثم قالت:

ـ «ما دمت قد جئت فتعامل معى كأنك لا تعرفنى»

همس لها وهو يتلفت حوله كما فعلت هي:

ـ «أنا فعلًا لا أعرفك..»

فردت عليه بحزم:

ـ «وأنا لا أود أن أعرفك»

ـ «لك الحق، فهروبك مني ثمانية شهور كاملة هو أقوى دليل على ذلك»

ـ «ومن قال إني هاربة منك.. كل ما هنالك أنك شخص غير موجود في حياتي..»

ـ «إلى هذه الدرجة»

ـ «ليس لأني كرهتك، ولكن لأني كرهت نفسي عندما وثقت بك، وبعت كل من حذروني منك وأولهم فريد هنيدي»

ـ «أفهم من هذا أن فريدًا يتصل بك»

ـ «وكيف تظن أنني كنت أتابع قضية أبي الذي دمرته.. ببلاغك الشنيع ضده»

ـ «ستعرفين الحقيقة فيما بعد.. هل فريد يزورك هنا؟»

ـ «بت أخشى أن أمدك بأي معلومات»

اقتربت منهما «مس ماري» قادمة من عمق الهول فهمس أمام خميسة: «مس ماري» وواجه السيدة بابتسامه واسعة.. فبادلته ابتسامته وهي ترنو إلى خميسة بنظرة تساؤل.. وما لبثت أن فوجئت به يتقدم منها بأدب ويصافحها:

ـ «السيد عباس.. ابن خال خميسة.. رجل أعمال»

تهلل وجه الخواجاية:

ـ «الله.. أنت أيضًا من أقاربها.. كلكم أشخاص مبهجين.. هكذا رأيت البطل فريد و..»

فأكمل لها: «.. ورأفت..»

ثم تابع الإكمال ليثبت جدارته:

ـ «وأخوها رجب.. ولد لذيذ وذكي»

ضحكت الخواجة من قلبها:

ـ «ولكن لماذا لم تكن تحضر معهم إلى هنا؟»

ـ «أنا أسافر كثيرًا.. ولكن من الآن سوف أواظب على زيارتكم..»

ـ «إذن.. أترككما الآن»

وألقت بنظرة نافذة إلى خميسة ومعها ابتسامة مشجعة، فهذا «الدونجوان» الأنيق يبدو لها شخصًا مختلفًا عن هؤلاء الذين جاءوا قبله..

وما إن ابتعدت مس مارى حتى التفتت إليه خميسة بغيظ مكتوم:

ـ «ما هذا الذى قلته؟ وماذا تريد منى؟ ألا يكفيك هذا الدمار الذى سببته لى..؟ »

ابتسم ببرود: «سأجيبك بشيء واحد» وراح يردد أشعاره فيها:

هى ليّة.. هى ليّة.. مستحيل هتكون لغيرى.. راضية بىّ وعايشة فىّ.. وقمحها مبدور لطيرى.. يا خميسة يا ونيسة.. ياللىّ حبك فى ضميرى..

تذكرت هذا الكلام الذى كتبه فيها.. فخُطف قلبها.. ودعم حبها.. وأغرقها فى بحر الأحلام العذبة.

ـ «أنت تذكرنى بمرض عارض شفيت منه»

ـ «أنت واهمة.. لا شفاء من الحب إلا بالزواج»

ـ «هذا دواء لا يناسبنى»

ـ «قولى ما تشاءين.. أنا أثق أنه كلام من وراء قلبك.. سأتزوجك»

ـ «أنت رجل عجيب.. أتفعل بى كل ما فعلته، ثم تأتى لتعرض على الزواج؟.»

ـ «ومن قال إننى أعرض.. أنا أتمم.. جئت أنفذ اتفاقًا رست عليه القلوب..»

ـ «أى زواج؟.. وأنا مذبوحة.. ألا ترحمنى؟..»

ـ «ارحمينى أنت..حبك هو الذى سيشفينى.. وأرجو أن تفتحى لى قلبك فى زيارتى القادمة..»

* * *

دعاها بالتليفون ـ الذى احتفظ به من اللافتة ـ أن تلحق به الآن بكازينو صفية حلمى، قررت وهى تضع السماعة ألا تثير حماقته وتهيج الجانب القاسى فى شخصه العنود.

ولما صعدت إلى غرفتها وأبدلت ملابسها، واستأذنت لساعتين أيقنت مارى بحاستها الأنثوية أن لهذه الأناقة علاقة وطيدة بقريبها الوسيم الذى كان هنا منذ عدة أيام.

وعادت بعد ساعتين بحال مختلف.. ورأس أقل صلابة.. لكنها مذهولة.. فالحب الذى ظنته وهمًا عنده، رأته الآن لم يغادر قلبه منذ أن كتب فيها شعرًا.. أما الدموع التى لمعت فى عينيه وهى تروى له عن أحزانها الحالكة التى عاشتها فى الأيام الأولى لهروبها من البلد، فقد أكدت لها أنه ما زال يحمل قلبًا رقيقًا.. روت له رحلتها منذ ألقت بنفسها فى أول لوكاندة رخيصة بمحطة مصر.. ولم تكن تخرج إلا لكى تبحث عنه عند المطابع وتعود فارغة.. وكيف كانت تقضى باقى نهارها وكل ليلها حبيسة الغرفة.. خائفة من الناس.. خائفة من الشوارع.. خائفة من سرقة أموالها.. تمعن فى غلق بابها على نفسها وهى تسمع عبر الحوائط المجاورة كل ما يجرح المشاعر ويقزز النفوس.. «هل هذه هى القاهرة..؟» ثم قابلته وعادت باكية لا ترى لنفسها أملًا فى شىء قريب، أو خطة بيدها، أو فعلًا ما يمكنها أن تقوم به..

كان صاحب اللوكاندة العجوز يراقب زبونته الشابة الرائقة التى لا تخرج من غرفتها إلا نادرًا ثم تعود ببعض الملابس المبتاعة توًّا، عرف أنها عندما قصدت المبيت عنده لم تنم إلا جالسة ليلتها.. فلم يكن معها حقيبة ملابس.. وعرف أنها فيما بعد راح تكوّن هذه الحقيبة بالقطاعى..

سألها:

ـ «ما بك يا ابنتى؟»

ـ «لا شىء يا سيدى..»

ـ «أراك وحيدة تائهة.. عم تبحثين؟»

ـ «أبحث عن نفسى..»

ـ «لن تجديها ما دمت فاقدة التركيز»

ـ «وكيف يتسنى لى ذلك؟»

ـ «حددى مطلبك القريب.. لا توهمى نفسك بمطلب بعيد..»

ـ «أريد عملًا..»

ـ «اتركى لى هذا الأمر.. أمعك شهادة؟»

ـ «الثانوية العامة..»

ـ «خيرًا.. إن شاء الله..»

وشاء الله أن يأتى الخير على يدى عجوزها الطيب عندما قال لها:

«ارتدى أفضل ما عندك وتعالى معى». وسيرًا على الأقدام.. وصلا إليها .. «السيدة مارى».

ـ «هذه هى خميسة..»

عرفت أنه يؤدى معها مشواره الثانى إلى هذا الفندق الأوسع.. والأجمل.. والأفضل..

وانتهت المقابلة الحميمة بوعدٍ منها لصاحبة العمل:

ـ «أوراقى فى الكلية.. سأنسخ لك صورة منها».

«مارى الآن صاحبة عملى.. وأختى الكبرى.. وصديقتى.. فاضلة.. رقيقة.. لم تسألنى عن أمر يشغلها نحوى إلا إذا تحدثت عنه بخاطرى.. ولذا فهى لا تعرف قصتى معك.. وقصتنا مع أبى.. لكنها شاهدت تباعًا استدعائى لرأفت أولًا بخطاب.. ثم حضوره مع رجب فى سرية.. ثم حضورهما مع فريد هنيدى.. قلت لها: إن أبى مات.. وأمى ماتت من زمان.. يا مدام مارى»

استدعى طبقة الحنان فى حنجرته، وقال لها:

ـ «يا خميسة.. أنا أبوك وأمك وزوجك.. وحبيبك.. سأذهب إلى أبيك بالسجن.. وأخطبك منه.»

قالت له معترضة:

ـ «أنت الأحق بالاعتقاد أن أبى قد مات.. وليس مدام مارى.. انس أبى..»

ـ «إذن، سأخطبك من مدام مارى..»

ـ «دعنى أفكر»

ـ «تفكرين فى ماذا؟»

ـ «فى إمكانية الزواج بك.. رغم أنى أكرهك»

* * *

قال لنفسه:

ـ «خميسة لن تعود إلىّ بسهولة، خميسة الآن محاطة بفريد هنيدى المفتون بنفسه، ورأفت إبراهيم الغلبان، الذى يبحث عن نفسه، وبينهما رجب عفيفى الصبى المتورط فى مشاهدة أحداث أكبر من أن يستوعبها. ليس لى إلا «مس مارى».. هى التى ستجمع شملى بها..»

فى اليوم التالى قصد البنسيون فى طابقه السفلى وجلس فى ردهة الانتظار، وإلى أن ظهرت الخواجاية فى الطابق ـ الذى لا تسكنه خميسة ـ كانت منفضة السجائر أمامه قد امتلأت بالأعقاب.

لمحته من بعيد، فأرسلت بصرها إلى الطابق العلوى كأنها تقول له: «فتاتك هناك .. فى الأعلى» أسرع فأفهمها أنه جاء لمقابلتها بعيدًا عن خميسة.. وأنه يمر بأزمة فى علاقته بها:

ـ «وأنا بحاجة إلى وقوفك معى، وسوف تنيرين لنا طريقنا معًا.. أنا وخميسة..»

ـ «ما هى خميسة بالنسبة لك؟»

ـ «حبيبتى.. وخطيبتى..»

ـ «لم تقل لى إنها مخطوبة..»

ـ «هذه هى المشكلة.. لأنها فسخت الخطبة من طرف واحد..»

ـ «يخيل لى أنكما تقابلتما بالأمس..»

ـ «جلسنا لساعتين.. والنتيجة صفر.. أرجوك التدخل، فأنت أهم ما فى حياتها كما قالت لى.»

ـ «أوه.. خميسة؟ صارت قطعة منى.. ستظل معى حتى تحصل على الليسانس، هذا إذا

واصلت أنا الحياة بمصر»

ـ «أنا فى سباق مع الوقت. فظهور فريد هنيدى ورأفت إبراهيم هنا أثار غيرتى وخوف أن يكون أحدهما قد استهالها»

وسرحت مارى ببصرها بعيدًا.. ثم هزت رأسها خفيفًا ونظرت فى ساعتها:

ـ «عندى موعد مع صديقتين فى حلمية الزيتون.. تعال معى نتحدث سويًا فى سيارتى حتى هناك .. انتظرنى أسفل الفندق الساعة السادسة ما هذا؟.. هل دخنت كل هذه السجائر؟»

* * *

جلس بجوارها فى سيارتها الفيات الصغيرة فسألته عن الأعمال التى يقوم بها، وكان من السهل أن تسعفه قريحته النشطة بعدد من النشاطات المتعددة بدأها بتجارة الموبيليا، ثم انتقل إلى نشاطات مخترعة، فراح يتحدث عنها بكفاءة تامة بدأها بالتجارة فى المحاصيل الزراعية التى تكلفه القيام بالسفر فى سائر المحافظات فى مختلف المواسم، وأنهاها بالسمسرة فى العقارات.

رمقته السيدة مارى بإعجاب شديد:

ـ «أرى أنك شاب مكافح وذكى، فما الذى لايعجبها فيك.. خميسة؟»

ـ «إننى دبلوم صنايع، وإنها جامعية ستحصل على الليسانس.»

ـ «بسيطة، أحصل أنت الآخر مثلها على الليسانس.»

ـ «تلك هى المشكلة، ليس لدى وقت أو طموح علمى.. طموحى كله اقتصادى..»

ـ «هل هذه هى المشكلة؟..»

ـ «قام بعض الناس بوضع وقيعة بينى وبينها.. إننى تعرفت على فتاة أخرى..»

ـ «لعلك تقصد هذا البطل المتناسق فريدًا وزميله رأفت»

ـ «ليس هذا وقت الحساب معهما، لن أشغل نفسى بهما»

ـ «لكن يبدو لى أنك فعلًا تعرفت على فتاة أخرى مما أثار غيظ خميسة..»

ـ «بصراحة نعم.. لكنى أنكرت ذلك عنها..»

ـ «وماذا عن البنت الأخرى.. هل مازلت على علاقة بها..؟»

ـ «الأخرى لا تصلح لى.. وأن ما ربطنى بها كان نزوة عابرة.. لذلك ودعتها إلى الأبد..»

تنهدت السيدة مارى بارتياح ، ولاحت له فرصة التحدث معها بموضوع آخر كان يشغله:

ـ «لماذا قلت لى إنك قد لا تواصلين الحياة بمصر؟»

ـ «هذا موضوع يطول شرحه..»

بادلها الصمت قليلًا، ثم عاود اقتحامها: «هل هناك ما يضايقك؟»

ـ «تستطيع أن تطلق على ما نحن فيه كلمة الخوف وليس الضيق»

ـ «إذن، فأنت لست بمفردك؟.. أراك تتحدثين بصيغة الجمع»

ـ «كلنا..»

ـ «من أنتم..؟»

ـ «نحن أصحاب الأملاك.. الأجانب الذين يعيشون هنا. هل فهمتنى؟»

ـ «أجل.. فهمتك.. موضوع التأميم الذى بدأه عبد الناصر»

ـ «ها نحن قد وصلنا..»

قاطعته وهى تقف بسيارتها أمام فيلا من دورين محاطة بسور طويل يجمعها بأرض واسعة.. هاله أن السور يمتد حتى نهاية الشارع.. وتناهى إلى سمعه نباح كلب بالداخل.

هبطا من السيارة فى وقت واحد ليلحق بها.. تقدمت نحو البوابة المواربة.. أخذ يتأمل قوامها الممشوق والجوب الواسع ذا الكسرات الحادة والبلوز الزهرى، تمهلت حتى يقترب منها وهمست له:

ـ «صديقتاى تعيشان وحدهما فى هذا المحيط.. لا يؤنسهما سوى هذا الكلب..»

أرسل بصره عن يمينه فهاله هذا الفراغ الممتد الذى ينتهى بسور بعيد فسألها:

ـ «كل هذه الأرض تتبع هذه الفيلا..؟»

ـ «خمسة أفدنة..»

لمح سيدة تخرج إلى الفراندة باحثة عن الضيف القادم بعين كليلة ظللتها براحتها لتتبين ضيوفها فى غبشة المغرب، فعلا صوت مارى:

ـ «أنا مارى يا أبلة بشاير ومعى ضيف عزيز.. اتفضل يا أستاذ سيد»

وفى صالة الاستقبال الواسعة راح يتأمل البراويز المذهبة الضخمة التى تحمل صورًا لبكوات وبشوات عظام بالطرابيش على رءوسهم، والشوارب المفتولة فى وجوههم، والابتسامات الهادئة على شفاههم، ثم تعلق بصره بلوحة زيتية مستطيلة لصائد يمسك ببندقيته وعلى رأسه قبعة يركض خلف كلابه التى تعدو مسرعة نحو طائر يسقط جريحًا مخضبًا بالدماء.. كان الرسام بارعًا فى تجسيم ملامح فرحة الصياد، ولوثة الكلاب وانكفاء الطائر المقهور..

تحركت حاسة الشاعر بداخله، وراح يفسر معنى هذه اللوحة، ووجد أنها تلخص معركة الحياة والبشر، فهناك الصيادون والمصطادون وهناك الكلاب التابعة ثم الطيور البريئة، هناك من يحسن التصويب فله الحياة، ومن يتقى الإصابة فله النجاة، أما من يصاب فله الموت والندم؛ لأنه لم يشرع سلاحه أولًا..

أفاق على مدام مارى تخاطب مضيفتها بشاير:

ـ «لم أسمع صوتًا لأبله حكمت.. هل هى نائمة؟»

أجابتها بشاير:

ـ «تعانى من صداع، ولو عرفت أنك هنا فسوف تتحامل على نفسها وتحضر.. لم تقدمى لى ضيفنا العزيز.. هل أنت صحفى؟»

أمسك برباط عنقه الحريرى، وتنحنح بحثًا عن إجابة فسبقته السيدة مارى بالإجابة:

ـ «إنه رجل أعمال.. يمت بصلة قرابة لخميسة»

رفعت بشاير حاجبيها دهشة:

ـ « وأين كنت؟.. لم نرك من قبل.. خميسة إنسانة مهذبة ولطيفة فيم تعمل؟..»

ـ «أعمال متعددة.. تعرفها مدام مارى.. تجارة الموبيليا.. والحبوب ومواد البناء..»

ـ «أنت صغير.. كيف أمكنك أن تتولى كل هذه الأعمال؟»

وما إن خرجت بشاير لتحضر لهما مشروبًا حتى اقتربت منه مارى:

ـ «يمكننا أن نكمل موضوع خميسة.. فما الذى يمكننى أن أقدمه لك؟.»

سرح ببصره قليلًا، ثم قال لها بشكل مفاجئ:

ـ «فلنؤجل ذلك الآن.. السيدة بشاير.. والسيدة حكمت.. هل يمتان لك بصلة قرابة؟»

ـ «هن تركيات .. وأنا يونانية .. نشأنا هنا فى مصر منذ الصغر..»

ـ «وهل هن يسمعن نصيحتك؟»

ـ «طبعًا..»

ـ «إذن، فلماذا لا تنصحينهما باستغلال هذه المساحة من الأرض المحيطة بالفيلا؟»

ـ «وكيف يمكنهما ذلك؟ هل لديك ما يمكن أن ننصحهما به»

ـ «المهم أن يوافقا على مبدأ استغلال هذه الأرض.. والأفكار الكثيرة..»

هكذا قال لها، وجلس ينتظر إجابتها إلى أن تحدثت:

ـ «قبل الثورة بعامين كان أخوهما الوحيد سيشرع فى إقامة عدد من الفلل بنفس طراز هذه الفيلا لكن القدر لم يمهله ومات فى حادث.. كم قدمت لهما النصيحة أن يعرضاها للبيع ولم يتشجعا خوفًا من الرجال».

ـ «أى رجال؟»

ـ «الأزواج.. كل واحدة كانت تملك زوجًا كزوج الأحذية، تخلصا منهما بسهولة واحدًا عقيمًا زوجته سليمة، وواحدة عاقرًا زوجها سليم!!»

ظهرت بشاير عند مشارف الصالة تحمل صينية فضية عليها أكواب الشاى. هَب من جلسته فى رشاقة وأدب وحملها عنها ووضعها على المنضدة، فقالت مارى:

ـ «الأستاذ السيد يلومنى لأنى لم أجد لك مشروعًا لاستغلال أرضك الفضاء هذه..»

أطرقت بشاير برأسها قليلًا.. ورفعت رأسها نحو السيد:

ـ «من يمكنه أن يجرؤ على التفكير فى مشروعات ونظام التأميم يمضى على أشده..»

أجابها مسرعًا:

ـ «هذا أدعى للأخذ برأيى.. لا تتركوا هذه الأرض خالية، حتى لا تأخذها الحكومة»

تبادلن النظرات بما يعنى أن هذا الأمر كان مطروحًا بينهما إلى أن سألته بشاير:

ـ «هل ممكن لجمال عبد الناصر أن يفكر فى ذلك؟»

ـ «لا أدرى، ومع هذا فلا مانع من التحوط»

اعتدلت بشاير فى جلستها أمامه، ثم تعلقت ببصرها نحو مارى:

ـ «يبدو أن بيعها هو الأفضل، ولكن من يمكنه أن يشترى هذه المساحة الكبيرة»

اختار أن يسرع بالانصراف بعد تناول الشاى:

ـ «عن إذنكم.. عندى عمل.. وإذا توصلتما إلى فكرة سأتصل بكما..»

ألقت براحتها فى الهواء.. كأنها تهش ذبابة:

ـ «أى شىء تفكر فيه لنا أعرضه على مارى أولًا.. هيا بنا يا مارى إلى حكمت فى سريرها.. سعيدة يا ولدى..»

* * *

وعندما وصل إلى الميدان جدّ فى البحث عن تليفون ليتحدث منه مع خميسة:

ـ «أنا السيد.. سأقول لك شيئًا واحدًا.. أنا اختصرت الطريق وأدخلت مارى فى موضوعنا..»

ـ «وماذا قلت لها؟»

ـ «لا تخافى.. قلت لها إنى كنت خطيبك.. وأخطأت فى عمل علاقة مع فتاة أخرى.. وأنت تشترطين على الحصول على شهادة جامعية..»

ـ «متى تحدثت معها؟»

- «فى الطريق إلى فيلا حكمت وبشاير بالزيتون»

- «ووصلت إلى هناك أيضًا؟»

- «وسأظل هناك..»

- «ماذا تقصد؟..»

- «بشاير طلبت منى أن أبحث لها عن مشروع للأرض المحيطة بالفيلا.. فلا تتخلى عنى..»

- «أنا لا أثق بك..»

- «الله يسامحك.. »

- «ابتعد عن طريقى يا سيد»

- «لن أبتعد؛ لأنى عثرت عليك بمعجزة»

- «ليس أمامى إلا الاستنجاد بفريد هنيدى»

- «لو تعرض لى سأقتله..»

- «أنت مجنون»

- «حتى الآن ما زلت محتفظًا بعقلى الهادئ»

- «لن أعبأ بتهديدك»

- «كما يحلو لك.. لا تتحدثى مع مارى بشأنى إلا إذا تحدثت هى معك..»



براثن الأيدي الناعمة..

عرجت فى قلب أمير النحال حسرة وهم يقلدون فريد هنيـدى بطـلًا أول بالجامعـة فى كمال الأجسام، ومع ذلك فقد تمكن من تحويل حسرته إلى سيل من المـديح راح يكيلـه لـه أمام الناس مركزًا على أنه «ابن بلدنا الغالى» دون أن يعلـم أن فريدًا ينتظر اللحظـة المواتيـة ليقول له ما عنده، وعندما جاءت اللحظة قال فريد ما عنده لأحد أبناء النحـال الثلاثـة.. بدير.. وأمير.. والسيد.. فطالبه أولًا أن يخجل من نفسه ويبتعد عن طريق طاهر وفوزيـة، ثم طالبه ثانيًا أن ينصح السيد أن يخجل هو الآخر من نفسه ويبتعد عن طريق خميسة..

- «**يكفى أنه شردها وتسبب فى حكم بالسجن لأبيها وزوجته، ما لكم هكـذا تـدمرون الناس؟ ولماذا تتركون خلفكم الخراب أينما سرتم؟.. وأنت أيها النـذل كيـف تبيـع أخـاك بعشرين جنيهًا.. ألا تخجل من كونك بعت البلد وبعت أمـك وأبـاك وإخوتـك ولم تفكـر مرة واحدة فى السؤال عنهم**»

وأسرع أمير إلى السيد ونقل له كل الشتائم التى أرسلها فريد هنيـدى لهـما عـدا صـفقة العشرين جنيهًا.. والحقيقة أن ما كان يسعى إليه أمير ليس نقل هذا اللقاء العاصف بقـدر ما كان يصبو إلى معرفة أخبار خميسة الهاربة..

وعندما بدأ فى الالتفاف حول هذه النقطة كشفه السيد، وأنهى اللقـاء بقـدر كبـير مـن القرف والسفالة.

* * *

ورغم حصوله على شرعية التواجد من آن لآخر فى أفق خميسة، إلا أنه وتبعًا لنصيحة مـارى

ابتعد مؤقتًا عنها، ولأنه قد عثر على ما هو أهم منها: «أرض الزيتون» فقد استسلم للنصيحة.

وفى لقائه الدائم برجله عنتر مكاوى على مقهى اللواء فى المبتديان، وبعد أن اطمأن على سير عملها النشط فى ترويج الحشيش بعين شمس وعزبة النخل والمرج، وأخباره مع الصبيان الذين يجندهم تباعًا، والكبار الذين يؤدى لهم خدمة التوصيل بنفسه فى أوقات محددة، تمطى السيد النحال ودفع بظهره إلى ظهر المقعد، ثم رمى بساقية الطويلتين إلى الأمام وهتف به:

ـ «عنتر»

ـ «أمرك.. يا معلم»

ـ «نريد حوالى خمسين سيارة نقل.. أو أكثر»

ـ «نقل بضاعة؟»

ـ «أجل..»

ـ «ما البضاعة التى سننقلها..؟»

ـ «لن ننقل بضاعة..»

ـ «إذن، فلم تريدها؟»

ـ «سنضعهم فى جراج»

ـ «تقصد أن نجمعهم من الشارع ونؤويهم فى هذا الجراج من قبيل الصدقة أو معونة الشتاء؟»

ابتسم السيد فى استخفاف لكثرة ما يثير به عنتر فى محاورات من هذا النوع..

ـ «فعلًا.. الشتاء قادم.. وهذه السيارات بحاجة إلى تدفئة..»

ـ «وإلى أن يأتى الشتاء سأكون دبرت للسيارات عددًا كافيًا من البطاطين»

ـ «ربنا الشافى يا عنتر.. بطاطين للسيارات؟»

ـ «وماذا أفعل لك؟ أكاد أجن من كلامك»

ـ «سأقول لك ماذا تفعل لى.. اسمع يا سيدى»

وراح يقص له قصة الأرض التى ستئول إليه بالشراء من أصحابها، وحتى لا يدفع ثمنها ويتركها خالية فقد فكر فى خلق استثمار لها قبل شرائها.. والأمر يتطلب التعرف على عدد من الشركات التى لا تملك مأوى لسياراتها لتأجير هذه الأرض كإيواء لها.

وبعد عدة أيام جاءه عنتر متهللًا:

ـ «وجدته..»

ـ «من؟..»

ـ **«السيد فايز فودة.. أتتذكره..؟»**

ـ **«الذى يسكن فى شارع السباق؟»**

ـ **«إنه هو..»**

ابتسم السيد فى استخفاف وهو يتذكر زبونهما، ذلك الإقطاعى المفلس:

ـ **«أليس هذا الذى ما زال مدينًا لنا بثمن أربعة قروش حشيش؟»**

ـ **«لا، ليس هو.. أقصد ليس صاحب السيارات..»**

وراح يشرح للسيد قصة الحوار الذى جمعه ذات مرة مع فايز بك عن شلة الأنس التى يعقد لها سهرات مزاج من آن لآخر فى الروف المشجر الذى يعلو مسكنه، فمنهم رؤساء شركات.. ومنهم محامون لهم سمعتهم.. ومنهم أطباء مشهورون، وفيهم أحد أشقاء عضو مجلس قيادة الثورة الذى يدير شركة نقل بها أكثر من ثلاثمائة سيارة..

أزاح السيد ذراع الشيشة بعيدًا واعتدل فى جلسته، ثم أخذ يحملق به:

ـ **«٣٠٠ سيارة؟ أنت متأكد..»**

ـ **«والله العظيم متأكد تأكدى من وجودى بجانبك الآن»**

سرح السيد قليلًا .. ففهم عنتر أن قريحة السيد تبحث عن فكرة إلى أن سأله:

ـ **«متى ستذهب إليه بالمعلوم..؟»**

ـ **«فهمتك يا معلم، إذن أنت تنوى أن ترافقنى إليه.. صح؟»**

ـ **«عليك نوور»**

فتح لهما الخادم باب الفيلا التى تحتل آخر دورين فى العمارة .

جلسا قليلًا حتى أقبل عليهما السيد فايز بتمهل وهدوء وابتسامة بشوشة..

تأمله السيد متفحصًا هذا الروب الحريرى بأرضيته الداكنة وخطوطه البيضاء..

صافحه فايز فودة بأدب وسأله:

ـ «إذن، فأنت السيد عباس؟»

ـ «نعم يا فندم»

ـ «ظننتك أسن من ذلك.. ما زلت يافعًا..»

ـ «لكن الحياة لطّمتنى يا باشا..»

ـ «لا يبدو عليك ذلك.. وسيم.. ووجيه.. ورائق..»

ـ «شهادة نعتز بها يا فندم»

ـ «عنتر يؤمن بك.. ويقول إنك ستضع سوق الحشيش كله فى جيبك.. ذات يوم»

ـ «حلم بعيد المنال»

ـ «ليس بعيدًا، فالحشيش والكرة وأم كلثوم.. من أهم الأشياء فى مصر.. لأنها المغيبات التى يسرقون بها عقول الشعب»

فهم أنه يلكز عصر الثورة بما يستحقه فى نظره.. أليست الثورة هى التى استولت على ألفى فدان من إقطاعية أسرته؟.. هكذا أبلغه عنتر.. فضحك دون أن يعلق.

وظل صامتًا يبحث عن كلام إلى أن أنقذه فايز بك قائلًا:

ـ «عنتر قال لى إنك تقصدنى فى خدمة..»

ـ «أجل يا فندم.. فحضرتك لديك صديق يدير شركة بها ٣٠٠ سيارة نقل.. وأنا عندى أرض فضاء أريد تأجيرها كموقف وجراج لهذه السيارات.»

قطب فايز ما بين حاجبيه وراح يتذكر:

ـ «صديق؟.. و ٣٠٠ سيارة؟.. أوه.. صحيح.. ولكنها ليست سياراته..»

ـ «أكيد يا فندم..»

ـ «طبعًا أكيد.. وإلا كان جالسًا بجوارى الآن.. أين تقع هذه الأرض؟»

ـ «فى الزيتون»

ـ «كم مساحتها»

ـ «خمسة فدادين»

ـ «أرض مبانٍ؟»

ـ «تحيطها العمارات من كل جانب.. وفكرة البناء عليها مؤجلة الآن»

ـ «هل هى ملكك؟»

ـ «اعتبرها سيادتك فى حكم ذلك»

فغر عنتر مكاوى فاهَهُ من الدهشة وهو يتأمل معلمه فى صمت: «خمسة فدادين مبانٍ؟ يا قوة الله، أين عثرت عليها أيها الشيطان..؟ ولم لا تصحبنى معك فى هذه المشاوير يا ابن النحال؟ أم أنك خصصتنى للحشيش ولا أزيد من ذلك؟»

وصحا عنتر من تساؤلاته على رجله الرزين يمد يده فى جيبه ويخرج قطعة حشيش فى حجم علبة الكبريت مغلفة بعناية:

ـ «هذه تحيتى للباشا ولضيوفك الكرام..»

ابتسم فايز بأدب:

ـ «أنا لا أحيى ضيوفى بالمجان.. ثمنها سيكون بجيبك قبل أن تخرج..»

فقال السيد:

ـ «النبى قبل الهدية يا باشا»

رد عليه فايز:

ـ «لا نزيد أن نحشر النبى فى هدايانا خاصة لو كانت حشيشًا»

ضحك عنتر ببلاهة:

ـ «هل كان هناك حشيش أيام النبى..؟ والله يا باشا لا تكسف المعلم»

ابتسم فايز بك بعذوبة، وقال لمحدثه عنتر:

ـ «إذن، خذ كرم إلى الروف، وجهز لنا تعميرتين..»

ونادى عنتر كرم الخادم ثم خرج به، فاعتدل فايز فى مواجهة ضيفه الشاب:

ـ «أنا صرفت عنتر بأدب حتى لا يسمع ما سوف أقوله لك الآن.. وأرجو ألا يخرج عن اثنين: أنا وأنت»

ثم راح يحيطه علمًا بمن هو الرجل الذى يتمتع بشىء واحد لا ذنب له فيه وهو أنه شقيق لأحد أعضاء مجلس قيادة الثورة. ولهذا السبب، فقد ربح منصبه ويتربح من منصبه الذى أتاح له مسئولية نقل كل السلع التموينية من مصادرها إلى الجمعيات التعاونية وصار غارقًا فى السلع، وغارقًا فى تحريك السيارات، وغارقًا فى أموال الصيانة والوقود، ومثل هذا المنصب يعوزه رجلًا لديه شهادة عليا فى إدارة الشركات والمشروعات، وصاحبنا لا يحمل إلا شهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة الميلاد..

أحس السيد النحال بفحوى هذه المقدمة الصريحة، وداخله الابتهاج، فهو لم يعد بحاجة إلى فهم من هو رجله القادم.. الرجل الذى سيمكنه من وضع يده على أرض مساحتها خمسة أفدنة.. أرض مبانٍ.. وبما أنه رجل يتربح، فمعنى هذا أن طريقه مفروش بالورود..

بادر فطرح سؤالًا إلى مضيفه ابن العز الأنيق:

ـ «لقد فهمت ما تصبو إلى شرحه لى، إلا أننى بحاجة إلى نصيحتك..»

ـ «دع هذا الأمر لى، سأعرض عليه موضوعك، وأبلغك بما توصلت إليه.. هيا بنا.. زمان كرم وعنتر جهزا التعميرة»

* * *

بعد يومين طلبه بالتليفون كما كان قد أوصاه.. وقال له على الفور: «تعال الآن.. وبدون عنتر»

* * *

فى أول جلستة الثانية مدّ يده فى جيبه وأخرج قبضة من الحشيش قال عنه إنه مدهش ووضعها على المنضدة.

ـ «حظك يا باشا.. قلت لى تعال فجئت فورًا.. كانت بجيبى.. لم أذهب هنا أو هناك..

على الفور عرفت أن سيادتك محظوظ.. وابن حظ»

تنهد فايز فودة بألم.. وقد لاحت فى عينيه علامات الأسى:

ـ «محظوظ وابن حظ مرة واحدة؟ صحيح كم من البلاوى تداريها الهدوم..»

أحس السيد أنه قلب المواجع على رجل ساء حظه فى الدنيا على غير انتظار .. عندما أخذوا أراضيه .. فكيف يكون محظوظًا؟

ـ «الدنيا لا تعطى كل شىء حتى لأصحاب الحظوظ يا باشا»

ـ «الدنيا إذا أعطت المحتاج صارت دنيا.. فبماذا تسميها إذا أخذت العز من أصحابه؟»

ـ «يسمونه ابتلاء.. أو اختبار.. أو محنة»

ـ «من هم الذين يسمونه هكذا»

ـ «أهل الدين»

ـ «وهل للدين أهل بعينهم؟. كلنا أهل للدين»

ـ «إذن، فهم أصحاب البلوى.. الذين يقولون ذلك»

ـ «هؤلاء لا يطلقون الحكم، بل يذرفون الدموع»

ـ «ليسوا جميعًا.. هناك من يخرج من محنته أكثر قوة»

ـ «يبدو لى أنك تعرف شيئًا عنى»

ـ «معلومات بسيطة.. قال لى عنتر إن الثورة أممت أملاكك»

ـ «معلومات بسيطة؟ إلى هذا الحد صار الأمر بسيطًا؟»

ـ «أنا أقصد بساطة المعلومات»

صمت فايز فودة قليلًا وهو يتأمله بإعجاب:

ـ «عنتر قال لى إنك مثقف وجسور»

ـ «جناحان.. قد لا يساعدان على الارتفاع إن لم يكن معهما حظ عجيب..»

ـ «أجنحة الأسياد الجدد هى التى تكسب»

ـ «تقصد ضباط الثورة»

ـ «وهل هناك غيرهم؟ عمومًا.. دعنا في موضوعنا، الرجل وافق على طلبك.. وبما أنكما سوف تتعاملان سويًا بعد أن أرتب لكما اللقاء المطلوب فيجب أن تعرف من هو.. إنه يا سيدى حشمت بركات..»

ـ «أسمع عنه.. إذن، فهو شقيق أشرف بركات»

ـ «بالضبط.. حصل على هذا المنصب في هوجة توزيع المناصب على الأهل والأقارب.. تمامًا كما يوزعون القصور على أنفسهم.. واحد يدير عزبة وهو بالكاد يصلح عاملًا أو خفيرًا بها.»

ـ «وهل وافق على طلبى؟»

ـ «وهذا مرهون بموافقتك على طلباته.. هؤلاء الناس لا يخدمون لوجه الله، أو للمصلحة العامة.. فمصلحتهم الشخصية فوق كل اعتبار..»

ـ «وكيف يمكننى أن أرضيه أو أتصرف معه؟»

طرح السيد سؤاله وهو يوارى الفرحة التى رقصت فى قلبه.. الفرحة لأنه وجد من يرشوه ليفتح له الأبواب..

ـ «لا أعتقد أنك تعوزك الحيلة فى ترويضه.. أنت ذكى وطموح.. وهو جائع.. سد فمه.. وكلما اقتربت منه ستعرفه على حقيقته.. فهو يحب الطعام الفاخر.. والحشيش الفاخر والخمر المعتق.. لا يعتق شيئًا.. ماكينة.. وتلك هى مفاتيحها التى لا تدور إلا بها..»

فكر السيد قليلًا، ثم أتى باقتراحه الطازج:

ـ «سيكون تعرفى عليه فى حفل أقيمه على شرفه.. يدعو إليه كل معارفه.. سأقيم له مأدبة مذهلة وبها كل هذا الذى قلته الآن..»

ـ «إذن. رتب نفسك على ذلك.. وأين ستقيم له هذه المأدبة؟»

لم يجد لديه ما يمكن أن يقوله سوى: «كازينو صفية حلمى»

ابتسم فايز فودة فى إشفاق: «هذا للطعام، وأين مكان الحشيش؟»

ارتعد جسد السيد النحال.. وداخله شعور بالضآلة والنقص..

ولاذ بالصمت.. والحرج.. فأخرجه منهما فايز:

ـ **«لا تحمل همًّا.. الروف الذى رأيته فى الزيارة الماضية.. سأتبرع لك به فى هذه الليلة.. سأترك لك تنسيق الحفل مع كرم وعطية.. الخادم والسفرجى.. لقد أشفقت عليك عندما كدت تبكى الآن..»**

ـ **«فعلًا.. كدت أبكى.. فما أسوأ أن تكون قلة الإمكانيات سببًا فى اغتيال بهجتك»**

ـ **«هذا بالنسبة لك، أما أنا فقد كان الثراء هو السبب فى اغتيالى أنا وعائلتى»**

وعند الباب تصافحا بحب

واحد متورط فى الخروج مطرود من جنته..

والثانى يؤدى كل الرذائل حتى يقترب من هذه الجنة..

* * *

وفى اليوم المشهود الذى ظل يعد له أسبوعًا ، بدا السيد النحال متأنقًا أمام ضيوفه فصار محط أنظارهم.. وفى لحظة مواتية مد يده فى جيبه وقبض على قطعة كبيرة من الحشيش وقصد أن يرفع صوته وهو يقدمها لفايز فودة قائلًا:

ـ **«تحيتى لحشمت باشا وضيوفه الكرام»**

ودارت الأحجار الكريمة.. وانتشى الهواء برائحة الحشيش المعبق..

وجاء دوره..

أسلمه كرم بوز البوصة ملقيًا عليه التحية التقليدية:

ـ **«مساء الخيييير»**

فالتقمها وراح يشد الدخان الثرى بجهد عفى، فاشتعل الحجر الفاخر بلهب اندلع فوقه.. فهلل فايز:

ـ **«يحرق عدوينك»**

فتذكر على الفور نفس هذا التشجيع الذى أطلقه له عنتر مكاوى فى أول لقاء بينهما على مقهى الباطنية.. فاستبشر خيرًا.

ومع هذا فلم يتحدث.. وظل فى انتظار دوره.. يسمع أحـاديثهم.. ولا يشـارك بهـا.. فهؤلاء الضيوف الأكابر لم يقم فايز فودة بتقديمهم إليه اسمًا اسمًا كما تقـتضى الأصـول.. فهل نسى ذلك الأمر أم تناساه؟ وهل إذا كان قد تناسـاه.. فلماذا؟.. هـل اسـتهانة بـه أم إشفاقًا عليه من أن تزعجه مناصبهم؟

مال حشمت بركات نحوه متسائلًا:

ـ «أراك سارحًا.. مالك يا رجل؟»

لم يجد ما يقوله:

ـ «لا شىء، إنها أحوال الدنيا»

ـ «أراك أنيقًا.. وصاحب مزاج.. فمن منكما تحرش بالآخر أنت أم هى؟»

ـ «هى التى تحرشت بى وما زالت»

ـ «أعطها ظهرك، لا تهتم بها، خذ حظك منها على غفلة، وعاملها بحذر»

كان فايز قريبًا عندما سمع العبارات الأخيرة من حشمت فقال:

ـ «يبدو أنك تتحدث عن امرأة يا حشمت بك»

قال حشمت مبتسمًا فى خبث: «أجل.. امرأة إذا أقبلت عليك فهذا لكـى تـدبر عنـك، وإذا جاءتك طوعًا بين أحضانك فذلك لأنها خانت توًّا حضنًا آخر..»

قال فايز فودة «أعوذ بالله»

ضحك عنتر مكاوى لهذا الكلام العالى والذى تمكن مـن فهمـه وهـو يتابعـه، فنـادى بصوت عال:

ـ «لا يا فايز بك.. الباشا يتحدث عن الدنيا وليس عن امرأة»

فأسرع فايز قائلًا: «أيضًا أعوذ بالله»

فقال حشمت:

ـ «الثورة .. والدنيا.. لا أمان لها»

ثم وجه حديثه إلى السيد النحال:

ـ «الثورة استولت على ألفى فدان من هذا الرجل»

فقال فايز معلقًا: «يا سيدى.. مبروك عليهم، وعلى من وزعوها عليهم»

انتبه إلى حديث هادئ من ضيف له بشرة بيضاء لامعة وشارب رفيع وأنف مدبب يعتنى بأناقته بشكل ملحوظ ويتحدث بثقة وتأن. وكان يخاطب فايز فودة:

ـ «لو كنت تقولها من قلبك يا فايز، فالله سيطرح لك البركة فيما تبقى عندك»

وتدخل حشمت بركات مخاطبًا المتحدث:

ـ «يا أستاذ حلمى أنت تتحدث من موقع المتفرج، وهذا الرجل لم يلتقط أنفاسه بعد من هول الصدمة»

تدخل فى الحديث رجل يجاور حشمت بك فى جلسته، له هيئة المعلمين:

ـ «يا أستاذ حلمى أنت ذهبت إلى الثقافة وأمسكت بالقلم دون أن تنسى أنك قادم من معسكر الثوار عندما كنت ممسكًا بالسلاح.. لا أحد فينا لا يتحيز للثورة مثلك.. ولكننا لا نستطيع أن نضع فايزًا معنا فى صفوفنا بسهولة.»

كان المتحدث هو معوض الجارحى.. أحد كبار الموظفين فى مؤسسة النقل والصديق المقرب لرئيس المؤسسة حشمت بركات والملاصق له دومًا فى كلّ الولائم والمناسبات..

فقال حلمى عبد الباقى: «أنا لو تعاملت مع فايز من موقعى كضابط صغير يفخر بمشاركته المحدودة فى الثورة، وموقع فايز كإقطاعى يقف على الشاطئ الآخر منا، لما كنت بينكم الآن.. فايز صديق قديم، ومؤثر، ولم نكن نعتبره فى منطقتنا قبل الثورة ابن الأكابر ونحن أولاد الرعايا.. أنا لا ألومه، ولكننى أنصحه وأشجعه حتى يتجاوز محنته.. فأنا أعلم به منكم..»

فعلق حشمت على ذلك قائلًا:

ـ «ولو لم تكن علاقتكما القديمة معروفة.. هل كانوا سيتركونك فى حالك وأنت تصادق أحد الإقطاعيين حتى الآن..؟»

ـ «آسف يا سيد حشمت.. ما تظنه هو الخطأ بعينه.. ومن قال لكم إن جمال عبد الناصر لا يعترف بالعلاقات الإنسانية ولا يؤمن بالصداقة..»

فتصدى لتأييده السيد ممتاز إبراهيم زميل معوض الجارحى فى مؤسسة النقل :

- «**معلوماتنا أن الرئيس هو الذى شجعك فى العمل الدبلوماسى بعد حصولك على ليسانس الحقوق..**»

فراح حلمى عبد الباقى - بعد هذا التنويه - يوضح لهم السر فى هذا التحيز من قائد الثورة لواحد من تلاميذه تمنى أن يتفرغ كل عمره للقانون الذى يحبه، وراح يذكرهم أن عبد الناصر عندما لم يوفق فى دخول الكلية الحربية التحق بكلية الحقوق لعام واحد، إلى أن أعاد محاولة الدخول للحربية فى العام التالى وقبلوه.. «المهم أن تحب ما تفعله وتفعل ما تحبه».. وهنا قال فايز فودة بتخابث مقصود:

- «**ليته كان استمر فى دراسة الحقوق ، كنا كسبنا المستشار جمال عبد الناصر**»

وانفجر الحضور بالضحك بما فيهم فايز فودة الذى سارع فأشار لهم إلى المأدبة المعدة فى الطرف الآخر من الروف تحت مظلة مشيدة على أعمدة دائرية تحيطها صناديق الزهور:

- «**تفضلوا .. العشاء جاهز**»

ولما تحركوا واحدًا إثر الآخر نادى حشمت بركات السيد النحال وانتحى به جانبًا، وراح يسأله عن ملكية الأرض ومساحتها والشوارع المحيطة بها. ثم أشار لنائبه ممتاز إبراهيم لينضم إليهما فأقبل مسرعًا، فقال له:

- «**سترافق الأستاذ السيد بعد غد لمعاينة الأرض التى سنستأجرها منه جراجًا لسيارات المؤسسة.. تفاهما معًا، وجهزا لى مسودة العقد..**»

ولما تحركا نحو المائدة تحرك خلفهم السيد النحال وهو يوارى ذهوله ونشوته، فقد زادت مساحة طاقة النور فى جدار الأمل، تلك الطاقة السماوية التى كان يرقب اتساعها منذ كانت ثقبًا أرسل شعاعًا سحريًا غامضًا بعد زيارته لفيلا حكمت وبشاير..

عرف أن حلمى عبد الباقى لا يشرب ولا يحشش، وأن «الماكينة» حشمت بركات بصاحبيه معوض الجارحى وممتاز إبراهيم يرقت عيونهم بالامتنان عندما اقترب عنتر مكاوى من المائدة الحافلة ونثر فى أركانها زجاجات الخمر المعتق ذات الأسماء الشهيرة.. وحولها الكئوس الرشيقة ووعاء مكعبات الثلج اللازم.

وهنا أعلن فايز فودة أن هذه الوليمة لا يملك إلا شرف تقديم مكانها للسيد النحال الذى عقدها على حسابه ليتعرف على هذا الجمع السعيد..

لم يتبادلا الارتياح هو وحلمى عبد الباقى الذى لم يعرف عنه أكثر مما قيل عن انتقاله من حقل العمل العسكرى إلى حقل العمل الثقافى والقانونى.

وكان من الواضح أن حلمى عبد الباقى بكل التزامه ودماثته لا يجد حرجًا فى قبول دعوات صديقة فايز فودة، رغم ما بها من فقرات مزاجية لا تتمشى مع ثقافته الخاصة.

أما ما خرج به السيد النحال بارتياح كامل، فهو ما رآه بأم عينيه لذلك الوقار المفقود وتلك الحالة المزرية التى تورط فيها حشمت بركات عندما شرب حتى الثمالة وفقد عقلة واتزانه وأتى بأحاديث من عالم اللاوعى تثير الضحك أحيانًا والإشفاق أحيانًا أخرى.. وكان فايز فودة رزينًا باسمًا فى ثبات وهو يستقبل هذا الانفلات بما يشير إلى تعوده عليه ولم يتدخل سوى بإشارة ناصحة لممتاز إبراهيم: «**لا تثقل أنت الآخر فى الشراب.. ألست أنت الذى ستقود به سيارته؟..**»

ولما هم السيد بالانصراف مكتفيًا بهذا الكم من الدهشة وهو يرى هذا الكبير غارقًا فى الطفولة والعبث والانفلات أشار له فايز فودة بالبقاء هو وعنتر:

ـ «سأقوم بتوصيلكما بسيارتى.. لى مزاج فى التمشية رغبة فى الانتعاش..»

وفى الطريق قال لهما فايز فودة:

ـ «**ما رأيتماه قليل من كثير.. لأن الجلسة خلت من باقى الصحبة التى تشاغبه وهو مسطول فينزعون منه ما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. خاصة ما يقوله عن شقيقة عضو مجلس قيادة الثورة الشهير**»

وأسهب فايز فودة فى سرد بعض التفاصيل التى يتذكرها من اعترافات حشمت بركات تحت وطأة المغيبات المجانية أيًا كان نوعها: حشيشًا كانت أو خمورًا معتقة، ولا ينسى أن يعلق ساخطًا:

ـ «**هذه عينة من قادة مصر الجدد.. عينة جاءت من مستنقع الوضاعة.. فهذا المخمور المهلوس الذى أناديه نفاقًا بالبك والباشا ينحدر من أب فقير كان يمتلك دستة من الأولاد**

وكثيرًا ما كان صنف الطعام ينعدم تمامًا فى منزلهم.. وقال لنا وهو يفخر بذكائه المبكر إنه كان يحل هذه المشكلة باصطحاب أحد أخواته الصغار ويضع له مسحوق الشسم فى عينيه ويرسله إلى محطة القطار ليستجدى المسافرين.. ولأننا نعلم أن أشرف بركات هو الأخ الأصغر غير الشقيق له فقد دحرجه واحد من الصحبة بخبث ليحكى لهم عن دور شقيقه أشرف فى مسألة الشحاتة.. ليلتها قهقة عاليًا: طول عمره شاطر كان يتفادى إيذائى له إن لم يأت بحصيلة جيدة من الشحاتة.. ولم أكن أعلم أنه يسرق نصفها لنفسه.. مصيبة.. طول عمره مصيبة».

ثم يروى لهم وهو مخمور بعض قصص أخيه فى عشق الحشيش.. ومنها أنه عندما زار سوريا أيام الوحدة طلب من سكرتيره أن يسأل رجال المشير عبد الحكيم عامر عن المصدر الذى يجلبون منه الحشيش لرجلهم، وعرف أنهم يأتون به من تاجر يبيع الأفيون فى سوق الحميدية. وتطوع هذا التاجر لجلب الحشيش المعتبر لهم من لبنان، فأوصى السكرتير أن يتصل به ويأتى له منه بعدد من الأصناف المختلفة ليختار أفضلها. ويقول السكرتير ضاحكا:

«إننى لم أكن أعلم أن الأمر سينتهى بإعادة كلّ هذه الأصناف مرة أخرى إلى التاجر بحجة أنها مرفوضة ولكن بعد اجتزاء قطعة من كل صنف.. ليحصل أشرف بركات على عدد من القطع التى تكفيه مدة إقامته فى سوريا.. بالمجان..»

ـ «سوف يصبح سيد هذا البلد»..

لم يكن هذا رأى حشمت بركات فى أخيه أشرف الضابط الثائر.. ولكنه نقلها لهم من أشرف نفسه، فقد قالها هكذا صراحة، ومتى؟ قبل قيام الثورة. وفى عز أيام تشرده وإفلاسه وهروبه من السلطة الذين دوخهم بحثًا عنه..

قالها مغتاظًا لأصدقاء القرية الذين كان يستولى على سجائرهم بالقوة.. ولما أخفوا عنه السجائر ذات مرة.. شتمهم وأهانهم بأقذع الألفاظ، ثم قال:

ـ «أتخفون سجائركم عنى؟ غدًا يا كلاب ستلعقون حذائى عندما أصبح سيد هذا البلد»

ليلتها ـ يتذكر فايز فودة ـ أنه وسط غيبوبة الثملة أطلق حشمت بركات ضحكتة

الخشنة المتحشرجة هاتفًا بسرور:

ـ «وسوف يصبح هو السيد فعلاً.. أنا أعرفه.. أخى لا يتوقف عن تشغيل مخه، أخى يجيد احتواء الناس والمواقف والأحداث لصالحه، أخى كان صادقًا عندما أطلق هذه النبوءة عن نفسه، أخى سيصبح ملكًا؛ لأنه ومنذ ولادته يرتدى تاج الدهاء»..

اختار السيد النحال أن يغادر سيارة فايز فودة قبل الوصول إلى منزله، بدعوى رغبته فى السير طلبًا لانتعاش ما بعد الحشيش والخمر، وكان آخر ما قاله له فايز هو أن يكسب ممتاز إبراهيم عند عمل العقد ويساومه:

ـ «لا تخجل منهم.. ها أنت قد رأيتهم بنفسك..»

وكانت هذه الكلمات مقدمة لانسياب خواطرة وهو يسير مذهولاً:

«فعلا لقد رأيت بنفسى.. وربما أكون قد رأيت نفسى، فكيف تلتقى حالتى بمثل حالة هذا الثائر الحشاش أشرف بركات وبكل هذه الدقة؟ فعباس النحال أجبره الفقر أن يتسول ويسأل الناس الصدقة فى الشوارع، وها هو التاريخ كان قد سبقنا وسجل واقعة مماثلة لأناس قبل الثورة اختاروا الشحاتة حلا للعوز والحاجة وطردًا لغول الجوع الذى يطيح بالأفئدة.. ما هذا الذى رأيته وسمعته الليلة؟.. إن ما يطلقه فايز فودة من غضب على الثورة ورجالها هى زفرة من قلب موجع معبأ بالديناميت على أناس استولوا على أملاكه.. وكانت قلوب الفقراء قبل الثورة معبأه بالديناميت ضد الأمراء والإقطاعيين الذين استولوا على أرزاقهم، وهاهم أعوان الثورة كما يقول فايز يستعدون للسطو على مكاسب الفقراء.. ترى من يأكل من بدعوى العدل؟.. ومن يبطش بمن بدعوى الأمن..؟ ومن يبث الرعب فى قلب من طلبًا للخضوع.؟..»

ولم تكن هناك غشاوة أمام عينيه، فقد كان يرى أكثر من غيره. ولكنه رغم هذا أحس أن بصره اليوم كالحديد، وأن بصيرته بعثت إلى ظلمة المجهول مخروطًا هائلًا من الضوء الكاشف.

* * *

ولما انتهى نقاشة مع السيدة مارى إلى ضرورة عرض الأمر على السيدتين حكمت

وبشاير قبل أن يحضر مندوب المؤسسة لمعاينة الأرض، انطلقت بـه إلى الزيتـون دون أن تتمكن من إخفاء دهشتها أولاً ثم سرورها ثانيًا لهذا الإنجاز السريـع الـذى قـام بـه هـذا الشاب الأنيق السيد النحال.

كانت ترمق هدوءه وأناقته بطرف خفى وهو يجلـس بجوارهـا فى سـيارتها الصـغيرة، وتتعجب لأنها لم تعط اهتمامًا لكل ما قاله عن نفسه وعـن نشـاطاته، فحالتـه الإجماليـة لا توحى أنه رجل أعمال كما أسمى عمله، أما وقد جلب توظيفًا لأرض حكمت وبشـاير فى ظرف أيام معدودة، فهذا ينم عن كفاءته.

وقبل أن يدخل الفيلا قالت له: «**ربما لا توافقان ـ حكمت وبشاير ـ على عمـل توكيـل لك، هما يتوجسان خيفة من مثل هذه الأمور..**»

* * *

قرر وهو مقدم على التفاوض مع سيدتين ـ يجب أن يكونا فى نظره من ساكنات القبور ـ أن يستخدم كل قواه الناعمة فى استمالتهن، وأن يدخل فى التفاصيل مـن منطلـق أن هنـاك موافقة على المبدأ الأساسى وهو توظيف الأرض فيما يراه صالحًا لها.

بدأ بإلقاء الطعم الجاذب للسمك الجائع، فقال إنه اتفق مع عدة شركات لإيواء خمسين سيارة مقابل خمسة جنيهات فى الشهر للسيارة الواحدة.. والبقية تأتى. وراح يرقـب وقـع هذا الطرح المفاجئ على وجوههما.. هناك خيط رفيع مـن الدهشـة عـلى وجـه حكمـت، ورفرفة من سكون الرضا على وجه بشاير، أما مارى فجلستها التى بها اعتداد أشـارت إلى فخرها بنفسها وباكتشافها لهذا القادم الجديد.. قادم أتى بما لم يأت به الأوائل.. ومع هـذا، فقد سألته حكمت التى يراها لأول مرة:

ـ «**قلت البقية تأتى.. ما معنى هذه الكلمة؟..**»

ـ «**هذه السيارات يلزمها أعمال صيانة وتشحيم وتزويد بـالوقود وإمـداد بالكاوتشـوك وهذه فرصة لإقامة هذه الخدمات فى الموقع وتحقيق مكسب من ورائها**»

تبادلن ـ كلهن ـ النظرات، وكلها نظرات رضـا.

فسألته حكمت مرة أخرى:

ـ «ومن سيقوم بعمل هذه الخدمات وإدارتها.؟»

أجابها فورًا: «سأتفرغ لذلك.»

عادت إلى طرح سؤال آخر: «ألست برجل أعمال، أو تترك كل أعمالك وتتفرغ لهذا الموضوع؟»

تعمد أن يعلق ابتسامة إشفاق على شفتيه:

«ومن قال إن التفرغ سيكلفنى يومى كله، سأتفرغ الأسابيع الأولى فقط، بعدها سيتولى رجالى السير على ما رسمته لهم.»

تعجبت بشاير: «رجالك؟.. من هم؟»

ـ «موظفين»

ـ «كم عددهم؟»

ـ «أربعة فى أول الأمر وإذا أقمنا الخدمات سيزيدون بالطبع.»

ثم صمت قليلًا وأدار وجهه ناحية الشباك المطل على الأرض وأشار إلى هناك وهو يقول.

ـ «وقبل أن نبدأ فى العمل سنقيم جدارًا طويلًا هنا.. جدارًا يفصل الفيلا عن الأرض، جدارًا سيحميكم من الإزعاج.. ثم نفتح بوابة فى منتصف السور الممتد مع الشارع لفصل حركة العمل عن حياتكم هنا. المهم.. لا تحملا همًّا لكل هذه التفاصيل فهى مسئوليتى، وسأحل محلكما بموجب توكيل رسمى»

«شهقت بشاير: توكيل؟»

قال بهدوء: «أجل.. توكيل..»

أوقفتها حكمت بإشارة من يدها:

«سننظر فى هذا الأمر فيما بعد.. المهم.. كم هو المرتب الذى تطلبه لنفسك»

صمت قليلًا، ثم طرح برأسه إلى الخلف وأجابها بثقة:

ـ «لست من النوع الذى يعمل بمرتب؟»

ـ «إذن .. فكيف ستعمل..؟»

ـ «أنا شريك بنسبة من الربح بعد خصم المصاريف من الإيراد».

ـ «كم هى هذه النسبة..؟»

ـ «الربع..»

ـ «هذا كثير.. هل أنت تمتلك ربع الأرض حتى تقول ذلك.؟»

ـ «أنا قلت ذلك؛ لأنى لا أملك حصة فى الأرض»

ـ «لا.. لا.. هذا كثير..»

قرر أن يصل بالمجادلة إلى نقطة الذروة.. ثم يهددهما بالانسحاب.. وإذا أجبراه على البقاء فسوف يمكّنهما من ثمرة انتصار ويخفض حصته إلى الخمس، وأمام مباهج الانتصار سيوقعان ويحرران له توكيلًا..

قالت حكمت:

ـ «خذ نصيبك من أصل الإيراد.. وادفع منه للموظفين، وأقم الجدار على نفقتك.. وأقم البوابة أيضًا»

قال للجميع:

ـ «لا تحملونى ما لا أطيق . وأنا ما جئتكم إلا لصالحكما»

قالت بشاير:

ـ «تعلمنا أن من يأخذ بسهولة يفرط بسهولة»

وأضافت حكمت:

«والمرء لا يعلم قيمة الشىء إلا إذا أنفق عليه من ماله وجهده»

ثم قالت بشاير:

«وما أسهل أن تغامر بمال غيرك ولا تغامر بمالك..»

وأمام هذه المسلمات التى استوعبها قال لهن:

ـ «الأفكار الذكية هى رأس المال الحقيقى لأصحابها».

فواجهته بشاير:

ـ «وسوف تنال ما تستحقه مقابل فكرتك الذكية».

فذكرتها حكمت:

ـ «كانت لدينا أفكار كثيرة لكنا لا نملك الصبر والتحمل».

وتحدثت مارى لأول مرة:

ـ «إذن، فأنت شريك بالمجهود الذى قوامه الصبر والتحمل»

فربت السيد براحتيه على ركبتيه متأهبًا للوقوف:

ـ «ما دام الأمر كذلك فلماذا تكلفوننى مالًا؟ أرجو أن تقبلوا اعتذارى وانسحابى، ولا أخفيكم سرًّا أننى تعرفت على مكان آخر بحى النعام .. أصحابه يطاردوننى عندما عرفوا أننى أملك أكثر من خمسين سيارة سوف أزيدهم إلى مائة أثناء العمل»

جذبته حكمت من الجاكت:

ـ «لماذا لم تذكر لنا هذا الرقم.. مائة سيارة.. اجلس.. لا تتعجل»

ـ «يجب أن أتعجل حتى أتصرف بسرعة، فالجهة المعنية سترسل رجالها غدًا للمعاينة»

ومع قرب انهيار المفاوضات، سألته بشاير سؤالًا أسعده:

ـ «وماذا ستكتب فى التوكيل؟»

لم يجبها إجابة مباشرة، لكنه طرح عليها بعض الأسئله:

ـ «هل إذا قمت بتوقيع عقد مع شركة ما ستحضران معى للتوقيع..؟»

«وهل إذا قمت بعمل ترخيص للسور والبوابة هل ستقومان بهذا؟»

«وهل إذا قمت بصرف الإيراد سآتى لأخذكما معى للصرف؟»

«هل إذا حدثت مشكلة مع شركة ما وتطلّب الأمر عمل محضر بالقسم سآتى لأخذكما معى لعمل هذا المحضر؟»

وقد حصد ثمرة طرحه بسرعة ملفتة، فقد قالت له بشاير:

ـ **«اعتبرنى موافقة.. وأنت يا حكمت؟»**

فقالت حكمت:

ـ **«وأنا أيضًا»**

فسارع على الفور بطرح ورقته الرابحة :

ـ **«ولذا، فقد خفضت نسبتى إلى الخمس»**

وتهللت الوجوه.. ودق قلبه دقة الفرح ثم طرق حديده وهو ساخن:

ـ **«هل سأقيم مكتبًا للإدارة بالأرض.. أم من الممكن أن أشغل غرفة بالدور العلوى؟»**

وعلى الفور قالت له حكمت:

ـ **«الدور العلوى لا يشغلة أحد.. يمكن استخدامه كله أو بعضه.. مقابل إيجار»**

وازدادت دقات الفرح فى قلبه، وهمس لنفسه:

ـ «وأخيرًا ستسكن فى فيلا يا ابن النحال»

* * *

وكانت عتبته الأولى صيغة توكيل اتفق عليها مع محامٍ ضليع، وكان هدفه الحقيقى هو إطلاق يده فى التصرف فى هذه الأرض، فوضع عبارات ذات شكل وديع وجوهر وضيع، وقد يمكننا أن نؤرخ لعبارة ذات معنى تختتم بها نصوص التوكيلات الحساسة العبارة التى تقول: لا يجوز إلغاء هذا التوكيل إلا بحضور الطرفين.. فالسيد النحال سوف يؤكد فيما بعد أنه الواضع الحقيقى لهذه العبارة التى فتحت له طريق الصعود، ومنعت موكلتيه من إلغاء التوكيل لإنقاذ أملاكهما من براثن يد نعمة لوكيل شرس لم يلتفتا إلى طول أظافره كما لم يلتفتا إلى حدة الأنياب الجارحة فى ثغره الجميل.



العظماء الخمسة ...

تعطلت مساعى فتيان الدءوبة للقبض على غريمه السيد النحال.. فهو لا يمرق من طالبيه بقصد مرسوم إنما هو دائم المروق كطائر بلا عنوان.. سئم فتيان من طول الوقت وفشل مسعاه.. نصحه المحامى أن يعثر على مكانه الذى ينام فيه.. كلفه ذلك مراقبة جديدة وصبرًا طويلًا فى الانتظار أمام المطابع، طارده حتى فيلا الزيتون، أذهله أن ابن النحال يعيش ويدير عملًا من هذه الفيلا.. فكر للحظات أن يؤجل دعواه، ويقتحمه بنفسه ثم يساومه ثم يلتصق به ليعرف منه كيف صار يهيمن على هذه الساحة من السيارات والسائقين، ثم يدخل فى حنايا مخه الرهيب عسى أن ينال من حظه جانبًا.. ولكنه سرعان ما طرد كل ذلك من فكره وعاد إلى نصيحة فريد هنيدى **«لا تفاوضه إلا والقيود الحديدية تمسك بيديه.. سينال منك إذا فاوضته وهو بأيد طليقه..»**

ثم عاد إلى محاميه بالعنوان الجديد..

* * *

وفى قسم شرطة الزيتون أيقن السيد النحال أن فتيان فتيان تمكن من تحقيق وثبة يهودية الأداء فأتى به من عنقه مرغمًا.. فكيف لفتيان ذلك الأرنب سريع الركض والآدمى بطىء الفهم أن يحقق ذلك بين يوم وليلة..؟ حكم غيابى جاهز بالسجن مدته عامان، وهو هنا ممسوك بأيدى رجال وحدة تنفيذ الأحكام.. اقتلعوه من الفيلا فى وضح النهار.. ارتبك وتلجلج وفقد حنكة التصرف.. خاف أن يكونوا قد أمسكوا بعنتر فى مكان ما.. أو ببدير فى مكان آخر.. وكشفوا رأس الأفعى المحرك لذيلين فى وقت واحد.. وفى القسم حمد الله أنها وثبة فتيان..

وها هو الصول الأشيب الحويط المتلىء يبتسم فى وجهه بخبث وهو يرد على سؤاله:

ـ «ومتى سيكون العرض على النيابة؟»

ـ «مساء السبت، أو مساء الأحد، وقد تأخذ استمرارًا إن لم تقدم مصالحة مع فتيان.. أقصد مع المدعى»

ـ «لكن اليوم الخميس»

ـ «أعرف، وغدًا الجمعة.. لا نيابة.. ستشرّف عندنا فى التخشيبة.. اتفضل.. ضع كل متعلقاتك فى الأمانات..»

* * *

فتحوا أمامه المزلاج الطويل لباب التخشيبة الحديدى، ودفعوه إلى الداخل فداهمه ظلام شفيف لم يسعفه بالتعرف على المكان. وقف تائهًا للحظات، دون أن يرى شيئًا أو يسمع سوى همهمة أحاديث يتبادلها المساجين.. ولما طال وقوفه شخط فيه أحدهم:

ـ «عارفين إنك طويل وحليوة ولابس شياكة.. بس أنت حاتفضل واقف كدة بديك أهلك.. أترزع أقعد»

جلس فى بقعة لا يدرى كيف وجدها خالية.. وكان أول ما فعله أن اتجه إلى مصدر الصوت وعرف صاحبه فأرسل إليه إبتسامة ناعمة:

ـ «على مهلك علينا يا بلدينا.. هى دى برضة مقابلة؟»

ومال على الجالس بجواره مداعبًا «ولا إيه يا حلاوة؟»

فرد جاره مسرعًا:

ـ «محسوبك السنّى، أبو دقن بنى»

ضجت الزنزانة بالضحك، وقبل أن تهدأ سأله السنى:

ـ «والعسل؟ يبقى مين؟»

فعاجله السيد ضاحكًا:

ـ «أنا بقى الأصيل، أبو دم تقيل؟»

وهنا لم يجذب ضحكاتهم بقدر ما جذب عيونهم نحوه..

ناداه الشاب الرزين المستأثر بركن مميز فى الغرفة أعده لنفسه مقرًّا ونومة هنيئة:

ـ «**وتهمتك إية يا أصيل يا أبو دم تقيل**»

انبعثت موجة ضحك جديدة لشكل السؤال، لكنها المجاملة المدسوسة لشاب يبدو أنه زعيم المكان.

ضحك معهم السيد مجاملًا هو الآخر وهو يتأمل هذا الشاب الرزين بوجهه الطويل، وشاربه الرفيع، وشعره الناعم، الأهوج، وصوته الأجش، ثم ذلك البريق الجسور الذى يطل من عينيه.. وفهم للتو أن محدثه هو زعيم هذا المكان.. فقال له: «**خيانة**»

ـ «**خيانة زوجيه؟**» هكذا سأله الزعيم

ـ «**لا.. شريكى خان الأمانة**»

ـ «**لا.. كده مش حافهمك.. أنا حمار.. واحدة واحدة علىّ، ولا إيه يا بقر؟..**»

وتناثرت الإجابات بين: «**طبعًا يا كيمو.. لك حق يا زعيم.. يا عم فهّمنا.. إحنا كلنا حمير**»

لقد هيأ له كيمو الزعيم مجالًا فسيحًا لاحتواء المساجين وجمعهم فى إنصات مبجل لقصته التى راح يرويها حول شريكه الذى كان يتاجر معه فى الموبيليا من دمياط إلى القاهرة والإسكندرية ولما دفعه طموحه إلى الاستقلال عنه حتى يتفرغ لتجارة الأراضى وإقامة العمارات فى حى عين شمس، وعند التصفية تبقى لهذا الشريك الخائن مبلغ بسيط قيمته ألف جنيه حرر له به إيصال أمانة، فرفع هذا الشريك قضية بالإيصال نكاية فيه وانتقامًا لما قام به من فض الشراكة بينهما.

وسرعان ما أحسوا جميعًا بما فيهم كيمو بالضآلة أمام هذا الشاب الصغير الأنيق الذى وصل إلى هذا الثراء فى هذه السن المبكرة.. فها هو يقول إن الألف جنيه مبلغ بسيط.. وهذا ما سوف يجدونه قولًا صادقًا عندما يتحدثون مع العسكر حول قضية زميلهم الجديد.. ثم كان إحساسهم الآخر نحوه أهم من الثراء، فهو ابن بلد ويفهم فى الصياعة كما بدا لهم من حديثه فعندما واجهه مسجون حسن الهيئة مقدمًا نفسه: «**أنا كُلّه اللى زى الفلة، الجميل اسمه إيه وساكن فين؟**» عرف النحال أن محدثه شاب مخنث، فأجابه مسرعًا: «**وأنا محسوبك النحال اللى مالوش فى البطال.. وعندى فيلا فى حلمية الزيتون**»

لحظتها تأكد المساجين الذين استقبلوا إجابة النحال بالضحك أن ضيفهم الجديد موغل فى الصياعة، فانتبهوا وهم يعيدون تقييمه.. ولما دفع إليه «كله» بعلبة سجائر كاملة تحية له هتف الزعيم كيمو من فوق عرشه القريب:

ـ «هل هذه تحية يا كُلَّه.. أم جر رجل.. أنت حاتعمل شغل من دلوقت.. «ثم أكمل»: اللون ده مش لونك.. دا حاجة محترمة..»

وارتاح السيد لهذا التقييم الذى تمتع به من الزعيم كيمو فراق له أن يضعه فى جيبه:

ـ «خير يا كيمو؟. الرقدة دى مش للناس المجدع.. لو عندك مشكلة المحامى عندى تحت أمرك.. نقدر نعمل الواجب.. لو فيه كفاله.. أتعاب.. أى شىء»

فرد كيمو ممنونًا لهذا العرض السخى من نزيلهم الجديد:

ـ «واحد كلب بسبعة أرواح شرّحته بالسكين ولسه عايش.. هو فى المستشفى.. لو مات حالبس قضية قتل بالعمد وفيها تأبيدة، ولو عاش بقت خناقة وفيها كام شهر..»

ـ «بإذن الله حيعيش»

ـ «حرام عليك.. يموت أحسن.. لو عاش حاقتله تانى»

تأمله بعمق وهو يهمس لنفسه: «هذا هو كيمو.. قاتل بارد الأعصاب.. فماذا عن الآخرين؟»

ـ «وتهمتك إية يا سنّى؟»

ـ «أىّ حاجة تخطر ببالك.. هجّام.. خطّاف.. أكسر شققًا.. افتح عربيات.. أىّ حاجة.. أى حاجة.. بس عمرى ما اشتغلت مرشدًا»

يده سجين يجلس فى مواجهتهم: «فى الموضوع ده أشهد بالله إنك راجل.. ومجدع»

فقال له السنى: «صاحبك حاول معايا.. أنت فاكره يا سردينه.. الظابط فكرى»

ـ «طبعًا فاكره كان عاوز يدسك ع العيال بتوع المرج.. إنت طلعْت رجولة»

تأمله هو الآخر بعمق: «وهذا هو السنى.. مجرم متمسك بالمبادئ، والفضيلة عنده هو ألا يعمل جاسوسًا لصالح الشرطة ضد زملائه المجرمين»

ـ «وأنت يا سردينه.. تهمتك إيه؟»

فقال له سردينة: **«أنا المرة دى شايل تهمة عن واحد عزيز علىّ. وعندى محكمة قريبًا.. فيها ستة شهور أو سنة بالكتير..»**

لم يسأله عن التهمة التى تصدى لها نيابة عن ذلك العزيز.. ولكن كلمة «المرّة دى» تشير إلى أنه محترف تردد على السجون.

لقد استعرضوا فى تواضع شديد قدراتهم الإجرامية التى هى جزء من مكوناتهم الخلقية .. ولكن أذهله بعد قليل استعراضهم الجديد المباغت، فقد ضجت الزنزانة المجاورة بالصياح ووقف «كله» أمام فتحة الشباك ذى القضبان بأعلى الباب الحديدى يستطلع الأمر وأعلن أن العساكر سحبوا زميلهم «خالد بُقْ» من زنزانته المجاورة إلى الطرقة التى تطل عليها كل أبواب الزنازين الأربعة وراحوا يضربونه بكل قسوة ..

هب كيمو من مرقده الدافئ واستلم فتحة الشباك.. وراح ينادى على الضباط «الـ..» والمأمور «الـ..» حتى يوقفوا هؤلاء العساكر «الـ..» ووصلت نداءاته البذيئة إلى الضابط أشرف الذى جاء صامتًا.. وفتح زنزانة «كيمو» وهو كظيم.. وأخرجه مع السنى وسردينة وهو ما زال لائذًا بصمته ووجهه المحتقن.. وأشار إلى العساكر الذين يؤدبون «خالد بُقْ» أن يتوقفوا عن مهمتهم إلى حين: **«سيبوا الكلب ده دلوقت .. شوفوا ولاد الـ.. دول»**

ووقف الثلاثة فى مواجهة ضعفهم من الجنود يتلقون الضرب بالعصى والأيدى والأرجل فى ثبات ودون دفاع أو اتقاء لهذا الهجوم الكاسح.. ولم ينل منهم التعب قدر ما نال الجنود لكثرة ما صرفوه من جهد أصابهم باللهاث، وفى لحظات هدوء كانوا يلتقطون فيها أنفاسهم توجه «كيمو» بوجهه المحتقن غيظًا والطافح احمرارًا من أثر الضرب إلى الضابط أشرف بكلام هادئ:

- **«لم كلابك يا أشرف، وخلى اليوم ده يعدى»**

- **«نعم يا روح أمك أشرف كده حاف .. بتهددنى يا»**

وجاءه الرد سريعًا من «خالد بُقْ» الذى قام من رقدته ممنونًا لفضل زملائه، وفتح فاهه عن آخره ومد يده إلى سقف حلقه وانتزع شفرة لامعة لموسى حلاقة، وراح يصيح وهو يمزق بها ذراعه: «أنا حوديكم فى ستين داهية يا ولاد الـ» وعندما اقترب بالشفرة من

وجهه لطمه كيمو بشدة وقبض على يده:

ـ «بلاش اللون ده يا بُقّ.. خسارة.. وشك خسارة.. خلاص يا أشرف بيه.. ادخلوا يا ولاد.. ادخل يا بق.. حاتودى مين فى داهية؟ دول عالم كلهم ظلمة.. ابعت لنا شاى يا بْنى..»

وكان النداء الأخير موجهًا لأحد جنود الضابط أشرف بشأن إرسال الشاى.

ـ «هات لهم شاى يا بنى.. خشوا يا...»

وكانت الكلمات الأخيرة هى الفاصلة فى المعركة عند أشرف، فطلب لهم الشاى، وودعهم إلى الزنزانة بكلمة نابية..

ودخل معهم إلى زنزانتهم «خالد بُقّ» زميل الزنزانة المجاورة يحمل ذراعًا تسيل منه الدماء وهو يكرر كلامًا كالذى قاله كيمو، حول ظلم الضباط وعدم رجولتهم فهم يفرضون سطوتهم على مساجين عزل لا يملكون حق الرد عليهم.

وجاء الجندى حاملًا الشاى لأربعة يستحقون هذا التكريم، فجلس المكرمون يرتشفونه فى هدوء وهم يحاولون وقف نزف دماء خالد ببعض قطع من ملابس قديمة.. ثم راحوا يتبادلون الضحكات ويتحدثون فى أشياء أخرى لا علاقة لها بالموقعة الصاخبة التى دارت بينهم وبين الدولة منذ قليل.

عصف الذهول بعقله..

ـ «ما هذا الذى أراه؟.. هل هؤلاء بشر كالبشر الذين أعرفهم؟ لا والله.. إنهم من طينة مختلفة وبعروقهم دماء مختلفة، وبعقولهم مفاهيم مختلفة»

وظل يتساءل.. ويتأمل ويحلل.. ويتعجب، وكلما تعمق فى البحث تهاوى فى ظلام الغموض ولم ينتبه أى شعور سوى خجله من نفسه، فقد كان يفهم ـ حتى دقائق مضت ـ أنه جسور شجاع مقدام **«لا.. لا والله.. لست كذلك، فأنا تافه وسطحى.. ومجرد بالونة مليئة بالهواء.. أدفع عمرى وانضم إلى هؤلاء العظماء.. أو أضمهم إلى.. تلك هى الكتيبة التى أستطيع بها أن أغزو العالم.. إنهم لى.. كلهم لى.. سأجعلهم يحبوننى.. ثم يحترموننى.. فمن العبث أن ينفقوا بطولاتهم فى معارك هزيلة. فليصرفوها عندى فى مواقع عالية.. يجب ألا يقتربوا بذكائهم من النار.. أنا سأقربهم به من الجنة.. هل لى أن أشكر فتيانًا الذى أتى بى إلى هذا المكان؟.. أين كنت**

سأجد مثل هؤلاء العظماء سوى هنا.. عند هذا الجدار الأخير فى نهاية عالم ملىء بالجدران.. إنه آخر جدار يسندون إليه ظهورهم المتعبة، ونفوسهم القلقة .. وآمالهم الغائمة.. الجدار الذى يستسلمون عنده لقدرهم وهم يبعثون إلى العالم الخارجى نظرة ازدراء. الجدار الذى يقبلون عنده أى شىء يتعلق بمصيرهم؛ حيث لا يملكون خيارًا آخر سوى هذا المصير.. »

كان سارحًا.. شاردًا.. مذهولًا.. لم يعد يقوى على الكلام والتعبير.. وصحا على نداء ناعم من كله: «مالك يا روحى.. سارح فى إيه»

أشاح عنه بوجهه، واتجه إلى كيمو متسائلًا:

- «تعرفوا العساكر اللى هنا كويس؟»

- «طبعًا عاوزهم فى حاجة؟»

- «ممكن أكلف واحد منهم بمشوار للفيلا يوم السبت الصبح.. الفيلا بعد الميدان بشوية..»

- «ممكن أختار لك (عسكرى مجدع) يعمل المشوار ده.. لكن ليه؟»

وقال السيد النحال بصوت هادئ:

- «زمان مدير مكتبى قلقان علىَّ ومش عارف أنا فين. وحيدوخ علىّ النهاردة وبكره.. ويوم السبت مش حيلاقينى فى المكتب بالفيلا.. حيقلق أكتر.. العسكرى لو راح يسأل عليه.. اسمه عنتر.. يجيبه معاه.. ومعاهم ألف جنيه.. نسددهم للقضية.. وكمان ٢٠٠ جنيه توزعهم بنفسك على الرجالة الحلوين دول عربون صداقة»

فشهق كله فرحًا:

«يا قوة الله ، ٢٠٠ جنيه مرة واحدة ؟»

وتأمله كيمو برزانة وإعجاب:

«وكل الرجالة دول إخواتك ورجالتك من غير عربون .. اكتب لنا عنوانك وتليفوناتك وكلنا حنزورك، كل واحد حسب ظروفه..»

فكتب له العنوان.. ولاذ بصمت وقور وهو واثق أنهم سيحسنون تقدير موقفه الناطق بالإعجاب بهم ومحاولة كسبهم.. ثم وثق أنه سيجنى ثمار ذلك فى الوقت المناسب.



لي عنق الفرسة الجامحة..

ظل السيد النحال دائم السعادة وهو يقبض بفرح على طرف الحبل الذى أرخاه له صديقه الكبير طازج الصداقة حشمت بركات، حتى إن الدور العلوى بالفيلا صار جاهزًا لاستقبال جلسات المزاج بشكل شبه يومى، ولما شارك فايز فودة فى بعض جلساتهم العالية بدا للسيد أن فايزًا قد ارتاح لانتقال خيمة الكرم إلى صحرائه الممتدة الشاسعة فصار يقصدها على فترات ليغذيها برضاه ويبارك للصديقين الجديدين صداقتهما البارة. أما حلمى عبد الباقى، فلم يفكر ذات ليلة أن يشاركهم سهرة واحدة.

وطفا الخير المنساب من صنبور المال المفتوح فأغرق المكان بكل ما فيه وكل من فيه.. وصارتا ـ حكمت وبشاير ـ تتلقيان إيرادًا شهريًّا يزيد عن المائتى جنيه دون أن تتأملا كشف الحساب الذى تقدمه لهما صديقتهما «مارى..»

وكان لابد أن يتلقى السيد النحال وصفًا رائقًا من حكمت سرعان ما اعتمدته بشاير وهو أنه رجل «جنتلمان»، فعندما فاجأهما ذات يوم بشاب ناعم وإن كان وجهه صارمًا عرفا بعد قليل أنه المسئول عن خدمتهما، وشراء حوائجهما، ثم عرفا بعد حين أن اسمه «كُله»، فراحتا ينطقان هذا الاسم الغريب بابتسامات مراوغة، وكان ما يسبغه عليهما السيد من كرم فى شكل أطباق منتقاة من الأطعمة الفاخرة التى يقدمها لحشمت بركات فعله فى نفوسهما، وعندما زادت المكاسب لأكثر من خمسين جنيهًا لم يكن ذلك سوى ثمار ما شاهدتاه من أكشاك خشبية تقام هنا وهناك، وعلى ما يسمعانه من طرقات وضوضاء ليعرفا أن الموقع به الآن ورشة وكشك لتخزين الكاوتشوك وطلمبة سولار فى أحد الأركان..

وجدته «مارى» عازفًا عن إعادة بحث موضوع خطبته لخميسة، ووجدت أن الفتاة

تنصرف إلى عملها فى مواعيده المحددة، ثم تغلق بابها على نفسها وهى تنصرف إلى المذاكرة. وتعجبت السيدة أن الحبيبين لا يقتربان بقدر ما يبتعدان.. فأيقنت أنهما بحاجة إلى الدافع أو المحرك أو باعث الحياة فى حب ستقتله الكرامة، كرامة من منهما يبدأ الإقدام.. وقررت مارى أن تبدأ هى..

وعندما شرعت فى ذلك بدأت فى إبداء إعجابها بشخصية السيد النحال، وكيف يمكن لهذا الشاب أن يضع يده فى التراب فيحوله.. إلى تبر، وكيف صار يحقق لنفسه وشريكتيه حكمت وبشاير إيرادًا مذهلًا لم يحلما به، وكيف حوّل أرض الزيتون إلى خلية من العمل والحركة والنشاط والأموال المتدفقة، وكيف يعيش الآن بدور كامل بالفيلا:

ـ «ألا يجب أن يكون هذا الطابق الأنيق هو بيت الزوجية يا خميسة؟»

ثم ذكرتها أنها تكاد تكون مقطوعة من شجرة.. فبعد حادث فريد هنيدى انصرف عنها وانشغل بمصيبته، وتوقف رأفت إبراهيم عن زيارتها بعد تخرجه، ولم يعد رجب يأتى إليها إلا لمامًا..

فسألتها خميسة:

ـ «أأنت تتحدثين كرسول من عنده، أم أنها فكرتك؟»

لمحت مارى أن سؤالها ينطوى على أمنية.. فسارعت بكذبة بيضاء:

ـ «كثيرًا ما ناشدنى أن أخرجك من صمتك، ولكنى كنت فى انتظار إشارة منك..»

ـ «إذن دعينى أفكر..»

وأسرعت مارى إلى رجل الأعمال الشاب الأنيق فى مكتبه الفاخر بفيلا الزيتون وتشهق وهى ترى نفسها فى مكان مؤسس بذوق رفيع، فهتفت:

ـ «حكمت وبشاير يقولان إنك «جنتلمان» وسوف أبلغهما أنك صاحب ذوق رفيع.. وأوصف لهما كيف حولت هذا الدور المهجور إلى جنة.»

فسارع باستثمار هذا الثناء، وطلب منها أن يسمحا له بتشييد حوائط يعزل بها هذا السلم الداخلى الصاعد من الدور الأرضى إلى الدور الأول، فهذا السلم لم تعد له وظيفة

طالما أن ساكنى الدور الأرضى لا يصعدون به إلى أعلى، وأن وجود السلم الآخر الصاعد من الحديقة إلى مكتبه جعله يفكر فى هذا الغلق رحمة بالسيدتين من ضجيج الضيوف والموظفين..

ابتسمت مارى فى خبث لذيذ:

ـ «كأنك تقرأ أفكارى.. فأنا قلت لخميسة إن هذا الطابق يصلح بيتًا للزوجية لها.. ولك.. ومن اللائق فعلًا أن يعزل عن أسفل..»

ابتسم هو الآخر، ولكن فى خيلاء:

ـ «لم أتحدث معك عمدًا ومن شهور طويلة حول حبى المتوقف عن العمل لثقتى أنك ستتولين بث الحياة فى أوصاله..»

ـ «لقد تحدثت معها بما فيه الكفاية، وكذبت عليها عندما سألتنى إن كان هذا رأيك فى إعادة المياه إلى مجاريها.. وأجبتها بنعم.. وهى تفكر جديًّا فى الاهتمام بعرضك.. فاطرق الحديد وهو ساخن»

وكان الحديد بالفعل ساخنًا ويعوزه التشكيل، فخميسة لم تفكر فيما سوف يكون، بل استرجعت ما قد كان يوم أحبت السيد النحال، أحبته كولد هناك فرق كبير فى نظرها بينه وبين كل أولاد البلد، جرىء وطموح وشرس ومتحدث لبق، وله شخصيه لم ينل منها فقره الشديد، وعندما اعترفت له بحبها فى ليلة ظلماء ومثيرة انهال عليها شعره الرومانسى الرقيق..

«ترى.. هل تغير السيد إلى هذه الدرجة حتى إن السيدة مارى لا تكف عن الإشادة به؟.. قال لى إننى أيقظته، وقال لى إن حبى له هو الذى سيشفيه، وقال لى إنه سينتحر لو فقدنى، ثم قال لى إنه من الآن سوف يكون أبى وأمى وزوجى وحبيبى.. ألا تعرفين الغفران يا خميسة؟.. الله الغفار لكل الأخطاء والخطايا سوف يرضى عنى إذا صفحت عن ذنب لرجل أحبه.. لأننى أحبه..»

* * *

جاءها صوته به شجن:

ـ «إلى متى يا خميسة سيظل بيننا رسول.. ورسولنا المحتوم هو الحب الذى يقرب القلوب..؟»

ـ «مارى تقول إنك ناجح فى عملك الجديد»

ـ «الروح التى اندفع بها إلى النجاح هى قبس من روحك يا خميسة.. أريد أن أثبت لك أننى تحولت وتقدمت.. سأدعوك لزيارتى»

ـ «والحشيش؟»

ـ «لعنة الله عليه.. أصبح مجرد ذكرى.. يومى كله هنا أقضيه فى أرض الزيتون بعد أن فصلونى من المطابع..»

ـ «كيف أصدقك..؟»

ـ «أنت تعرفين المكان.. خذى تاكسيًا وتعالى الآن .. أنا فى انتظارك..»

* * *

جهز مكان اللقاء فى مكتبه الفاخر حتى تجده به منفردًا.. أقبلت عليه ففتح ذراعيه عن آخرهما حتى يضمها إلى صدره.. هربت بعيدًا عن مرمى أحضانه.. بدا عليه الوجوم والضيق: «إذن، فأنت لا تحبيننى..»

ـ «حتى لو اعترفت لك بأننى ما زلت أحبك، فلا علاقة لذلك بما يحدث فى الأفلام المصرية.. كيف تريد أن تأخذنى فى حضنك هكذا ببساطة..؟»

ـ «هكذا أنت دائمًا يا خميسة.. صعبة»

ـ «لو أقنعتنى بكيفية ألا أكون صعبة.. فسوف أتحول على يديك إلى امرأة سهلة..»

ـ «هنيئًا لك بكلية الحقوق.. وهنيئًا لمستقبل المحاماة بالمحامية خميسة عفيفى»

ـ «أنت دائمًا تجيد الهروب بشكل بارع، كان يجب أن تصبح أنت المحامى.. لا أنا»

ثم دققت النظر فى الفراغ الممتد أمامها عبر الشباك.. سيارات.. وبشر.. وحركة.. ثم راحت تدقق النظر أكثر.. واقتربت من الشباك وهى تهتف بذهول:

ـ «من هذا؟.. عنتر مكاوى..؟ رسولك بالحشيش إلى بدير؟»

دق قلبه وانتقل ناحيتها وراح يمعن النظر:

ـ «أجل.. إنه هو.. ما زلت تذكرينه..»

رمت إليه نظرة لوم:

ـ «وهل يمكنني أن أنساه؟.. قلت لى إنك هجرت الحشيش، فلماذا تحتفظ به؟ هذا الرجل»

أرسل إليها نظرة أشد لومًا:

ـ «إنه يشرف على ورشة الصيانة وطلمبة السولار.. وهل لأننى اتجهت إلى الحلال معناه أن أقطع عيش رجل خاطر بحياته فى عملى القديم؟..»

رأى أنه قد حان الحين أن يهبط بها إلى الدور الأرضى فى زيارة إلى حكمت وبشاير.. فأمامها ستغدق العجوزان الثناء عليه والفخر به، وسوف يجتمع ثناؤهما مع ما سمعته خميسةمن ثناء ضاف أسبغته عليه السيدة مارى. «فهل سيساهم كل هذا الثناء فى لى عنق فرستى الجامحة؟»

ونال ما تمناه، ولم تستطع خميسة أن تدفع عن رأسها سيل الحب المنهمر والثناء المتدفق من السيدتين، ووجدت أن قصتها معه ـ تلك التى اخترعها السيد وخفف أحداثها المأساوية إلى أحداث عاطفية تتعلق بالهجر والدلال ـ لم تكن خافية على صديقتىْ سيدتها مارى.

وأمام الجميع غرقت الفتاة فى الحيرة إلى أن استأذنت بالانصراف وصعدت معه مرة أخرى إلى الدور العلوى وهى مأخوذة بالصمت والشرود فسألها:

ـ «ما بك يا خميسة؟..»

ـ «خائفة..»

ـ «ممن؟»

ـ «من أشياء كثيرة»

ـ «هل تخافين منى ؟»

ـ «لا أنكرك القول.. نعم»

ـ «لماذا ؟»

ـ «كثيرًا ما أحس أنك قريب منى للغاية، وسرعان ما أحس بعده أنك بعيد عنى ـ للغاية»

ـ «وإلى متى ستظلين هكذا؟»

ـ «لا أدرى»

ـ «أنت تخافين من الناس وليس منى، ويشغلك ما سوف يحكمون عليك به إذا تزوجت خصم والدك الذى تسبب فى حبسه رغم براءتى من هذا الاتهام.»

ـ «وهذا أيضًا قول صحيح»

ـ «إذن، فيجب ألا يعلم هؤلاء الناس أننا تزوجنا»

ـ «كيف.. نتزوج فى السر؟»

ـ «لا.. أقصد ذلك.. نتزوج فى العلن وبشكل محدود.. ألا يكفيك ثلاث نساء ورجلان؟»

ـ «النساء وعرفتهن.. فمن هما الرجلان؟»

ـ «اثنان من موظفى شركتى.. أثق بهما، عنتر مكاوى ليس منهما..»

ـ «قلت لى ستكون أبى وأخى وزوجى وحبيبى»

ـ «وحارسك الأمين يا خميسة»

ـ «موافقة»

* * *

وبعد حين فهم المخنث «كله» ومعه «السنى» صاحب الذقن البنى لماذا طلب منهما رجلهما الأثير السيد النحال أن يرتديا أفخم ما لديهما من ثياب .

فحين خطا المأذون خطوته الأولى بالدور الأرضى بالفيلا عرفا أن هناك عقدًا لقران ما.. ولكن من هى العروس فى هاتين العجوزين اللتين تودعان الحياة إلا إحداهما التى بها رمق..

وعندما هبطت نجلاء برفقة السيد من الدور العلوى فى أبهى زينتها ارتفعت الحواجب عن العيون والشفاه عن الأسنان والرءوس إلى قمة الدرج الهابط. فهذه هى الملكة التى يستحقها رجلهم الكريم. وتم عقد قران الآنسة البكر الرشيدة خميسة عفيفى السيد حمزة على السيد عباس عبد المحسن النحال بشهود عدول هما رأفت فاروق مرسى الشهير «بكّله» وزميله عبد الحميد أبو الوفا عجيزة الشهير «بالسنى» وتناولوا جميعًا أكواب الشربات من يد العجوز حكمت، وقطع الجاتوه من يد أختها بشاير، وبعض السجائر الأجنبية من يد السيدة مارى.

ثم انطلق العريس بعروسه باسم الثغر، رائق المحيا، مودعًا حفلة الصغير والذى لم تنطلق به زغرودة أو تعلو فى أجوائه جملة موسيقية واحدة.

* * *

وهما بالتاكسى لقضاء السهرة فى كازينو صفية حلمى بميدان الأوبرا لم تكن تعلم أين سيذهب بها بعد السهرة، لكنها تثق أنهما لن يعودا إلى فيلا الزيتون، فالطابق العلوى لا يوجد به سوى أثاث مكتبى والأخشاب الموردة لعمل حوائط حول فتحة السلم تملأ الصالة .

أما ما يعتمل فى صدرها من سر يتقلب على مضض، فقد ملأ رأسها بالحيرة:

هل تبلغه أم لا؟..

وبينما كان يدعو المصور بإشارة من سبابته للحضور عندهما لالتقاط عدة صور . سارع فضمها إلى جانبه وهو يلف ذراعه حول خصرها وهتف بها وهو يضحك: «اضحكى..»

حاولت أن تتذكر أى موقف قديم فى البلد يجلب لها الضحك، فاكتشفت أنها لم تتمتع بمثل ذلك الشىء.. فكل حياتها حروب متصلة.. بينها وبين أبيها من أجل أمها، ثم موت أمها، وزواج أبيها، ثم بينها وبين صفية زوجة أبيها.. ثم بينها وبين أبيها، من أجل صفية.. ثم من أجل طمع صفية فى الدكان ، ثم استخدام العند ومغادرة المدرسة حتى لا تتمكن صفية من الدكان.. ثم وقوعها فى حب السيد النحال.. «كيف بالله لا أحب إلا السيد؟.. صحيح الحب أعمى..»

ـ «اضحكي..»

أفاقت على جذبة ثانية. وضمة أكثر ضغطًا على خصرها، وتذكرت أنها لم تتمكن من جلب الضحك في المرة الأولى..

فحاولت في المرة الثانية.

والنتيجة بعد أن جاءتها الصورة: ابتسامة بها حزن.

قررت في جلستهما التاريخية بالكازينو أن تسرب ما لديها تدريجيًّا، فسألته مصطنعة:

ـ «**ظننتك ستدعو أميرًا إلى حفل زفافنا**»

ـ «**وما الذي ذكّرك بأمير... الليلة؟.**»

ـ «**ألا يجب أن أذكره، وهو الذي جد في البحث عني حتى عثر علي**»

توقفت الشوكة بقطعة اللحم التي كانت في طريقها إلى فمه:

ـ «**أمير.. عثر عليك... وقابلك؟**»

ـ «**وجاءني في الفندق.. لكنه لم يقابل ماري مثلك**»

ـ «**وكيف عثر عليك؟**»

ـ «**عن طريق رحلة طويلة بدأت من عند طاهر زين الدين الذي قال له عن مكاني..**»

وصمتت برهة ثم سألته: «**أفهم من هذا أنكما ـ أنت وأخوك ـ لا تلتقيان؟...**»

ـ «**تقريبًا**»

وصمت قليلًا، ثم سألها هو:

ـ «**وماذا قال لك عن طاهر؟..**»

ـ «**قال إنه يعاني من ورم خبيث في ساقه سيقضي عليه، وقال إنك سوف ترثه..**»

بحلق فيها بشدة: «**أنا أرث طاهر؟ كيف..؟**»

تناولت كوب ماء، ونالت منه رشفة لتواري اهتزازها:

ـ «**يقول إنك تسعى لإقناع خطيبته فوزية لتشاركك في محل كوافير**»

تذكر أنه فعلًا فكر فى ذلك، وعرض هذا الأمر على فوزية بعدما شاهد بنفسه عشيقات حشمت بركات يدفعن مبالغ طائلة فى كل تسريحة بمختلف المحلات؛ حيث يذهب لاصطحابهم إلى أوكار حشمت بركات..

فعنتر مكاوى حتى الآن لا يعرف هذه المهمة الإضافية التى يقوم بها معلمه السيد النحال بعيدًا عنه، مهمة القوادة والتخديم على ليالى حشمت الحمراء.

لم ينكر اهتمامه بفكرة مشروع الكوافير. فقال لها:

ـ «مازلت أحلم بهذا المشروع..»

فسألته: «مشروع المحل.. أم مشروع مشاركة فوزية؟»

لمح بريق الغيرة يطل من عينيها فلم يبالِ.. وقال لها:

ـ «لا ينجح مثل هذا المشروع إلا بيد امرأة.. فوزية أو غيرها..»

ـ «إذن، فلو فكرت فيه فلن يديره سواى.. جحا أولى بلحم توره..»

ـ «اللحم شىء.. وتصفيف الشعر شىء آخر.. يلزمك خبرة مستفادة..»

ـ «أنا جاهزة لنيل هذه الخبرة ليس عن طريق فوزية»

ـ «يبدو أن أميرًا قام بالواجب على خير وجه، وأمدك بأشياء كثيرة..»

ـ «ما فهمته بحدسى ومن خلال حديثه أنه يود أن يزيحك من طريقه، ويستعد لأن يرث ثروة طاهر الوحيدة.. فتاته الجميلة..»

ـ «دعينى أحيى حدسك الفذ فيما يتعلق برغبة أمير فى امتلاك فوزية.. أما أنا فلم أفكر إلا فى الفوز بك أنت.. فاشطبى على أى شىء آخر..»

طاف بخيالها ما كان يردده أهل البلد من أن أبناء النحال لا يحلو لهم إلا خطف ما فى أيدى الناس، واعتبرت أن ما يحيطها الآن ليس عرسًا بقدر ما هو خطف ناعم لزوجة بالمجان، وهى لا تنكر أنها استجابت لهذا الخطف بخاطرها بعد أن لمست فى حياة أمير أن الحدأة تحوم حول كتكوت آخر اسمه فوزية.

حينئذ لم تستطع أن تقاوم الحريق الصغير الذى شب فى قلبها.. حريق غامت خلف

دخانه كل المرئيات التى كانت ماثلة فى سجل أسود ملطخ بأفعال السيد النحال.

وعلى الجانب الآخر، فقد تأمل ابن النحال الاحمرار الناطق بالتردد والخجل فى وجنتى خميسة، والاستكانة الكامنة فى صوتها، وعرف أن القدر قد وقف فى صفه عندما أتى أمير بما أتى به من أخبار ووضعها أمام خميسة.

أخبار أزعجتها.. أخبار اكتشفت منها أن هناك فتاة أخرى قد تزيحها من عالم السيد وإلى الأبد.. وهمس لنفسه بفخر: «**والله لقد خدمتنى أيها الأمير الحقير، ووالله ماكانت عودتك الميسورة يا خميسة وقبولك لهذا الزواج المسلوق إلا لأنك أقلقك إهمالى لك وقت اهتمامى بأرض الزيتون، تم ما أقلقك من حديث أمير عن فوزية**»

* * *

وفى التاكسى همست له:

ـ «**إلى أين ستذهب بى؟**»

فهمس لها بابتسامة واسعة:

ـ «**إلى عش الزوجية سترين الآن.**»

* * *

وفى شقة المنيرة الآهلة ببعض المفروشات القديمة، وغرفة نوم جديدة، أغلق خلفهما الباب وحملها ضاحكًا حتى السرير، وما إن خفتت الضحكات حتى كسا وجهه بعلامات الحزم والجدية وقال لها:

ـ «**لا أحد من كلّ الذين حولى يعرف طريق هذه الشقة حتى أخى أمير نفسه..، أول من يدخلها أنت.. لم يكن فى حسبانى أن يشاركنى فيها أحد.. لا أدرى لماذا ظللت حريصًا على ذلك حتى الآن؟. جميل أن يحدث ذلك حتى تنالى هذا الشرف.**»

ثم قام فخلع الجاكت، وهو آخذ فى الحديث:

ـ «**نريد أن نحذر مارى ألا تخبر أميرًا بزواجنا**»

تناولت منه الجاكت وعلقته على شماعه ووضعتة فى الدولاب وهى تقول:

ـ «بما أنه شقيقك، فقد يحزنه ألا تخبره»

خلع البنطلون فأسرعت وتناولته منه وطوته فى شماعة الجاكت وهو يتأمل حديثها ووثق أنها تصبو أن يصل خبر زواجه منها إلى فوزية عن طريق أمير.. «يا للنساء..»

ـ «لا يهمنى أن يحزن أو يفرح.. يهمنى ألا يعرف.»

ثم اتجة نحوها وأدار ظهرها نحوه.

ـ «يبدو لى أنه مشغول بفوزية..»

وعندما انزلق فستانها عن جسدها، قال لها:

ـ «تتحدثين عن فوزية كأنك تعرفينها منذ زمن بعيد».

اتجهت نحوه فحركت رباط العنق من رقبته ثم خلعته وراحت تفتح أزرار القميص:

ـ «يبدو أنها فتاة مغرية..»

قال لها:

ـ «الإغراء الحقيقى هنا.. أمامى الآن»

قالت له:

ـ «أنا ملك يمينك...»

انتبه إلى قولها الناعم المرتعش: بكلتا يديه:

ـ «وأنا عبدك المطيع»

وسرعان ما تخلص من الفانلة «وفردة جورب واحدة» وحملها إلى السرير، فأيقنت أنه انشغل عن التخلص من فردة الجورب اليُمنى عندما اهتاجت رجولته:

ورغم إقباله النهم عليها لم تكن تعلم أن جزءًا يسيرًا من عقله ينصرف عنها ـ رغمًا عنه ـ إلى شخص محير فى حياته.. أخ حقير اسمه أمير.

///



كيف كنت هنا طوال هذا العمر دون أن أراك؟

أثناء عودتهما الأخيرة من الإسكندرية إلى البلد ـ وكانا يستقلان كعادتهما الدرجة الثالثة بالقطار ـ قال فريد هنيدى لرأفت إبراهيم:

ـ «كلها أسابيع وتستلم وظيفتك أيها الزراعى المجرب.»

فهم رأفت أن ما يقصده فريد هو الإشارة إلى عمله الصيفى مع الريس عفيفى فى غيط المصلحة فتكدرت سحنته عندما تذكر هذا الرجل المسكين الذى انهارت عائلته بلمسة من لمسات أبناء النحال، فقال لفريد:

ـ «مسكين.. تحملنى نفرًا متواضعًا بين عماله، ولم أهنأ بمباركته لى كمهندس»

ـ «لم يهنأ بأشياء كثيرة خاصة ابنته خميسة التى تمكنت من دخول كلية الحقوق»

ـ «أما زال السيد النحال يحوم حولها؟»

ـ «هو يحوم حولها حينًا وحول فوزية أحيانًا.. أمير قنوع لا يحوم إلا حول فوزية»

ـ «قابلت (نجيب النجار ومحمد ناجى) عند شباك التذاكر.. يسلمان عليك.»

ـ «ما أخبارهما؟»

ـ «يتقبلان تأخرهما عنا بعامين بكل بساطة، ولكنهما حتى الآن لم يتقبلا فكرة وصول أمير النحال إلى نائب رئيس اتحاد طلاب الجمهورية»

ـ «أنا قلت من قبل أن ولدىْ النحال سيتسلقان إلى أعلى المناصب.. صدقونى..».

توقف القطار فى محطته الأولى، هبط ركاب، وصعد آخرون، وكان من بين الصعود فتاتان إحداهما ذات وجه وقوام جميلين، لاحظ رأفت أن صديقه تململ فى جلسته لفرط

جمال الفتاة، وبعد حين مال فريد إليه هامسًا:

ـ «من المذهل أن تجد مثل هذا الوجه وتلك العيون فى إحدى عربات الدرجة الثالثة بقطار الأقاليم ولا تجدها على شاشة السينما..»

ابتسم رأفت بإشعار مقصود:

ـ «حتى تعرف قيمة الدرجة الثالثة التى تشاركنى ركوبها رغمًا عنك..»

ولما وقف فريد فاردًا طوله العملاق، وجسده الهائل المتناسق، عرف رأفت أن صديقه يمر بلحظة استعراضية مدعيًا أنه فى طريقه إلى دورة المياة، وراح يتبختر فى الممر مركزًا نظرات ناطقة بالغزل إلى الفتاة التى بادلته «بتسامة تضامنية ثم لاذت بالحياء أمام زميلتها وعندما عاد إلى الجلوس همس مرة أخرى لرأفت:

ـ «لم تقابلنى فى حياتى عينان بجمال عينيها»

توقف القطار فى المحطة التالية، وهبط ركاب وصعد آخرون، وامتلأ الممر الطويل ببشر يبحثون عن مقاعدهم.. جاءت من أقصى العربة عجوز تسعى باحثة عن مقعد لها.. وظلت تقترب حتى وقع بصرها على ذلك الشاب الفارع الراسخ فوق كرسيه كجبل صغير وله صدر مفرود يحمل ثديين نافرين ويرتدى قميصًا أبيض بنصف كم محبوكًا على زنده الأسطوانى اللامع.

توقفت أمامه وحملقت فيه .. ثم شهقت، سارت خطوة، توقفت مرة أخرى، مصمصت شفتيها، مضت حتى تخطته، ظنها فريد قد ذهبت إلى حال سبيلها، ولما تابعها بنظراته وجدها تلتفت خلفها لتمعن النظر فيه بتعجب واستغراب.

عاد فريد إلى نفسه وانكفأ عليها وهمس إلى رأفت:

ـ «أحس برهق عجيب تملّك جسدى وكأنه يذوب»

لم يكن رأفت قد أعطى اهتمامه للحوار الصامت بين عينى العجوز وبنيان فريد، فسأله:

ـ «ما الذى حل بك هكذا فجأة؟»

عاد فريد إلى الهمس بصوت موجوع:

ـ «عينا تلك العجوز»

ـ «ماذا بها؟»

ـ «كأنها أرسلت منها شرارة اخترقت جسدى»

ـ «لا تضع فى بالك.. واذكر ربك يا بطل»

ـ «لاإله إلا الله»

هذا هو حادث القطار كما قال عنه رأفت إبراهيم فيما بعد.. عينان ساحرتان لفتاة جميلة.. وعينان صفراوان مجعدتان لعجوز آثمة القلب.. الأولى أبهجته، والثانية فتكت به..

وبعده جاء حادث البلد فى اليوم التالى لوصول البطل فريد هنيدى إلى منزله.

صراخ عال يشق عنان السماء .. وأناس يهرولون إلى مصدر الصراخ.. بهم من يقول «إن هناك حريقًا ناحية دار الهنادوة»، وهناك من يقول «يبدو أنه قد مات منهم أحد»

وفى الساحة الواسعة أمام منزل أولاد هنيدى اختلطت الجموع وتزاحمت حول حادثة لن يطردها الزمن من مخيلتهم.. جمل دار هنيدى العملاق يقبض بفكه الرهيب على ذراع ولدهم فريد.

الجمل الغاضب لا يعبأ بالعصى التى تنهال عليه، لا يفك قبضته عن الذراع، يمعن فى الإمساك بها، النداءات الهلعة تختلط ببعضها، ثم عادت فاختلطت بالدموع: «اقتلوه.. البطل يموت.. ارشقوا سيخ الحديد هذا فى عينية.. الجمل به جنون.. يا راضى خذ أمك بعيدًا.. أخى يموت.. يا ولديييى.. ولدى يموووووووووت.. احمل أمك بعيدًا يا محمود، تصرفوا فى بندقية يا خلق.. الذراع تهدل يا ناس لقد هشمه الجمل المجنون.. فريد فقد الوعى.. فريد يموت.. ما هذا الزبد الأبيض الذى يسيل من فيه؟. أمسكوا به.. الجمل يهرول به، يجرجره، أوقفوه.. أوقفوه.. هاتوا حبلًا.. قيدوه..»

وفجأة لفظه الجمل وألقى به أرضًا.. ظنوا وهو ملقى بلا حراك أنه قد مات... ومن جانب فمه تسرب نفس خفيف باعثًا زبدًا أبيض، فهتف راضى:

«به الروح .. به الروح، إسعاف.. إسعاف.. اجر إلى دوار العمدة اطلبوا الإسعاف»

لم يقو رأفت أن يحمل صديقه معهم، أو أن ينظر فى وجهه الغائب عن الدنيا بكل وسامته.. وصحا على صراخ عربة الإسعاف وهى تفرّ به من قلب الزحام وراح بعد

ساعات يتلقى أخباره عبر من يعودون من المدينه:

- «**أفاقته الإسعافات.. أدخلوه إلى غرفة العمليات.. أجروا له عملية.. وضعوا له جبيرة.. مازال يئن.. يقاومون معاناته ببعض المسكنات..**»

ولما زاره بالمستشفى تاه منه الكلام فوقف بعيدًا يتأمل رقدته القسرية بعين تملؤها الدموع . بطل مطروح بلا حراك ملفوف بأغطية خفيفة وزنده العملاق همدان على صدره تحيطه جبيرة بيضاء.

- «**تعال يا رأفت..**»

تقدم إليه عبر مسافة يشغلها الجالسون حوله على مقاعد أو يفترشون أرض الغرفة.. أمه المسكينة.. راضي ومحمود.. على الصغير ابن محمود.. زوجة راضي.. وآخرون.. هتفت أمه..

- «**أرأيت ما حدث للبطل يا رأفت**»

وانفجرت فى نهنهة اختلطت فيها دموعها بدموع رأفت وهو يميل بقبلة على خد فريد، ثم اختلطت بعد هنيهة بدموعه عندما أخذه بكاء مكتوم.

* * *

قال لهم وهو يصرخ من الألم وحوله الأطباء قليلو الحيلة «**ماذا فعلتم بى.. فكوا هذه الجبيرة الملعونة.. أسفلها نار تخترق روحى**»

ترددوا وتبادلوا النظرات التائهة، فصاح بهم:

- «**لقد سمعت عظامى تتكسر كالزجاج وأسنان الجمل تجرشها.. أرجوكم..**»

ثم التفت إلى أخويه: راضي ومحمود، وقال:

- «**ابحثا لى عن مستشفى أخرى أو انقلونى إلى مصر.. سأضيع بين أيديكم.. أين رأفت ابعثا به إلى..**»

وجاء رأفت، فناداه قبل أن يصافحه بيسراه:

- «**افعل شيئًا يا رأفت.. اتصل باتحاد كمال الأجسام، اتصل باتحاد الطلاب.. اتصل بوزير الصحة.. الجبس فى يدى تشرب بالدماء.. نار تشتعل فى عظامى.**»

ووقف رأفت المسكين حائرًا فهو لا يعرف أين هذا الاتحاد المعنى بأبطال كمال الأجسام..

ولا يعرف من اتحاد الطلاب سوى هذا الماكر أمير النحال، أما وزير الصحة فأين له بمقابلته وتحت أي عنوان.. ولو كان لا يعرف فى كل هؤلاء سوى ابن النحال، فكيف يمكنه أن يقابله؟!.. لا أحد يعرف له عنوانًا.. الدراسة انتهت.. والمدينة الجامعية قد أغلقت أبوابها، ومع هذا فقد سعى إلى القاهرة ملقيًا بنفسه فى أول عربة أجرة وجدها أمامه.. وهمس لنفسه..

- «**لا أعرف فى العاصمة إلاها.. خميسة..**»

وفى الفندق عرف منها أن أميرًا زارها مرتين، ولم يترك لنفسه عنوانًا أو تليفونًا.

- «**الوقت يسرقنا يا خميسة.. المستشفى لدينا فى المدينة تعبانة.. قد ينتهى الأمر ببتر ذراع فريد.**»

- «**اذهب إلى الجامعة فقد تستدل عليه هناك، إن لم تجده اترك له رسالة، واترك له تليفونى هنا بالفندق وانتظر اتصاله بك.. يمكنك أن تقيم هنا لعدة أيام..**»

لم يجده بمكتب الاتحاد.. قالوا له إنه يأتى بين الحين والحين..

ومكث بالفندق ضيفًا على خميسة والسيدة مارى يومين جاءهم فى آخرهما الاتصال المنتظر من أمير، تعرف على الحادث الذى ألم بغريمه فريد هنيدى وخاض معهما حوارًا طويلًا.. بعضه مع رأفت وبعضه مع خميسة.. ولما وضع رأفت السماعة كآخر من تحدث معه قال بتأفف:

- «**لقد راهنّا على شخص خاسر.. نذل.. وبلا قلب..**» أيدته خميسة بهزة من رأسها:

- «**يتعلل بأن فريدًا لم يعد طالبًا حتى يتدخل لصالحه باسم الاتحاد.. ألم تلاحظ أنه كان محاطًا بأصوات نسائية..؟**»

- «**وكان يلهو مع بعضهن أثناء المكالمة دون خجل.**»

- «**يبدو أنه فى كافيتريا أو كازينو.. بل لعله فى خمارة**»

- «**إذن، سأعود أنا.. لا نفع من وجودى هنا..**»

وصل إلى البلد مساء اليوم الثالث، ذهب رأسًا إلى دار الهنادوة، قابله راضى هنيدى برأس منكس وقلب مكسور وبقايا دموع لم تجف.

- «**ذراعه، بتروه... أين كنت؟.. كان ينادى عليك طوال الوقت**»

لم يتمكن من الرد عليه بعد أن تشبثت قبضة ما بحنجرته وقفل عائدًا يتخبط فى

الظلام، ولم ترحمه القبضة المتشبثة به إلا بعد أن امتلأت غرفته بالبكاء وغرقت وسادته بالدموع.. وصار باستطاعته أن يعلو صوته بالكلام، فهتف:

ـ «أنت تعرفها يا فريد.. العين التى أصابتك.. العين التى جاءتك تسعى من آخر القطار»

* * *

قبل أن يسافر إلى الإسكندرية للاطلاع على نتيجة البكالوريوس ذهب رأفت إلى فريد ليبلغه بهذا المشوار، لحظتها ذهب فريد ببصره بعيدًا وأخفى عينيه حتى يوارى دموعه، ثم ردد:

ـ «لا تبحث عن نتيجتى؛ فلم يعد لها قيمة»

فقال رأفت بقلب مكسور:

ـ «كيف لا نجنى حصاد أربع سنوات من العمل والتحصيل؟»

ـ «هذا لمن يرغبون مواصلة الحياة»

ـ «لا عودة إلى هذه النغمة، ولن أسمح لك بمواصلة نزف هذا اليأس أيها البطل..»

ـ «أرجوك لا تنادنى بهذا اللقب، لا يوجد بطل بذراع واحد..»

ـ «لا تقل هذا يا فريد.. البطولة الحقيقية.....»

قاطعه مسرعًا:

ـ «لن نتفق يا رأفت.. لا تسرب عزاءك بهذا الإصرار.. فأنت تتحدث مع رجل قد مات»

ـ «إنه قدرك يا فريد..»

ـ «سمه ما شئت.. إنما الأمر بالنسبة لى أن ذراعى المذهل قد التهمته القطط والكلاب من قمامة المستشفى.. ليتهم دفنونى معه»

وراح يبكى، فاندفعت أمه إلى الغرفة وتبعها راضى ثم محمود وزوجاتهما، وانعقدت حلقة بكاء جديدة ينجرفون كلهم إليها كلما تذكر فريد مأساته وتحسس ذراعه فلم يجده.

وفجأة صرخ بهم:

«ارفعوا هذه الصور.. ارفعوها..»

كانت كلها صوره المؤطرة التى تزين حوائط غرفته بجوار صورة بطله الأثير عبد الحميد الجندى.. أضواء تنسكب على عضلات فذة.. وابتسامة رائعة تنضج بالفرحة وهو

يقدم ساعده المفتول إلى الناظرين.. ثم وهو يقدم لهم صدره المطرز بموسيقى تنساب مدهشة فوق العضلات الصخرية.

وكان راضي يرفع البراويز بعين دامعة استجابة لطلب أخيه المهتاج وهو يردد:

ـ «**عين وأصابتك يا فريد، عين وأصابتك يا أخي**»

ولم يلتفت البطل الجريح إلى كلمات أخيه، وكأنه نسي الرصاصة ذات الشهقة التي صوبتها إليه عجوز القطار ، وإنما تذكر أنه ضحية عنفه عندما ضرب الولد علي ابن أخيه راضي.. على صديق الجمل نال علقته أمام جمله لأنه اهتم بإطعامه ولم يهتم بشراء الفاكهة لعمه فريد من دكان فرج حمدان. كان الصبي محاصرًا في الحظيرة يتلقى الضرب بعصا لاهبة ولا يملك فرارًا ولما اقترب فريد من الجمل والولد يناوره دفعه الجمل برأسه وكانت هذه إشارة لغضب ألم بالحيوان من أجل صديقه، لم تصل الإشارة إلى البطل الغاضب من أجل فاكهته، ولذا فقد استدار بنفس عصاه إلى الجمل فأمطره بها. وخرج من الحظيرة لاهثًا بعد أن أدب صديقين بعصا واحدة: حيوان وإنسان.

ويتذكر رأفت إبراهيم ما سرده له فريد من وصف لانتقام الجمل: «**كنت أقف أمام باب الدار أتحدث مع أخي محمود، وكان علي بن راضي المضروب توًّا يتخطى عتبة الدار ممسكًا بحبل الجمل وهما في طريقهما إلى الحقل، وفجأة غشيني ظل ضخم لرأس كبير ملأ الفراغ حولي بظلام قاتم وشعرت بدفعة قوية ألقتني إلى الحائط.. رفعت يدي مذعورًا، فلقمها الجمل بين فكيه وضغط عليها وسحبني بها وأنا أصيح من الألم حتى ظننت أن الجمل سيقضمها ويفصلها عن جسدي ثم يفر بها، وغبت عني الوعي ولم أفق إلا في المستشفى.**»

ومن نومه الطويل.. الطويل خلف بابه المغلق دوما، ومن حالته الجديدة التي هجر بها كلّ من حوله بمن فيهم صحبة المصطبة وشركاء الأرانب.. أيقظته أمه وقالت له بابتسامة ذابلة:

ـ «**رأفت كان هنا.. لم نشأ أن نوقظك.. قال لنا إنك أخذت الشهادة ونجحت..**»

عبس وجهه.. ولم ينطق بكلمة.. وعاد إلى رقدته بعين مفتوحة زائغة النظرات، ولما وجدت أمه أنه لن يتكلم آثرت ألا تفتح بابًا جديدًا للصياح، وخرجت متثاقلة وهي تردد كلمات تعمدت أن تصل إلى ولدها:

ـ «الحمد لله أنى منعت زوجة محمود من أن تطلق زغرودة.. لم يعد لنا شأن بالفرحة.. فرحتنا أخذها الجمل الملعون وذهب فى داهية».

* * *

تذكر فريد جملهم الذى وصفته أمه الآن بالملعون، وكان راضى ومحمود قد باعاه إلى فلاح فى بلدة مجاورة، وصلته أنباء أن الجمل لا يأكل ولا يشرب ولا ينهض من رقدته، ثم عرف أن على ابن راضى ذهب مع الرجل فأطعم الجمل عنده وسقاه، ثم عاد باكيًا لأنهم حرموه من صديقه الذى أحسن استقباله على مرأى من أصحابه الجدد..

واقشعر بدنه ذات مرة وهو يسمع عليًّا الصغير يقول لأمه: **«لو كان عمى ضرب الجمل فقط لما انتقم منه الجمل، ولكنه انتقم لى، فعمى ألهب ظهرى بالعصا أمامه»..**

وتساءل النائم قهرًا والمختلى بنفسه بؤسًا:

ـ «ولماذا فعلت ذلك؟ لماذا أقدم الأذى وبهذه القسوة لصبى صغير وحيوان أعجم دفعة واحدة؟ لماذا؟.. هل لأن طعامى من الفاكهة غاب عنى؟... هل صرت مفجوعًا وأنانيًّا وقاسيًا وشرها إلى هذه الدرجة؟.. ماذا بك يا فريد؟ هل صرت أعمى؟ فمن منا الحيوان أنا أم الجمل؟.. من منا الذى فقد صبره.. أنا أم الجمل..؟.. من منا أولى بالموت أنا.. أم الجمل؟»

* * *

نادى على الصبى «على» وهمس له:

ـ «خذنى إلى الجمل ولا تخبر أحدًا بذلك»

واقشعر جسد الرجل صاحب الجمل الجديد وهو يشاهد البطل فريد هنيدى يقف صامتا حزينا أمام جمله الذى بدا كأنما يبادله الصمت والحزن.

وتلمست نظرات الرجل المختلسة كم الجلباب الفارغ من الذراع الذى طار عن موضعه وقد بدا له الكُم متهدلًا يؤرجحه الهواء رغم الجاكت المطروح على كتفيه لمجرد ستر عاهته الجديدة.

ولما طرح فريد الجاكت عن كتفيه، وأمسك بكم الجلباب الفارغ بيسراه لم يصدق الرجل المذهول أن ما يفعله فريد الآن هو أن يطلع الجمل على سوء فعلته، ثم ازداد ذهوله

عندما وجده يتحدث معه:

«أنت قتلتنى.. ودمرت حياتى»

«كيف تفعل بى هذا أيها الظالم الجبار؟»

«أرأيت ما فعلته بى؟»

«أنت انتقمت منى.. بأكثر مما يجب أن يكون الانتقام.. أنت..»

اقترب منه الرجل بفاه مشدوه:

ـ **«أجئت هذه المسافة أيها البطل لتتحدث مع حيوان أعجم؟»**

رماه بنظرة احتجاج وتهيأ للانصراف.. فجذبه الرجل:

ـ **«اجلس.. اجلس أريد أن أتحدث معك.. راضى ومحمود ضحكا علىَّ وابتاعانى هذه البلوة»**

لم يكن لديه قدرة الخوض فى حديث آخر.. توسل إلى الرجل بنظره أن يتركه فى حاله، ومضى صامتًا وقد حبس دموعه دون أن تتوقف أنات قلبه الجريح..

ولم يدر كل البشر الذين حوله أن الجمل كان يشارك بطله الجريح وضحيته الموجوع فريد هنيدى صمته الحزين وأنات قلبه الجريح.. فالجمل المنتقم غرقت جوارحه فى صمت أعجمى استكانت فى ورطة الخرس بعيدًا عن طلاقة البوح:

«إذن، فأنت لم تمت.. وجئت تلومنى فى سجنى الجديد عند هذا الرجل الذى صار يكرهنى.. هو لا يعلم أننى صرت مسجونًا داخل نفسى.. فهل كانت دموعك من أجل بلواى أم بلوانينا معًا؟ لا أدرى لماذا انتقمت منك بهذه السرعة.. حاولت كبح جماح غضبى.. حاولت التمسك بصبرى لولا هذه المرأة العجوز التى أرسلت إلى عينيها الناصحتين تحذرنى مما ستفعله بصديقى على ونواياك فى تقديم المزيد من الإيذاء إلى هذا الولد الطيب الحنون.. فيا ليتنى ما صدقتها»

وجاء المشترى المخدوع للمرة الثانية إلى راضى ومحمود فى محاولة جديدة لإعادة جملهما إليهما فحكى لهما عن الزيارة الدامعة التى قام بها بطلهما فريد إلى الجمل.

تبادلا نظرات الذهول وتذكرا ما طلبه منهما أن يعيدا شراء الجمل، وتذكرا ما قالاه له من أنهما إذا فعلا ذلك فسوف يفهم الناس أنهما باعا الجمل لعيب فيه، وإذا أعاداه فسوف

يفهمون أنها فعلا ذلك لعيب فيها.. وأنها في حقيقة الأمر تخلصا منه حتى لايتذكرا جريمته كلما شاهدوه أمامها.

* * *

وعندما اقتحم الرجل منزل آل هنيدى بعد أيام مصحوبًا بالهلع والصياح لم يستطيعوا أن يجيبوه على سؤاله:

- «**الجمل..؟ أين الجمل؟.. هل جاءكم إلى هنا؟.. لقد اختفى منذ الصباح**»

وكان معه بعض أهله.. يسألون.. ويستفسرون، إلا واحدًا منهم راح يؤكد لهم:

- «**يا جماعه.. يا جماعه قلت لكم وفروا مجهودكم، الجمل الأن يرقد فى قاع بحر «ميت يزيد»، هناك ناس أقسموا لى أنهم شاهدوه يلقى بنفسه فى البحر، وظل يظهر ويختفى حتى ابتلعته المياه**»

وظللهم الصمت المريب، واختلطت أفكارهم بلغط الناس فى الشارع.. الناس الذين يستعيدون قصة الجمل.. لكنهم لم يلتفتوا إلى نهنهة بكاء لا تصل إلى سمعهم.. نهنهة يصدرها «على» الصغير الممسك بحسك الجمل عند مرقده القديم فى الحظيرة ذارفًا دموع الوداع والحسرة..

وخلف بابه المغلق كان البطل المهاجر إلى نفسه المحزونة يصدر هو الآخر نهنهة بكاء مكتومة إثر ما وصله من نبأ الجمل الذى انتحر فى إقدام جسور قال عنه:

«**إنه كان يجب أن يكون قرارى أنا، ولكنى جبان فلم تطاوعنى نفسى أن أتخلص منها فى لحظات الكرب والكدر والاستسلام التى مازالت تغمرنى وتستولى على**»

بعد انفضاض الجمع الهائج وهدوء الساحة من صاحب الجمل وأهله وكل الذين أسرعوا خلفه للفرجة والاستماع.. ثاب إلى نفسه، وراح يتأمل حوائط غرفته العارية من صوره التى كانت تملؤها.. فوقع بصره على الرف الذى لم يكن يحمل صورة ما.. إذن، فما هذا الكتاب الذى عليه؟.. نهض متثاقلاً.. وشب على أطراف أصابعه.. جاء بالكتاب.. نفخ التراب من فوقه: إنه المصحف الشريف فهتف:

«**ياآه .. كيف كنت هنا طوال هذا العمر دون أن أراك؟**»



مساحات جديدة مكتسبة

فى إحدى زياراتة المتباعدة ـ أو التى صارت كذلك ـ إلى منزلها اقتربت فوزية حمدان من طاهر زين الدين الصامت الحزين والبشر يطفح من وجهها:

ـ «بارك لى..»

ـ «ألف مبروك..»

ـ «أنت طيب يا طاهر.. ألا تسألنى عن المناسبة..؟»

ـ «طالما أن وجهك متهلل هكذا إذن فهى مناسبة سعيدة..»

ـ «فعلًا .. سوف أكون شريكة فى محل كوافير بوسط البلد..»

ـ «شريكة؟.. وكيف أقنعت عمى حمدان أن يدفع أمواله فى مشروع كهذا؟»

ـ «لن أدفع مالًا»

ـ «وكيف ستصبحين شريكة بلا أموال؟»

ـ «بالخبرة والمجهود»

وراحت تراقب ملامحه السادرة فى عبوس لم يعد يفارقه، وفهمت أنه لفرط تهذبه لم يشأ أن يسألها عن الشريك الآخر، فقالت:

ـ «لِمَ لَم تسألنى عن شريكى الثانى؟»

فرفع إليها وجهه وبه تساؤل حذر:

ـ «أخشى أن يكون هو المدعو السيد النحال»

ـ «ولم اعتقدت ذلك؟»

ـ «لأنه يطاردك بالتليفون منذ فترة، وصار يستعرض إمكاناته الجديدة كلما زارنا»

ـ «إنه السيد النحال فعلًا»

لجأ فورًا إلى صمته وعبوسه إلى أن قال لها:

ـ «لو كان شريكًا آخر لوافقتك فورًا.. ولكن..»

ـ «إذن، فأنت غير موافق..؟»

ـ «أمهليني حتى أكمل رأيي»

ـ «أي رأي؟ ها أنت رفضته منذ البداية.»

فهتف بها محتدًا:

ـ «ولا بد أن أرفضه، ابن النحال متزوج زيجة مجانية من بنت اسمها خميسة، وسيحصل على شريكة مجانية هو أنت، وسيطردك بعد أن تحصل خميسة على خبرتك، وسيلقى بك فى الشارع فى ثانية.. ثانية واحدة»

دق قلبها بعنف:

ـ «تقول متزوج؟..»

ـ «وفى السر..»

ـ «وكيف اطلعت على هذا السر ؟»

ـ «هو يسربه بنفسه.. وتعمد أن يطلعنى عليه، وقد فهمت الآن سبب ذلك.»

ـ «ما السبب..؟»

ـ «أن أطمئن إلى أنه رجل معصوم بالزواج فى حال إذا طلبك لمشاركته فيضمن بذلك موافقتى..»

طابقت ما تسمعه الآن على ما سمعته قبلًا من أمير الماكر حول مطاردة السيد لبنت جميلة اسمها خميسة، واشتعلت فى قلبها أحاسيس مضطربة ومزعجة، فلا يمكن أن تكون هذه الأحاسيس هى الغيرة؛ لأنها لم تقف مع نفسها على حقيقة مؤكدة أنها تحب السيد النحال، فهو شاب رزين يحوم حولها من نقطة عالية فى كبد السماء، وأن ما يسبغه من كرم على أهلها شيء يحمل عنوانًا خفيًا لا يفصح عنه.. عنوان يقول:

«كل هذا من أجل عيون فوزية».. هى متأكدة من كل ذلك.. وتحتفظ به لنفسها فى صمت..

وكأنها لم تجد سواه أمامها لتفرغ به اضطرابها، فقالت له:

ـ «لماذا تسيء الظن هكذا بالسيد النحال؟»

ـ «حتى لا تحسنى الظن به وتندمين؛ حيث لا يفيد الندم»

ـ «وهل هو تعبير مؤدب من رجل لخطيبته أن تقول إنه سيطردنى ويلقى بى فى الشارع»

احتقن وجهه بالغضب:

ـ «وكيف يكون تعبيرى مؤدبًا؟»

ـ «كان يمكنك أن تقول إنه سيستغنى عن خدماتى»

ضحك بمرارة:

ـ «لا وقت للتجمل وخداع النفس يا بنت الناس.. السيد النحال ليس هو الرجل الذى يمكن أن يشاركه أحد فى حلم السعادة.. فهو يسرق كل شيء، حتى الأحلام»

فقالت فوزية كلمة واحدة وبحزم شديد:

ـ «سأشاركه»

* * *

فى التراس العلوى الفسيح بفندق شبرد هبت نسائم الليل الطرية المشبعة بأنفاس النيل الغارق فى الأضواء فلمست برفق وجه خيرى شاهين رجل الأعمال الشهير، ومع هذا فلم يخفف النسيم من احتقان هذا الوجه السادر توًا فى غيظ مكتوم جراء ما يسمعه من قول عجيب أتى به شقيقه سالم الذى يجلس فى مواجهته:

ـ «قلت لى يا سالم ما اسم هذا الولد؟»

ـ «أمير النحال»

ـ «كيف تواته الجرأة أن يتعامل معك هكذا وأنت رئيس مجلس الإدارة وهو محاسب صغير؟»

ـ «تستطيع أن تفهم أنه مسنود من جهة ما.. هذا ما تنطق به أفعاله..»

ـ «إذن، فهو مسنود»

ـ «ووقح، وينبئ عن نفسه كواحد من حكام المستقبل القادم»

ـ «وأمسك بقضية لا يمكنك أن تعاقبه بسببها»

- «أو أن أرفض ما فعله..»

- «طبعًا.. فمن الجنون أن تزيل صورة جمال عبد الناصر وتضع صورتى أنا.. فمن قال إن أصحاب الشركات المؤممة يجب أن تظل صورهم فى غرف مكاتبهم؟»

وهمس سالم بهذه الكلمات كأنما يحدث نفسه:

- «لك الحق.. فجمال عبد الناصر تحول إلى صاحب كل هذه الشركات»

ومضى خيرى شاهين فى تذكير شقيقه سالم أنه يراهن على جواد خاسر، وأن جلوسه على مقعد رئيس مجلس إدارة شركته المؤممة هى محاولة ساذجة لارتداء تاج إمارة تم نهبها وتسليمها فى الحقيقة لمن لا يستحقونها، فهذا التاج ليس سوى سلطانية رخيصة ومضحكة لطالما رفض خيرى شاهين التزين بها بعد أن أمموا شركة المقاولات المتحدة، ولم يقبل ما قبله عثمان أحمد عثمان وحسن علام أن يظلا على رأسى شركتيهما مقابل الحفاظ على اسميهما..

وها هو يؤكد لأخيه سالم مدى براءته التى تصل إلى حد السذاجة حينما تصدى للبقاء على رأس الشركة بديلًا عنه فى محاولة للحفاظ على تاريخ هذه الشركة.

- «أى تاريخ يا أخى لكيان بلا جغرافيا؟»

هكذا قال له..

ثم أكد وقتها: «رحلتك ستكون مرهقة، وستعود بعدها بخفى حنين»

كان سالم قد تحول فى جلسته اليومية إلى أخيه الأكبر بتراس فندق شبرد إلى مسامر، وسمره يحمل كل أخبار الشركة التى يديرها بنفسه نهارًا منذ تأميمها فى عام ١٩٦٣. وها هو بعد ما يقرب من أربع سنوات يؤكد لأخيه أن أجران القمح لن تصمد أمام كل هذه الطيور الجائعة، وأن الأيادى التى تأتى للعمل لا يرى بها إلا شاكوشًا ومسمارًا يدق فى نعش الشركة.. يومها سأله خيرى شاهين ضاحكًا:

- «إذن، فأنت تقيم فى سرادق قبل إعلان الوفاة.. فلماذا تتصدى لذلك؟»

- «على الأقل حتى أعرف.. كيف مات»

- «لست بحاجة إلى أن تعرف كيف يموت الميت.. شركتنا ماتت وانتهى الأمر يا سالم»

ووجد سالم شاهين أن شقيقه خيرى كان بانتظار هذه الواقعة ليعلن موت الشركة.

فمن ذا الذى يلوم محاسب صغير مملوء بالحماس والوطنية إذا دخل على رئيس شركته بكل أدب وقال له:

ـ «يا فندم كل رؤساء الشركات يضعون صورة الزعيم جمال عبد الناصر فوق رءوسهم.. إنه تقليد حكومى متبع منذ أيام الملك فاروق.. ولكن سيادتك يا فندم تضع صورة شقيقك المهندس خيرى شاهين فوق رأسك.. وتضع صورة الزعيم أمامك.. لو سمحت يا فندم.. إذا جئت غدًا ووجدت تصحيحًا لهذا الوضع فى مكتبك فلا تسأل عن الفاعل، فأنا الذى سأحضر صورة كبيرة للرئيس بدلًا من هذه الصورة الصغيرة، وأضعها هنا «فوق رأسك»

ـ «يا بن الكاااااالب ..

ما هذه السفالة.. وهذا النفاق.. وهذه البداية المرسومة لفتح معركة تعلم مقدمًا أنك كاسبها.. ترى من وراءك أيها الأفعى شديد النعومة؟»

وعندما سرح طويلًا أفاق على نداء من خيرى:

ـ «استسلم يا سالم.. قدم استقالتك»

ـ «ليس الآن.. يجب أن أختار موعدًا آخر.. الخبثاء سوف يربطون بين حادث الصورة وبين انصرافى من الشركة.»

ـ «فعلًا.. وسوف نخلق من هذا الولد الحقير بطلًا..»

ـ «لقد صار بطلًا بالفعل «كمال» نقل لى المهرجان الذى أحيط به فى إدارة الحسابات رجالًا ونساء كلهم يمنحونه قبلاتهم.. أليس هذا ما توقعته أنت من أننى سوف أهان باسم الشعب؟»

ـ «اطلب من «كمال» أن يتحرى عن أصل وفصل هذا الولد..»

ـ «كلهم يتحاشون «كمال» فلم ينس أحدهم بعد أنه كان ساعى مكتبك»

ـ «أى الحالة الوحيدة غير المقبولة فى الإرث..»

ـ «كيف؟.. وهل نسيت حالتى..؟»

ـ «آه.. آسف.. الحالة الثانية..»

فى حين كان السيد النحال آخذًا فى الطفو إلى أعلى مغادرًا مغارات نفسه سحيقة الغياهب

عميقة الغموض كان أمير يسجل بمهارة أمام بريق كاميرات العقول فى شركته موقفًا أصبح فيها بعد الطوق العائم الذى طفا به فوق سطح الأحداث. فلن ينسى كل العاملين بشركة المقاولات المتحدة أن المحاسب أمير النحال تمكن من فتح الباب بتأدب (!!) لرئيسه سالم شاهين للاستقالة من الشركة.. وبإزالة هذا السد تسارعت المياه الآثمة إلى أفواه عطشى آثمة «بفعل لمسة ساحرة من أمير النحال..» هكذا قال أحدهم وهو يبدى إعجابه بهذا «الولد» .. الداهية .. ولم يتعجبوا إزاء ما حدث بعد وصول رئيس مجلس الإدارة الجديد المهندس حامد شبراوى، فقد بادر إبان وصوله بطلب الأستاذ أمير النحال.. لمقابلته.. ولا يدرى أحد ماذا دار بين الرئيس الجديد وهذا المحاسب الذى لم يمض على تعيينه سوى أقل من عامين.. وما الذى كان يستعرضانه سويًّا خلال ساعة كاملة جمعتهما خلف الباب الرئاسى الساحر.

لكن ما سمعوه من طلعت الساعى الجديد ـ الذى حل محل عم كمال الساعى القديم ـ أن حامدًا بك قال له وهو يودع أمير قرب الباب:

ـ «طلعت.. ولد يا طلعت.. الأستاذ أمير مسموح له بدخول مكتبى فى أى وقت.. بلا موعد.. فاهم.. احذر وإلا...، وأخلصك من هذا الشيء الذى يعذبك»

أما ما اطمأن إليه أمير فى هذا اللقاء أنه أمام رئيس مجلس إدارة مختلف، لا يلبس ثوب الباشوية والتزمت مثل سالم شاهين.. بل هو فى مجمله صائع كبير لا يستخدم سوى الشتائم الجنسية.. حتى وهو يصف الموظفات اللاتى حضرن أول اجتماع له بطاقم الإدارة. فقد راح يسأل عنهن بشكل أخجل أمير الذى لا يعرف الخجل:

ـ «البنت أم صدر منفوخ التى كانت تجلس بجوارك.. هل هى آنسة أم مدام؟»

ـ «آه.. تقصد فواكه.. إنها آنسة»

ـ «إذن، فهى تملك ولدًا لا يجيد سوى العبث فى هذا المكان.. والهانم التى كانت بجوار فواكه.. أم عيون بقرى.. المهتمة بمكياجها.. هل هى هكذا دائمًا بهذا المكياج؟»

وتخابث أمير دون أن يبدو عليه ذلك:

ـ «ربما زاد عياره يوم الاجتماع.. إكرامًا لسيادتك»

ويتهقه حامد شبراوى فاقدًا وقاره بإمعان طفولى :

ـ «شكلك يا نحال مصيبة من مصائب الزمن.. هذا ما قلته عنك قبل أن أراك وأنا أسمع حكايتك مع الرجل سالم شاهين.. رجل حمار.. كيف يقبل أن يلعب دور الطرطور المدلدل فى العملية الجنسية.. لا يستمتع.. وإنها تناله النجاسة؟»

وعلى هذا النحو أدار حامد شبراوى حواره مع موظفه الصغير، الذى تقمص أمامه دور الشاب المؤدب الجاد الشجاع، دون أن يضع يده تمامًا على سر هذا التقرب المفاجئ الذى حرص عليه رئيسه الأعلى وهو يعامله به، فإذا كان من المحتمل أن يكون هذا الرجل «بتاع نسوان» فما الذى رآه فيه من إمكانية لتغذية هذا الجانب عنده؟

* * *

وظل السيد ينتقل برشاقة وخفة بين أماكنه الجديدة، ورجاله الجدد وضيوفه المتجددين.. ثم ضيفات صالونه الراقى بشارع قصر النيل، ثم وبقلبه المرن أخذ ينتقل أيضًا بين منزله مجهول العنوان لكل من حوله وبه زوجته خميسة التى استسلمت لعدم وفائه بعهده أن يكون زواجهما طى الكتمان وبين الصالون الذى صار معروفًا لكل من حوله وبه فوزية الفتاة ذات الجمال المدهش التى تسعى دومًا لإبراز هذا الجمال حتى تبز خميسة فى حسن أناقتها وإجلاء مواهبها الأنثوية بإصرار لم يخف عليه سره، وصار ينتظر بحدسه المدرب وقوع أول اشتباك بينهما، بل صار يتمناه حتى يبدأ فى استثمار تطاحنهما.

وبقدر ما صار مكتبه الأنيق فى الفيلا يستقبل سهراته المرسومة مع ضيوفه الكبار وعلى رأسهم حشمت بركات صار محله الفخيم فى وسط البلد يستقبل أغلب نسائهم بكرم يقدمه سخيًّا لصديقات موتوره المتمكن حشمت قائلًا لفوزية: إنهن قريباته..

وفى سهرة تبادلية فى «روف» فايز فودة حضر الدبلوماسى المثقف حلمى عبد الباقى، ونجح كعادته فى تحويل نثار الأحاديث إلى الشاطئ الذى يحبه وهو شاطئ السياسة.. وانكمش السيد النحال مستدعيًا غيظه القديم من هذا الرجل المتعالى الذى لم يفكر مرة واحدة فى زيارته ضمن هذا الحضور فى مكتبه، فهو بلا شك قد وصلته أخبار السهرات التى يعقدها لهذا الجمع هناك، وكونه لم يفكر مرة فى مشاركتهم، فهذا هو الاستعلاء بعينه **«صحيح أنه لا يدخن الحشيش، وإنها يشارك بالطعام والكلام.، إذن، فلماذا لايجرب هذين عندى..؟»**

هكذا جلس يفكر السيد النحال ثم عاد فقال لنفسه: «**الطعام ممكن، أما الكلام فمن أين لى مجاراته فيما يطرحه من قضايا يتحول كل الحضور أمامه إلى مستمعين؟**»

ها هو يتناول المؤتمر الصحفى الذى تحدث فيه الرئيس بعد نهاية مؤتمر الأقطاب بالهند.. ويركز على فقرات بعينها فى تصريحات معشوقه الساحر جمال عبد الناصر.. وها هو فايز فودة يحاول إزاحته إلى موقع آخر.. موقع يتمكن فيه فايز من انتقاد عبد الناصر بطريقة ناعمة، فقال له متسائلًا:

- «**الأمريكان قطعوا معونة القمح عن مصر يا أستاذ حلمى. لماذا ؟**»

- «**لأنهم زعلوا من الريس بسبب هجومه على الملك فيصل والملك حسين.. الرئيس هاجم الملوك، ولم يهاجم أمريكا، فانتقموا لملوكهم.. تصور؟**»

- «هل تعلم مقدار هذه المعونة ؟ ٦٦ مليون جنيه مصرى»

- «**حتى لو كانت ٦٦٠ مليون.. فهل يساوم عبد الناصر على كرامة مصر مقابل شوية قمح؟**»

فقال فايز بتأفف:

«**كرامة مصر.. كرامة مصر.. والفقراء لا يجدون الطعام**»

ابتسم حلمى عبد الباقى لهذا التصريح الصادر من رجل ملأ الدنيا قذفًا وسبًّا فى رجال الثورة وعلى رأسهم عبد الناصر إثر انتزاع ملكيته الزراعية لصالح المعدمين من الأجراء الفلاحين. ولكن هل من الملائم له الآن أن يتباكى على حال الفقراء؟..

أرسل إليه نظرة حانية قائلًا:

- «**يا سيد فايز الجوع أفضل من أن تبيع كرامتك للأمريكان**»

فأيده حشمت بركات على الفور:

- «**هل يعجبك خضوع السعودية والأردن لأمريكا.. الضغط الاقتصادى الذى تمارسه أمريكا علينا له هدف واحد هو أن تمسكنا من رقابنا مثل السعودية والأردن**»

فأكمل حلمى عبد الباقى:

- «**ليس هذا فحسب، فهم يريدون منا وقف أى نشاط ذرى.. ونعطيهم حق التفتيش على المصانع والجيش، ونتوقف عن إنتاج الصواريخ، ونتوقف عن زيادة أعداد أفراد**

الجيش.. وكل هذا طبعًا لصالح إسرائيل.. فالرجل قال لهم آسف.. ولم يستجب لطلباتهم، فقطعوا عنه القمح..»

كان السيد النحال يراقب ملامح حشمت بركات ليرى تأثير هذا الكلام عنده، وينتظر المزيد من تعليقاته التي يعرف أنها من نوع تعليقات فايز فودة، هكذا سمعه في أكثر من جلسة «عامرة بالصنف» يكيل النقد لجمال عبد الناصر الذي تورط في وحدة هشة مع سوريا وحرب مدمرة في اليمن ومساعدات مكلفة للجزائر، ثم مناطحة أمريكا علنًا بالدخول في المعسكر المعادي لها.. معسكر الاتحاد السوفييتي..

وهاله أن وجد صديقه لا يذكر شيئًا من ذلك، بل صار على العكس تمامًا أمام حلمي عبد الباقي حتى إنه أمسك بآخر كلمات قالها حلمي وراح يفصلها للحضور قائلًا:

«ألم تلاحظوا أن الأستاذ حلمي قال «قطعوا عنه القمح» ولم يقل «قطعوا القمح عن مصر».. هذه العبارة لم تخرج من حلمي بك عفوية، بل خرجت حقيقية لأن مصر هي عبد الناصر، وعبد الناصر هو مصر.. »

ولم يعلق حلمي عبد الباقي على ما قاله حشمت، بل تخطاه بعفوية، وراح يلتمس العذر للرئيس في معاركه التي يجرونه إليها، فالملك فيصل يخطط لعمل حلف إسلامي بإيعاز من أمريكا لضرب فكرة القومية العربية، والملك حسين يقوم بتجميع الإخوان المسلمين عنده ويتآمر معهم لضرب النظام في مصر.. ثم يؤكد حلمي عبد الباقي أن الشعوب تقف في صف جمال عبد الناصر بعد أن كشف لهم خروج الملك فيصل والملك حسين والحبيب بورقيبه عن طابور الكفاح ضد الاستعمار.

فهتف حشمت بركات:

ـ «ولا تنس أن هروب الطيارين السعوديين والأردنيين الذين لجأوا بطائراتهم إلى مصر كان ضربة قاصمة لحكامهم، وأن الشعوب تقف حقًا مع الزعيم عبد الناصر»

وهنا بادر فايز فودة بمواجهة حشمت بركات:

ـ «ولماذا لم تتحدث عن الطيارَيْن المصرَيَّيْن اللذين لجآ إلى الأردن..؟»

وقبل أن يرد حشمت أسرع حلمي عبد الباقي بتوجيه اللوم إلى صديقه فايز:

ـ «يبدو أنك يا فايز لم تعد تقرأ مقالاتي أو ربما تقرؤها وتتناسى بعض ما لا يعجبك بها.. إنها

لعبة حاولا حبكها للرد على هروب طياريها.. فعثرا على هذين المسرحين من الخدمه والمقيمين فى ألمانيا لزواجهما من ألمانيتين.. قالا إنهما هربا بطائرتهما من المعركة فى اليمن.. الملك حسين اعترف أنهما جاءاه من السعودية.. بلا طائرات.. عبد الناصر حاصره حتى اعترف بذلك.»

قهقه حشمت بركات بصوت عالٍ:

ـ «لا فرق بين الكمسارى وطيار بلا طائرة، وما عثر عليه الملوك هما اثنان.. كمسارية.. ها.. ها»

ويبدو أنه قد راق لحشمت بركات أن ينهى هذا الحوار الذى تشتد سخونته، فمال ناحية السيد النحال مداعبًا:

«إيه يابو السيد.. أخبار التسريحات إيه؟»

ولأن حلمى عبد الباقى لم يفهم سر هذه العبارة، فقد أوضحها له حشمت:

ـ «السيد ربنا فتح عليه وعمل محل كوافير بوسط البلد، ضرب عصفورين بحجر.. زوجته منتسبة فى كلية الحقوق تشغل وقتها أحيانًا بالمحل.. مع بنت أستاذة فى المهنة.. لكن بنت.. ما شاء الله.. قمر.. المهم إن السيد يحصّل الإيراد وهو جالس رِجْل على رِجْل.. والله شاطر يابو السيد»

ألقى حلمى عبد الباقى نظرة ساخرة نحو السيد:

ـ «ولكن ما علاقة تشحيم السيارات.. بتصفيف شعر السيدات؟»

فأطلق حشمت بركات ضحكة عالية:

ـ «كلها أعمال صيانة.. لكن البنت الكوافيرة لا تستلقى على ظهرها لتشحيم، أقصد لتصفيف الشعر..»

ثم أسهب فى تكثيف دعاباتة حول هذه المفارقة بطريقة القافية الحشاشى التى يجيدها، والحضور يلاحقونة بقهقهاتهم بين كل قافية وأخرى.

غرق السيد النحال فى عرقه وغيظه وخجله وهو يرى نفسه قد تحول بسؤال بسيط من حلمى عبد الباقى إلى محط سخرية الساهرين، ولم يلتفت إلى أن حشمت بركات قد لعب الخمر برأسه وأنه وهو فى مثل هذه الحالة لا يتورع عن اسخرية من نفسه ومن عائلته، بل ومن أخيه

أشرف بركات عضو مجلس قيادة الثورة.. وكان يكفى السيد النحال المتصبب عرقًا أن يعزى نفسه بهذه الحقيقة حتى يتوقف عن مطارحة حلمى عبد الباقى نظرات الغيظ والاحتجاج..

وعندما وصلت معانى هذه النظرات بالسرعة الكافية إلى حلمى عبد الباقى سارع الرجل بتخفيف أثر سخريته، فقال للحضور:

ـ «أنا لم أقترب بالشكل الكافى من السيد حتى أفهمه، ولكنى أحس به كشخص شديد الذكاء عركته الحياة ويمكنه تحقيق النجاح تلو النجاح.. بالفطرة..»

ويبدو أن هذه الكلمات لم تكن كافية لإرضاء السيد الذى لم يرتح لكلمة «الفطرة» هذه، واعتبر أن ما يقصده المثقف الذى انتقل من صفوف العسكر إلى كراسى أصحاب الفكر والقلم ـ هو أن نجاح السيد وأمثاله ممن لا يحملون شهادات جامعية يكون بالصدفة والفهلوة، وليس على أىِّ أساس علمى وعقلى.. ومع ذلك، فإن هذه الكلمات تركت لديه من التأثر الإيجابى ما شجعه أن يدعوه لمشاركتهم السهرة القادمة فى فيلا الزيتون مقرنًا دعوته بلكزة ما:

ـ «أم أنى لست قد المقام يا سيادة الكاتب الكبير؟»

و كانت هذه الدعوة من السيد ردًّا على عبارات التخفيف من حلمى عبد الباقى كافية لكسر حاجز الثلج بينهما ، فأبدى حلمى ترحيبة بالدعوة، ثم سأله عن هذا الذى سمعه الآن من أن زوجته تدرس الحقوق، وهل هى اختارت الانتساب كسبًا لوقت إدارة محل الكوافير، فاتكأ النحال ـ مسرعًا ـ على هذا الافتراض ووافقه عليه واتضح فيما بعد وأثناء الحوار أن سر سؤال حلمى عبد الباقى هو أنه يلقى محاضراته فى تدريس القانون المدنى بحقوق القاهرة وأبدى استعداده لموافاتها بما ينقصها من احتياجات بعد أن فهم منه أنها فى السنة الثانية، ولأن هذا الحوار كان يدار بالقرب من حشمت بركات فإنه ساهم من عنده بفكرة طارئة:

ـ «حلمى باشا.. سأطلب من زوجتى أن تتصل بالسيدة حرمكم بهيرة هانم و تصف لها مكان محل الكوافير.. سوف ترتاح لمستوى الخدمة»

ثم أطلق إحدى ضحكاته المتفجرة:

ـ «أنت تقدم المحاضرات لتلميذتك، وهى تقدم التسريحات لزوجتك.. ها.. ها.. ما رأيك فى هذه المقايضة؟»



كلهم مفترسون : إسرائيل والجمل والسرطان

أزالوا الورم مرتين من فخذه المنحوس، وكان كلّ ما يهمه فى كل مرة أن يعود إلى ارتداء بنطلوناته الشارلستون، وها هو الورم اللعين يطل عليه للمرة الثالثة فى عناد مصحوب بحريق يمزق أعصابه بجانب غيظه المقيم وهو يرى فرسته الجامحة تركض بعيدًا عن مضماره، وأصبحا ـ هو وفوزية ـ غريبين لا يلتقيان إلا نادرًا، فالسيد النحال منذ أن ضمها إلى مملكته راح يمعن فى شغلها حتى فى يوم إجازتها بترتيب زيارات منزلية تقوم فيها بتجهيز التسريحات وعمل المكياج لهوانم الطبقة الأكثر علوًّا.

كان الغيظ والقلق يسحقان أعصابه ويأكلان خلايا جسده.. وهو يحاول أن يستقر واقفًا على رجله اليمنى متأوهًا بصوت مكتوم.

وتصادف أن كان زبونه المستقر أمامه على كرسى الحلاقة طبيبًا طيبًا، فسأله:

ـ «ما ذا بك يا طاهر؟»

ـ «نار.. نار يا دكتور ترعى فى ساقى»

ومن موقعه البعيد ناداه مصطفى عباس:

ـ «خذ مُسكن يا أسطى.. المشرط مشى فى ساقك مرتين»

انتبه الطبيب إلى حديث المعلم، فراح يتقصى خبر هذا المشرط الذى أزال الكيس الدهنى مرتين دون عمل تحاليل لهذا الكيس قبل أو بعد إزالته.. وراح يسألها عن المستشفى، ثم علق على أدائها بما يعنى أنه أداء لا يصلح لحيوان، وعرف أن هذا الورم العائد مجددًا أتى على غير ما سبق أتىَ ضخمًا، كأنما نما فجأة دون ترعرع..

بدا الهم على وجه الطبيب ونصحه أن يوافيه بعيادته فى نفس الليلة، ثم نصح معلمه أن

يمنحه إجازة.

* * *

وبعد أيام من الفحوص والكشوفات والتحاليل وابتلاع الحبوب المسكنة وغرس الإبر المخدرة واجهه الطبيب بكل الصراحة المزعجة:

- «أنت فى سباق مع الموت، أخشى أن تصعد هذه النيران إلى صدرك.. إنها نيران متوحشة تنتشر بلا استئذان سنتخلص منها..»

- «مم تتخلصون؟.. من ساقى؟»

- «تضحية لا بد منها.. حتى لا تضحى بكل حياتك»

- «التضحيه بحياتى أفضل..»

* * *

واختفى من أمام الطبيب، ثم اختفى فى مسكنه و هو مشلول عن الحركة والتفكير يطوف الدنيا بعقله ويتحسس حياته بروح مسلوبة تهوى إلى قرار سحيق.

* * *

وفى عين شمس اقتربت منها أمها وهى مأخوذة بالتردد: «فوزية لماذا لا تسألين عن طاهر؟ أراك يا ابنتى كأنما أعطيت ظهرك لخطيبك وأنت مشغولة بعملك الجديد.»

أخفت نظراتها بعيدًا عن أمها:

- «ألا ترى أننى مشغولة يا أمى حتى فى يوم إجازتى وأعود دائمًا مرهقة..؟ المحل لا يتوقف عن العمل.. حتى إننى طلبت من الأستاذ أن يوظف فتاة معى..»

- «وزوجته.. ألا تساعدك؟..»

- «طلب منها أن تتفرغ لدراستها، ولا تهتم بالمحل إلا فى إجازتها..»

تمتمت أمها:

- «أحسن»

فتمتمت فوزية خلفها:

- «طبعًا أحسن. ولكن ما الذى ذكرك بطاهر الليلة؟»

وبصوت كسير قالت لها أمها: «مصطفى عباس أكد علىّ أن تكونى عنده فى المحل باكرًا فى العاشرة صباحًا للضرورة، ربنا يستر»

* * *

صحا من غفوته الدامعة فوجدها أمامه، فوزية أتت بصحبة معلمه، ففهم أن مأساته صارت ملكًا للجميع ورهن تصرفهم، واجهها بابتسامة:

ـ «ازددت جمالاً ورونقًا يا فوزية.»

ـ «إن كان إطراء فشكرًا لك، وإن كان تأنيبًا فلا تعذبنى..»

ـ «لا والله يا بنت الناس، إنها حسرتى مذابة فى الغزل الذى أحبه معك.»

ـ «لن تفقد رقتك ودماثتك..»

ـ «ولكنى سأفقد حياتي. وأنت تاجها اللامع.»

ـ «الحياة..؟ هناك من يعيشونها بإحكام وهم مفقودون. وأنا منهم.»

ـ «أتقولين هذا عن نفسك بعد أن عرفت طريقك؟»

ـ «اليوم فقط عرفت أننى فقدته.. هناك مرارة فى حلقي لم يسبق أن ذقتها.»

ـ «ألم يأتك خبرى إلا اليوم؟.»

نكست رأسها إلى أسفل لتوارى دموعها، فاقترب منه معلمه بصوته المتهدج:

ـ «ياطاهر.. الطبيب علي حق.. لاتعارضه أتيت بفوزية حتى تقنعك»

فقال طاهر:

«كلما تخيلت نفسى أسير بساق واحدة وبجانبى فتاة أشفق على فوزية أن تكون هى هذه الفتاة»

أتاه صوتها كالأنين تخالطه الدموع:

ـ «لا تشفق على.. سأحملك فوق رأسى»

فقال بحزم: «إن لم تحملنى ساقاى.. فالموت واجب».

وتعجب لرائحة الحزن التى تهب عليه من الماضى البعيد، وأحاديث الطفولة البريئة عندما كانوا يجلسون على مقربة من الموتى وهم يدفنون زكريا مسعود، وأخذه التشاؤم

عندما هلت عليه تلك الرائحة التى جلبت إلى خياله صورة البلد بكل شوارعها المتربة وأزقتها الملتوية، واحتلت جانبًا من حواسه رائحة مجرور الجامع وكوم السباخ المستلقى تحت بحيرة ماء الفسيخ العطن.

وكان مصطفى عباس يجلس بعيدًا عنهما غارقًا فى ذكرياته منذ استقبل هذا الشاب الوسيم الوديع وتساءل بينه وبين نفسه يومها:

«كيف لهذا الولد الريفى الصغير الهادئ أن يصل إلى هذا المستوى من الصنعة التى لا يليق إلا أن يقدمها إلى البكوات، هل كان فى قريته بكوات؟!!».

وتذكر ما قاله له طاهر فى لحظات صفاء ومؤانسة: **«أنت تتعجب يامعلم أن يكون شأنى هكذا وأنا القادم من بلاد الفلاحين، وأنا نفسى أتعجب كيف أحببت هذا العمل الذى ألقونى به رغمًا عنى وأنا على مقربة من دخول الجامعة.. كان المطلوب منى أن أملأ فراغ الصبى الذى هرب. وفيما بعد أيقنت أنه لابد من أن أملأ فراغ حياتى.. كنت أشترى المجلات وأقص منها صور كل الفنانين ولاعبى الكرة المصريين والعالميين، وأحتفظ بها ملصقة فى دفاتر الرسم ذات الورق السميك، لم أكن أعرف السبب سوى أنها أمنية تتراوح أمامى فى أن أنجح فى تحقيق كل هذه القصات لأناس لا أعرفهم، ثم جربتها فى بعض أبناء بلدى، وعندما عثرت على إعلاناتك فى الصحف والمجلات صرت أتحدث مع زبائنى فخورًا بأن لافتة الحلاق تقف الآن بجوار لافتات الأطباء والمحامين، وأن هناك حلاقًا يكتبون عنه كما يكتبون عن الفنانين، وقلت لهم إنك ستفعل مافعله محمد عبد الوهاب الذى جعل المغنواتية مطربين، وصرت أقضى يوم إجازتى فارًّا من البلد إلى هنا .. أقف أمام الصالون، وأتخيل نفسى أحد عماله المحظوظين..»**

***

وعلى سريره بالمستشفى اضطربت خواطره عندما لمح شبحًا لرجل يشبه فى طوله ومشيته والده زين الدين، وعندما لمح السيد النحال يلحق به مسرعًا أيقن أنه أبوه، وفهم السيناريو الذى حدث.. وعندما جاءوا «بالترولى» ليحمله إلى غرفة العمليات جاءت فوزية وهى تسير خلفهم صامتة حزينة، وعندما مددوه على العربة وراحوا يدثرونه

بالملاءة رنا إلى فوزية بعينين دامعتين:

ـ «هل أتى السيد النحال بأبى ليقرّ بموافقته على بتر ساقى؟».

ـ «أجل.. ومن الذى أبلغك بذلك؟».

ـ «لم يبلغنى أحد، ولكن هذا ماحدث مع فريد هنيدى عندما بتروا ذراعه..»

ثم صمت قليلًا قبل أن يتساءل «هل هى صدفة أن يتدخل القدر ويهدى أشلاءنا شلوًا شلوًا إلى السيد النحال؟ ما أتعس من تقف الدنيا فى صف أعدائه.. السيد النحال لم يكن ليطيقنى أنا وفريد هنيدى، فليهنأ بأشلائنا» .

* * *

أفاق فوجدهما بجواره: والده الأسطى زين الدين حالق رءوس أهل البلد، ومدمى أقفية عماله بكفه الهائلة، وعلى مقربة منه الأسطى مصطفى عباس مصفف شعر الصفوة، وباعث نهضة الحلاقين بإعلاناته الشهيرة.

ناداه من خلال ابتسامته الموجوعه: «أبى.»

ـ «نعم.. نعم ياطاهر تحت أمرك ياقطعه من كبدى.»

ـ «هل ستأخذنى إلى البلد؟.»

ـ «محمولًا على رأسى معززًا مكرمًا.»

ـ «حملى ثقيل.»

ـ «بل أخف من ريش النعام.»

ـ «ألن تضربنى مثل زمان؟.»

ـ «لن أكون أنا والزمن عليك يا طاهر..»

ـ «وأمى..؟.»

ـ «رحلت يا ولدى.. نادت عليك وهى تموت..»

ـ «الحمد لله أنها لم ترنى مهانًا ذليلًا..»

ـ «لا ذل ولا هوان، كلنا خدم لديك.»

ـ «وجدى؟».

ـ «مات هو الآخر، لم يغفر لنفسه ما فعله معك، وأنا مثله.»

ـ «والدكان؟.»

ـ «أخذوه فى توسعة المسجد، فهجرنا الصنعة.»

ـ «ثمان سنوات يحدث بها كل هذا؟.»

ـ «منذ يوم ٢١ أكتوبر عام ١٩٥٩ الساعه ١١ صباحًا.»

تنحنح مصطفى عباس قبل أن يتحدث: «طاهر يا حاج أنكر عنى أنك موجود على قيد الحياة.»

ـ «له الحق، فأنا لم أكن موجودًا فعلًا منذ أن خسرته».

* * *

هرع إليه فى المستشفى كلّ من كانوا قد ظنوا أنه مات: الأهل والجيران، وراحوا يتناوبون زيارته، وفى زيارة دامعة همس له رأفت إبراهيم قائلًا:

ـ «فريد هنيدى حملنى هذه الرسالة، عد إلى بلدك بجرحك الوحيد، بدلًا من أن تتراكم جروحك بفعل الهوان إن بقيت فى القاهرة.»

فقال له دامعًا: «فوزية قالت إنها ستحملنى فوق رأسها.»

فقال رأفت بحزم: «كن عمليًا ولا تشتر الوهم، كلّ من زاروك لم يشاهدوها عندك.»

ـ «تزورنى فى مساء يوم إجازتها..»

ـ «كسائر الزوار، وتلك إشارة لابد أن تفهم مغزاها.»

ـ «يجب أن تزورنى فوزيه غدًا، إذن فتعالوا لنقلى بعد غدّ.. كانت بيننا علاقة حب مليئة بالبهجة، كم أصبو إلى وداع نبيل.»

ولما جاءوا لحمله فى مساء الغد، سأله رأفت: «هل زارتك فوزيه بالأمس؟.»

لاذ بصمت حزين.. ولم يرد.

وفى الطريق إلى البلد ظل غافيًا بينهم فى السيارة، لا يشاركهم الحديث حتى لو صحا من غفوته.

وقرب البلد استيقظت حواسه، وعند ترعة وجه البلد صدرت منه شهقة مكتومة:

ـ «أين شجرة ذقن الباشا.. هل قطعوها؟»

كانوا قد نسوها، فقال له أبوه «يا ااه يا طاهر.. شهقتك أخافتنى.. هل مازلت تذكرها..؟ شجرة وذهبت إلى حال سبيلها.. هل هذه مشكلة؟.»

فقال له عمه: «ماكينة التطهير أهدلت الجسر، وعرت الجذور، والرياح أكملت عليها.»

وعلق أبوه ساخرًا: «الباشا.. وكل باشا اقتلعته الرياح، فهل نبكى على ذقن الباشا؟.»

* * *

هيئوا له غرفة جده ـ المطلة على الشارع ـ بعد أن ظلت مغلقة ردحًا من الزمن بعد موته، لم يتشاءم قدر ما انتبه إلى أن هذه الغرفة كانت تحنو على عجوز، والآن صارت تضم عاجزًا.. أتى بمن رتب له فى دولاب جده محتويات حقيبة الملابس التى أتى بها معه.. وراح يتأمل كل قطعة منها وهى تتكدس فوق سابقتها ويتساءل: «متى و كيف وأين سيمكننى إعادة ارتداء هذه الملابس الفخمة؟»

وكانت أيام وصوله الأولى مليئة بالأنس والمؤانسة، فهم يجيئون تباعًا ليجالسوه ويطمئنوا عليه، يتحدثون، ويثرثرون، ثم إذا انتهوا مما عندهم جلسوا فى انتظار ما سوف يقوله لهم عن رحلته ذات السنوات الثمان، ولأنه لا يملك ما يمكنه أن يرويه لهم مما يثير الفخر، فقد لاذ بالصمت وهو لا يعلم أن عمه الفلاح الطيب أطلعهم على صور كثيرة تجمعه بالفنانين ومشاهير الكرة مما جعلهم فى شوق أن يحكى لهم عن هؤلاء النجوم الذين صادفهم فى رحلته الغامضة..

جاءته رسالة من صديقه فريد هنيدى: «سأزورك بعد أن ينفض السامر حولك» .

وفهم أن صديقه ـ المصاب مثله ـ مازال يعيش مصيبته بقلب موجوع، وأنه يتحاشى الجمع بين مصيبتيهما أمام الناس فى مكان واحد.. ولما زاره بعد منتصف ليلة دافئة سأله:

ـ «هل تتوارى من مصيبتك.. أم تواريها يا فريد؟»

ـ «أسوأ ما فى مصيبتنا أنها معلنة، والأسوأ من ذلك أن رأى الناس فيها معلن»

ـ «إذن، فشفاؤنا سيطول بطول أعمارنا»

ـ «ولذا، فقد رحت أبحث عنه فى القرآن وكتب الدين، وقررت الالتحاق بكلية أصول الدين»

ـ «هيهات أن أجد لنفسى ملاذًا مثلك»

عمد فريد إلى تحويل دفة الحديث لمنحى آخر: «يحكون عن صورك مع الممثلين ونجوم الكرة.»

فرد طاهر:

«ويحكون عن صورك فى منصات تتويجك بالبطولة. والأضواء المنسكبة على عضلاتك»

ـ «هذا ما صرنا نملكه.. مجرد صور لماض يمعن فى الغياب..»

فقال طاهر:

«وأسوأ ما فيها أنها ستذكرنا بمأساتنا، فاسترجاع ذكريات الماضى فكرة لن نقوى عليها. كلٌّ منّا فقد جزءًا من جسده، ولكنى فقدت كل حياتى: فوزية»

ـ «و أنا فقدت ما هو أنبل منها: البطولة.. والمجد»

ـ «يكفيك أنك اقتربت من هدفك بمهارة وإصرار تحسد عليهما»

ـ «تلك هى كلمات العزاء التى لا تجدى نفعًا..»

ـ «أراك ترفض كل شىء»

ـ «ولكنى اكتشفت شيئين: ضآلة الإنسان، وسمو الحيوان.»

ـ «تقصد الجمل قاتلك»

ـ «ليس قاتلى.. بل ناقلى إلى السمو.. انتحار الجمل بعث لى بالرسالة»

ـ «تقول برسالة؟»

ـ «رسالة وضعنى فيها أمام نفسى، لم أكن أعرف الصبر فضربت الصغير الذى غاب عنى بالفاكهة، ولم أكن أعرف العطف والحنان فلم أغفر للصغير حنوه على الجمل بإطعامه قبل إطعامى، ولم أكن أعرف المؤازرة التى تبناها الجمل فوقف فى صف الصغير وانتقم له منى، ولم أكن أعرف الندم فلم أندم على ضرب الصغير عندما تحولت عنه إلى ضرب

الجمل، ثم ما ضبطت فيه نفسى متلبسًا بالضعف فلم أجرؤ على الانتحار مثل هذا الجمل الشريف، لم أكن حليمًا و الحلم سيد الأخلاق، ولم أكن رحيمًا والرحمة فوق العدل، ولم أكن قنوعًا والقناعة كنز لا يفنى..»

ـ «فجيعتك قادتك إلى الفلسفة»

ـ «وأزالت غشاوة كانت تمنعنى من رؤية معنى الحياة السوية، فلقد فهمت متأخرًا أن الله سما بالإنسان إلى أعلى المراتب دون سائر مخلوقاته ووضع عقلنا فى أعلى نقطة من بنائنا الشامخ، وأن الفعل الدنيء الوحيد الذى تنخفض فيه رءوسنا لمستوى مؤخراتنا هو الجنس الذى كنت أسعى إليه فى مغامراتى الشقية. الجنس الذى حولنا مهمته النبيلة فى الحفاظ على استمرار الحياة إلى مجون المخادع وبلاهة السفه واستعراض الفحولة المقيتة بعضو ذكرى فى حجم الإبهام الأخرس الذى قد نخجل به من أنفسنا إذا قارناه بعضو الحمار.. الحمار ينتصر.. أما سواعدنا فمهما اشتدت فهى فى النهاية عقلة من القصب إذا قبض عليها فك الجمل.. مصيبتى أننى لم أكن أحس بهذه المعانى، ولم أشعر بالملائكة التى كانت تقاوم فى داخلى صخب الشياطين»

فقال طاهرًا: «الشياطين تلهو.. وتمتلك الساحة..»

ففهم فريد أن طاهرًا يحيله إلى الحديث عن شيطانىْ حياته: السيد وأمير النحال، فقال له: «هذان يهربان من نفسيهما المقيتين، فيحطمان مرايا الآخرين قبل أن يشاهدا صورتيهما فيها» ولما علق طاهر على ذلك باقتضاب قائلاً: «لقد بدأ بتحطيم مرآتى».

لم يشأ فريد هنيدى أن يجاريه فى قوله، ففى رأيه أن فوزية هى التى بدأت بهذا التحطيم.

* * *

مضت عدة شهور قبل أن تتهيأ لحلمى عبد الباقى فرصة القيام بأول زيارة إلى فيلا الزيتون فى سهرة من سهرات السيد النحال التى وصلته بعض أخبارها .

وكان الجديد عند حلمى عبد الباقى فى هذه الزيارة هو تلال من الأحاديث والتعليقات والمخاوف والهواجس حول ما جاء بخطاب الرئيس، بشبرا الخيمة فى عيد العمال بمناسبة مرور ١٥ سنة على الثورة.

أما الجديد الذى كان لدى السيد النحال، فهو إحضار شخص جديد يشارك فى التخديم عليهم، وما إن رآه حشمت بركات حتى سأله:

ـ «**وأنت بقى اسمك إيه؟**»

ـ «**كيمو..**»

فأطلق حشمت ضحكة عالية:

ـ «**والله عارف إنك حتقول كده.. اشمعنى إنت.. زمايلك فيهم: «كلّه» و «سردينه» و «خالد بق».. مفيش غير السنى اسمه اللى زّينا.. أمال كنت فين طول السنين دى؟**»

لم يكن «كيمو» يفهم أنه أمام أهم شخصية فى هذا المكان، فأجابه بغلظة وقرف:

ـ «**كنت مطرح ما كنت.. وأنت إيـ....**»

فقفز السيد النحال من مكانه إلى كيمو وسحبه من ذراعه بهدوء واتجه به إلى الباب المفضى إلى السلم.. وغاب قليلًا ثم عاد باديًا عليه الحرج .

«**آسف ياباشا.. هو ربنا خلقه كده...**»

لم يهتم حشمت بهذا الحادث العابر، ومضى إلى حديث مع بعض رجاله تارة وفايز فودة تارة، فى حين كان حلمى عبد الباقى يتأمل هؤلاء الشباب الذين يتدافعون إلى حلقة السهرة بالأطعمة والمشروبات وتصله بعض أسمائهم التى نطقها حشمت بركات.. ثم يعود إلى تأمل هذه القاعة المجهزة كمكتب وجلسة فسيحة فى وقت واحد، ثم ظهور عنتر مكاوى الذى سبق له أن شاهده ولاحظ أنه كان يمسك بيده حفنة من الأوراق اتجه بها إلى حشمت بركات الذى تأملها مسرعًا، وهتف:

ـ «**«فواتير»؟.. اعتمدها يا معوض.. ولو إنى شامم فيها ريحة الكباب والذى منه..**»

ولوحظ أن السيد كان يكرر ترحابه بحلمى عبد الباقى وهو فى جلسته بجوار صديقه فايز فودة يتهامسان، ولم تتناثر من عندهما سوى كلمات قليلة منها كلمة المخبول التى وصلت إلى حشمت بركات، ففهم على التوّ أن صديقيه يتحاوران حول خطاب عبد الناصر الأخير فى شبرا الخيمة الذى وصف فيه الحبيب بورقيبة بالمخبول.. ووصم فيه الملك فيصل والملك حسين بالخيانة.. والتبعية والتواطؤ مع المشروع الأمريكى ضد الأمة

العربية، سارع حشمت بركات فأبدى مخاوفه من بعض الكلمات التى وردت فى خطاب الرئيس، فما معنى أن يكرر الرجل اعتقاده بأن أمريكا وإسرائيل لن يغفروا لنا ـ أى لمصر ـ قيامنا بضرب الأحلاف ووقف نفوذ أمريكا، وإصرارنا على الوصول إلى نوع من الحرية الاجتماعية، ودعوتنا إلى عدم الانحياز، وإيقاظ شعوب المستعمرات باعتبارنا مثل حى أمامهم فى معركة ٥٦.

وراح حشمت بركات يؤكد أن عبد الناصر لديه إحساس أو تأكيد أنهم يعدون العدة لضربه.. فما معنى تكرار قوله أنهم لن يغفروا لنا، ووضح أن حلمى عبد الباقى يتأمل هذا التفسير بدليل أن عبد الناصر فى هذا الخطاب تحدث عن تواطؤ الرجعية والملكية مع الاستعمار كما حدث قبل معركة ١٩٤٨ التى تعاون فيها الملك عبد الله جد الملك حسين مع إسرائيل ولم يكن أحد يعلم أنه يتصل باليهود فى عمان بعيدًا عن حالة التضامن العربى كما يفعل الملك حسين الآن.

وهنا تساءل فايز فودة الذى وضح أنه استمع إلى الخطاب:

ـ «وهل فى ظنكم أن عبد الناصر الذى جمع حوله كلّ هذا العدد من الأعداء فى الداخل والخارج سيمكنه أن ينتصر عليهم؟. ياسادة، لاتنسوا أن الكثرة دائمًا تغلب الشجاعة..»

فلاحقه حلمى عبد الباقى:

ـ «ولا تنس أن الحق فى النهاية يهزم الباطل»

يمم فايز وجهه ناحية حلمى:

ـ «وأين الحق فيما قاله حول رجل اقترض عشرة آلاف جنيه وبنى مصنعًا فى شبرا الخيمة، وعندما أمم مصنعه وجده يمتلك ستة ملايين من الجنيهات؟ كيف يحاسب الناس على أرزاقهم؟..»

فقال حلمى:

ـ «إنه لا يحاسبهم على أرزاقهم، بل على سلوكهم، وقال إن الثراء الفاحش هذا كان خلفه استغلال فاحش للعمال، فهو يعطى للعامل يومية خمسة قروش فى اليوم.. والعمال يقيمون فى غرفة تضم من أربعة إلى عشرة أفراد.. منتهى البؤس، وهذا المليونير يقيم

الحفلات فى قصره ويجلب الطعام من باريس بالطائرة.. ألم يذكر أن هناك من يملكون ٢٠ مليونًا و ٣٠ مليونًا؟ من أين لهم بكل هذه الثروة فى دولة فقيرة سوى بالاستغلال الفاحش؟»

ولم يجد السيد النحال كلمة واحدة لديه يقولها فى هذا الحوار المشتعل بين ثلاثة، فانضم إلى حلقة المستمعين وهو خجل من نفسه، فخميسة تؤرخ لحبّها له منذ وقف خطيبًا أمام المسجد مؤيدًا ثورة عبد الكريم قاسم فى العراق. إذن فماذا حدث له؟.. ولأنه لا يعرف ماذا حدث له.. ظل صامتًا..

وفى لحظة ما قبل أن تدور الأحجار الكريمة وتشتعل الرءوس بالكيف الذى يدور بعدالة بين كل الحضور وقبل أن يستأذن حلمى عبد الباقى مال على السيد النحال، وقال له:

ـ «زوجتى ذهبت إلى المحل دون أن تقوم بتعريف نفسها لأحد، وكانت السيدة حرمكم هناك.. فلو سمعت كيف تمتدحها فسوف تتأكد أنك تتمتع بأكثر حسنات الدنيا وأبهاها»

وقال السيد متواضعًا: «أشكرك.. وأشكر بهيرة هانم، وأخشى أن تكون الهانم قابلت فوزية الموظفة ولم تقابل خميسة زوجتى»

ـ «لا..لا.. هى تذكرها بالاسم.. عمومًا حظ سعيد.. عن إذنكم أيها الجمع السعيد.. شكرًا على الضيافة يا أستاذ سيد.. تصبحون على خير»

* * *

تعاظمت بداخله شخصية حلمى عبد الباقى، وكعادته راح يفكر كيف يستثمرها لصالحه، كيف يوظفها فى رحلة مشواره القائم ذات الهدف البعيد.. البعيد جدًّا حتى لا يكاد يفسره.. كل ما هناك أنه جبل على تحويل كل شىء لصالحه من مواقف وبشر: فتيان، عنتر مكاوى، خميسة، مارى، حكمت، وبشاير، فايز فودة، حشمت بركات.. حتى العظماء الخمسة أتى بهم بصدفة لم ينتظرها عندما قضى ليلتين فى السجن على يد فتيان.

«فهذا الرجل المتحضر وعاء من الثقافة والوطنية اقترب من عبد الناصر.. وأثار

إعجابه.. وتمتع بتوجيهاته.. فكيف لى أن أقترب منه سوى بالعودة إلى حبى القديم..حبى الذى هجرته من أجل المال.. القراءة.. والكتابة.. إذ يجب أن أكون ندًّا له فى المناقشات التى تدور ويجرفنا إليها بطريقته العذبة.. فكيف لى أن أهمل ضمن كل ما أهملته الاستماع إلى خطب عبد الناصر.. فما أكثر الموضوعات التى طرحوها نقلاً من خطابه الأخير.. إذن، فسوف أبدأ بأسهل ما يمكننى البدء به: الحرص على متابعة خطب الرئيس، ثم جلب الصحف والمجلات اليومية، ثم استطلاع رأيه فى عناوين بعض الكتب التى يمكنه أن ينصحنى بها.. وهكذا سيمكننى الاقتراب من هذا الرجل الذى ليس له فى السخافة والحشيش، فلننتقل إلى ملعبه الملىء بالثقافة والعقل «الحسيس» حتى نجد له حلًّا، فأين سيذهب بعيدًا عني..؟»

* * *

ورغم ما اتفق عليه مع نفسه أن يحرص على متابعة خطب عبد الناصر إلا أنه انشغل عنها بما لديه من مهام عديدة إلى أن تصاعدت الأحداث السياسية بين مصر وإسرائيل ووقف العالم محبوس الأنفاس، وتأكد أن الحرب قادمة لا محالة، خاصة بعد إعلان عبد الناصر إغلاق خليج العقبة ضد الملاحة الإسرائيلية، فانتبه إلى ما يصله من أخبار مثيرة تصاعدت حتى يوم ٩ يونيو، فترك كل ما بيديه وتسمر أمام التلفاز مع الملايين من المصريين للاستماع إلى الخطاب الذى سيلقيه الرئيس حول الحرب الدائرة منذ أربعة أيام مع إسرائيل..

وبعد الخطاب بساعة واحدة صكت سمعه صيحات الشوارع الهائجة ونداءات البشر إلى عبد الناصر أن يعدل عن قراره بالتنحى ومغادرة الحكم بعد الهزيمة الثقيلة التى نالها جيش البلاد فى صحراء سيناء. وهى الهزيمة التى تحول فيها الجيش إلى أشلاء مبعثرة على يد اليهود..



هذه المدينة الظالمة ...

تمزقت الجيوش إلى أشلاء، أما الناس فقد أفاقوا من نومهم على كابوس يتمدد فى واقعهم عندما اختلطت الدهشة بدموعهم، وأخذ الزعيم فى منشية البكرى يقرص على أسنانه ويتحسس جرحًا غائرًا ألم بوجدانه، وراح يرقب كل ما يدور فى الشوارع وما يصله من زئير المهزومين، زئير يستجديه البقاء، ويطالبه ألا يتخلى عنهم:

ـ **«لا تتنحى»**

ولخص أشرف بركات لشقيقه حشمت موقف هذا الشعب العجيب فى مثل ريفى من الأمثلة التى يحفظها ويهواها: «هم يقولون له: يا حشمت، اللى حضّر العفريت يصرفه»

وزاغت أبصار ولدىْ بركات.. فما بدا لهما مؤكدًا ووثقا فيه هو أن العرش المقدس عندما اهتز بقوة ولم يعد باقيًا له سوى السقوط ، خرج الناس فأمسكوا بقواعده، وحالوا دون سقوطه.

وقرص أشرف بركات هو الآخر على أسنانه وهو يتميز من الغيظ.

«أما كان للنمل الجائع أن ينهى البقية الباقية من العصا التى يتوكأ عليها سليمان العصر..؟»

وأمام التلفاز تعلقت الأبصار وهفت القلوب وأرهفت الأسماع إلى ما سوف يقوله أنور السادات من بيان مهم، ومال السيد النحال بوجهه نحو التلفاز وهو يتأمل وجه صاحب البيان وقال: **«هذا الرجل اسمه أشرف بركات»**

فابتسمت خميسة بتعجب:

ـ **«تقصد شقيق صديقك حشمت؟ لا إنه أنور السادات. رئيس البرلمان»**.

ولم يكن السيد النحال يعلم أن حشمت بركات يسأل عنه طوب الأرض:

أين السيد يا عنتر؟ أيناه يا كيمو؟ هذا الولد اختفى قبل أن تبدأ الحرب، ومازال مختفيًا، هل كان يحارب؟ نحى ضرب.. جهزوا تعميرة.

وراح يشد الأنفاس مشجوج الرأس، فلقد استوى عبد الناصر على عرشه رغم الهزيمة «**فياله من شعب أثيم..**»

وفى روف فايز فوده وفى أول سهرة عقدوها بعد النكسة لم يحضر حلمى عبد الباقى فالتمسوا له العذر، وقال فايز فودة معلقًا على ذلك:

ـ «**الآن جاء دور الشعر والمقالات وهى مهمة يتقنها حلمى**»

وقال معوض الجارحى وهو يرنو إلى وابوره العملاق حشمت:

ـ «**لا شعر.. ولا مقالات.. فإما الدموع.. وإما الحشيش**»

ولاحقه ممتاز إبراهيم:

ـ «**الحشيش يكسب.. كنا فى غيبوبة.. فلنظل بها..**»

وقال حشمت بركات:

ـ «**فليحرقنا الحشيش كما نحرقه**»

فهتف السيد النحال:

ـ «**سوف يتهمون الحشيش بالتقصير؛ لأنه لم يساعد المشير..**»

وقال فايز فودة:

ـ «**لم يقل لنا أحد من قبل أن موشى ديان استعان بالحشيش ليجلى فكره**»

فقال حشمت:

ـ «**لا تتهموا السلاح.. السلاح لم يُجرب.. هذه الهزيمة سياسية**»

فرد عليه فايز فودة:

ـ «**اخفض صوتك.. عبد الناصر سيصيبه السعار.. وعودته ملكًا متوجًا إلى الغابة ستمنحه شرعية التهام خصومه بأكثر مما كان من قبل..**»

ولم يخفض حشمت صوته، بل قال بغيظ:

- «مادام الأستاذ هيكل قال إن السلاح لم يناصر السياسة فى هذه المعركة، فأنا من الآن فصاعدًا سوف أتبنى عكس ما يقوله.. فالصحيح أن السياسة لم تناصر السلاح، عبد الناصر هو المسئول وليس عبد الحكيم عامر»

وأيقن السيد النحال أن صديقه حشمت لم تعد تعوزه الشجاعة حتى يكشف عن وجهه القبيح ويعلن كراهيته وحقده على جمال عبد الناصر، وتساءل إن كان ذلك لأن الرجل تورط حتى بانت عورته أمام العالم، وأنه لم يعد يملك وقتًا يكفيه إلا لستر عورته..؟ أم أنه صار يعرف عن عبد الناصر ـ عبر ما ينقله إليه أخوه أشرف ـ ما جعله أقل اعتدالًا أمام اسم عبد الناصر الذى كان يبث فيه الرعب والمهابة؟

وتأكد السيد النحال أن كلاب الحراسة ليس شرطًا أن تظل على وفائها لسيدها مدى الحياة؛ إذ من حقها أن تبحث لنفسها عن سيد جديد بديلًا عن القديم ضيق الرزق الذى بالكاد يطعم نفسه.

ثم رنا إلى مملكته الصاعدة ورجاله الخمسة وسادسهم عنتر مكاوى وفتاتين فى رحابه إحداهن زوجة وضعها فى إصبعه والأخرى يسعى لتثبيتها فى الإصبع الآخر.. ثم حكمت عبشاير اللتين استقر على التخلص منهما بسم بطىء، ثم السيدة مارى التى يبحث لها عن ورطة ـ وهو يأمل أن يساعده القدر بمثل ما ساعده فى الإطاحة بعدوين لم يستمرا طويلًا فى منازلته: فريد هنيدى وطاهر زين الدين.

* * *

تراقص قلب خميسة بالفرحة والسرور عندما كان زوجها السيد النحال يلتقط من العلبة القطيفة الحمراء عقدًا من الذهب راح يعلقه على صدرها بفرحة مماثلة:

- «هدية نجاحك، وحصولك على الليسانس، وبداية حياتك العملية.. أخيرًا يا خميسة تحقق أملك»

ضمته إلى حضنها، وطبعت على خدة قبلة:

- «قل.. تحقق بعض أملى.. أملى أكبر من الشهادة»

قال لها: «آمالى هى آمالك.. مصيرنا واحد، ومشروعنا واحد»

ابتسمت وهى تحتل مقعدًا أمامه:

ـ «مشاريعك مقسومة بين خدمة السيارات وخدمة السيدات، فأىّ خدمة سأجد لشهادتى العالية مكانًا بها؟»

ـ «السيدات.........»

ـ «إذن، فقد ساويتنى بفوزية صاحبة الدبلوم، هل هذا يليق؟»

ـ «فوزية ستذهب إلى السيارات..»

ـ «هكذا يمكننى أن أشم رائحة قفزة جديدة»

ـ «سمها ما شئت، لكنها بالنسبة لى خطوة إلى الأمام»

ـ «وقد تكون بالنسبة لى خطوة إلى الخلف..»

ـ «كيف تحكمين على أمر تجهلين تفاصيله، طبيعة تخصصك يلزمك بالاطلاع على الحيثيات أولًا أيتها المحامية»

ـ «كلى أذان صاغية، فهات حيثياتك»

وتهيأ السيد النحال للإدلاء بما لديه، فقال لها بصوت هادئ:

ـ «لو شاهدت الساحة الفسيحة التى يمرح بها عشرات العمال وعشرات السيارات طوال اليوم لن تصدقى أن إيراد هذا المكان لا يصل إلى نصف إيراد محل الكوافير.. وقد عقدت العزم أن أفتتح لك محلًا جديدًا تتفرغين لإدارته، سأسحب فوزية للعمل بمكتب الجراج حتى تأخذى فرصتك كاملة لإدارة محل قصر النيل لعدة شهور.. تعلمى كل شىء، ضعى يدك على كل أسرار المهنة، وفى اللحظة التى تثقين فيها بقدراتك أبلغينى حتى أهيئ لك مشروعك الجديد..»

صمتت قليلًا، ثم قالت:

ـ «هذا المشروع خطوة لك إلى الأمام.. أما أنا فإلى الخلف.. إلا إذا كان التقدم بالنسبة لك هو حصد المال فقط.. »

ـ «وهل هناك سوى المال؟»

ـ «أجل.. أن أكون محامية ناجحة.. أنت لم تلتفت إلى تقديرى بمثل ما التفت إليه

الأستاذ حلمى عبد الباقى، وقرر أن يلحقنى بمكتب كبير أتدرب فيه..»

ـ «حلمى عبد الباقى؟»

ـ «زوج بهيرة، وشقيق المهندسة سوسن، زبونتاك بالمحل»

ـ «هل تقابلتما؟»

ـ «أمام المحل مرة، ثم حرصت أن أحضر بعض محاضراته»

ـ «ولكنك لم تخبرينى بذلك»

ـ «وكم عدد الأساتذة الآخرين الذين أخبرتك بهم؟»

ـ «والمكتب الذى رشحك له: هل جاء بناء على طلبك أم تطوعًا منه..؟»

ـ «تطوعًا من سوسن أخته التى صارت صديقتى بأكثر مما كنت أتوقع»

أحس بحصار لم يتوقعه، وأن لعبة الإمساك بفوزية على بعد قريب منه ومن حكمت وبشاير.. هذه اللعبة ذات الهدف البعيد أو الهدف المزدوج قد تفشل فيها لو تعجل الأمر فى هذا الحوار وأصر على طلبه.. إذن، فليتمهل ويرجئ هذا النقاش الآن..

ـ «دعينى أفكر فى الأمر.. وأنت كذلك.. ماذا لديك الليلة على العشاء؟..»

وراح يرقب تحركها داخل المطبخ من جلسته فى الصالة وهو مشغول بعبارتها المراوغة التى أطلقتها فى صيغة سؤال:

«كم هو عدد الأساتذة الآخرين الذين أخبرتك بهم؟»

«إذن، فهى تعمدت ألا تحدثنى عن أستاذها الذى أعرفه أسوة بكل الباقين الذين لا أعرفهم، وهذا لا يجوز. فما الذى تخبئينه عنى يا بنت عفيفى؟»

أما هى، فقد كانت ترنو إليه من آن لآخر فى جلسته الصامتة وهى مشغولة بما قاله:

«سأسحب فوزية للعمل معى بمكتب الجراح»

ـ «فأىّ عمل يا ابن النحال ستقدمه لك مصففة الشعر فى مكان لا علاقة له بالتصفيف والمكياج..؟ أخشى يا ابن النحال أن يكون هدفك المنشود هو الاختلاء بفوزية.. وأن يكون كلّ هذا السيناريو من أجل هذا الغرض.. فما الذى تفكر فيه يا سيد؟»

وقبل أن يجتمعا على مائدة العشاء كان قد ناقش مع نفسه فكرة تطابق ما أنكرته عليه

من حوار يجمعها مع حلمى عبد الباقى مع تبنى حلمى نفسه لهذا الإنكار

«وقد كان يمكنه فى لقاء ما أن يشير إلى أنه تعرف على زوجتى إما أمام المحل أو فى حرم الجامعة ولو من قبيل الدردشة»

أما هى، فقد كانت ناقشت مع نفسها فكرة اهتمامه بفوزية واهتمام فوزية بنيل رضاه حتى إنها داست على كل سنوات علاقتها بطاهر زين الدين ولم تذهب لوداعه فى المستشفى قبل أن يحملوه إلى البلد ، هذا ما عرفته من رأفت إبراهيم كخبر، وما نقلته رجاء عاملة المحل البدينة من سر أطلعته عليها سيدتها فوزية

«الأستاذ كان يغار من خطيبى.. وقلت لنفسى الحى أبقى من الميت، لا تذهبى..»

وأخذا فى تناول العشاء، وكلٌّ منهما يحفر فى تل الغموض عند الآخر بملعقة صغيرة ينسى أحيانًا ويذهب بها إلى فمه.

* * *

وفيما بعد لم يكن نجاحه فى عقد اتفاق معها سببه مهارته فى الالتفاف عليها كما اعتقد، إنما لأنها قررت أن تمضى معه إلى نهاية طريق غامض قد تجد بعض النور فى آخره فتعرف من هى بالنسبة له، ومن هى فوزية بالنسبة لها.. ولم تعارضه فى تأجيل حلمها بالمحاماة لنصف عام فقط حتى يستقر العمل فى محلها الثانى.

ـ **«بعدها يمكنك الإمساك بحلم المحاماة أيتها الأستاذة»**

* * *

ولم تعارضه فوزية فى نقلة بلهاء لا تتناسب مع مهنتها، ولكنها ناسبت حلمها فى الاقتراب منه، ولم تقترب بأىّ حال من حديث قديم قاله طاهر: **«ستتعلم خميسة الصنعة، ثم يلقى بك إلى الشارع..»** ثم لم تلتفت إلى أن أميرًا أهداها نفس التحذير، ولكن حديثهما ـ طاهر وأمير ـ شىء، وحديث قلبها شىء آخر..

ومضى منذ اليوم الأول إلى هدفه المنشود..

اصطحبها فى زيارة تعارف إلى صاحبتىْ الدور الأرضى بالفيلا، فاستقبلتها حكمت ثم بشاير بما يليق بجمالها الأخاذ ولطفها الشديد وحديث رجلها الأثير عنها. وعلى مائدة

الغداء ـ الذى رتب له سلفًا وفوجئن به عندما أتى خادمها «كله» بلفائف الشواء على غير انتظار ـ داخله السرور وهو يرى فوزية تقوم بتقطيع اللحم وانتقاء أشهاه فتقدمه لحكمت مرة ولبشاير مرة، ثم وهو يرى السيدتين آخذتا فى التعلق بموظفة رائقة أتى بها شريكهما الساحر من قرب الجنة..

ـ «**ليتك تطلين علينا من آن لآخر لنسعد بك يا فوزية**»

ـ «**ستكون إطلالتى يومية.. لا تحملا همًّا لذلك**»

وبلا ترتيب منه أو توجيه اختارت فوزية أن تسهم فى إعداد الطعام لصديقتيها فى جزء من يومها الذى يجب أن تصرفه فى عمل لا تحبه، فدبلوم التجارة الذى تحمله قد يؤهلها موضوعًا فى تسجيل المصاريف والإيرادات وتفريغ الفواتير.. لكنه شكلًا وموضوعًا يصيبها بالغثيان، وصار هروبها المبرر إلى الدور الأرضى وسيلة وغاية فى آن واحد.. وصار حرصها على ذلك مشمولًا برضاه حتى عندما أسهبت فى الالتصاق بالعجوزين ازداد هذا الرضا فى داخله، وصفق لهذه الصدفة التى سهلت له مشروعه..

* * *

ذات يوم لحق بها إلى المطبخ منتقلًا إليها من جلسته عند حكمت وبشاير فى الصالون.. أخرج لها زجاجة صغيرة لونها قاتم من جيبه.. وراح يشرح لها ماهية هذا الشىء الذى بيده:

ـ «**إنه نوع من دواء التركيب الموصوف لحكمت دون بشاير، وإن إضافته إلى طعام الاثنين معًا لا يلحق الضرر بمن لا تعوزها هذا الدواء وهى بشاير، وهذا يستدعى ألا نخبرها حتى لا تجزع ويصيبها قرف من دواء لن يفيدها..**»

ثم عمد إلى حلة خضار السبانخ المطهاة، وألقى فيها بنصف ملعقة، ثم قلبها.. وتذوق منها ملعقتين متتاليتين..

ـ «**الطعم لم يتغير.. تأكدى بنفسك..**»

فتأكدت بتناول ملعقة ..

ـ «**فعلًا.. ولكن لماذا لا نخبرها طالما أنه لا ضرر**»

ـ «**أنت لا تعلمين كيف يفكر الأتراك ويقومون بتحميل الأمور أكثر مما تحتمل..**

نصف الملعقة هذه لو تناولتها صاحبتها من الزجاجة إلى فمها مباشرة فسوف يغمى عليها من غرابة طعمها.. الطبيب نصح بتذويبه فى طعام سائل.. فهل نعد لهذه طعامًا ولتلك طعامًا آخر؟.. هما بمثابة طفلتين.. تعاملى معهما كأنهما كذلك.. واحتفظى لنفسك بهذا الأمر، وضعى الزجاجة فى مكان لا يعرفه إلا أنت..»

* * *

أما خميسة فإن شعورها الجديد بأنها صارت تملك سلاحًا فى مواجهة الحياة لم يمنعها من الإحساس بالخوف، فشهادتها فى الحقوق قد تصبح مجرد ورقة لا قيمة لها إذا سرقها الواقع الذى يصنعه زوجها برغبته ويحرك به كل من حوله من البشر وهى منهم.

وبانصياع لا تملك غيره تسلمت عملها فى محل الكوافير، ومنذ يومها الأول هفت روحها أن تلتقى بمن تفضى إليه بهواجسها وهى لم تكن تملك إفضاء إلا لثلاثة: أخيها رجب، ورأفت إبراهيم، وفريد هنيدى، فهم من ربطوا بينها وبين والدها فى سجنه، وكانت تخص «رجب» بما لا يمكن أن تخص به «رأفت» أو «فريد» من أسرار ينقلها لوالديها. وها هو فريد المسكين قد اعتزل العالم، ثم ها هو رأفت إبراهيم قد تسلم وظيفته بمكان بعيد كلفه السكنى فى محيطه بدمياط، أما رجب الذى لم يحس أحد بآلامه عندما انفضت الدنيا من حوله وخلا البيت من كل أصحابه إلاه، فقد انتصر عندما أحس هو بنفسه وكرر تجربة أخته خميسة بمزيد من التحمل لقسوة مضاعفة كانت من نصيبه، فأدار الدكان وواصل دراسته متمتعًا بخدمات متقطعة من بعض خالاته وبعض عماته فى بعض شئون معيشته. ولأن والدها على وشك الخروج من سجنه، فقد أوقفت خميسة نزالًا كان يجب أن يشتد ويعلو مع زوجها الذى لم يحترم شهادتها وآثرت أن تبدو أمام والدها متمتعة بسعادة ظاهرة بعد أن جاءها رأيه فيه، وأرسل إليها لعناته من خلف القضبان، وهمس لها رجب بما يقوله أبوها من أنها باعت نفسها رخيصة لقاتل، وأنها هربت من قبضة الشرطة إلى قبضة ناعمة لمجرم أثيم، وأنه كان من الشرف له أن يراها مظلومة قيد أغلال رجال المخدرات دون أن يراها ظالمة إلى هذا الحد، ظالمة له ولنفسها بالوقوع برغبتها فى شباك صياد لا يرحم، ثم همس لها رجب وقتها ذات زيارة معتادة فى بنسيون السعادة بنصيحة والدهما

«أكملى مهمتك الحقيقية مع ابن النحال كزوجة فى شكل خادمة نالها بالمجان، ولا

تنجبى منه حتى لا تكبلى نفسك فى عجلاته أكثر من هذا لتقليل الخسائر المنتظرة...»

وقتها لم تقل لرجب أن شعورها بالحب نحو هذا الرجل منذ زمن بعيد انتصر على نقمتها على أفعاله، وهى حتى الآن لم تعد تدرى سرّ سطوته على وجدانها منذ خفقة القلب التى كانت تسمع طرقتها بين ضلوعها إذا شاهدته يسير فى دروب القرية، وكيف كانت تكبر هذه الخفقة كلما كبرت هى دون أن يقلل من وقعها شعورها المؤلم أن فارسها لن تكتمل أوصافه.

هى الآن تشعر بحاجتها إلى من تلقى برأسها عنده مثل بهيرة أو سوسن، أو مارى؟ ولكن لماذا وهى ترجو ذلك تلوح أمامها صورة رجل كأستاذها حلمى عبد الباقى، فالعبارات القليلة التى تبادلاها فى حرم الكلية أنبأتها كم هو ثرى فى مشاعره تجاه الناس، وكم هو لماح يبعث عبر بريق عينيه سيل المودة والوئام بوقار وبلا تكلف، فيصك عباراته الدمثة بسرعة لافتة وإيجاز عبقرى، سريع الفهم، سريع الكلام، سريع الحركة والالتقاط.

ـ **«أرجو ألا يكون قد سبقنى أحد وأبلغك أنك تشبهين نفرتيتى يا خميسة.»**

واحتارت كيف ترد على وصف لها لم تلحظه من قبل.

ـ **«ملامحك معجونة بحزن مكتسب وإصرار موروث»**

ولم تجد ما تقوله عن وصف آخر تأكدت أنه صحيح.

ـ **«بهيرة تحدثنى عن دماثتك، معذورة، فهى لا تملك قراءة الأعماق، أما سوسن فهى غواصة ماهرة.. تتحدث عن باطنك أكثر مما تتحدث عن ظاهرك.»**

وتلجلجت.. ما الذى يعنيه بذلك؟.. هل يقصد أنه وسوسن قرآها بشكل أعمق.. وأمسكا بما هو أزيد من التأدب..؟ وهاهو يطلق سهمًا فى كبد الحقيقية بسؤال:

ـ **«لا أدرى كيف يجتمع نقيضان تحت سقف واحد؟..»**

إذن، فهو قد قرأ حالة زوجين اجتمعا شكلًا عند شاطئ التوحد وهما أبعد ما يكونان عن ذلك.. فالحقيقة أن كلًّا منهما يسكن عند شاطئه الخاص. أما آخر ما قاله أمامها بطريقته المعهودة المفعمة بالسرعة والتكثيف:

ـ **«تقديرك المشرف سيمنحنى شرف إلحاقك بمكتب كبير لمحامٍ شهير، فاستعدى لبدء**

حياتك العملية من عنده»

«وها أنذا أبدأ حياتى العملية من عنده هو: زوجى السيد النحال الذى له دائمًا رأيه الآخر، رأيه المختلف، رجلى الذى صرت أعيد تأمله وهو كريم فى إنفاقة وبخيل فى عواطفه، رجلى الذى يأتى بالشيء ونقيضه فى وقت واحد، فأين لى بك يا أستاذى حتى أشكو إليك تمزقى وهوانى؟»

* * *

جاءها ـ رجب الذى لم يعد صغيرًا ـ إلى عنوانها الجديد الذى كتبته له، وفاجأها بما انتهى إليه قرار والدهما قبل أن ينال حريته:

ـ «ستعودين إلى البلد مطلقة من ابن النحال»

ـ «وما الذى سأفعله فى البلد؟»

ـ «تعيشين و تعملين هناك أنت الآن صاحبة شهادة»

ـ «لعلك أبلغته أننى عاملة كوافير، أنا لست كذلك، هناك مكتب كبير فى انتظارى سأعمل به، فكيف أخسر زوجى ومنزلى ومكتبى فى وقت واحد لمجرد أن أبى يحقد على زوجى؟.. قل له إن ما يطلبه ضد مصلحتى..»

ثم جاءها رأفت إبراهيم بعد زيارة رجب بأيام، فهالها منظره:

«ما باله صار هزيلًا هكذا؟»

صافحته على باب المحل غير المسموح فيه باستقبال الرجال، وغابت قليلًا وأوصت عاملتها البدينة رجاء بتسيير العمل، وتحركت أمامه على الرصيف وهى تطرح شالًا ثقيلًا على كتفيها هيا بنا.. واتجهت إلى مكانها القريب المفضل بمحل جروبى

ـ «ماذا بك يا رأفت، أراك كمن تعانى مرضًا لاقدر الله..»

هكذا سألته باهتمام وتألم وهى تحتل مقعدها فى مواجهته لتكتشف بعد حين أنها وهى تهفو إلى من تشكوه لواعج قلبها وتشتت عقلها لم تكن تعلم أن رأفت الصامت دومًا، المهذب بطبيعته، ليس سوى مخزون بائس من اللواعج والتشتت.. فما أسر لها به من قبل حول قسوة عمه الوحيد الذى أبعده بإصرار عن القاهرة كان مقدمة أن يشرح لها قسوة

هذا القرار على قلبه العامر بحب ليلى بنت هذا العم الفظ، وكيف مات أمله بالاقتراب منها إذا التحق فى القاهرة بكليته المستحقة، ولم يعلم والده الأسطى إبراهيم عبد الواحد أن ولده اختار السلام مع عمه والقسوة على نفسه فنفى نفسه باختياره إلى الإسكندرية ليحافظ على باب الحبيبة مواربًا، فقد يتسنى له أن يطرقة ذات يوم ويذهب لطلب يدها.. وها هو الأسطى إبراهيم عبد الواحد المخدوع يذكّره فور تخرجه أن يذهب لزيارة أسرة عمه فى مهمة تمهيدية لزيارة أكبر سيقومون بها جميعًا لخطبة ليلى، وفى شرفة شقتها بشبرا خفق قلبه وهو يتأمل ما بدا فى شكلها الهادئ من جمال كله نضارة وحيوية ورشاقة، قال لها:

«تسلمت عملى بمديرية زراعة دمياط.. لقد منحونى منزلًا صغيرًا به حديقة.. أتخيلك معى فى هذا المنزل.. أعجبنى أنه قريب من الترعة.. من بين ما تخيلته أننا سنجلس على شاطئها ونصطاد السمك بالسنارة كما كنا نفعل ونحن صغار.. «شهقت باستغراب: «دمياط؟ وترعة؟ وسنارة؟ هل هذه أحلامك يا رأفت؟»»

وما أحزنه أنها انفلتت من الشرفة إلى داخل الشقة دون أن تستأذنه وغابت طويلًا ولم تعد، فتحرك غارقًا فى خجله ليجدهم هناك فى غرفة الصالون صامتين فى جلستهم، وهناك غضب يلوح على وجه عمه، ومثله يبدو فى وجه زوجته، أما ليلى التى حدثته منذ سنوات من فوق كرسى يتأرجح، فهى تجلس الآن جامدة الملامح وهى تؤرجح ساقها المشبوك على الساق الآخر.. ناداه عمه..

- «**«اجلس يا رأفت..** «وبعد حين سأله» **ما الذى قلته لابنة عمك؟..**»

راح يبحث عن شىء يقوله، ولم يجد أجدى من التصريح بسر زيارته:

- «**أبى و أمى يا عمى سيأتيان معى قريبًا ليخطبان لى ليلى..**»

فسأله باستخفاف: «**حتى تأخذها معك إلى دمياط؟**»

لم يرتح للهجته، فقال له:

- «**سوف أحصل على منزل أكثر اتساعًا عندما أتزوج، فأسر المهندسين هناك تنعم بحدائق وخدم وحظائر للدواجن**»

صاح عمه: «**لا حدائق ولا خدم.. ابنتى لا تغادر القاهرة**»

فلاحقته الحبيبة:

- «**هذا إذا وافقت على فكرة الزواج أصلًا..**»

فأوضحت أمها: «**ليلى ستسجل الماجستير.. أنت فاجأتها يا رأفت..**»

فعاد إلى عمه بملامح لا تخلو من التوسل:

- «**لا بد من القاهرة يا عمى؟..**»

فأجابه بنفس نبرة استخفافه الأولى:

- «**أجل يا ضنايا.. لا بد من القاهرة... شيء عجيب!! هل هناك بنت تدفن نفسها عند الفلاحين وتترك القاهرة؟..**»

وخرج للمرة الثانية من بيت الحبيبة وهو لا يكاد يرى أمامه.

وفى البلد قال له والده الأسطى إبراهيم: مابك يا ولدى؟ وللمرة الثانية لم يشأ أن يكون الخصام والغضب هما الشيء الثالث المتحرك بين اثنين: والده، وعمه.. فأتى بكلام لم يخطر على باله، كلام قاطع أثار ذهول أمه وأبيه معًا:

- «**ليلى أختى فى الرضاعة.. زوجة عمى أرضعتنى معها، ولا يجوز لى الزواج بها، هذا هو سرّ حزنى يا أبى**»

راحت أمه تتذكر ومعها الأسطى إبراهيم: متى، وكيف، وهل أمها واثقة؟ أهى التى قالت ذلك؟ أنا يا ولدى لا أتذكر فأنت تكبرها بأكثر من عام، وعندها خبط الأسطى إبراهيم كفًّا على كفٍّ مرددًا: يا فرحة ما تمت أخذها الغراب وطار» أيقن رأفت المحزون أن كذبته انطلت على والديه، لكنه راح يبحث بقلب موجوع عن شكل ذلك الغراب الظالم الذى خطف فرحته ثم طار بها: هل هو عمه؟.. أم هى حبيبته ليلى التى كانت عصفور أيامه وبلبل حياته المغرد إلى أن وثق فى نهاية زيارته الثانية أنها كانت هكذا فقط فى خياله المخدوع وقلبه الواهم وعقله الساذج البريء؟

* * *

وتحول رأفت إبراهيم أمام خميسة إلى ضحية جديدة من ضحايا الحب، وانضم بجدارة إلى ناد بائس صغير سبقه إليه طاهر زين الدين، أما هى فمازالت تقف على بابه دون أن

تدرى تمامًا هل هى بالفعل ضحية من ضحايا هذا الشىء الذى اسمه الحب أم أنها ضحية نفسها..؟ ولكنها فى كلٍّ الأحوال تعاطفت مع ابن بلدها المكافح الفقير الذى لم يجد مانعًا عنده أن يعمل بيومية مع أبيها كنفر من الأنفار فى إجازة الصيف، فهل كان فقره هو الغراب الجاثم دومًا فوق فرحته؟ ولماذا يدفع ثمن فقره مهانة فى الحياة وذلًّا فى الحب؟.. وأما كان يمكنه أن يواجه فقره بمثل ما واجهاه به ولدىْ النحال من كذب وتضليل وزيف وتلاعب؟

وانتهت خميسة إلى أن رأفت إبراهيم رجل صالح نفسه، وسار خلف بوصلة روحه السوية فأنقذ نفسه من ضلالات كان من الممكن أن يزينها له واقعه، ويكفى أنه لم يبعثر أحزانه فى وجوه الآخرين واحتفظ بها لنفسه واحتفظ فى أعماقه بشلال الألم الناعى لنصيبه المقدور، فجاء ذلك على حساب صحته التى صارت عليله..

وعندما جمعت شتات مشاعرها وتهيأت لإبلاغه برسالة سيقوم بنقلها إلى أبيها فى سجنه اكتشفت أنها ستأتى بقرار أشبه ما يكون بقرار ليلى بنت عمه، بنت المدينه التى اقشعر بدنها وفرت هاربة من فكرة انتقالها للحياة فى الريف، ومع هذا فلم تتردد خميسة أن تتسم بالواقعيه وهى تقول لرأفت إبراهيم:

- «أبى أرسل إلىّ طالبًا أن انفصل عن زوجى وأشتغل فى البلد وأعيش بقية حياتى هناك. أنا لم أشأ أن أبعث إليه برد مع رجب حتى لا أصدم أخى، فقل لأبى قد أعود إلى البلد مضطرة فى حالة واحدة أن تبتر ذراعى مثل فريد فى حادث أو تبتر ساقى مثل طاهر بسرطان. فإن لم يغفر لى زواجى من السيد، فليعلم أنه كان خيارى المفروض، وأما ما يطلبه أبى فهو خيار من خيارات كثيرة فليسمح لى بانتقاء ما يناسبنى منها..؟»

فسألها رأفت:

- «كل هذا حتى تظلين بالقاهرة؟»

ولما أومأت إليه بالإيجاب، اندفعت إلى نفسه عاصفة من الكراهية لهذه المدينة الظالمة التى طردوه منها مرتين، مرة لأنه لا يجب أن يقيم بها قرب ليلى، والمرة الثانية لأنه لا يملك الإمكانيات التى تساعده على الإقامه بها مع ليلى.



استجداء شرارة لإشعال حريق كبير

فى أول ظهور لحلمى عبد الباقى بعد النكسة توافق أن جاء ذلك مع نشر أول حديث صحفى لجمال عبد الناصر مع مجلة أمريكية، وقد بدا لمن رأوه بهذه السهرة الربيعية بروف فايز فودة أن حلمى عبد الباقى قد خرج من قوقعة اليأس، فعرفوا أن طاووسه عبد الناصر قد «بدأ ينفض عن ريشه الزاهى بعض ما علق به من وحل الهزيمة». هكذا قال فايز فودة الشامت فى عبد الناصر لجاره فى الجلسة السيد النحال، ثم طفقا يستمعان لما ينقله حلمى عبد الباقى من أقوال وتصريحات جاءت على لسان الزعيم للصحفى «وليام اتوود» رئيس تحرير مجلة «لوك» الأمريكية بعد عشرة أشهر من الهزيمة.. وقد ألمح حلمى للحضور اعتقاده أن هذا الصحفى يتبنى رأى دولته وهو يطرح أسئلته الملونة بالدهاء ودس السم فى العسل، وقد بدا ذلك من سؤاله للرئيس «أليست الحرب ضد الفقر أكثر أهمية من الحرب ضد إسرائيل؟..» فلم يخالفه عبد الناصر الرأى، ومع ذلك نبهه بأهمية الدفاع الشرعى عن النفس ولفت نظره أن: «التهديد الخارجى يزيد من صعوبة مهمتنا ونحن نعمل على محاربة الفقر، فصرنا نبنى بيد، ونحمل السلاح بالأخرى» ثم يسأله الصحفى فى موضع آخر إن كان نادمًا أن تولى زمام السلطة لشعب غارق فى هذا الكم من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، وقد خالفه الرئيس هذا الرأى رغم إحساسه بالأسى على ما حدث له من فقدان لحياته الخاصة الصغيرة بعدما صار يعيش فى خندق لمدة ٢٤ ساعة فى اليوم، لكن عزاءه فى ذلك تمثل فى أن الثورة هيأت فرص العمل للجميع، وارتفعت بميزانية البلد من ٢٠٠ مليون إلى ١٢٠٠ مليون فى العام، وأقامت مدارس ومستشفيات وعمارات لم تكن موجودة من قبل، ناهيك عن المشروعات الصغيرة الأخرى.

وبدا أن هذا النوع من العرض لإنجازات الثورة لم يلق استجابة لدى فايز فودة الذى سارع بتحويل دفته إلى محور آخر يمكنه فيه حصار عبد الناصر وحلمى عبد الباقى معًا، فسأله مسرعًا:

ـ «وماذا قال له عن حربنا مع إسرائيل وهزيمتنا الأخيرة؟»

وأفهمه حلمى أن الصحفى الأمريكى عرج على هذا الشأن فى نطاق أن السلام بين إسرائيل والعرب سيكون فى صالح العرب، وأن الإخاء يجب أن يسود العالم بها فى ذلك الشرق الأوسط وأن الحقيقة يجب أن تسود هى الأخرى..

وباشتياق ظاهر طلب حشمت بركات التعرف على ردود عبد الناصر على هذا السؤال المطعم بالخبث.. فطمأنه حلمى أن الرئيس التفت إلى هذا المغزى وأفهم الصحفى أن الحقيقة يجب أن تسبق الإخاء، والإخاء بين الطرفين معناه التحرر من الخوف والتهديد.. فهل من الممكن نسيان حقيقة اللاجئين الفلسطينيين؟.. وهل هذا إخاء..؟ ثم سأل الصحفى سؤالًا مباشرًا: هل يمكنك المطالبة بتحقيق إخاء مع قوات أجنبية تحتل جزءًا من أرض الولايات المتحدة؟

وفى الروف جاءته الفرصة أن يختلى بحلمى عبد الباقى، فمال السيد عليه هامسًا:

ـ «أنا مدين لك بشكر جزيل لاهتمامك بخميسة زوجتى»

تطلّع إليه حلمى عبد الباقى مليًّا، ثم قال له:

ـ «أى اهتمام تقصده بسيدة ضحت بالعلم مقابل المال؟»

ابتسم السيد وهو يعدّل له هذا المفهوم:

ـ «هى لم تضحِ بالعلم، ولم تهتم بالمال، كل ما هناك أنها تقوم بتنفيذ أوامرى»

ـ «أوامرك..؟»

ـ «لماذا تتعجب من قولى؟ زوجة تنصاع لمطالب زوجها.. ماذا فى ذلك؟»

وضع حلمى عبد الباقى يده بالسرعة الكافية على الهدف المنشود من هذا الخطاب المستفز الذى يشير إلى تضخم الأنا عند زوج يحمل دبلوم الصنايع وهو يتحدث عن زوجته المتفوقة فى دراسة الحقوق. فيقول إنها تنفذ أوامره بانصياع، ولأنه كان على وشك

الانصراف كعادته قبل إشعال واشتعال الحشيش، فقد أنهى هذا الحوار بجملة ظلت تشغل السيد النحال طوال باقى السهرة حتى ذهب إلى منزله..

وفى المنزل سألها ولم يكن دخان الحشيش قد طار من عقله:

- «هل تقابلين أستاذك الجليل حلمى عبد الباقى؟»

فأجابته بهدوء:

- «أحيانًا»

- «أين ومتى تقومين بذلك؟»

ظلت على هدوئها وهى تجيبه:

- «فى الكلية وأنا أقابل بعض صديقاتى.»

- «وهل تتحدثين معه حديثًا خاصًا أمام زميلاتك أيضًا..؟»

- «لم يحدث أن تحدثنا معه حديثًا خاصًا..»

- «إذن، فكيف عرف أننى لم أوفِ بوعدي معك ولم أسمح لك بالعمل بالمحاماة بعد نصف عام من استقرار العمل فى المحل؟»

تمهلت قليلًا قبل أن ترد: «ليس من العيب أن اتحدث عن تطلعاتى أمام صديقتى المهندسة سوسن عبد الباقى، فهل هذا يسوءك؟»

- «يسوء أو لا يسوء، ليس هذا من شأنك..»

- «أو ليس من شأنى أيضًا أن أظل معصوبة العينين وغافلة عن رجل أبعد زوجته عنه وقرب آنسة جميلة إليه لتجمعها غرفة مكتب واحدة، أأنت تستاء من جملة عادية، وأنا لا يحق لى الاستياء من هذه العلاقة المعوجة بينك وبين فوزية؟»

- «إنها علاقة عمل..»

- «إذن، فاستبدلها بموظف وأخل سبيلها»

- «أأطردها ؟»

- «إن لم تفعل ذلك بنفسك.. سأحضر بنفسى وأطردها..»

وأسقط فى يده: «هذه هى خميسة القوية الهادئة التى لم تهتز لاستفزازى المقصود لها،

وقلبت المائدة على رأسي.. واصطادتنى قبل أن أصيدها..» وبعد لحظات صمت قال لها:

ـ «إذن فاهدئى، وعودى إلى عقلك، ولا تضعى أسرارنا فى أفواه الناس»

ودخل لينام..

وظلت ساهرة..

نام هو وقد قرر أمرًا..

ولم تنم هى؛ لأنها تفكر فى أمر آخر..

* * *

لاحظت فوزية أنه كان أنيقًا فى هذا اليوم على غير العادة ، وأنه يلاحقها أكثر من ذى قبل، وأنه يتخلص مسرعًا من أىّ قادم إليه من العمال لطلب ما حتى يتفرغ لمواصلة بعض حكاياته التى يسليها بها.. وفجأة قال لها بشكل لا يوحى أنه يأخذ رأيها:

ـ «سأرافقك الليلة إلى منزلك»

ـ «لم تزرنا منذ وقت بعيد، فأهلًا بك»

ـ «لكنك لم تسأليني: لماذا؟»

ـ «سؤالى هو: لماذا تأخرت هكذا؟»

ظن أنها فهمت مغزى زيارته فأعجبته فراستها، وقال لها:

ـ «كان يجب أن أتاخر حتى أرتب أمورًا كثيرة»

ـ «أى أمور تعطلك عن شلة الأنس الذين يسألون عنك»

وفورًا سحب إعجابه البكر بفراسة ليست موجودة عندها، واختار التوضيح:

ـ «أنا ذاهب هذه المرة إلى والدك لأخطبك منه»

تهلل وجهها، ثم ما لبث أن اكتسى بشيء لم يفهمه، ثم قالت له:

ـ «يمكننى أن أبلغك برأيه من الآن..»

ـ «أخشى إن يكون رأيه هو الرفض، حديثك يوحى بذلك»

ـ «سيقول لك إن ابنتى لا تدخل على ضره.. هو لا يرفضك، بل يرفض ضرتى»

ـ «خميسة»

ـ «هى أو غيرها.. المهم ألا أكون الزوجة الثانية..»

ـ «يبدو أن هذا يتمشى مع رأيك»

ـ «ويتمشى مع حالتى»

ـ «أى حالة»

ـ «حالة فتاة ساذجة ضحت بحبها الأول، ثم بعدة عرسان يطرقون بابها بإلحاح، وانتظرت فارسًا هى تثق أنه يحبها، وطال انتظارها حتى كاد أن يفوتها قطار الزواج وما زالت فى انتظاره وهى تراه يلهث خلف قطار المال، فتاة تركت مهنتها.. وخاصمت أهلها.. وعملت خادمة لسيدتين فى مقام جدتيه.. كل هذه تضحيات إن لم يضعها أبى فى الميزان، فيجب أن أضعها أنا»

ظل يتأملها وعلى فمه ابتسامة إعجاب، ثم تذكر خميسة:

ـ «هل تعرفين قصتى كاملة مع خميسة؟»

ـ «أعرف أنك خلقت من الفسيخ شربات»

ـ «ليس إلى هذه الدرجة»

ـ «لكنها لا تستحقك»

ـ «إذن، فأنت تغارين منها»

ـ «كنت سوف أغار منها لو أنجبت لك الولد»

ـ «اتفقنا أن نؤجل الإنجاب لما بعد تخرجها»

ـ «هذا إذا هى قررت ذلك، لكنها لم تفعل»

ـ «يبدو أنك تحاطين علمًا بشىء ما»

ـ «أعرف أنها تستجيب لنصائح أبيها»

ـ «هى تفعل عكس ما تقولينه، أبوها يحثها على أن تعود إلى البلد بدونى، رفضت، قاطعها، لم يسمح لها أن تزوره فى البلد بعد خروجه من السجن»

ـ «وهل كان سيفعل ذلك إذا أنجبتها؟»

ـ «لا أدرى.. ماذا تقصدين؟»

- «عندما علم بزواجكما نصحها ألا تنجب منك»

- «هل أمير أبلغك بذلك؟»

- «لا تهتم بمصدر المعلومة، اهتم بمدى صحتها..»

- «تقولين ذلك فى وقت صرت أقدرها فيه؛ لأنها لم تعبأ بأبيها الذى وضعنى فى مكان العدو الأول له»

- «هى لم تبعه لتشتريك.. هى تشترى مستقبلها»

- «هى وضعتنى مع مستقبلها فى صفقة واحدة»

- «أنا التى أفعل ذلك، لكنها بشهادتها ترنو إلى مدار آخر فى فلك أحلامها»

- «لقد أحبطت لها هذا الهدف»

- «تلك هى حساباتك، أما هى فلها حسابات أخرى»

- «إنها نصف حساباتى، أنت النصف الآخر، فليس هناك مانع أن أكون زوجًا لامرأتين»

- «لست مستعدة»

- «أوترفضيننى؟»

- «لست مستعدة أن أهجر أهلى بعقوق كالذى أنجزته خيسة بإمعان تحسد عليه»

- «أراك تعرجين على ذنب أنا الآخر أنجزه ببراعة، وكأنك تخشين أن نصبح ثلاثة أشلاء مبتورة من جسد الوفاق العائلى، هذا النوع من الوفاق فكرة بال عليها الزمن»

- «أأنت الذى يقول ذلك وأمامك نموذج لأختين تمسك كلٌّ منهما بيد الأخرى لتبعدها عن الموت وتبث فيه الحياة؟ حكمت وبشاير..»

- «كيف حالهما؟»

- «حكمت تروى كل صباح حلمًا جديدًا يزورها فيه شقيقها الذى غرق فى بوغاز إسطنبول، وبشاير تروى عن الزوج الوحيد الذى أحبته من ثلاثة أزواج مروا بها.. هو النبيل الذى مات، والباقيان زوجان من الطغاة مازالا على قيد الحياة..»

- «أخشى أن يكون قد دنا أجلهما»

ـ «ليستا على ما يرام.. جدد لهما الدواء.. أو استدع طبيبًا آخر»

ـ «هل مارى تزورهما؟»

ـ «آخر زيارتين لم تكن أنت موجودًا»

ـ «هل تتحدث مارى عن خميسة أمامك؟»

ـ «أنا التى أستدرجها للحصول على أخبار صديقتها»

ـ «إذن، فمصدراك هما: أمير ومارى.. كيف تلتقين مع أمير؟»

ـ «على التليفون.. أنا الذى أطلبه وأنت؟»

ـ «لا أطارد أخباره، فما دام استغنى عنى إذن فهو بخير ويمضى فى طريقه»

ـ «لا يمضى فقط فى طريقه.. بل طوى طريقه ووضعه فى جيبه»

ابستم السيد ابتسامة صفراء عبر عن عدم سعادته بما يسمعه، وتنهد بلا ارتياح، ثم عاد بها إلى بدء حديثهما:

ـ «حلّقِت بى بعيدًا.. فهل أفهم من هذا أن مشوارى إلى والدك لا جدوى منه»

ـ «جدواه مرهونة بوصولك عنده كرجل مطلق، وإلا فلا تلمه أو تلومنى»

ـ «لا تحملى همًّا.. إنها معركتى»

* * *

وأمام صديقتها المهندسة سوسن عبد الباقى أفضت خميسة عفيفى بآمالها وهى تقف حائرة بين زوج طاغ، وأب مجروح، ومستقبل غامض ظنت أنه سينجلى بعد نيلها لشهادة الحقوق. ثم انتهت إلى أن طلبت منها أن يجدد شقيقها حلمى مبادرته بإلحاقها للعمل بمكتب المحاماة الذى رشحها عنده.

ـ «ومن الذى سيدير المحل؟»

ـ «سأجبره أن يعيد فوزية إلى المحل ويحررها من حضنه إنقاذًا لوقتى»

ـ «تقولين إنه عنود»

ـ «وسوف أكون أكثر عنادًا.. إنها معركتى»

* * *

وفيما بينهما كانت الأذن الرادارية لعاملة المحل البدينة رجاء تتنصت على محادثة عرفت أن طرفها الآخر على التليفون المهندسة سوسن عبد الباقى زبونة المحل، وأن المقابلة التى تحددها غدًا بمحل جروبى سوف تكون بين سيدة المحل خميسة وهذا الرجل الذى اسمه حلمى عبد الباقى والذى ترى صورته فى مجلة تقرأها سيدتها أكثر من مرة فى اليوم الواحد.

وكان لابد لفوزية أن تثبت لفارسها المنتظر أن خميسة ـ بالفعل ـ لها حساباتها الأخرى. سارعت بتوجيهه إلى مكان اللقاء وفى وقته المحدد ليرى إلى أىّ حد هو مخطئ لظنه الساذج أن خميسة جعلته هو ومستقبلها فى حزمة واحدة..

ولم تدر فوزية سر هذا الهدوء الغارق فى الاستخفاف وقد كسا وجه السيد عكس ما توقعته.. وبكل هذا الهدوء عاد السيد إلى منزله مبكرًا على غير العادة ووجد نفسه وبلا قصد منه يزيد من جرعة لطفه الشديد مع زوجته وهما على مائدة العشاء، ثم تركها أمام التلفاز وخلا بنفسه مع كتاب فى غرفة النوم.. واكتشف أنه لم يكن يقرأ بقدر ما كان يتابع سيناريو يتشكل فى داخله لا يدرى كيف تنهمر عليه أحداثه.. وتذكر بعض ما سمعه من صديقه حشمت بركات من أحداث تقع فى كواليس الحكم والسياسة ولا تصل إلى أذان الناس. أحداث لا يبخل عليه بسردها شقيقه أشرف بركات، ومنها ما قاله له أخيرًا عن السبب الحقيقى لهزيمة يونيه الثقيلة، وهو سبب لو علمه الناس ما صدقوه ولازداد سخطهم على نظام وضع ثقته فى عبد الحكيم عامر وهو رجل موزع الخاطر والنفس بين مهامه الوطنية ومشاكله المنزلية، فمشاكله تفاقمت إثر إنجابه لمولود من زوجته الثانية وهى فنانة معروفة لم يعلن للناس زواجه منها. إلا أن هذه الزوجة التى وافقت أن يكون زواجها سرًّا أبت أن تكون أمومتها سرًّا آخر. وأصرت على إعلان كلا السرين معًا الزواج والإنجاب.. ولكن لماذا يحتدم النقاش فى هذا الأمر، وتتناثر شظاياه فى هذا الصباح بالذات.. صباح ٥ يونيو ١٩٦٧.. وهو صباح بدأ بصياح بينهما وهو يرتدى زيه العسكرى كاملًا ليلحق بالطائرة التى ستنقله إلى جنوده فى الجبهة.. ثم هو صباح انتهى بصياح فى أجهزة اللاسلكى إلى الدفاعات الأرضية أن تكف عن مواجهة الغارات الإسرائيلية بسبب طيارة المشير العالقة فى السماء والتى تأخرت عن موعدها المحدد فى

الإقلاع. ولكن، لماذا تأخرت طائرة المشير..؟ وبالأحرى لماذا تأخر المشير..؟

ولم يجب أحد عن هذا السؤال بما فى ذلك المشير نفسه الذى لا يمكنه أن يحيل صاحب السؤال إلى زوجته التى تسببت فى تأخيره، ثم تأخره الذى تسبب فى إرباك القوات والدفاعات، ثم كل هذه التداعيات التى أربكت أمة بأسرها.

ويتأمل السيد النحال شرارة صغيرة أشعلت النار فى قرية ما فأحرقتها بأكملها .. أليست هى نفس الشرارة التى تشعل النار فى قلبه الآن..؟.. زوجته تتعامل من خلف ظهرة مع رجل بعينه.. فما نوع التعامل؟. ..لا يهم .. ولكن من هو هذا الرجل..؟ إنه هو من هو ، رجل قريب من جمال عبد الناصر وقريب من الناس.. رجل اسمه معروف.. ومادام معروفًا فإن هذه الشرارة إذا جعلها تمسك بملابسه فلن تشعل به النار قدر ما تصب الأضواء على خصمه «السيد النحال» زوج السيدة التى ضبطها تجالس عشيقها فى جروبى «أليست هذه فرصتى؟»

ثم يتذكر مارواه له صديقه حشمت بركات من حادث عجيب وقع فى مملكة المشير عبد الحكيم عامر، وهو حادث مازال طى الكتمان ولم يصل خبره إلى الشعب، وقد لا يصل إلا بعد وقت طويل، عندما يسمح بتحريك السكاكين فى جثة المشير ورجاله.. ذلك أن أحد هؤلاء الرجال أثارت إعجابه فنانة تنتمى بالزواج لكاتب مشهور فقرر أن يتزوجها، هكذا كانت أمنياتهم بلا حدود .. فما المانع أن ترغب فى الزواج من امرأة متزوجة ما دمت رجلًا من رجال المشير؟... وما أسهل الحل عندما نجبر هذا الزوج أن يقوم بتطليق زوجته، وهذا ما حدث مع الكاتب المسكين، لكنه لم يكن مسكينًا للنهاية حين تمكن من الوصول إلى مكتب الرئيس جمال عبد الناصر وقدّم شكوى فضح فيها تصرفات رجال مكتب المشير وكيف خطف أحدهم زوجته.. وفتحت ملفات التحقيق..

ولم يعد السيد النحال يتذكر من هذا الحادث سوى النهاية المأساوية لهذا الزوج عندما نجا بحياته وهرب إلى لبنان اتقاء لبطش رجال المشير انتقامًا من شكواه لهم، وهنا قال النحال لنفسه:

ـ «إذن، فقد فضحهم عند الرئيس، ثم هرب، ما أشجعه من تصرف، ويالها من فرصة

أن أمسك بشرارتى المتاحة فأشعل منها حريقًا بطريقتى: رجل عبد الحكيم عامر قام بإجبار كاتب على تطليق زوجته. ورجل عبد الناصر يفعل نفس الشىء. الأول قبل النكسة والثانى بعدها.. فمتى تزول دولة الطغيان يا سيادة الرئيس؟»

ولما أطفأ نور الأباجورة لينام بعث إلى زوجته بهذا النداء:

ـ «خميسة.. تصبحى على خير»

* * *

وفى موعد الغداء تخفى فى نظارته السوداء، ووقف بعيدًا على الرصيف المقابل يراقب دخولها، وإلى أن قدما تباعًا ظل متمهلًا إلى حين تهدأ أعصابه ويهدآ فى جلستيهما.. تحرك بهدوء نحو كشك قريب واستخدم التليفون: «رجاء.. **اعطنى رقم بهيرة هانم بسرعة.. عندك فى دفتر التليفون.. بسرعة..»**

وراح يكتب الرقم..

وبعد قليل كانت بهيرة هانم تتلقى مكالمة من رجل لم يكشف عن نفسه، رجل يتحدث بوقاحة، وألم، وتهديد.

ـ «أعرف أنك مثلى نائمة على أذنك ومخدوعة، واثقة فى زوجك لأنه كاتب كبير وثورى سابق، وأستاذ زائر بكليات الحقوق وكنت مثلك أثق فى زوجتى، بدأ الشك يساورنى، إلى أن عرفت من هو عشيقها.. هما الآن أمامى، يتناجيان بمحل جروبى طلعت حرب، لن أفاجئهما إلا بوجودك تحركى يا أستاذه.. قد أقتله.. وأقتلها..»

ـ «الخائن.. سأحضر حالاً..»

وكانت هذه هى العبارة المقتضبة التى أطلقتها فى وجهه قبل أن تغلق الخط، وبعد نصف ساعة كان رواد محل جروبى فى هذا الوقت من الظهيرة يرفعون وجوههم عن أطباقهم وفناجينهم ليرقبوا حديثًا عاليًا بين رجلين وسيدة صغيرة أنيقة المظهر، فأشار زبون إلى أحد الرجلين قائلًا:

ـ «أليس هذا هو حلمى عبد الباقى؟..»

ثم يقول للآخر:

ـ «ماله هكذا يبدو متورطًا وهذا الشاب يعنفه وهو صامت»

ولم يمض طويل من الوقت حتى قدمت سيدة أخرى وجلست إلى المائدة الصاخبة بهدوء ثبت فيما بعد أنه هدوء ما قبل العاصفة.. وما إن تطاير صياحها هى الأخرى بعد قليل حتى فرغ الزبائن مما فى أيديهم وانصرفوا إلى مراقبة وقائع حادث صاخب أبطاله أربعة أطراف لمقص واحد تحركت النقمة.. زوجتان، وزوجان.. طرفان، كل طرف يمثل ذراعًا فى المقص أوله مقبض وآخره قاطع، وبدا من الرجلين أن كلًّا منهما يدافع عن كرامته بطريقته، وأن الأستاذ الوقور أخذ يتخلى عن وقاره ويكيل للشاب بعض اللعنات والشتائم ، والشاب الثائر يرد عليه بمثلها، كما بدا أن شتائم الأستاذ انقلبت إلى فعل فدفع الشاب بكلتا يديه حتى كاد أن يسقط، كما بدا أن الشاب توقف عن الإتيان برد مماثل نحو غريمه لكنه أتى بأعنف منه نحو زوجته فصفعها، وجاء ردها بأسرع مما توقع عندما فوجئ بكوب الماء يغمر وجهه وقول قاطع تطلقة قبل أن تنصرف:

ـ «أيها الساقط.. هل تظن أن كل الناس مثلك؟»

وكان للسيدة الثانية موقفها المكمل للأخرى التى انصرفت، فمن خلال غضبها وجهت لرجلها قولًا كان له أثره عند السيد النحال فى تبرير هجمته المقصودة، فما معنى قولها؟

ـ «الآن فهمت سرّ اهتمامك بها ومديحك لها.. فلتخجل من نفسك..»

وانصرفت بكل ما بها من توتر دون أن تلتفت حولها.

وعاد المكان إلى هدوئه الذى كان عليه عندما أسرع حلمى عبد الباقى للحاق بزوجته، وجلس السيد النحال فى مكانه لائذًا بالصمت، ثم أشعل سيجارة راح يدخنها بكل هدوء.



معركة من نوع نادر

بهيرة المطعونة لم تكن تعلم أن تليفون الظهيرة المزعج سيكون مقدمة لزحف هذا الإزعاج إلى عشها الهادئ، ولم تكن تعلم أنها عندما استجابت لهذا الدعوة ـ غير الكريمة ـ لضبط زوجها يجالس عشيقة مزعومة فى مكان ما أن هذه العشيقة هى نفسها السيدة خميسة عفيفى الحقوقية المتزوجة ذات الأخلاق الحميدة، وكان يمكنها أن تسخر من هذه الدعوة وتعنف صاحبها فيها لو كان لديها الاستعداد لذلك، ولكن لأن المُبلِّغ هو الزوج نفسه فقد بدا الأمر مثيرًا، أما ما كان يعشش بداخلها منذ زمن بعيد فهو الخوف والتوجس من القدر المجهول، القدر الذى حرمها من نعمة الإنجاب رغم الأمان الذى تنعم به مع رجل اختارها بحب فى أول طريق الزواج، ومع هذا فإن الخوف والتوجس لم يغادراها بنفس القدر الذى لم يغادرها فيه الشعور المحزن أنها شجرة تلقى بالظل ولا تمنح الثمار.

حزمت حقائبها وغادرت منزلها إلى أهلها.. وقالت لنفسها:

ـ «فلأضع النهايه بيدى، لقد أهاننى ورددت له الإهانة توبيخًا فى مكان عام.. هناك شىء ما قد انكسر ولا جدوى من محاولة إصلاحه»..

وتركت للخادمة رقم تليفونها لدى الأهل لتمنحه كل من يطلبها..

وانهالت عليها الاتصالات:

المهندسة سوسن:

«ماذا حدث يا طنط؟.. هل هذا معقول؟ أنا الذى رتبت لها هذا الموعد فى هذا المكان.. الأستاذ كان يشرع فى افتتاح مكتب يلحقها به.. كان لابد من لقائها مباشرة فى موضوع لا تعالجه التليفونات.. خميسة تركت منزلها هى الأخرى.. زوجها يهددها.. بل ويهدد الأستاذ..»

ثم اتصال آخر.. «حشمت بركات»:

ـ «كيف يصل بك الحال إلى هذا الحد؟.. الولد المجنون خرج عن حدوده.. يستشهد بك.. يهدد حلمي.. قفى بجانب زوجك يا هانم.. سأحاول لم الموضوع تمسكى بالهدوء.. الموضوع لا يستحق البكاء»

واتصال جديد: فايز فوده:

ـ «لم أصدق ما سمعت.. لا يمكن أن يعقد علاقة مع عامله كوافير؟ حتى لو كانت خريجة حقوق... كان يجب أن تتأكدى ولا تنساقى وراء هذا الولد المجنون.. الأستاذ هو الآخر غادر البيت.. يقيم عند سوسن.. اهدئى سنعالج الأمر..»

* * *

وانطلق السيد النحال إلى بنسيون السعادة:

ـ «مارى.. أين خميسة؟..»

ـ «ماذا بك.. تبدو متفجرًا.. ماذا حدث؟»

ـ «ضبطتها تخوننى.. هربت الفاجرة..»

ـ «تخونك؟... هل جننت؟.. لا تقل هذا عنها»

ـ «إذن، فأنت تسترين عليها.. سأفتش كل غرف الفندق..»

ـ «أنت فعلاً مجنون، سأستدعى الشرطة فورًا»

ثم انطلق إلى أمير فى شركته:

ـ «أين هى»

ـ «من؟»

ـ «خميسة»

ـ «أتبحث عن زوجتك هنا فى الشركة»

ـ «إذن هيا بنا إلى منزلك»

ـ «يبدو أنه أمر صحيح»

ـ «عم تتحدث»

ـ «إنك فعلا تبحث عنها.. ما الأمر أنا لم أفهم شيئًا»

ـ «ليس من المهم أن تفهم.. المهم، هل هى عندك؟»

وراح أمير يضرب كفًا بكفّ:

ـ «يبدو أنك قد جننت.. اجلس.. واهدأ حتى أفهم ما حدث..»

ـ «ليس عندى ما أقوله.. هل هى عندك ؟»

وأمام ما قرأه من حيرة حقيقية بدت فى وجه أخيه، ودهشة ليست مصطنعة وأنه لا يعلم شيئًا.. وقبل أن يتلقى منه إجابة سارع بالانصراف

ـ «أنت تعرف تليفونى، إذا جاءتك فاتصل بى.. وأحذرك من التستر عليها»

ثم انطلق تاركًا خلفه أميرًا وعلى فمه ابتسامة غامضة.

* * *

وفى المؤسسة طرق الباب ودخل فورًا قبل أن يُسمح له بالدخول:

ـ «حشمت بك؟.. سوف أقتل حلمى عبد الباقى»

تطلع إليه باستخفاف:

ـ «تقتله؟.. هكذا؟.. بكل بساطة.. لماذا؟..؟»

ـ «يخوننى مع زوجتى..»

وبكل برود قال له:

ـ «إذن، فهى التى تستحق القتل..»

ـ «المجرمة.. هربت..»

اعتدل حشمت بركات لأول مرة، وتطلع إليه:

ـ «اجلس و اهدأ.. اهدأ.. واحكِ لى ما حدث»

ولم يجلس.. ولم يحك له إنما صاح به:

ـ «وماذا سأحكى لك سوى خيبتى.. اسأل صاحبة الخيبة المماثله بهيرة هانم.. كانت معى عندما أمسكنا بهما»

وفى التليفون صاح بفايز فودة دون مقدمات:

ـ «صديقك وابن بلدك وضابط الثورة المجيد كان يستغفلنى ويعاشر زوجتى.. سأقتله.. سأقتله»

ـ «من؟.. السيد النحال؟.. تتحدث عن من يا سيد؟..»

ـ «صديقك الكاتب المفكر حلمى عبد الباقى..»

ـ «يعاشرها.. أين ضبطها؟»

ـ «فى محل جروبى..»

وكأنه ألقى بنكتة فراح يضحك فايز فودة بسخرية:

ـ «أتضحك؟.. والله لأجعلنه أضحوكتكم..»

وكانت طرقة السماعة.. هى المكملة لجملته.

وفى شارع السباق أسفل عمارة فايز فودة اختار أن يكمل تمثيليته التى يلعبها بوجع بدا لكل من قابلهم وهددهم أنه وجع حقيقى لرجل خانته زوجته.. ومن هناك تحدث مع عنتر مكاوى فى مكالمة طويلة ما إن انتهى منها حتى وقع عنتر فى بلاهة مفاجئة فملخص التعليمات هى:

ـ «احضر فورًا ومعك كيمو ورجاله تحت عمارة فايز فودة»

* * *

كان يتوقع أن يسارع حشمت بركات بالحضور لمقابلة فايز فودة للتباحث فى أمر هذه المشكلة.. ووجد أنه من الملائم لإثبات صحة تهديده أن يضبطه حشمت بركات متربصًا لحلمى عبد الباقى أسفل مسكن صديقهما فايز فودة

«هنا سيأخذون موضوع تهديدى موضع الجد، وهنا سأفرض كلمتى..»

ثم تساءل: «أى كلمة تود أن تفرضها يا بن النحال؟..»

وأجابة رجل غامض من داخل نفسه:

«لا يهم.. المهم أن تمضى قدمًا دون أن تهتم بما سوف يحدث، فى كل الأحوال هناك شىء ما سيكون لصالحك، ولا تبحث عن هذا الشىء من الآن»

لم يجد حشمت بركات رجلًا واحدًا بالفيلا يمكنه أن يسأله أين السيد؟.. توجس

خوفًا وهو يشهد هذا الخلاء المفاجئ لمكان كان يعج بالرجال.

«أين ذهبوا؟..»

وراح يبحث عن تفسير لما حدث عند صديقة فايز.

وعثر على ضالته فى مدخل العمارة بشارع السباق عندما وجدهم جميعًا هناك.. السيد النحال وعنتر مكاوى يجلسان فى المدخل، والخمسة العظماء مبعثرون على رصيفىْ الشارع.

- «ماذا عندك يا سيد، خير.. لم تجلسون هنا؟..»

قام السيد واقفًا واتجه نحوه باحترام وكسا وجهه ببعض الألم:

- «لا بد أن أتمكن منه.. لقد هرب من منزله»

- «وكل هؤلاء الرجال ما شأنهم بهذا الأمر؟»

- «إنهم رجالى، رفضوا التخلى عنى، قالوا إنهم سيخطفونه بأنفسهم؟»

ألقى بيمناه فوق كتفه وسار به قليلًا وأخذ يحدثه همسًا:

- «عندما تحدثت معى ظننتك أمسكت بهما فى غرفة نومك، ولكن فايز أبلغنى أنك شاهدتهما يجلسان فى مكان عام، هذه ليست خيانة، وأى خروج عن حد اللوم لحلمى أو خميسة يعتبر اعتداء غير مبرر سيضعك أمام القانون»

- «أى قانون يمنع رجلًا من أن ينتقم لشرفه؟»

- «أنت تفضح نفسك وزوجتك وتسىء إلى رجل فاضل، وأحذرك مما تفعله، إن لم تتصرف مع رجالك سأستدعى لكم الشرطة»

- «إلى هذا الحد تقفون مع الخائن؟»

- «ليس بخائن، وأحذرك مرة أخرى»

كانا قد وقفا أمام المصعد، الذى استدعاه حشمت، ثم استقله وصعد به دون كلمة واحدة.

وبعد دقائق قليلة هبط فايز فودة وقابل السيد النحال بوجه كله هلع:

- «ما الذى يقوله لى حشمت بك؟.. أتود أن تجعل من مسكنى ميدانًا لإجرامك؟.. ليس من المنتظر أن يحضر الأستاذ حلمى إلى هنا.. فلتبحث عنه فى مكان آخر»

ولجأ السيد النحال إلى ما لم يستطع اللجوء إلى فعله أمام ولى نعمته حشمت بركات،

فصاح في وجه محدثه فايز فودة:

ـ «إذن، فقد أبلغتموه بما أنوى عمله.. لن يفلت من أيدينا.. أنتم لا تعرفون شيئًا عن النار التى تأكل قلبى.. لن نتحرك من هنا..؟»

وعلى غير انتظار تقدم رجاله فاقتربوا من موقع الصياح، وافتتح «كله» الهجوم بالصياح في وجه فايز فودة الرجل الذى كان يتمتع بتخديمهم لجلساته وباحترام رجلهم.. واختلطت أصواتهم العالية حتى اجتمع حولهم المارة.

وكما فعل حشمت قام فايز باستقلال المصعد بشفتين مزمومتين ووجه محتقن، وبدا كأنه ينوى أمرًا، وعرف السيد بحاسته التآمرية أن الشرطة بلا شك ستأخذ طريقها إليهم بعد قليل، وبدلًا من أن يفر هاربًا ويفقد وقاره أمام رجاله ادعى أنه بحاجة إلى البحث عن غريمه بمكان آخر يمكنه أن يعثر عليه فيه:

ـ «تعال معى يا «كله».. عنتر.. كيمو.. لا تنصرفا من هنا حتى أرسل إليكم «كله» ليصرفكم.»

وسار في اتجاه ميدان روكسى بحذاء سور حديقة الميريلاند ومعه كله، وهو واثق أن رجاله سوف يقضون الليلة بالتخشيبة، وحتى يتأكد من حدوث ذلك دار دورة كاملة حول سور حديقة الميريلاند بأضلاعه الأربعة صامتًا لا يتحدث، متمهلًا في سيره عازفًا عن مبادلة «كله» بعض عباراته المهدئة إلى أن وصل من جديد حتى موقع العمارة، فقال لرجله:

ـ «أنا لا أرى عنتر وكيمو وباقى الرجال.. اذهب يا كله إلى الحارس.. فاسأله»

وقفز كله إلى الرصيف الآخر، وخرج مسرعًا بعد قليل من جوف العمارة بوجه ملتاع:

ـ «الحارس يقول إن الشرطة شحنتهم في البوكس ومضت بهم منذ دقائق»

ومضى في سيره دون أن يعلق، ولم يلتفت إلى هلع «كله»

لكن بعد حين خاطبه بهدوء:

ـ «كله.. أنا بحاجة إلى الاختفاء أسبوع أو أكثر، دلنى على مكان لا يعثر فيه أحد على، ستواصل أنت العمل مع فوزية حتى يخرج باقى الرجال من التحقيق، أريد أن أربك حسابات خصومى وأجعلهم يتخبطون.. في عقلى خطة أربطهم فيها جميعًا بحبل واحد، وأجعلهم أضحوكة وأنتقم لشرفى»

وبلا تردد خبط كله على صدره بيمناه بشهامة:

ـ «عندي.. مكانك عندي.. رسميه زوجتي كأنها أختك.. ستضعك في عيونها مثلي تمامًا»

* * *

ولم تتوقع رسمية أن يكون طارق بابها في منتصف النهار هو زوجها.. كما لم تتوقع أن يكون ضيفه الذى معه هو السيد النحال بشحمه ولحمه.. السيد الذي تسمع عنه حكايات كالخيال حتى بات ثالثهما هى وزوجها فى كل الأحاديث المروية.

هتف بها وهو يفسح له الطريق:

ـ «المعلم السيد أبو الرجال.. وولى نعمتنا.. ضيفك يا رسمية.. اتفضل يا معلم»

وفى الصالون الصغير أجلسه منعمًا بكل عبارات الترحيب، ثم خرج إلى زوجته بالصالة وأخذ بيدها إلى غرفة النوم وراح يسرد عليها تفاصيل مهمتها القادمة نحو ضيفهما العزيز.

وفى الصالون الخانق تحرر النحال من ربطة عنقه، وقد ألمت به صورة مشتهاة لجسد أنثوى ظالم ظهرت تضاريسه القويمة من تلك الغلالة الشفافة الرقيقة، أما وجهها الذى تحول إلى ابتسامة مشرقة فقد حنا عليه فى استدارته شعر همجى بعثرته فوضى الدعة والراحة بحضن المنزل.

«ما هذا..؟.. أيقتنى «كله» هذا القالب السماوى الساحر؟ أى عدالة فى توزيع النساء على الرجال بهذا الشكل؟»

وأقبلا عليه من الداخل.. رسمية بفوضاها الجميلة وابتسامتها الأجمل.. وكله يفرك كفيه فى حبور، واجهته رسمية بوجهها الضاحك قائلة:

ـ «إن لم تحملك الأرض لحملناك يا معلم على رءوسنا.. «كله» شرح لى كل شىء..»

ابتسم فى رزانة:

ـ «ستشهد شقتكم هذه إدارة معركة من نوع نادر.. معركة سأنازل فيها الكبار»

ثم دس يده فى جيبه وأخرج حفنة من بنكنوت أخضر:

ـ «كله.. من فضلك.. ابتع لى بيجامتين ونصف دستة من الغيارات .. وغداء هذا اليوم على حسابى أنت تعرف ما أحبه فى المشويات، وبالمرة هات أوراقًا وأقلامًا.»

والتقط، كلّه المال وهو يقاوم لعابه الذى أوشك أن يسيل.



٣٠ اقتحام عالم الكبار..

لم ينس السيد النحال واقعة الكاتب الذى استولى أحد رجال عبد الحكيم عامر على زوجته، وهى الواقعة التى وصل فيها صوت هذا الكاتب إلى جمال عبد الناصر بالشكوى من فساد هذه الحاشية، فقال لنفسه:

ـ «والآن.. آن لى أن يصل صوتى أنا الآخر إلى الزعيم.. فحلمى عبد الباقى ضابط الثورة، والكاتب المعروف، سرق زوجتى من خلف ظهرى ليجبرنى على تطليقها، وقد هددنى هذا الرجل صاحب الأهمية عندكم بالقتل.. ولهذا، فقد هربت بجلدى بعيدًا عن بطشه.. وهجرت أعمالى واختفيت بعيدًا إنقاذا لحياتى.. هربت وفى نيتى أن أكتب لكم بمأساتى كما فعل من قبل الكاتب محمد كامل حسن المحامى ووقفتم فى صفه.. إن مصر تعانى من إسرائيل التى اغتصبت أرضها، وصارت معاناتى مضاعفة؛ لأن وحشًا اغتصب منى زوجتى.. فهل يرضيكم هذا يا سيادة الرئيس؟..»

كان «كلة» يعود فى المساء محملًا بالأنباء ويدخل على أطراف أصابعه حتى لا يزعج معلمه، فقد عرف من زوجته رسمية أن ضيفهم المهذب يغلق غرفته على نفسه دائمًا ويتحرر من كل ملابسه عدا بنطال البيجامة هربًا من الحر، وأنها إذا أمدته بشاى أو قهوة يجعلها تقف طويلًا أمام الباب المغلق حتى يرتدى ملابسه.. هكذا وضعت يدها على مدى تأدبه، وهكذا أضاف كله على مزايا معلمه ميزة جديدة تزيد من عظمته عنده.. حتى إن الندم قد داخله للحظات وعاتب نفسه عندما ساوره القلق حول باب سيغلق وخلفه رجل غريب مع امرأته، وأنه مع دعوته الكريمة لعمل هذه الضيافة سلم بأنه لا حيلة له فيما لو أغواهما الشيطان فى غيبته، ووجد أنه فى حرج اتخاذ أى تصرف وقائى يبدو منه أنه

يخوّن معلمه، وقال لنفسه:

- «من الأشرف لك يا كُلّه أن تُخان، ولكن من العيب أن تُخوِّن»

وكانت عودة كله الليلية بمثابة عودة الحياة إلى رجل لم يجرب من قبل أن يسجن نفسه بين أربعة جدران، ولذا فقد كان يعيش النحال عبر تقرير كلّه التفصيلى كل ساعات اليوم بأثر رجعى، وقد تعلم كلّه أن يبدأ حديثه بالأهم ثم المهم ثم الأقل أهمية.

فعندما حدثه عن زيارة الرجل الكبير حشمت بركات للفيلا ليسأل عنه بوجه ملؤه أسى أتى.. كُلّه بتفاصيل ما رآه فى المكتب وهو يقدم الشاى لهذا الضيف أمام فوزية..

فقد حكى عن أحزان فوزية بسبب تردى صحة حكمت وبشاير، وقدمت له زجاجة الدواء التى انتهى ما بها ويجب جلب بديل لها.. فسأله السيد النحال بلهفة:

- «زجاجة سوداء..؟»

- «أجل.. كانت فارغة إلا قليلًا، ووضعها حشمت بك فى جيبه»

- «لماذا وضعها فى جيبه؟»

- «سمعتها تقول إنه دواء تركيب ليأتى بمثله..»

لعنها فى سره.. ووارى اضطراب مشاعره.. ثم واصل الاستماع إلى باقى أحداث هذا اليوم.. ثم رنا إلى كُلّه بعين فاحصَة:

- «ألم يكن يضاحكها وتضاحكه؟»

سرح كلّه قليلًا وعيناه مصوبة نحو السقف:

- «لا يا معلم.. الكذب خيبة.. فوزية جدعة.. وتحبك»

ألقى إليه بنظرة حازمة وهو يلقى إليه بأمر عجيب:

- «اسمع: سأرسلك بخطاب منى تسلمه لجمال عبد الناصر»

بحلق «كُلّه» فى وجه معلمه، وأخذه الذهول وهو يردد:

- « أتريد منى أن أقابل جمال عبد الناصر؟»

- « أجل..»

- «جمال عبد الناصر نفسه؟»

- «أجل..»

- «أنت متأكد؟»

- «لماذا تتعجب هكذا..؟ أتظن أنه لا يقابل الـ».. «أمثالك؟»

ضحك كله وهو يرنو إلى الباب المغلق عليهما:

- «أمثالى لا يسلمون مؤخراتهم إلا برغباتهم.. المصيبة فى قادته للذين اغتصبوا اغتصابًا..»

واستغرقا فى موجة من الضحك الملىء بالإسقاطات الجنسية التى حركت شبقًا كامنًا فى غريزة النحال المقموعة.. فتجسمت أمامه صورة مذهلة لمفاتن جسد رسمية.. الجسد الذى أمعن فيه النظر من ثقب الباب ساعة أن شمرت ملابسها وراحت تمسح بلاط الصالة. لحظتها عربد الشيطان فى داخله فأسكته على مضض، ولما استدارت وأصبح نصفها العارى فى متناول سهامه أطال فيه النظر وتملكه حسد مفاجئ لرجله المخنث: فكيف له أن ينعم بهذا الجسد المجنون؟.. كيف له أن يحتويه ويسبر غوره.

فى هذا اليوم أغمض عينيه، واستدار.. ونام غير قرير العين، ورغم نومه فقد انتبه لاستيقاظ حواسه الغافية.. ثم دارت بينه وبين شيطانه حوارات مراوغة:

- ««كلّة».. أعطاك الأمان.. لا تنس ذلك»

- «وأنا بادلته الأمان بالتعفف لأكسب ثقته وأشعل رغبتها.»

- «وإلى أين سينتهى بكما الحال؟»

- «ستتحرر من ملابسها أمامى عند أول إشارة من عقلى»

- «ومتى ستصدر إشارتك أيها المخادع؟»

- «وقت أن أقرر.. وقرارى مرتبط بفشلى فى قمعك أيها الشيطان»

أزاحته هواجسه بعيدًا عن بهجة المرح المتبادل بينه وبين «كله» ولم ينتبه لكل إبداعاته الفكاهية السافلة.. وتولاه شرود به شبق إثر تذكر حواره مع نفسه الشيطانية.. وهزه «كُلّه» كأنه يوقظه من النوم:

- «معلم سيد.. أين ذهبت؟»

ـ «إلى هناك..»

اخترع هذا الرد مسرعًا بعد انتباه مفاجئ:

ـ «هناك؟.. إلى أين؟»

ـ «مكتب جمال عبد الناصر فى منشية البكرى..»

ـ «إذن، الموضوع حقيقى.. لم تكن تتسلى بى..»

ـ «ستذهب إلى السكرتارية بنفسك وتسلمهم هذا الخطاب..»

ومد يديه إلى حفنة أوراق على منضدة بجواره وأخرج منها الخطاب الذى ما إن رآه كُلّه حتى صاح:

ـ «أخشى أن تزج بنا فى مصيبة.. لا تنس أنهم حكام.. حشمت بركات جمع كل رجالنا فى صندوق سيارة الشرطة خلال دقائق.. ولولا أننا كنا بعيدًا عنهم لشحنونا معهم..»

ـ «أنا الآن أشحنهم كلهم فى صندوق واحد أيضًا، وسترى نفسك»

ـ «وهل عبد الناصر لديه الوقت لمثل هذه الأمور؟»

ـ «الأمر لن يكلفه سوى تأشيرة صغيرة على الخطاب.. بعدها ستتحرك الدنيا»

سرح «كُلّه» قليلًا، فعاجله السيد النحال:

ـ «إنه مشوارك يا كُلّه لإنجاح مهمتى، غدًا فى الصباح تبدأ يومك بهذا المشوار..»

* * *

وكأنما أزاح حملًا ثقيلًا عن كاهله، ففكرة تشويه صورة حلمى عبد الباقى عند الرئيس كانت وسيلة لغاية لا يفهمها، ولكنه يحس بقيمة غالية لكل نتائجها المجهولة..، فهم قوم تظللهم الهزيمة، ويطاردهم التورط ويتحدثون عن الإصلاح وليس بأيديهم خطة: «ولذا فإن قرارات الإصلاح لا تعدو أن تكون مواقف عفوية بها عصبية.. سوف أنفذ منها إلى غايتى».

وفى الصباح خرج كُلّه مرتديًا أحلى ملابسه وبيده مظروف سميك ملفوف بورقة من صحيفة ليحقق أكثر المأموريات أهمية فى حياة سيده الممعن فى الكرم والدماثة..

والآن.. آن للسيد النحال أن يحتفل بنفسه.. ولا احتفال بالنفس فى هذا المربع الضيق

سوى بإيقاظ شيطانه النائم.. وهذا يستدعى إيقاظ رسمية التى لا يحس بتحركها قبل الضحى..

نقر على زجاج باب غرفتها بسبابته نقرًا خفيفًا.. ثم أدار الأكرة وأطل من الباب بهدوء وتلصص.. خلب لبه جسدها المستلقى فى أمان، المعلن عن مفاتنه فى ثقة، المبعثر الأطراف فى عفوية.. وراحت عيناه تنزلق من أعلى إلى أسفل وترسل إشارات الغزو القادم إلى مخه المذهول، وعندما وصل الإرسال إلى أسلحته الغافية.. استقام سلاحه وسال اللعاب.. خاف أن تصحو رسمية فتجده على هذا الحال فتعيب عليه ألا يشركها فى هذا التجهيز الواجب.. إغفال نصف القرار الذى تملكه.. ركع على ركبتيه وانحنى عند السرير ونقر على كتفها.. تقلبت وهى تتأوه وتتحدث بكلام غائم.. ناداها بصوت خافت.. لمحت وجهه يهتز كصورة تتثنى على صفحة ماء يترجرج.. أفاقت مضطربة، فتجمدت ملامحها وتصلب رأسها وصوبت نظراتها نحو سقف الحجرة كأنها تعيد تأمل ما شاهدته للتو. أمالت رأسها نحوه لتتأكد أنه هو.. أسرعت فغطت جسدها بالملاءة وهى تردد:

- «سأجهز لك الفطور.. يبدو أننى تأخرت عليك»

أراح كفه على نهدها القريب وضغطه وهو يبتسم: «أحلى فطور.. هو أنت..»

بحلقت فى وجهه، أبعدت كفه عن نهدها بهدوء.. سحبت جذعها إلى أعلى، وتأملته بدهشة:

- «أجئت لتفطر بى؟»

- «جائع.. ماذا أفعل؟»

- «كنت أقول لزوجى إنك شبعان وممتلئ العين»

- «مهما شبع الإنسان فمصيره الجوع»

- «ولكن طعامك فى منزلك..»

- «خميسة هجرتنى»

- «عندك فوزية»

- «لم تصبح حليلتى بعد»

ـ «وهل أنا حليلتك؟»

ـ «جنونى بك يجعلك عندى أكثر من هذا»

ـ «أنت تحتمى فى كلام كاذب»

ـ «ألا تصدقيننى»

ـ «كنت قبل الآن أصدقك، وأحترمك.. أما الآن فاخرج من غرفتى»

ـ «كل هذا لأنك لست جائعة مثلى»

ـ «قلت لك اخرج من غرفتى، واخجل من نفسك وأنت تسطو على شرف رجل آواك.. ويواجه الخطر من أجلك ومخلص لك. ألا تعلم أين هو الآن؟.. لماذا لم تقدم خطابك بنفسك للرئيس؟.. الآن عرفت أنك جبان.. لا تتصدى لمشاكلك بقدر ما تورط الناس بها..»

ـ «إذن، فهو يروى لك كل شىء..»

ـ «وأنا أيضًا..»

ـ «وسوف تبلغيه بما حدث اليوم»

ـ «إن لم تغادر منزلى غدًا فى الصباح سأطردك أمامه»

أصابه الخرس.. بصق على غبائه الذى أوهمه أنه أمام امرأة ميسورة.. تذكر خميسة التى دفعته فى صدره ذات ليلة مظلمة فى موقف كهذا كان هو فيه الطرف اللص..

أفاق على صوتها:

ـ «اذهب إلى غرفتك.. لو خالفت شرطى بالمغادرة غدًا فأنت المسئول عن نفسك.. أنت لم تجرب مهارة زوجى فى تمزيق أوجه الخونة بمشرطه الصغير الذى لا يفارقه..»



كائن : ملعبه السياسة ...

وخوفًا من تهديد رسمية بادر بالاستئذان من «كُلّه» مبديًا اعتقاده بعدم جدوى الاختباء أكثر من ذلك،

وفى فيلا الزيتون فوجئ الجميع بظهوره ومعهم «كُلّه» الذى سبقه إلى هناك.. تحلقوا حوله ولم ينفضوا إلا بعد وصول فوزية التى شهقت من الفرحة فتلقفها بين أحضانه.

قال لها: «لا تسأليني: أين كنت.؟»

واكتفى بهذا القول المقتضب، وأضافه إلى مجمل حالاته الغامضة.

وبعد أيام لاحظ أن «كُلّه» ليس كعادته فى النشاط والمداعبة فتوجس خوفًا أن تكون رسمية قد أحاطته علمًا بفعلته الشنعاء، وبدا له أن «كُلّه» يستعد لمفاتحته فقرر أن يبدأ هو بالهجوم كخير وسيله للدفاع.

ناداه.. أقبل إليه مهمومًا.. طلب منه أن يغلق الباب خلفه. ثم طلب منه الجلوس.. وما إن جلس حتى منحه ابتسامة واسعة:

ـ «قلت لى من قبل أن فوزية جدعة وتحبنى، كيف عرفت ذلك؟»

ـ «إنه أمر لا يحتاج إلى بحث..»

ـ «أم أنك اختبرتها بنفسك؟»

ـ «وكيف أختبرها بنفسى؟»

ـ «أن تكون قد حاولت استمالتها..»

ـ «وهل هذا معقول؟..أخون رجلى»

ـ «ليس على سبيل الخيانة.. ولكن من قبيل الاختبار..»

ـ «أول مره أسمع عن اختبار من هذا النوع..»

ـ «لا يا أستاذ.. هذا الاختبار مهم ومعمول به، وقد ظننتك قمت به مع فوزية.. فما كان منى إلا أن قمت به مع رسمية، وبالتالى فأنا أقول لك إنها أيضًا بنت جدعة وتحبك و ياليتك تقنعها أن تقبل العمل فى محل الكوافير عندى..»

لم يلتفت «كُلّه» إلى كلمات رجله الأخيرة.. والتفت إليه بحزم:

ـ «أفهم من هذا أنك عرضت على زوجتى أن تنام معها؟»

تلجلج السيد النحال وأسرع بارتداء ثياب الحزم والجدية:

ـ «ليس بهذا الشكل الفج.. هذه الأشياء يعوزها التلميح الذى قد لا تفهمه المرأة إلا إذا كانت راغبة»

ـ ظل كلّة على حزمه وطالعه بوجه جامد:

ـ «ولو افترضنا يا معلم أنها كانت راغبة، فهل كنت ستنام معها؟..»

سارع السيد النحال بامتشاق سيف الاحتجاج:

ـ «أنا؟.. أنا أنام معها؟.. لماذا؟.. إلى هذا الحد تسىء الظن بى؟ وأنا ما فعلت ذلك إلا لخدمتك؟»

ـ «خدمتى؟ أى خدمة يا معلم؟..»

ومع هذا السؤال الاستهجانى القصير انطلق السيد النحال يشرح لرجله مدى ما انشغل به حول حالته مع رسمية.. وكيف تأمل عدم إنجابها لطفل بعد خمس سنوات من الزواج، وكيف تكون المرأة فى هذه الحالة مستعدة أن تشترى أمومتها على حساب زيجتها، وقد تكون رسمية من هذا النوع من النساء.. ثم اعترف بصوت كله شجن أنه أخطأ عندما توهم أنها من الممكن أن تكون كذلك، ثم أوضح له أنه كان يمكنه الاحتفاظ بهذا الأمر ولا يفاتحه به، لكنه لم يفعل ذلك وطرح عليه ما حدث بكل حسن نية..

ظل «كُلّه» صامتًا وهو يفكر فى كل ما سمعه.. وبادله السيد النحال الصمت وهو يلعن غباءه للمرة الثانية. أما كلة فقد كان يتحدث داخل نفسه:

«كيف أثق أنه صادق؟ لابد أن أتقصى الأمر عند رسمية، ووالله يا بن النحال لأهدمن

الدنيا على رأسك إذا وجدتك خائنًا»

وقبل أن ينصرف قال له:

ـ «سآخذ إجازة لمدة أسبوع.. فاصرف لى خمسين جنيهًا»

وبصوت حنون سأله السيد:

ـ «مابك يا كلة؟.. أراك مهمومًا..»

ـ «لأنك لم تسألنى عن تفاصيل ما حدث معى فى مكتب الرئاسة، أنت أبعدت نفسك عن القلق وصدرته لى، أنا أعيش فى رعب..»

ـ «أمن أجل هذا تضع كل هذه التكشيرة على وجهك؟.. يا رجل..»

ثم لعن غباءه للمرة الثالثة.

* * *

قال « كُلّه» لرسمية بابتسامة مراوغة:

ـ «كان يجب أن أعرف منك نتيجة الامتحان»

فسألته: «أى امتحان؟»

أجابها: «الذى نجحت فيه»

سألته مداعبة: «هل أنا تلميذة؟... أم أنك تتعاطى أشياء ثقيلة هذه الأيام؟»

ـ «كنت تلميذه فى الامتحان الذى عقده لك المعلم السيد هنا فى المنزل»

فهمت رسمية للتو أن السيد النحال بنى جدارًا حائلا بينها وبين محاولة تشويه صورته أمام زوجها فى أىّ وقت، وأنه سبقها بحديث عن فعلته الشنعاء ولكن بمذاق يخفف من حقارته، ووظّف الموقف لصالحه، ومن ثم لصالحها..

«إنه فى النهاية رجل يحرك الشيطان، لا يحركه الشيطان..»

سارعت فوافقته على صحة ما أسماه صاحبه امتحانًا دون أن يبدو عليها أثر للانزعاج، لكنها قررت أن تدخل بزوجها فى شأن آخر:

ـ «على كل حال كانت هذه فكرة عبيطة لا تليق بمقداره.. ولكن ما يهمنى هو أن نتصرف فى هذه المصيبة التى جرّنا إليها.. فما قلته لى عن الحصار الذى وضعوك فيه بمكتب

الرئاسة يؤكد أنهم لن يتركوك وسيقتلعوك من منزلك فى أىّ وقت»

قال لها مطمئنًا:

ـ «اطمئنى.. سنحصل على مسكن آخر، أعطانى المعلم السيد خمسين جنيهًا اليوم»

سألته مندهشة: «خمسين جنيهًا مرة واحدة.. هل وافقك على الانتقال لمسكن جديد؟»

أجابها: «لم أخبره بذلك.. وسيظل سرًّا لن أطلعه عليه»

تنهدت فى استسلام، وقالت:

ـ «لا بأس.. وإن كان من المؤكد أنهم إذا أرادوك سيعثرون عليك، ما أقصده هو أن تحمى نفسك من الآن.. الرجل حشمت بركات هذا سجن كل زملائك فى دقيقة حماية لصديقه. حلمى عبد الباقى، ولهذا فإن حشمت بركات يجب أن يعلم أنك لا تشارك النحال مؤامراته، وأنك مجرد بوسطجى تحمل له الخطابات بما فيها خطابه للرئيس حتى إذا وقعت الواقعة يمكنك أن تتخذه شاهدًا وحاميًا»

أدهشته الفكرة، وأبدى إعجابه بها واعترف لها بندمه على ما أقدم عليه من حمل رسالة النحال إلى مكتب الرئاسة، وأنه من اللائق فعلًا إطلاع حشمت بركات على موقفه، وسوف يكون عدم القبض عليه مع باقى الشلة شيئًا فى صالحه، صحيح أنهم قضوا فى الحجز ليلة واحدة ووجدوا أنفسهم يوقعون محضرًا بعدم التعرض لفايز فودة ـ وليس لحلمى عبد الباقى ـ لكنهم أدركوا مدى ما يمكن أن يقوم به حشمت بركات هذا من تسوية للأمور أو قلبٍ لها ..

ـ «أنا أعرف منزله.. سأنتظره هناك.. لن أقابله فى المكتب حتى لا يرانى أحد»

* * *

وبعدما استمع حشمت بركات لكلّ مخاوف «كُلّه» ذلك الولد الذى لا يرتاح إلى شكله وتكوينه وطريقته الناعسة فى التحدث تفحصه بارتياب:

ـ «وكم أعطاك السيد النحال حتى تؤدى هذه التمثيلية أمامى؟»

خبط كُلّه براحته على صدره: «والله ياباشا ما هذه بتمثيلية.. وحتى تصدقنى يمكننى أن أصف لك مكتب السكرتارية فى الرئاسة»

وبنظرة ارتياب سأله حشمت بركات مرة أخرى:

ـ «أتريدنى أن أصدق أنك سلمت خطابًا من معلمك إلى مكتب السيد الرئيس»

ـ «يا فندم أنا لا أكذب، أنا ما جئت إلا لأحتمى بك، معلمى السيد النحال ورطنى»

اعتدل حشمت فى وقفته أمام منزله، وقال لكلة مسرعًا:

ـ «اسبقنى على مكتبى.. أنت تعرفه»

ـ «أعذرنى يا باشا.. أنا ما جئتك هنا إلا هربًا من مقابلة المكتب حتى لا يرانى أحد ويبلغ المعلم السيد»

أيقن حشمت بركات أن محدثه لا يكذب، فازداد اعتداله وهتف:

ـ «يا ولاد الكاااالب.. جمال عبد الناصر مرة واحدة.. الله يخرب بيوتكم»

ولم يكن «كُلّه» بحاجة إلى قراءة الهلع الذى وثب فجأة فاحتل ملامح هذا الرجل الكبير، ولا يدرى لم راق له أن يزيده هلعًا باستخدام بعض الأسرار التى كان النحال يرويها له فى منزله:

ـ «يا فندم المعلم السيد ليس بالرجل السهل، لقد كتب كلامًا كثيرًا فى الخطاب الثقيل الذى أرسله للرئيس»

ـ «هل تعرف ما الذى كتبه؟»

ـ «كتب عن رجل محامٍ خطفوا زوجته وعذبوه..»

ـ «من هؤلاء الذين خطفوا زوجته؟»

ـ «رجال عبد الحكيم عامر، وقال فى خطابه للرئيس أن حلمى بك خطف خميسة وهرب»

ـ «أنت متأكد يا ولد.. أين السيد النحال الآن؟»

ـ «خرج من عندى أمس..»

ـ «هل كان مختفيًا عندك ؟»

ـ «أجل يا فندم»

ـ «لماذا؟»

- «كان يدبر لقتل حلمى بك، لكنه لم يعثر عليه، ولم يعثر على خميسة فجن جنونه، وقال سأهدم الدنيا عليهم، وذكر فى خطابه أشياء قلت له لا تكتبها لكنه رفض»

- «أى أشياء..؟»

- «السهرات.. والحشيش.. والنساء»

- «نساء.. أى نساء؟»

- «نساء محل الكوافير.. لا أدرى ما الذى يقصده بذلك؟»

أطرق حشمت بركات وهو يفكر:

- «المعلومات صحيحة.. حلمى ترك شقته.. ونجلاء أيضًا، وبهيرة كذلك.. إذن، فقد كنت أصادق مجرمًا.. فالولد ما زال يحاول النيل من حلمى.. ولكن ما الذى يقصده هذا الكلب من إرسال خطاب للرئيس؟»

* * *

أسرع حشمت بركات إلى أخيه أشرف وهو شارد الفكر وراح يبحث لنفسه عن مدخل للحديث.. فكيف يعرض عليه هذا الأمر المخجل حتى يتمكن من حجب هذا الخطاب ومنع وصوله إلى الرئيس؟.. إن ذلك سيستدعى ذكر كل ما جاء فى الخطاب.. والكلام المكتوب سوف يدينه وأقل ما سوف يدان به أنه يثرثر ويفشى أسرارًا كان يخصه بها أشرف. فقصة زوجة الكاتب الشهير مع أحد رجال المشير ما زالت منعقدة فى سماء السلطة ولم تصل بعد إلى العامة.. فكيف عرفها النحال ليكتبها؟..

بدأ فرسم له صورة لولد ريفى يلعب بالبيضة والحجر.. ولد لا يمكن للمرء أن يستمر ساعة كاملة فى احتقاره فقبل مرور هذه الساعة يمكن لهذا الاحتقار أن ينقلب إلى إعجاب.. ولد يمكنه أن يقرأ ما تفكر فيه.. ثم يمنحك الوسيلة السهلة لقراءته.. ومع ذلك، فهو عميق القرار لا يمكن للمرء أن يصل إلى قاعه إلا بحفارات لم يخترعها علم النفس حتى الآن.. ولد يتحول التراب إلى تبر بين يديه.. يكسب من كل شىء.. ويكسب كل شىء.. يتحالف مع الشيطان.. ويجيد استخدام رجاله كلٌّ فى موقعه.. اختار كل رجاله من المجرمين الموغلين فى الإجرام.. يعيد توظيفهم فى نوع من الإجرام الأنيق.. هو

نفسه أنيق من أصل وضيع.. وضع سدًا منيعًا بينه وبين ماضيه وماضى أسرته فنسيها تمامًا.. مزاجه عال فى حب المأكل والملبس والمكيفات.. يغدق على من حوله بكرم ظاهر، ثم يكتشف المكرّم أنه وقع فى مأزق إطعام الفم مقابل استحياء العين، ومع ذلك يستمر فى نيل هذا الكرم..

تذوق أشرف بركات طعم شفتيه بحركة آلية، وهتف بصوت عميق:

ـ «أنت تصف لى شخصية رجل سياسى نال تعليمه العالى فى جامعة عالية كجامعة هارفارد يا حشمت.. ما الشهادة التى يحملها هذا الرجل؟»

ـ «لن تصدق.. دبلوم صنايع.. لكنه قارئ ومثقف، ويكتب الشعر الذى يحتفظ به لنفسه»

ـ «يا خسارة.. لو كان جامعيًّا لاستفدنا به.. كائن بمثل هذه المواصفات لا ملعب له سوى ملعب السياسة.. من المؤكد أنه نفس الشخص الذى يمدك بأصنافى المحببة»

ـ «هو نفسه..»

ـ «لكنك حريص طبعًا ألا يعلم أنها لى..»

ـ «لم يعرف منى بالطبع.. لكنه لا يخفى عليه أىّ شىء.. فكلما أتحفنى بقطعة منتقاة من صنف جديد يقول لى مداعبًا»: «هذه ستعجب البشوات الكبار.. فأفهم أنه يقصدك..»

ـ «هذا ولد خطير.. لكنه من الشخصيات التى تعجبنى.. احرص عليه يا حشمت.. واحترس منه..»

ـ «من أجل هذا جئتك.. لقد وضعنا هذا الكلب فى مأزق»

وأمام كلمة «وضعنا» اعتدل أشرف بركات فى جلسته، وعرف أنه كان يتلقى تقريرًا مدهشًا عن شخص يتسم بالخطورة.. لأن هذه الخطورة قد طالتهما معًا، فهتف بأخيه الأكبر:

ـ «أى مأزق تقصده؟»

وبدأ حشمت فى سرد قصص عديدة بدأها بأرض الزيتون وصاحبتيها حكمت وبشاير، ثم ما اكتشفه من دس سم الزرنيخ لهما.. ثم بقصة السيد وخميسة.. ثم السيد

وفوزية.. وحلمى عبد الباقى وخميسة.. ثم تحرش السيد ورجاله بحلمى عبد الباقى.. ثم بخطاب خطير كتبه النحال إلى الرئيس.. ثم ما جاء بداخل الخطاب من معلومات قد تفتح النار عليهما..

واشتعل الغليون عدة مرات مواكبًا لاشتعال ذائقة الاستماع والتلقى عند أشرف بركات الذى همهم استغرابًا وهو يعرف لأول مرة أن حلمى عبد الباقى يخون بهيرة.. ثم زام كالأسد عندما وصل حشمت بحكايته إلى نقطة الخطاب الذى وصل إلى مكتب الرئيس.. ثم بدا عليه الضيق وهو يستمع إلى ما كتبه «هذا الولد» إلى الرئيس عن حكاية رجل المشير وزوجة الكاتب..

لاذ بعد ذلك بصمت طويل.. ثم هز رأسه ممعنًا النظر فى عين أخيه:

ـ «لكنك يا حشمت تلقى جزافًا بأسرار تسمعها منى.. وكنت أظن أننى ألقى بها فى جب عميق..»

ثم صمت قليلًا، وتوجه إليه بوجه صارم:

ـ «وما دمت تلقى هكذا بأسرارنا وتمنحها مجانًا لمجالسيك، فما أدرانى أن تكون حكاية مندوب اليونسكو قد وصلت هى الأخرى إليهم كقصة زوجة محمد كامل؟»

ـ «لا.. لا يا أشرف.. هل هذا يجوز.. ليس بمعقول طبعًا»

وكان حشمت صادقًا فى قوله، فهو لم ولن يقص لأحد حكاية المهمة التى كلفه بها أشرف باستقبال موظف أمريكى من أصل إفريقى يتحدث العربية ويعمل بوكالة الفاو التابعة لليونسكو..

فالوكالة تبرعت بصفقة أغذية هدية للجمعيات التعاونية.. وستتولى مؤسسة النقل التى يديرها حشمت توزيعها على هذه الجمعيات.. وسوف يتولى حشمت مقابلة المندوب وإحضاره إلى أحد رجالات الحكومة لتلقى خطاب شكر إلى الوكالة من الحكومة المصرية لهذه المبادرة الطيبة.. وهذا ما قام به حشمت بكل دقة وأوصل المندوب إلى مكتب أخيه أشرف.. لكنه احتفظ لنفسه بعدم قناعته بكل هذه المنحنيات التى كان من الممكن أن تتفاداها مركبة بريئة فى طريق قويم.. ذلك أن هذا المندوب الأسود ظهر عدة مرات فى

مكتب أخيه.. ثم ظهر فى حديقة قصره.. أيضًا عدة مرات..

- «**إذن، فالمركبة ليست بريئة.. والطريق ليس قويًا.. وماذا يعنى هذا.. هل أشرف على اتصال بالأمريكان؟..**»

وانشغل كلٌّ منهما عن الآخر بالصمت.. أشرف يحاول التعرف على ما سوف يقوله للرئيس حول هذا الخطاب المزعج لعلمه أن جمال عبد الناصر يقرأ كل كلمة فى كل سطر بأى ورقة تعرض عليه، وحشمت يتخيل مكانه الجديد فيما لو أطيح به عقابًا له، واقشعر بدنه وهو يتخيل نفسه بلا مكان.. إذن، فسوف يصبح بلا مكانة.. فهو ما علا شأنه إلا بارتفاع المياه فى جدوله الصغير امتلاء من بحر أخيه الذى يحدثه الآن:

- «**اسمع.. لا تتصل بهذا الولد.. ركز على موضوع الزرنيخ وابحث عن مساليه الأخرى.. لن تتمكن منه إلا بحصاره.. ومن ناحيتى سوف ألحق بسامى شرف قبل أن يعرض الخطاب فى بوستة جمال.. وسأعرض أن أقوم بتسوية الأمر بنفسى بعيدًا عن الرئيس.. وإلا فسوف نصطدم بمتاعب فى الطريق.. اذهب لترتاح.. احتفظ بهدوء أعصابك حتى تخرج أفكارك سليمة.. تصبح على خير**»



أنت ضائع مثلي

تعمد أشرف بركات أن يوحي لسامي شرف ـ مدير مكتب جمال عبد الناصر ـ أنه لا يقل عن هيكل علمًا ببواطن الأمور، فقال له هامسًا وهما على أهبة الاستعداد لمقابلة جمال عبد الناصر تباعًا:

ـ «ماذا فعلت في موضوع حلمي عبد الباقي؟»

فحصه سامي بعين مدربة: «حلمي؟.. أي موضوع؟»

ولأنه يفهم سامي شرف جيدًا، فقد باع له ما عنده دفعة واحدة:

ـ «حلمي يا سامي ليس له إلا موضوع واحد.. فلا تعرضه على سيادة الرئيس.. الرجل لا يمكنه تحمل نزواتنا فوق ما يتحمله من أخطائنا..»

ـ «إذن، فالموضوع منتشر.. ما دام قد وصلك بهذه السرعة»

كتم أشرف بركات غيظه.. فهذه عبارة مسيئة:

ـ «الموضوع محدود، وفي قبضة يدي.. الولد زوج المرأة.. يتحرش بحلمي ويحاول النيل منه، نريد أن تطفئ هذه الشرارة قبل أن تستفحل..»

ـ «أإلى هذا الحد؟»

ـ «ططظ في حلمي يا سامي، وزوجته بهيرة، البلد فيها ما يكفيها»

ـ «عمومًا تحرياتنا أوشكت على النهاية.. وتعجبنا أن بهيرة تمسكت بالطلاق وحصلت عليه.. العجيب أننا وجدنا حشمت يزور البنت خطيبة هذا الولد.. ما علاقته بالموضوع؟»

ـ «ألم أقل لك إن الموضوع في قبضة يدي.؟ استطعنا كبح جماح هذا الولد عن طريق

خطيبته بمعاونة حشمت»

ـ «هذا شيء طيب.. بماذا تأمرنى سعادتك؟»

ـ «الأمر لله يا سامى.. أعطنى خطاب هذا الولد.. واترك لى الموضوع لأعالجه بنفسى.. الولد سأحضره إلى هنا للتنازل عن شكواه بعد حل الموضوع»

* * *

لم يملك حشمت بركات سوى أن يلعن «المخنث «كُلّه» فى سره عندما أبلغه أشرف أن خطاب «هذا الولد المعقد» لم يأت على ذكره بأى حال من الأحوال، ولما تهلل صوته فى التليفون ذكّره أشرف أن القضية لم تنته بعد، وأنه تعهد لمكتب الرئاسة بحل المشكلة بين الطرفين.

ـ «لذلك أريدك أن تحضر لى هذا الولد يا حشمت.. أقل ما يمكن تقديمه هو محضر مصالحة بينه وبين زوجته.. مما ينفى ادعاءه بخيانتها له، ومن ثم تبرئة حلمى..»

* * *

وبينما كان يدخن غليونه بهدوء فى حديقة قصره برز حشمت عند مشارف الحديقة قادمًا وبجواره شاب طويل رشيق يختال فى بدلة أنيقة، نهض فصافحهما، ولما جلسا نظر حشمت فى ساعته:

ـ «أمامنا أقل من ساعتين على موعد صلاة الجمعة»

وظل أشرف مشغولًا بالتمعن فى وجه السيد النحال وعلى فمه ابتسامة:

ـ «بدلتك أنيقة يا سيد.. أين تفصّل هذه البدل؟»

تنحنح السيد ورفع رأسه قليلًا:

ـ «ترزى فى شارع عبد العزيز.. أبى عرّفنى عليه»

ابتسم أشرف بركات بخبث خفى، ثم عاود سؤاله:

ـ «وربطة العنق الأنيقة هذه.. من أين اشتريتها؟»

ـ «من غزة.. تاجر شنطة أعرفه»

قهقه أشرف: **«وقد ضاعت غزة يا بطل.. فكيف ستتصرف يا مسكين؟»**

ـ «بإذن الله غزة ستعود على أيديكم يا فندم»

وبدا أن أشرف بركات عثر على مدخله المناسب، فاعتدل فى مواجهته:

ـ «اسمع: عندى فكرة..»

ـ «تفضل يا فندم»

ـ «أعد زوجتك إلى منزلك.. واترك لنا مسألة إعادة غزة..»

ـ «هى التى هربت خوفًا من انتقامى، فكيف أعيد خائنة»

ـ «هى لم تخنك ، أنت تلعب لعبة خطيرة وغامضة، فراجع نفسك»

ـ «هل هناك من يفضح نفسه بالباطل»

ـ «أجل، أنت، أنت تفعل ذلك؟»

ـ «لا تظلمنى يا باشا.. كفى ما أنا به من عذاب»

ـ «لست معذبًا.. أنت معِّذب.. تسعد بعذاب الآخرين وتعذيبهم، أنت «سيكوباتى»..

ـ «تقصد سعادتك أننى معقد نفسيًّا»

ـ «وعدوانى.. وتكره المجتمع.. ولا تعرف الشفقة ولا الرحمة.. وتتنفس كذبًا.. من هو أبوك الذى يفصل بدلة فى شارع عبد العزيز؟ أبوك المسكين الكلاف الذى لا يملك إلا جلبابًا واحدًا.. أرأيت إلى أىّ حد وصلت بك البجاحة أن تستخف بعقلى.. ألم تفكر مرة واحدة فى أننا قد تحرينا كل أخبارك وماضيك.؟ هل تظن أن اتصالك بمكتب سيادة الرئيس واتهامك لبطل من أبطال الثورة سيمر هكذا دون أن نعرف من أنت؟. ماذا فعلت بحكمت وبشاير؟ هل أوراق الأرض والفيلا التى معك سليمة؟»

كان الغليون قد انطفأ، فتوقف أشرف بركات لتنظيفه وحشوه وإشعاله وهو متهدج الأنفاس وأخذ يستعد لمواصلة حديثه فرفع السيد النحال كفيه أمامه متضرعًا:

ـ «أرجوك يا فندم.. لا ترهق نفسك بالحديث ثانية.. أنا مخطئ.. كل ما قلته سيادتكم صحيح.. وكل ما سوف تقوله أيضًا صحيح.. أنا تحت أمرك.. و..»

قاطعه أشرف بركات بالوقوف، ويمم وجهه شطر مدخل القصر:

ـ «إذن أسرع بمصالحة زوجتك.. حشمت سيدلك على مكانها.. حرر ورقة صلح

بينكما (ثم يمم وجهه نحو حشمت) هذه الورقة تكون غدًا عندى يا حشمت بك.. لا تجعله يفلت من يدك..»

* * *

ما إن جلس بجوار صديقه الكبير حشمت بركات فى سيارته حتى بادره حشمت قائلًا:

ـ «كل هذا يطلع منك يا سيد.. أنت من دواهى الزمن يا رجل»

رمقه السيد النحال بغيظ: «أين زوجتى؟»

ـ «سآتيك بها عند توقيع ورقة الصلح»

ـ «ومن قال لكما إن أبى كلاف.. كيف اخترقتم رجالى؟»

ـ «كنت أظن أنى أعرفك.. ولكن ما أعجبنى فيك أنك لم تسئ إلىّ أو إلى أخى فى خطابك اللقيط إلى الرئيس»

ـ «هذا إذا اعتبرت أن خطابى هذا إلى الرئيس هو الأول والأخير»

حملق فيه حشمت بركات بدهشة: «ماذا تقصد بقولك هذا؟»

ـ «هناك خمسة رجال أنت تعرفهم وقعوا تحت التعذيب بأوامرك.. سوف يلقون بأنفسهم مضرجين بالدماء فوق رصيف مكتب الرئاسة غدًا، هذا هو خطابى الفعلى إلى الرئيس فوفر إعجابك بى..»

ـ «هكذا؟»

ـ «ليس لدى ما أخسره»

ـ «أنت تلعب بالنار، وستحرق نفسك»

ـ «النار لعبتى»

ـ «أنت لا تدرى فى يدى من أوقعك قدرك..»

ـ «عندما شاهدته عرفت أنه هو.. أنور السادات»

ـ «إنه أشرف بركات..»

ـ «إنه هما.. معًا»

ـ «سيصيبك الدوار»

ـ «دوامة الدوار.. مركزها عندى..»

ـ «أنت نرجسى مغرور..»

ـ «ومعقد نفسيًّا كما وصفنى»

ـ «تتبعنا جرائمك.. وسنعرف ما خفى منها..»

ـ «الجريمة التى أحلم بها لم تأت بعد»

ـ «كنت سأساعدك»

ـ «أنت لا تساعد إلا من يحمل الأشياء الخفيفة»

ـ «خميسة كسبت كثيرًا عندما قررت ألا تنجب منك»

ـ «خميسة أساءت للبشرية عندما فعلت ذلك.. كان يمكنها أن تجد لروحى مأوى بطفل صغير»

ـ «ولذلك لن يأتى للدنيا إلا ليكتب أغانى حزينة مثل أغانيك»

ـ «هذا إذا وجد البؤس فى انتظاره.. كنت سأحيطه بسعادة لا تنفد»

ـ «السعادة المسروقة مصيرها الزوال»

ـ «أرتب نفسى على خسارتها، وأستعد لأكسب سعادة أخرى بديلة»

ـ «كيف ترتب لخسارة ومكسب فى وقت واحد أيها الفيلسوف؟»

ـ «أهيئ اليوم ما سوف أدمره غدًا»

ـ «أنت ضائع»

ـ «ما نحن سوى مجموعة من الضائعين.. ألست أنت ضائع مثلى؟»

أصر حشمت بركات على أسنانه.. وقرر أن يطوى صفحة هذا الحوار المراوغ وينهى اللقاء بأقل قدر من ماء الوجه المراق، فقال له:

ـ «لا تتعدى حدود الأدب، انصرف الآن وتوقف عن خططك الكيدية.. سأكون جاهزًا لملاقاتك إذا طلبتنى»

وركن حشمت سيارته إيذانًا بدعوته إلى النزول.. فقال له السيد النحال وهو يفتح

الباب :

ـ «أعرف أنك سوف تعود إليه الآن لتخبره أننى تلاعبت بكما.. وتأخذ منه الأوامر بشأني.. الأوامر التى من شأنها قمعى وإذلالى والسطو على إرادتى، وكلها قيود لن أضعها فى يدى برغبتكما أو رغم أنفى، جرابى ملىء.. فأنت أول من اعترف بصحة أوراق ملكيتى لأرض وفيلا الزيتون ووافقت على تغيير عقد الإيجار باسمى.. وموضوع الزرنيخ هذا من اختراعك ولا شأن لى به.. أحد رجالى شاهدك وأنت تعطى الزجاجة لفوزية..»

دقق حشمت بركات النظر فى وجهه:

ـ «أنت تجهز نفسك للعب على المكشوف»

ـ «وجهزوا أنفسكم لذلك.. لن أصالح خميسة.. وسأنتقم من حلمى عبد الباقى.. وسأتخلص ممن تعاون معكما.. وسأعرف بنفسى أين اختفت زوجتى الخائنة.. هذه معركتى.. ولن أخسرها..»

ألقى حشمت بركات برأسه على مقود السيارة غارقًا فى التفكير.. وما إن رفعها بعد حين ليقول كلمته الأخيرة حتى وجده اختفى، بحث عنه بنظراته القلقة فى صفحة الشارع.. لم يجده.. عاد إلى نفسه.. وتحرك بالسيارة ولكن.. إلى الخلف..



نقمة جميلة.. ونعمة سيئة

قبل أن يتهيأ للوضوء والخروج إلى صلاة الجمعة، قالوا له إن حشمت بك عاد إلى القصر.. فأسرع أشرف بركات للقائه.. وفور مقابلته هتف به حشمت:

- «الكلب لعب بنا.. ولحس وعده قبل أن يغادر بوابة القصر..»

ابتسم أشرف فى مرارة وتعجب ودعاه إلى الجلوس:

- «احك لى بالتفصيل ما حدث.. واذكر لى كلّ كلمة قالها لك..»

وانبرى حشمت لسرد كل التفاصيل فسردها.. ونال أشرف فرصته كاملة فى الاستماع بهدوء كعادته.. إلى أن لاحت على محياه ابتسامة من نوع آخر مع نهاية حديث أخيه، وقال له:

- «هذا الولد لن يرتاح إلا إذا وجدنا له الأمان»

- «رجل لا يعطى الأمان، فكيف نجده له؟.»

- «أن نمسك له بروحه التائهة التى قال لك عنها»

- «وأين نجدها هذه الروح؟.»

- «إنها رحلة البحث التى خاضتها إيزيس بحثًا عن أوزوريس»

بان الضيق على وجه حشمت، فهتف بأخيه:

- «إيزيس؟.. وأوزوريس؟.. هذا الصعلوك لا يعرف هذه الألغاز، ولا شأن له بها..»

لاحقه أشرف:

- «إذن، فأنت لا تعرفه.. هذا الذى تعتقد أنه صعلوك هو رجل مملوء بقدرات عالية.. العجيب أنه لا يعرفها، لكنه يحس بها. رجل يسلك طريقه فى الحياة بتناقض من يلعن

الواقع ثم يستثمره، يبحث عن المجهول ليجعله واقعًا. كان بإمكان الشعر أن يشفيه، ولكن الشعر لا يشفى الشياطين..»

ـ «وما الذى سيشفى هذا الشيطان؟»

ـ «السياسة.. المخاطرة، والمقامرة، والسعى إلى الانتحار»

ومضى أشرف بركات يحلل لأخيه ـ وربما لنفسه ـ رؤيته لهذه الحالة البشرية بناء على كل المعطيات التى اجتمعت لديه وما تبعها من معلومات جاءتها فى الطريق، ومنها اكتشاف حشمت نفسه أن للسيد شقيقًا اسمه أمير لم يسبق أن ذكر له اسمه.. ثم يكتشفان أن أميرًا هذا ليس سوى فقاعة نفسية تستحق التأمل.. فكلاهما جاء من بطن واحدة وينشدان هدفًا واحدًا كلٌّ بطريقته.. أمير غامض السلوك، لكن صعوده ملحوظ وسريع الإيقاع.. فهو المحاسب الصغير الذى تسبب فى طرد رئيس شركته، ثم اعتلى كرسيًّا فى مجلس الإدارة ثمنًا لبجاحته، يلعب السياسة بإيقاع هادئ.. يجيد المداهنة والنفاق.. يشمخ فى موضع، وينحنى فى موضع آخر.. رأسمالى الأداء، لكنه اشتراكى الصياح.. هو الشبل الحالى للأسد الذى سيكون.. شبل ينمو فى غابة آخذة فى النمو.. يتوارى بأشجارها حتى تفاجأ الحيوانات الأخرى بكونه صار ملكًا عليها.. يهدى صديقاته لرئيسه الدنىء.. نساؤه السخيات يفرشن أجسادهن له ولأصدقائه دون أن يتهمنه بالقوادة.. فهو قائد بالنهار وقواد فى الليل..

عقب حشمت بركات على ما سمعه بالتأييد، وأسر فى نفسه حقيقة أن السيد يقوم معه بمهمة القوادة بنفس كفاءة ما يؤديه أمير مع رئيسه الأعلى إلى أن قال له أشرف:

ـ «هذان يا حشمت يعزفان نفس النغمة على نفس الكمان.. هما شيطانا الزمن القادم.. زمن ما بعد النكسة.. زمن المساومة على كل شىء بما فى ذلك الأرض والعرض»

تساءل حشمت باهتمام: **«ألن تنتهى خسائر النكسة إلى ما نحن عليه الآن؟..»**

ـ «الخسائر تتوالى.. المعركة العسكرية التى خسرناها ستضْحى ذات يوم هى أقل خسائرنا على الإطلاق..»

ـ «لقد اخترنا الحليف الخطأ.. الروس..»

ـ «هم انكسر سلاحهم.. أما نحن فقد انكسرت أرواحنا»

ـ «من منا خسر الآخر.. نحن أم الأمريكان؟»

ـ «نحن الذين خسرناهم..»

فحصه حشمت بعين حائرة:

ـ « ألأنك يا أشرف تعذبت بالفقر فى طفولتك والتشرد فى شبابك.. صرت هكذا؟»

ـ «ما الذى صرت عليه؟»

ـ «تعادى الاشتراكية سرًّا، وتناصر الرأسمالية أيضًا سرًّا؟»

ابتسم وهو يفرغ غليونه من رماده المحترق:

ـ «سل صديقك السيد النحال.. ما مذاق الفقر على لسانه؟. وما ألم الجوع؟. وما طعم الضياع؟..»

ـ «أخشى أن تكون قد آمنت بهذا الداهية لأنه ذكرك بنفسك»

ـ «ليس إيمانًا وحبًّا بقدر ما هى رغبة الفنان الجامحة أن يضع لمسة مدهشة فى لوحة ناقصة لفنان آخر..»

ـ «وكيف ستكون لمستك فى لوحة النحال الناقصة؟»

ـ «مقعد سياسى ..»

ـ «هكذا مرة واحدة..»

ـ «ليس مرة واحدة.. المحليات.. ثم عضوية الاتحاد الاشتراكى.. ثم التنظيم الطليعى.. ثم مجلس الأمة..»

ـ «لو حدث هذا، فسوف يكون أصغر الأعضاء سنًّا.. وأسوأهم خلقًا.. وأكثرهم تآمرًا... وأرقاهم نفاقًا.. وأعمقهم حقدًا.. وأغناهم سفالة..»

ـ «ولذا، سوف يكون أفهمهم.. سياسة..»

* * *

للوهلة الأولى لم ينخدع السيد النحال فى ذلك المرح المهلل الذى طغى على صوت صديقه حشمت بركات فى التليفون، فهو لم يعد يأمن جانبه فقط، ولكنه عاد يخشى

سطوته.. واتفقا على لقاء منفرد فى الفيلا، وهناك بادره حشمت بصوت عميق هادئ:

ـ «سيد.. ارفع بنفسك الحجارة التى وضعتها فى الطريق»

ـ «أىّ طريق؟»

ـ «الذى سيصل بك إلينا..»

ـ «إنها متاريسى التى تحمينى وتمنعكم من الوصول لتفجيرى..»

ـ «لا مصلحة لنا فى تفجيرك.. ونخشى أن تفجر نفسك بنفسك»

ـ «لن يردعكم عنى سوى جمال عبد الناصر.. حامى المظلومين»

ـ «ما أنت بمظلوم.. أنت لص.. وتاجر مخدرات»

ـ «لا دليل عندكم لإدانتى»

ـ «لن نعجز عن الإمساك بالدليل.. ولكننا نصبو إلى كسبك»

ـ «هل هذا مطلبك الشخصى؟»

ـ «بل مطلب الرجل الكبير الذى قرأك فى دقائق ولخصك فى سطور»

ـ «أنور السادات؟»

ـ «قلت لك.. أشرف بركات»

ـ «وبماذا أوصاك»

ـ «أن أعطيك الأمان.. ليرتب لك المكان»

ـ «أى مكان؟»

ـ «يقول إنه المكان الذى تستحقه.. كرسى فى البرلمان»

ـ «لا أملك دائرة قد يجبنى أهلها.. فأنا بعيد عنهم»

ـ «سنخلق لك الدائرة التى تليق بك..»

ـ «هذا الكرسى سيشير إلى مكانى.. وأنا مكانى الأمثل هو الخلاء والخفاء»

ـ «أنت تستهين به؛ لأنك لم تجرب سحر قوته..»

ـ «أىّ قوة فى نفق له باب واحد من الممكن اصطيادى به؟»

ـ «مغفل.. فهو نفق متعدد المخارج..»

ـ «جمال عبد الناصر أهان أحد كبار رجاله؛ لأنه خرج بأجهزة لم يدفع عنها جمارك فى المطار.. لو كان مواطنًا عاديًّا هو الذى فعل ذلك لما عرف عبد الناصر»

ـ «سقطة ساذجة من مسئول كبير انتهى عصره.. العصر القادم بحاجة إلى رجال من نوع آخر.. رجال أذكياء رجال دنائتهم أكبر من أن يسرقوا جمرك ثلاجة»

ـ «كيف يتغير العصر ورجاله باقون كما هم.. والزعيم نفسه ما زال جاثمًا على كرسيه..؟»

ـ «المردة والشياطين خُدعوا فى جثوم سليمان على كرسيه.. النمل هو الذى أشار إلى موته»

ـ «أتريد القول أن عبد الناصر يتكئ على عصا قوامها الخواء؟»

ـ «المردة الذين يحيطونه لا يعلمون ذلك..»

ـ «تتحدث عن عبد الناصر أمام الناس بحب.. وأمامى بكراهية.. لماذا؟»

ـ «ابحث معى عن حب يمكن أن تعطيه لرجل تخشاه طول الوقت، رجل كالنقمة.. لكنه نقمة جميلة»

ـ «أو نعمة سيئة»

تأمله حشمت بركات بعمق :

ـ «نعمة سيئة؟.. هل تدرى أن هذا الوصف ينطبق عليك؟»

ـ «وقد ينطبق على الرئيس المطلوب لهذه البلاد وهؤلاء العباد»

ـ «لا رئيس قادم.. عبد الناصر هو هرمك الرابع الذى لن يتزحزح»

ـ «سيتزحزح»

ـ «من هو المجنون الذى يحاول إزاحة جبل من مكانه؟»

ـ «الموت..»

ـ «ومن الذى سيستدعيه؟»

ـ «من يستحق المكان.. جونسون أزاح كنيدى.. بالموت»

ـ «ماذا تقول أيها المجنون؟»

ـ «والموت سيزيح حكمت وبشاير»

ـ «فالأرض لك والفيلا..»

ـ «وإسرائيل أزاحت مصر من سيناء.. وسوريا من الجولان»

ـ «فالأرض لها.. منطق لص موغل فى اللصوصية»

ـ «السرقة تأخذ شرعيتها إذا ألبستها غطاءً أخلاقيًّا.. اليهود فعلوا ذلك بادعاء أنها أرض المعاد.. الأرض سرقوها ويرتاحون الآن قبل الوثوب لسرقة أرض أخرى..»

ـ «ولكنك لا ترتاح..»

ـ «أصحاب المشاريع العالية لا ينامون»

ـ «وعبد الناصر.. لا ينام»

ـ «لأن اللصوص عرفوا الطريق إلى منزله.. فكيف ينام؟»

ـ «الآن فقط عرفت أنه أجاد تقديرك.. أخى أشرف»

ـ «وأوصاك باحتوائى..»

ـ «وأخرج من ترابك تبرًا لم أكن أراه»

ـ «وطالبك أن تكبح جماحى..»

ـ «وأن تخفف سرعتك»

ـ «وأن أرفع الأحجار من طريقى بنفسى»

ـ «وتستجيب لنصائحى»

ـ «وأعيد خميسة إلى عصمتى؛ ليكسب جولة مع مكتب الرئيس»

ـ «وتعيد علاقتك بأمير»

ـ «لأننا جناحان فى طائر واحد»

ـ «هناك دائرتان فى انتظاركما..»

ـ «وماذا عن فوزية..؟»

ـ «تزوجها، وضع خميسة أمام الأمر الواقع»

ـ «وعنتر الذى خاننى وتعاون معكما وأفشى أسرارى؟»

ـ «احتفظ به، فلا عربة بلا حمار يسحبها..»

ـ «ولا قضية بلا مغفل يحملها عنا..»

ـ «يعجبنى ذكاؤك..»

ـ «ورجالى..؟»

ـ «سندربهم على أشياء جديدة..»

ـ «مثل ماذا؟»

ـ «اجتياز الحدود.. الباطنية لا تليق بهم..»

ـ «يمكنهم اجتياز المستحيل.»

ـ «وهكذا يمكننا أن نتفق»

ـ «وأنا جاهز..»

ـ «على بركة الله..»

///



أنتما وجهان لعملة واحدة

كلهم لم يضعوا رأى خميسة فى حسابهم.. فقد امتشقت سيف الكرامة وأبت العودة إلى السيد النحال بإباء وشمم، وطالبت بحريتها والحصول على طلاقها المستحق من رجل لطخ شرفها بالأوحال..

عرف أنها تقيم عند صديقتها المهندسة سوسن عبد الباقى ومنحه حشمت تليفون مضيفتها، فسارع على الفور فى ترطيب الجو بملاطفة لم تنطل عليها .

وكان همه القائم هو أن يضع أشرف بركات فى جيبه ويحقق مطلبه بإعادة زوجته ليمنحه مكسبًا يصبو إليه عند مكتب الرئيس.. وقد أجهضت خميسة له هذه المناورة دون أن تدرى.. فقرر أن يعيد المحاولة دون يأس، وأسرع إلى أمير كسبًا للوقت ليضمه تحت جناحه، فقد وضعهما أشرف بركات فى خانة واحدة..

وفى مكتبه الأنيق شاهد صورة جمال عبد الناصر معلقة فوق رأسه داخل إطار كبير مذهب، تعجب من قوم يضعون رجلًا واحدًا فوق رءوسهم خوفًا ورهبة.. ثم تعجب أن يصل أمير إلى هذه الأبهة فى وقت قصير، ثم تذكر ما قاله له عن معارفه من ذوى الشأن العالى الذين أخرجوا والدهما من سجن أمن الدولة..

أكله الشعور بالحسد، ومع هذا فقد تمكن من وضع ابتسامة براقة على فمه:

- «لم أنتبه لما قلته لى وأنت طالب عن قربك من أهل النفوذ.. لقد عثرت على سلمك مبكرًا»

رمقه أمير باستخفاف: «سلمى من صنعى يا سيد.. هل تظننى مثلك؟»

- «ماذا تقصد؟»

- «أقصد أننى لم أبحث مثلك عن عكازين أمضى بها.. حكمت وبشاير»

ـ «لم يحدث أن توكأت على سيدتين..»

ـ «كيف ذلك، وأنت تدير لها عقارات ومشاريع؟!»

ـ «هذه العقارات والمشاريع ملكى أنا..»

ـ «يبدو أنك كنت تتحدث عن نفسك عندما اتهمتنى بالزواج من شمطاء لأكسب أموالها..»

ـ «وفر على نفسك جهد الحدس والافتراض، قلت لك إنها ممتلكاتى أنا»

ـ «إذن، فهو الحظ..»

ـ «هذا الشىء لا أعرفه»

ـ «كيف لا تعرفه، وأنت الوحيد من أبناء عباس النحال الذى سجلته فى أشعارك:

ابكى يا أم الخير ولادك واللى نيل حظهم

اجتهد عباس يجيبهم قبل ما يجيب أكلهم

والعيال أكلوا فى بعض لما جوعهم عضهم

أوقفه السيد بإشارة من يده أن يكف عن استعادة شعره القديم.

فسأله أمير:

ـ «ألا تريدنى أن أذكرك بأشعارك؟»

ـ «لا تذكرنى بأىّ شىء.. أىّ شىء من البلد.. وأيام البلد»

صمت أمير قليلًا، ثم قال: «وأنا مثلك، وعندى أسبابى، فهل أسبابك تتعلق بخميسة؟»

ـ «قلت لك: كل شىء.. كل شىء حتى خميسة»

ـ «إذن، فلماذا تسعى لإعادتها؟»

ـ «حتى أذبحها بطريقتى»

ـ «ظننتك تفعل ذلك بعد أن صرفت النظر عن فوزية»

ـ «دعك من هذا اللؤم.. أنت تبحث عن مصير فوزية وموقعها فيما بينى وبينك»

ابتسم أمير باستهتار:

ـ «فوزية ومثيلاتها لا يلقن بى يا محترم.. خلاص..»

وراح يحدثه عن عالمه الجديد الملىء بالسيدات والآنسات ، حتى إنه لم يحتفظ لنفسه بأسرار عالم العربدة الذى يجوسه بمهارة، ثم تنهد بحسرة:

ـ «لكنى لم أقابلها ولو بالصدفة.. ويبدو أن ذلك سوف يحدث»

ـ «من؟»

ـ «نجلاء النجار»

ـ «أما زلت تتذكرها»

ـ «أخوها نجيب وخطيبها محمد ناجى يعملان فى فرعنا بالإسكندرية»

ـ «إنه يقترب منك»

ـ «وأنا فى انتظاره.. وانتظارها.. فحقدى ما زال طازجًا» «أليست تلك وصيتك لى؟»

ـ «ياااه.. أما زلت تتذكر هذه الكلمات ؟ لم تنس بعد الجاكت الذى انتزعه منك»

ـ «مكانتى سوف تعيننى على استرداد كرامتى»

ـ «تقصد نفوذك..»

ـ «سمها ما شئت»

ـ «أيها أقوى.. النفوذ.. أم المال؟»

ـ «النفوذ»

ـ «إذن، فهنيئًا لك.. جئتك بترسانة من النفوذ»

ثم اتجه السيد النحال إلى الحديث الذى جاء من أجله.. الحديث عن آل بركات.. القوم الذين يتجهون إلى عالم النفوذ بقوة.. وتحدث بإسهاب عن داهيتهم أشرف بركات، وفى لحظة ما أحس السيد من أمير أن آل بركات وصلوا إليه، وأنه ساعدهم بمعلومات ضده.

«إنه نذل.. نال عشرين جنيهًا من فتيان فتيان حتى يدله على مكانى.. فتيان لم يتورع عن فضحه ثم فضحنا معًا..»

ومع ذلك، فقد استمر السيد فى إغراء أمير أن يتجها معًا إلى عالم السياسة.. فمن شواطئها سيبحران إلى النفوذ؟.. ثم عاد فركز على العون القادم إليهما من أشرف بركات..

وهنا قال له أمير:

ـ «أنت تصف لى آدميًّا يشبه تمامًا أنور السادات»

ـ «قلت ذلك لشقيقه حشمت، فراوغنى»

ـ «إن كان هو، فاعلم أنك ترى الدهاء يتحرك على قدمين»

ـ «قال عنى إننى ولدت لأكون سياسيًّا»

ـ «أنتما وجهان لعملة واحدة؟»

ـ «يريدك بجانبى»

ـ «السياسة ليست من أحلامى.. خذها لك»

ـ «ستكون مدخلك لكل ما تحلم به.. اجعلها قاطرة لعرباتك..»

ـ «تاريخى ملىء بسقطات ساذجة لا تليق بمن يعمل فى السياسة.. لقد عرفت طريقى.. فلتمض أنت فى طريقك»

* * *

سحب أشرف بركات نفسًا عميقًا من غليونه، وتأمل ضيفه العزيز بحب:

ـ «صرت رومانسى الهيئة يا حلمى.. هل هو الرجيم.. أم إرهاق الحب؟»

وبهدوء رد حلمى عبد الباقى الذى استجاب لدعوة مفاجئة من صديقه، فزاره فى قصره:

ـ «لا هذا، ولا ذاك.. إنه إرهاق الهم»

ـ «كلاهما واحد.. الحب.. والهم .. ما أخبار بهيرة؟»

ـ «لا ترحمنى، حتى بعد أن حصلت على طلاقها رغم أنفى»

ـ «الشؤم طرق بابك.. يجب أن تغير عتبة منزلك»

ـ «كيف؟»

ـ «اتفقت لك مع سامى شرف أن يلحقك بالعمل الدبلوماسى وتسافر إلى إحدى سفاراتنا بالخارج.. وهنا ستعود بهيرة إليك»

ـ «ما هذه المفاجأة؟.. هل كنتما تبحثان عن منصب لرجل.. أم تبحثان لرجل عن منصب؟»

ـ «وما الفرق؟»

ـ «فرق كبير، فقد أكون قد تحولت إلى مشكلة تريدون التخلص منها»

ـ «وهل الترقى إلى أعلى نوع من التخلص؟»

ـ «السياسة تسمح بذلك؟»

ـ «ليس إلى هذه الدرجة»

ـ «وهل السفر سيغرى بهيرة بالتصالح؟»

ـ «أنا واثق أنها ستوافق؟»

ـ «لا لوم عليك.. فأنت لا تعرفها»

ـ «اعذرها، فالولد النحال أقحمها فى المشكلة بوقاحة وحقد عجيبين»

ـ «لا أدرى ولد كهذا كيف يتمكن من رفع قامته حتى مستوى السيد: حشمت، والسيد: فايز فودة، ويخترق مجتمعًا هو بالكاد يعمل خادمًا عند أناسه»

ـ «لا تنس أن المشكلة التى بينكما أنت وهذا الولد هى وزوجته، فهل يكون قد اخترقك؟..»

ـ « ولا أدرى أيضًا كيف يجتمعان هو وزوجته.. تحت سقف واحد: الخير والشر؟.»

ـ «إذن، فرأيك فى زوجته يختلف عن رأيك فيه»

ـ «بمراحل..»

زم أشرف بركات شفتيه كأنه قبض على حقيقة غائبة:

ـ «ما أخبارها؟»

ـ «من؟»

ـ «زوجة هذا الولد.. خميسة؟.. أليس اسمها كذلك؟»

ـ «أتابع أخبارها عن بعد»

ـ «كيف..؟»

ـ «اختفت فى بدء المشكلة عند شقيق زوجها، اسمه أمير.. كانت سوسن تتابعها، أوصيتها أن تقف بجانبها إذا حيق بها أىّ خطر.. كان سيفتش عنها عند أخيه، بادلتنى

المكان عند سوسن وغادرت أنا إلى مكان آخر..»

ـ «أخشى أن تكون قد تورطت فى الحب أيها الكهل الجميل»

ـ «لا أدرى، ولكنى كثيرًا ما أصل إلى قناعة أن هناك شيئًا ما أقوى من الحب، شيئًا حاولت تسميته وهو ينمو من التعارف إلى التآلف ثم ينتهى إلى التكاتف، ولكن أقل ما يمكن وصفه لحالتنا هو أن كلًّا منا توحد مع الآخر فى مأساته ، ومن ناحيتى فلدى شعور عميق أننى تسببت لها فى الألم والتعاسة»

ـ «ما كل هذا النبل يا حلمى.. ما زال الأديب يعيش فى داخلك منذ أن كنت تكتب قصص الحب، العلوم العسكرية والكتب القانونية لم يجرفاك بعيدًا..»

وعندما صمت فجأة أحس حلمى عبد الباقى أن أشرف بركات سيتجه الآن إلى هدفه من هذه الدعوة لزيارته، وهذا ما حدث:

ـ «ما رأيك أن نذهب سويًّا إلى سامى لنشكره على مجهوده نحوك»

ـ «وهل تعتبرنى قد وافقت على هذا العرض؟»

ـ «هذا عرض لا يمكن رفضه فى الحالتين إن كنت زوجًا أو مطلقًا.. وما المانع أن نزوره فى مكتبه للسلام والكلام.. أنتما لم تتقابلا منذ زمن، هكذا قال لى»

ولم يفهم حلمى عبد الباقى إلا بعد حين الهدف الموازى الذى يصبو أشرف بركات إلى الوصول إليه، وهو أن يسحبه بيد ويسحب السيد النحال باليد الأخرى، ويدخل بهما إلى مكتب سامى شرف فقد أكد لسامى أن القضية كلها فى قبضة يده، وأنه سيحضر الولد بنفسه لتوقيع إقرار ينسف كل ما جاء بخطابه ـ إلى عبد الناصر ـ من اتهامات لحلمى عبد الباقى..

ولذا، فقد رمى إليه حلمى بنظرة ذات مغزى:

ـ «أخشى أن يكون مشوارى هذا هو نفس المشوار الذى سيقطعه الولد النحال إلى سامى»

ـ «وما لوجهك قد تغير هكذا؟.. ما الضرر فى ذلك، امنحنى الفرصة للحل يا حلمى»

وصمت حلمى المهذب على مضض وهو يقول لنفسه:

ـ «لن تتخلى عن لؤمك وتآمرك أبدًا.. يا أشرف بركات»



فريسة بين جبارين

راحت فوزية ترقب بعين الأمل انقشاع غبار معركة السيد وزوجته خميسة، متوهمة أن السيد سيخرج من قلب الغبار متجهًا نحوها مفتوح الذراعين فيضمها إلى أحضانه .

ولكنها ودون مقدمات وجدت فارسها المشغول بمعركته يتحول عنها، ويدير لها ظهره، ثم يمنحها إجازة طويلة لم تطلبها، وحاولت رفضها، لكنه أصر أن تقوم بها، فاستجابت له دون أن تعرف لذلك سببًا..

قيل لها ـ من عنتر مكاوى تارة ومن أمير تارة أخرى ـ إن السيد يبعدها عن مواقع الأحداث حتى لا تراه أو تسمعه يتوسل إلى خميسة أن تصالحه. تذكرت نبوءة فتاها الجريح طاهر زين الدين ـ الذى ترجل رغمًا عنه من فوق حصانه وانزوى باكيًا ينتظر الموت:

ـ «**سيلقى بك إلى الشارع..**»

وفى منزلها أحست أنها الذبيحة التى أغلقوا عليها حظيرتها قبل موعد الذبح، ورأت أنها راهنت على الانتصار فخسرت، وأيقنت أنها كادت لغريمتها خميسة فارتد إليها كيدها حتى نحرها، ثم تذكرت أنها تنكرت لطاهر زين الدين حبًا فى السيد النحال فأجبرتها الأيام أن تتجرع بعض ما سقته لحبيبها من تجاهل ونكران وتخل مقصود..

أطلت عليها أمها فى سريرها المعروق بنزف الكآبة، ومنحتها نصيحتها الحاذقة:

ـ «**انسحبى بكرامتك، اطلبى حقوقك المالية، اشركى معك رجلًا يخشاه السيد، افتحى صالونًا لك هنا فى الحى، لن تتحملى الرجوع كعاملة بالأجر كما كنتِ فى السابق.**»

زحفت إلى حشمت بركات فى مكتبه على إثر موعد مضروب.. أفصحت له عن خيبة

أملها، وتوسلت إليه أن يمكنها من حقوقها عند هذا الجبار.. وتعجبت أنها لم تلق منه سوى وجهًا صارمًا لم يتأثر بما تقوله، ولم تسمع منه كلمه واحدة تعليقًا على كل ما قالته الآن، لكنها فوجئت به يفتح درجًا من أدراج مكتبه بمفتاح صغير ويسحب زجاجة تعرفها.. ويضعها أمامها وهو يردد:

ـ «إذن، فقد جئت اليوم مقتولة لا قاتلة»

ـ «ماذا تقصد يا سيدى؟»

أشار إلى الزجاجة التى تسلمها منها يدًا بيد:

ـ «ألا تعرفين ما بداخل هذه الزجاجة؟»

ـ «إنها زجاجة الدواء التى أعطيتها لك لتأتى بمثلها، لكنك لم تهتم بذلك»

ـ ««وهل أتى لك السيد بمثلها بعد عودته»

ـ «أخبرته بما حدث ولم أقل له إنك لم تهتم، قلت إنك لم تعثر على هذا الصنف»

ـ «وماذا قال لك؟»

ـ «أهمل التحدث معى، ثم أهمل إحضار زجاجة بديلة»

ـ «ومنحك إجازة طويلة بعد هذا الحديث»

ـ «هذا ما حدث فعلًا ولا أدرى لماذا؟»

ـ «ليتخلص من شريكته فى الجريمة»

ـ «أى جريمة؟»

ـ «سأتحدث معك كأنك لا تعرفين الحقيقة وإن كنت أشك فى ذلك.. هذا الشيء الذى بالزجاجة ليس دواء، إنه سم بطيء كنت تضعينه للسيدتين فى الطعام..»

ـ «كيف ذلك وهو نفسه تذوق الطعام بعد وضع الدواء فيه.. أكثر من مرة»

ـ «وأنت..؟»

ـ «وأنا أيضًا»

ثم توقفت عن الحديث فجأة كأنها تتذكر شيئًا ما ثم واصلت:

ـ «لكنه نصحنى ألا أكثر منذ ذلك»

ـ «ألم يذكر لك السبب؟»

ـ «يومها قال ضاحكًا لا يجب على الصبايا الجميلات أن يتذوقن دواء العجائز»

ـ «الم يثر ذلك الشك لديك؟»

ـ «أبدًا.. وإلا ما كنت تعجلت طلب زجاجة أخرى عن طريقك»

وتوقفت مرة أخرى عن الحديث لتدخل به إلى حديث آخر:

ـ «أليس من الممكن أن يكون من قال لك ذلك قد أخطأ.. السيد يحب حكمت وبشاير، وكم من مرة كنت أوقفه عن البكاء إذا اشتد المرض بإحداهن..»

ضحك حشمت من أعماقه ثم انقلب وجهه إلى الأسوأ، وقال بغضب :

ـ «هذا هو الحب الذى يسمونه حبًّا حتى الموت.. أنت يا فوزية شاركت فى جريمة، ولن يعفيك منها ادعاؤك أنك كنت تجهلين ما تقومين به.. المشنقة فى انتظارك يا بنت الناس..»

بدا الذعر على وجه الفتاة:

ـ «ما جئتك إلا لكى تخلصنى من السيد، وتضمن لى مستحقاتى المالية عنده، ثم تقول لى المشنقة فى انتظارى؟»

ـ «لو حققت لك طلبك معناه أننى شاركت فى الجريمة وتسترت على قاتلة»

ـ «ألن تحقق لى طلبى؟»

ـ «ومن أدرانى أنك تهربين بجلدك وتستخدميننى فى ذلك؟»

ـ «أقسم لك أن..»

ـ «لا داعى للقسم، أنا لست بقاض أو محقق.. أنا شاهد وساظل شاهدًا.. وها أنت قد وجدت جسم الجريمة فى مكتبى.. بصماتك عليها يا حلوة..»

ـ «أكاد أشل.. كيف ترضى لى هذه النهاية مع هذا الوحش؟»

ـ «الآن صار وحشًا؟.. انتظرى مصيرك..»

ـ «لا أكاد أصدق ما اسمعه.. أرجوك انس ما جئت لطلبه.. ساعدنى على الخروج من كل هذه المصائب بجلدى»

ـ « وأتستر عليك.؟»

ـ « أنا بريئة»

ـ « لست أنا الذى يحكم بذلك.. هناك شرطة ونيابة ومحاكم.. لست أنا»

نهضت مسرعة إلى حيث يجلس إلى مكتبه وألقت بنفسها فالتقطت راحتيه إلى فمها:

ـ «أبوس إيدك.. لا تدمر حياتى.. انقذنى.. قف بجانبى»

خطف راحتيه وابتعد بكرسيه بعيدًا، وراح يتأملها وهى تبكى :

ـ «اهدئى.. اهدئى.. عودى إلى كرسيك.. ارتاحى»

عادت إلى كرسيها لتكمل نحيبها الخافت وهى تصدر كلمات متقطعة:

ـ «ما الذى فعلته بنفسى؟.. لماذا لم أسمع كلام من كانوا يخافون على؟ كيف ورطت نفسى مع هذا الجبار.. أرجوك يا حشمت بك.. أرجوك»

لجأ إلى صمت طال حتى أرهق أعصاب الفتاة، ولم يكن يقصد ذلك، إنما جرفته الهواجس والخواطر المضطربة، فإزاحة الخصوم بالتخلص منهم فكرة بدأها قابيل ولن تنتهى إلا بنهاية الكون، والسيد النحال فعلها بهدوء واستخدم قاتلًا بالنيابة عنه، وهذا الولد ألح له على أن إزاحة الهرم الرابع لا يكون إلا بالموت، ثم صرح بأن من يستدعى الموت لخصمه يستحق مكانه.. تمامًا كما استحق هو مكان حكمت وبشاير، وكما استحق جونسون مكان كنيدى.. فلماذا تسعى هذه الخيوط إليه سعيًا..؟ لماذا تسعى إليه الفكرة وصانعها ومنفذها وأدواتها.. ولماذا كان يقلب هذه الفكرة ويحافظ بداخله على هاجس اقتناصها؟.. ولماذا عزف عن استدعاء الفتاة فور إمساكه بحقيقة جريمتها؟.. ولماذا وجد نفسه يركن إلى الهدوء مانحًا الفرصة للوقت أن يتحرك لصالحه؟.. وها هى الفتاة تحركت بخاطرها نحوه، وها هو قد أتلف أعصابها وصارت جاهزة أن تلبى له كل مطالبه.. ولكن هل انتهى من التعرف على مطالبه؟.. كم هو بمطلب محير، مطلب يطرده كلما عشش فى عقله، لكنه لا يلبث أن يعود.. وها هو عاد بقوة بعد ظهور هذه الفتاة الساذجة.

ـ «أعطنى رقم تليفون منزلك»

هبت واقفه إلى جواره وراحت تمليه الرقم بصوت أرهقه البكاء. إلى أن سمعته يقول لها:

ـ «احتفظى لنفسك بكل ما سمعته منى، أحذرك أن تذكرى لأحد كلمة واحدة من حوارنا اليوم.. السيد النحال خطورته امتدت حتى وصلتنى أنا شخصيًّا، قد يحتاج الأمر أن نتعاون معًا ضده لكسر شوكته.. هل أنت مستعدة لذلك؟»

ـ «أعدك أن أكون رهن إشارتك»

ـ «سأضعك تحت الاختبار حتى أثق فى إخلاصك فى التعاون معى، وطبعًا هذا معناه أنك تحت التهديد أيضًا، فاحذرى التلاعب بى»

* * *

أغلقت خميسة كل الأبواب فى وجهه، فانصرف السيد النحال بخيبة أمله إلى صديقه حشمت:

ـ «الملعونة ركبت رأسها، أنا أعرفها، لن أحقق مطلب أشرف باشا.. وأمير خرج من يدى.. كلاهما ملعون..»

ـ «لا تحمل همًّا، كنت أتوقع ذلك، وأحطت أخى أشرف علمًا بما سيحدث، وقد رتب حلًّا مناسبًا يتلخص فى قيامك بالتنازل عن الشكوى.. فاستعد لذلك وتخلص من هذه المرأة.. قل لى من الذى يدير الصالون بدلًا من خميسة؟»

ـ «رجاء..»

ـ «ولماذا أبعدت فوزية عن المكتب والصالون معًا؟»

ـ «رغبة منى فى إبعادها عن الأحداث.. فماذا قالت لك؟»

فهم حشمت للتوّ أن النحال عرف بطريقته العنكبوتية أن فوزية التقت به.. فقال له:

ـ «البنت لم تجد سببًا مقنعًا لإبعادها، وتظن أنك تمهد لطردها وأكل حقوقها، فلو كنت تنوى ذلك فعلًا فخلص ضميرك وقم بتسوية حسابها، فحقوقها عندك تسمح لها بالاستقلال بمحل صغير فى عين شمس كما قالت لى»

ـ «هل هذا كل ما جاءتك من أجله؟»

ـ «البنت حائرة.. فمن الصعب أن تعود إلى عملها القديم، وتخشى أن تفشل فى الاستقلال بمشروع صغير، فطلبت منى أن أسعى لها فى وظيفة تناسب شهادتها، وقد

تحدثت فعلًا مع أخى أشرف فى تأمين عمل لها»

لم يجد السيد ما يرد به على هذا التطور الحاد فى موقف فوزية، وراح يتأمل نتيجة غير موقعة لحملة بلهاء خسر فيها امرأتين دفعة واحدة.. فعناده أثمر عن ذهاب فتياته لبعض من حوله، فها هى خميسة ترتاح بالقرب من حلمى عبد الباقى.. وفوزية تقترب ويتقرب لها حشمت الذى لا يرحم.. وكلها نتائج إذا أمعن فيها التأمل لا تنم إلا عن خسائر أصابت مملكته ورجولته فى وقت واحد، وها هو لا يجد بين يديه مكسبًا ملموسًا بعد أن أعتز أشرف بركات من مفعول خطابه الكيدى إلى جمال عبد الناصر.. فهل يعوضه عن هذه الخسائر أن اقترابه من أشرف بركات هو مكسب كبير فى حد ذاته؟ فكلٌّ منهما لفت نظر الآخر، وكلٌّ منهما ودون اتفاق يفكر فى امتطاء الآخر. أجل امتطاء.. وإلا فبماذا يمكن تسمية استخدام الآخر لتصل به أو عن طريقه إلى غاية معينة.؟

ـ «نظف طريقك من الحجارة يا سيد.. ودع عنك فوزية سأتولى أمرها»

ـ «وهذا ما سوف أفعله.. يجب أن تعود فوزية، إنها لى..»

* * *

وبعد انصرافه، سارع حشمت بركات إلى فوزية فتحدث معها بالتليفون، ووضع أمامها سيناريو مضيئًا للأحداث القادمة، كأنما هو الذى رتبها ولوى عنق السيد النحال لتمشى معه فى تنفيذها..

«خميسة سوف تنال طلاقها، وسوف يسارع إلى خطبتك.. لابد أن توافقى.. ولقد رتبت لك وظيفة محترمة.. لا تعودى للعمل معه.. تمسكى بالعمل الجديد الذى رتبته لك.. أنا أفعل كل ذلك لتحقيق ما اتفقنا عليه، تذكرى ما وعدتنى به».

وقبل أن ينهى المكالمة ومع بداية فرحتها الجديدة جاءت بأمها على التليفون لتشكره، وبعد أن خلا إلى نفسه حاول أن يفهم معنى ما قالته هذه السيدة الصعيدية أنها نصحت ابنتها أن تستعين على هذا النحال الجبار بجبار أكبر منه.



أنت واليهود: من في حضن من؟

أومأ أشرف بركات برأسه فى اتجاه الباب المغلق، والتفت إلى سامى شرف قائلًا:

ـ «الولد فى الصالة، جئنا به ليكتب اعتذارًا وتنازلًا عن شكواه..»

لم يأبه سامى شرف بهذا الخبر، وراح يكمل ترحيبه بحلمى عبد الباقى، ثم راق له أن يتحدث معه حول مقاله الأخير وما قاله عن خطاب الرئيس فى افتتاح دورة الانعقاد الخامسة لمجلس الأمة، فابتسم حلمى بدماثة وقال له:

ـ «دعنى أحدثك حول مالم أكتبه فى مقالى، فقد تعجبت أن يدلى الرئيس فى هذا الخطاب بتفاصيل خسائرنا فى معركة يونيه: ٨٠٪ من المعدات، ١٠٠٠٠ جندى شهيد، ١٥٠٠ ضابط، ٥٠٠٠ جندى أسير ٥٠٠ ضابط أسير، ألا يخشى الرئيس من إحباط معنويات شعبه؟»

«فقال سامى شرف»:

«رجل يطلب من الناس الاحتشاد والاستعداد للثأر، فهل من المعقول أن يهوّن من المصيبة التى يحشدهم من أجلها»

وتدخل أشرف بركات قائلًا:

ـ «وهذا فى حد ذاته نوع من التعبئة، بجانب رفعه للحراسات، والإفراج عن الإخوان، وتنظيف المخابرات، وتطهير لجان تصفية الإقطاع، ومعالجة انحرافات القطاع العام.. الرجل يرتب البيت من الداخل يا جماعة»

عاد حلمى إلى حديثه الأول، فقال لسامى شرف:

ـ «أفكر أن يكون مقالى القادم حول مناقشة السؤال الذى طرحة الرئيس فى خطابه»:

«كيف استطاع ٢,٥ مليون يهودى هزيمة ١٠٠ مليون عربى؟»

هتف أشرف بركات:

- «يا حلمى.. يا حلمى.. الجواب باين من عنوانه.. اليهود ليسوا وحدهم.. اليهود معهم نصف العرب.. السعوديه قامت بالواجب وأجهضت جيشك فى اليمن قبل المعركة.. هل هذه صدفه؟.. ألا تعلم أن الملك «حسين» زائر سرى دائم لإسرائيل. والملك الحسن يدين بالولاء لهم؛ لأنهم أعادوا والده إلى العرش»؟

أطرق حلمى عبد الباقى مهمومًا، وتساءل بصوت خافت:

«حرام.. حرام عليهم.. لماذا يخذلون هذا الرجل.. وبهذه الطريقة؟»

فهتف أشرف بركات مرة أخرى:

«يا حلمى.. يا حلمى.. نصف العرب يخشون منك، فلو ركبت اليهود فسوف تركبهم بعد ذلك.. أنت بالنسبة لهم فرعون الذى طرد اليهود فى العصر القديم.. كلاهما يخافك.. ويستقوى بالآخر ضدك سرًّا.. وسوف يعملون فى العلن بعد ذلك لتمزيقك إلى أشلاء»

ابتسم سامى شرف موجهًا حديثه إلى حلمى:

- «لا أعتقد يا حلمى أنك ستجرؤ على أن تضع كل ملاحظات أشرف فى مقالك»

وأيده حلمى قائلًا: «نحن نحافظ على القدر القليل من التماسك العربى ولسنا بحاجة لفتح معارك جديدة معهم.»

وقال أشرف بركات:

- «فعلًا.. ما يعجبنى فى الرئيس أنه يضع المأثورات الشعبية فى سياسته»

نظر إليه سامى شرف بذهول:

- «مأثورات شعبية؟.. أنا مع سيادة الرئيس ليل نهار ولم أسمع منه مثل هذه العبارة..»

- «ليس من المهم أن يقولها... الفعل نفسه يدل على ذلك... فمثلًا أنا وأنت على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب مثل شعبى يتم تنفيذه الآن ولو تأملت صيحته التى تقول: ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فسوف تجد ذلك فى المثل الشعبى: «الطلب الهيّن يضيع الحق البيّن».. نحن شعب يملك تراثًا من الحكم لو أخذنا بها فى السياسة لاختلف

الأمر»

وصمت أشرف بركات قليلًا وهو يستعد لقول جديد:

ـ «سأذكركما بمثل بسيط يقول «العصا السابقة.. سابقة..» فلو أخذنا بهذا المثل وقمنا بتوجيه الضربة الأولى إلى إسرائيل فى يونيه لاختلف الأمر، ولكن عصاهم سبقت عصاتنا، فحدث لنا ما حدث»

ابت سم حلمى عبد الباقى وهو يتأمل أشرف بركات:

ـ «حبك للقرية.. والفلاحين.. وثقافة البيئة شيء جميل لا يملك المرء إلا أن يحمده لك يا أشرف.. فعلًا كل ما قلته الآن كلام مقنع، بل إنه موضوع شيق للبحث..»

بادله أشرف الابتسامة، وانبرى لمزيد من التدليل والتوضيح:

ـ «وتأكيدًا لقولك سأذكرك بما يحدث هذه الأيام.. ألا ترى أن هناك دعوة تعلن لأول مرة قوامها اعرف «عدوك» هذه الدعوه قالها أجدادنا بشكل آخر «اللى تخاف منه خليه فى حضنك» يعنى اقترب منه.. وحاوره.. لتفهم نواياه، وتتقى شره..»

هز سامى شرف رأسه فى تعجب، وسأله أشرف بركات:

ـ «فى جلساتك الحميمة مع الرئيس.. هل تطرح أمامه هذه الأفكار؟»

ضحك أشرف طويلًا، وقال لسامى:

ـ «يا سامى.. يا سامى.. الرجل يزورنى ليستمتع ببعض وقته عندى ويهرب من الهموم.. هل تريدنى أن أحدثه فى السياسة لأزيده همًّا؟»

فقال سامى بهدوء:

ـ «على كل حال يمكنك أن تضع أمامه كل أمثلتك ما عدا هذا المثل الأخير.. فهو مثل انهزامى لا يتمشى مع طبيعة عبد الناصر..»

فهتف أشرف بركات:

ـ «لماذا؟.. لماذا؟.. السياسة هى فعل الممكن يا جماعة . يعنى هذا الولد الذى سبّب لنا القلق وكان ينوى فعل المزيد منه.. ماذا فعلت معه؟.. أخذته فى حضنى.. وها هو يجلس فى انتظار التوقيع على التنازل.. ولو ضربه حلمى بالحذاء بعد ذلك فلن يرفع عينه ناحيته».

لم يجد سامى شرف ما يقوله، فهز رأسه أسفًا وضغط على جرس الاستدعاء، جاء أحد الموظفين فقال له وهو يشير إلى الباب:

ـ «الشاب الجالس فى الخارج .. سوف يكتب تنازلًا عن شكواه بخط يده على ظاهر الشكوى.. اجلس..»

قاطعه أشرف بركات:

ـ «لو سمحت يا سيد أشرف.. دعنى أكتب الصياغة بنفسى، وينقلها هذا الولد حرفًا حرفًا.. لى هدف أن أسد عليه كل الطرق الممكنة فيها لو فكّر فى ألاعيب أخرى»

أكمل سامى شرف حديثه مع موظفه:

ـ «إذن، خذ الصياغة من السيد أشرف واجعله ينقلها بخط يده..»

ونهض من خلف مكتبه وهو يتأبط عددًا من الملفات:

ـ «أستأذنكما.. موعدى حان مع السيد الرئيس.. وعلى فكرة يا سيد حلمى سيادة الرئيس كتب تأشيرة على مذكرتنا بشأنك للخارجية وترك لها مسألة تحديد المكان اللائق بك.. مبروك»

* * *

نظر الرئيس إلى ساعته لحظة دخول رجله الأثير سامى شرف، ففهم سامى على الفور أنه تأخر بضع دقائق، فبادر بالقول:

ـ «آسف يا فندم.. أشرف بركات وحلمى عبد الباقى أخذا راحتهما فى ضيافتى»

ابتسم عبد الناصر، وأطل نحوه فى اهتمام:

ـ «كيف حالهما؟.. أجّلت زيارتى مضطرًا إلى أشرف الأسبوع الماضى..»

ـ «ليتك يا فندم لا تؤجل هذا الموعد.. السيد أشرف يحبك ويحرص على إبعاد الهموم عنك، رغم قلق الهانم من نوع الأصناف التى تناولتها عنده، وتتمنى ألا تكون خارج تعليمات الأطباء»

تفحصه عبد الناصر بنظراته:

ـ «وهل أبلغتك الهانم بمخاوفها؟»

ـ «الحقيقة.. نعم.. هى قلقة بعض الشىء..»

تنهد عبد الناصر وأسند ظهره إلى المقعد وهو يتأمل رجله المخلص:

ـ «أليس من الظلم يا سامى أن أعيش فى هذا الحصار؟.. رجل يطالب بالحرية لكل الشعوب ويطلب الاستقلال لمنطقة بكاملها، وتكون لديه إشكالية فى حريته الخاصة حتى فى نوع الطعام الذى يتناوله عند صديقه؟»

رد سامى شرف بشكل فورى:

«زعيم مثلك يا فندم يصنع التاريخ لابد أن نخاف عليه»

ضحك عبد الناصر ضحكة مفاجئة:

ـ «أنت تقول يصنع التاريخ.. والنكسة ألهمت الظرفاء بقول آخر هو أننى أغير الجغرافيا.. هل رأيت مدى قسوة هذه الحقيقة، أنا فعلا غيرت الجغرافيا.. سيناء الآن بيد اليهود.. هذا الشعب لن يرحمنى حتى أستعيدها له»

ـ «وسنعيدها يا فندم بإذن الله»

ـ «ليس بالسهوله التى قلتها الآن.. أنت لا تتعامل مع جنرالات اليهود فقط.. فالجنرالات خاضعون للحاخامات الذين يحرمون إعادة أى أراضٍ يستولون عليها.. هكذا أغلقوا الموضوع على أنفسهم وليس علينا فقط»

ـ «يا فندم سنواجه سلاحهم بسلاح، وعقيدتهم بعقيدة، ولؤمهم بلؤم»

تأمله عبد الناصر قليلًا:

ـ «أى لؤم تقصده، لم أسمع منك مثل هذا الكلام من قبل»

تلجلج سامى شرف لحظيًّا، ثم تخلص من حرجه قائلًا:

ـ «هكذا كان يتحدث السيد أشرف بركات عندى حالًا، وأتى من الأمثلة الشعبية بمثل يقول «اللى تخاف منه خليه فى حضنك.. وهذا نوع من اللؤم المطلوب»

هتف عبد الناصر على الفور:

ـ «غبى.. المثل ليس هكذا.. المثل يقول.. «خليك فى حضنه».. فكيف نضع أنفسنا فى حضن اليهود.. ما هذا التهريج؟»

ولكن سامى شرف كان له اهتمام آخر:

ـ «لا يهمنى صحة المثل يا فندم من عدمه.. ما يهمنى هو نوع تفكير أحد رجالك..»

فهم عبد الناصر ما يصبو إليه رجله:

ـ «لا تكبّر الموضوع.. أشرف بركات رجل له حدوده ومطامعه الصغيرة، الفيلا والسيارة والسائق والملابس الأنيقة.. وكلها مظاهر تعويضية عن أيام الفقر التى عاشها وما زال يحدثنى عنها ـ حتى اليوم ـ بسخرية توجع بطنى من كثرة الضحك.. لا تخشى جانبه..»

ـ «إنه يتحدث يا فندم عن أحضان مع اليهود»

تأمل عبد الناصر وجه سامى المنزعج كطفل:

ـ «يا سامى.. الذى على الشط عوّام.. لكنه لو كان غارقًا فى الماء مثلى لما جرؤ على مثل هذا التفكير، فأين سيذهب من الشعب؟ خلاص يا سامى الناس فهموا الفرق بين الحرب والمعركة، والفرق بين السلام والاستسلام، والفرق بين الشراكة والتبعية، ولن يأتى بعدى من يسّوق لهم الاستسلام فى شكل سلام، أو التبعية فى شكل شراكة، أو ينسحب من الحرب لمجرد الانكسار فى معركة»

ومد الرئيس يده فالتقط علبة سجائره:

ـ «عمومًا.. هات ما عندك.. ولا تنس أن تبلغ أشرف أننى سأزوره مساء الخميس بلا ضجة كالعادة..»

فقال سامى بصوت خفيض:

ـ «وأنا أرجوك يا فندم..»

وقبل أن يكمل جملته قاطعه الرئيس:

ـ «أعرف رجاءك.. لا تخش شيئًا.. لن أفاتحه فى موضوع حضن اليهود.. سأتناسى هذا الذى سمعته»





الزلزال وتوابعه

تحسس السيد النحال جيبىْ سترته، ثم تحسس ذاكرته ليطمئن على ما بها من ترتيب، ثم تنفس الصعداء وأحس أن الساحة قد خلت له عندما خرج حلمى عبد الباقى وتبعه فى الخروج أشرف بركات.

اقترب منه موظف وبيده أوراق، فاكتشف بعد قليل أنها تحوى خطابه للرئيس والمطلوب منه أن يكتب على ظهر الورقة الأخيرة تنازلًا ينقله عن ظهر قلب من ورقة مرفقة.. لم يهتز للحظة وهو يرى أن ما سوف يكتبه هو تكذيب صارخ لكل ما جاء فى شكواه.

قال للموظف:

ـ «سأكتب كل ما تريدون، ولكنى أريد التحدث مع السيد سامى شرف»

قال له الموظف:

ـ «إنه الآن بمكتب سيادة الرئيس»

ـ «ألا يمكننى أن أنتظره؟»

ـ «إذا كان الأمر يستحق ذلك، فى أى أمر تريده؟»

ـ «أريد أن أؤكد له أننى مواطن صالح»

ابتسم الموظف فى أدب وهو يتفحصه باستغراب:

ـ «وكيف يؤكد الناس لبعضهم البعض أنهم مواطنون صالحون؟»

مد السيد يده فى جيب الجاكت الأيسر، وأخرج رزمة من أوراق البنكنوت، ثم مدها فى الجيب الأيمن وأخرج رزمة أخرى.

ـ «جئت أتبرع بكل أموالى للمجهود الحربى»

ـ «كل أموالك؟»

ـ «كل أموالى التى ادخرتها لحفل عرسى وشراء جهازى»

ـ «وكم هذا المبلغ؟»

ـ «ألفان من الجنيهات..»

ـ «فيم تعمل يا أستاذ؟.. أقصد ما هى وظيفتك؟»

ـ «صاحب أملاك.. عندى محلات كوافير»

ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى :

ـ «أنا أقول للناس أننى صاحب أملاك على سبيل الفشخرة.. لكنها ليست أملاكًا من التى تستحق التأميم»

ولم يكن من المتوقع أن يهب هذا الموظف لتلقى مكالمة تليفونية راح يتحدث فيها مع الطرف الآخر بصوت مسموع، ثم ما لبث أن أخفض صوته وهو يهمس إلى محدثه باعثًا بنظراته من آن لآخر نحو السيد النحال .

عاد الموظف ووجهه يطفح بالسرور، ثم سأل ضيفه:

ـ «أتدرى من كان يتحدث معى الآن بالتليفون؟»

وعلى الفور أجابه السيد:

ـ «السيد سامى شرف نفسه هو الذى كان يتحدث معك»

نظر إليه الموظف بإعجاب:

ـ «وكيف عرفت؟»

ـ «لأنك وأنت تحدثه كنت تبعث بنظراتك ـ من آن لآخر ـ نحوى»

أعاد الموظف نظراته المعجبة نحوه:

ـ «من الواضح أننى أمام شخص حاد الذكاء، فكيف تورطت فى كل هذه الإشكاليات التى ذكرتها فى خطابك؟»

ـ «لن أعود إلى هذا الموضوع إلا فى نقطته الأخيرة وهى كتابة الإقرار»

وهب الموظف مرة أخرى إلى رنين التليفون مسرعًا، وراح السيد يتابعه من بعيد إلى أن

سمعه يقول قبل أن يضع السماعة:

ـ «**حالًا يا فندم**»

وهرول نحو السيد صائحًا:

ـ «**سيادة الرئيس فى انتظارك**»

وبوجه مشدود ونظرات مذهولة سأله السيد:

ـ «**سيادة الرئيس..؟.. فى انتظارى أنا؟**»

أسرع الموظف فأتى بمظروف وقدمه إليه:

ـ «**ضع نقودك هنا.. وابقها معك.. وهيا بنا ..**»

وراح الموظف يهذب من ربطة عنقه، ويتابع السيد وهو يضع البنكنوت فى المظروف ويتحدث مع نفسه:

ـ « **من الواضح أنك أبلغت السيد سامى شرف بقيمة تبرعى**»

فقال الموظف:

ـ «**ومن الواضح أيضًا أنه أبلغ سيادة الرئيس أنك جئت لتتبرع بثمن جهاز عرسك وحفل زفافك.. أنا أعرف الطريقة التى يثلج بها صدر الرئيس عندما يؤكد له تفاعل الشعب معه**»

أسرعا فهبطا الدرج.. وغادرا المبنى.. وعبرا الشارع إلى استراحة الرئيس.. وفى الصالة الهادئة واجهته الصور المشرعة فوق رخامة المدفأة وكلها لرؤساء الدول وأصدقاء الرئيس من الزعماء المشهورين.. جلسا على كرسيين متجاورين.. ثم اقترب منه رجل يحمل كاميرا ألقى عليه نظرة متفحصة، سلم عليه وسأله عن اسمه وراح يرتب له ربطة عنقه. وقال له بصوت شديد الخفوت:

ـ «**لا تنظر إلى الكاميرا وأنا ألتقط الصورة، انظر إلى سيادة الرئيس وأنت تصافحه**»

وجلس الرجل بالقرب منهما وهو ينظر فى ساعته، ثم همس للموظف:

ـ «**سنلحق بالطبعة الأولى بإذن الله**»

اهتز بدنه.. وغامت عيناه.. «**ما هذا الذى أسمعه؟.. صورة مع جمال عبد الناصر؟.. كان أقصى ما تمنيته أن أتحدث مع سامى شرف وأقدم له تبرعى.. ظللت أرتب لذلك دون**

علم آل بركات.. بدأت فى ذلك فور علمى أنهم يريدوننى هنا، فأنا لم أصدق أن أشرف بركات أتاح لى فرصة الدخول إلى هذا المكان.. وقررت أن أضع بصمتى فيه بطريقتى قائلًا لنفسى من الغباء أن تدخل إلى أعلى مكان فى مصر المحروسة وتخرج منه كما دخلته.. وهاأنذا سأخرج منه بمصافحة رئيس الجمهورية نفسه.. لا أكاد أصدق نفسى.. لا أ.. »

وفتح الباب المقدس وأطل منه سامى شرف وأومأ إليه بالدخول.. أشار له المصور بالتقدم وسار خلفه بهدوء.. حبك سترة بدلته وقبض على مظروف المال بيده اليسرى وتقدم بخطواته التاريخية..

بادر فصافح سامى شرف بانحنائة بسيطة.. ثم لمح شبحًا عملاقًا يقف خلف مكتبه.. قفز المصور من جواره إلى منتصف الغرفة وتهيأ لعمله المطلوب.. توقف ابن النحال للحظات ورنا إلى الرئيس بابتسامة أخفى ارتعاشها، خرج الرئيس من خلف مكتبه وقابله فى وسط الغرفة.. وامتدت إليه اليد العملاقة فدفن فيها راحته، وبرقت الكاميرا مرة بعد مرة.. لم يكتف الرئيس بالمصافحة لكنه ربت على كتفه، وازدادت ابتسامته وهو يعود إلى مكتبه.. هرول المصور مودعًا المكان بانحنائة.. تأمله الرئيس بابتسامة عريضة..

ـ «اسمك السيد..؟ اجلس يا سيد»

قبل أن يرد عاد فسأله الرئيس:

ـ «وعروستك يا سيد عرفت أنك ستتبرع بفلوس الجهاز؟»

فهم للتو أن سامى شرف لم يأت على ذكر واقعته الأصلية، وألبس الزيارة ثوبًا زاهيًا يسر الناظرين وأولهم الرئيس..

ـ «فوزية خطيبتى كانت تتمنى أن تأتى معى؛ لأنها عانت مثلى مما عانيته منذ أن سمعنا معًا خطابكم فى مجلس الأمة؟»

ـ «ولم المعاناة؟»

ـ «ما قلته سيادتكم عن الحصار الاقتصادى الذى يضربونه علينا حتى لا نشترى القمح، وبعد أن خسرنا بترول سيناء، ودخل قناة السويس ودعم مؤتمر الخرطوم الذى انخفض إلى ١٤٪ بعد هبوط الجنية الإسترلينى.. وأصابنا الحزن عندما قلت سيادتك إنهم

يحاولون تجويعنا لولا دعم مؤتمر الخرطوم.. وقلت لنفسى من الأولى أن يأتى الدعم من الداخل لا من الخارج..»

رمقه الرئيس بإعجاب، ثم واجهه بابتسامة مشرقة:

ـ «وأنت ناوى تلغى الفرح؟.»

ـ «لن ألغيه، ولكنى سأجعله محدودًا جدًّا»

ـ «مضبوط.. هذا ما كنت سأطلبه منك.. لا بد أن نفرح رغم كل شىء.. لا بد للحياة أن تستمر وتسير.. وشكرًا على شعورك الوطنى يا سيد..»

فلاحقه السيد :

ـ «والعمل.. العمل يا فندم أهم من المشاعر.. عندى قطعة أرض قمت بتأجيرها لسيارات الحكومة بأجر رمزى.. وأجلس مع العمال والسائقين أشجعهم على العمل.. لابد أن نعوض خسائرنا يا فندم وسيادتك تركز على ذلك فى خطاباتك..»

ابتسم الرئيس مع ازدياد إعجابه ودهشته:

ـ «واضح يا سيد إنك غاوى سياسة.. وثقافة»

ثم نظر إلى سامى شرف متسائلًا:

ـ «مؤتمر الاتحاد العام للعمال يا سامى قررتم عقده فى أىّ مكان؟ فى حلوان أم فى شبرا الخيمة؟»

رد سامى شرف مسرعًا:

ـ «فى حلوان يا فندم.. فى مارس القادم بإذن الله..»

ـ «إذن، أرسل دعوة للسيد ليحضر هذا المؤتمر.. شكرًا يا سيد.. اترك ألف جنيه فقط للتبرع واحتفظ بالأخرى وسيحضر مندوب من الرئاسة حفل زفافك»

ونهض الرئيس ومد ذراعه بطولها ليسلم عليه، فانتفض السيد ومد يده مصافحًا وهو يتأمل مظروف المال.

وفهم سامى شرف إشارته فأشار له إلى الخارج:

ـ «هناك فى المكتب.. سيقومون بكل شىء..»

لم ينم ليلته، وهرب من الفيلا إلى شقة المنيرة؛ حيث لا تليفون يمكن أن يحدثه به حشمت.. وصحا مبكرًا حتى يمسك بكل الصحف بين يديه ويرى أن ما حدث بالأمس كان واقعًا لا خيالًا، وكان فعلًا لا وهمًا.

هذه صحيفة الأهرام تنشر الصورة والخبر بصفحة داخلية، والأخبار والجمهورية تنشرهما بالصفحة الأولى:

- «الرئيس يوجه الشكر للمواطن السيد عباس النحال الذى تبرع بمصاريف حفل زفافه للمجهود الحربى»

- «التبرع يرمز إلى تفاعل الشباب مع قضية الوطن»

- «الرئيس يقول: لا بد للحياة أن تسير وتستمر بالأمل والعمل، ويشجع المواطن على عمل حفل الزفاف»

- «مندوب الرئاسة يشارك فى حفل الزفاف تكريمًا للمواطن النحال»

- «النحال: لايجب أن نعتمد على الدعم من الخارج.. يجب أن ندعم المعركة من الداخل فالأعداء يحاولون تجويعنا»

- «الرئيس يأمر بمشاركة المواطن السيد النحال فى مؤتمر الاتحاد العام للعمال المقرر عقده بحلوان فى مارس القادم»

أما الصورة، فقد خطفت قلبه وطارت به إلى ساحات الدهشة والذهول.

* * *

وضربه الزلزال فقد ظن أن هذا الحادث - كما أسماه بينه وبين نفسه - الذى علا به وعلا حوله ستخف حدة انفجاره بعد يوم أو يومين، ولكنه صار الانفجار الذى يترامى ويتسع يومًا بعد يوم كفراغ الكون.

وقد ظن أن من يسعون للقائه ومباركته هم فقط هؤلاء الناس الذين يعرفونه ويعيشون حوله لكنه صار يستقبل أناسًا لا يعرفهم، ولكنهم أصبحوا يعرفونه.

وقد ظن أن الستار المهيب سيسدل على تلك اللقطة التى أضاءت صحف القطر المصرى، لكنه صار الضيف المطلوب فى كل صفحات المجلات وبرامج الإذاعات، وحوارات التليفزيون، وراح يعيد عليهم فقرات حفظها عن ظهر قلب من خطاب الرئيس يطعم بها أحاديثه.

«لا تنسوا أن ألمانيا احتلت أوروبا فى الحرب العالمية الثانية لولا تشرشل الذى لم يعترف بالهزيمة وقرر أن ينكمش مثل القوقعة التى فقدت صدفتها، وقال لشعبه لابد أن نصبر حتى نربى صدفتنا من جديد. الصدفة هنا هى الدرع.... وجمال عبد الناصر يفعل ذلك.. يجهز الدرع.. ولابد أن نقف معه كما وقف الإنجليز مع تشرشل.. »

ـ «الله يخرب بيتك يا ابن النحال.. ما هذا الولد المصيبة؟»

هكذا هتف أشرف بركات والغليون فى فمه، وحشمت بجواره، وحلمى عبد الباقى يعالج دهشته بالصمت وهم جميعًا أمام التلفاز. ثم ـ ومن خلال ضحكاته المتقطعة ـ راح يوجه حديثه إلى أخيه:

ـ «شفت يا حشمت.؟ هل صدقتنى الآن؟ هذا السفاح تبرع بفلوس الحشيش وبراءة الأطفال فى عينيه.. وضع جمال عبد الناصر نفسه فى جيبه.. وجعل الإعلام المصرى تحت أمره.. الداهية ذهب معنا إلى الرئاسة لسبب يخصنا، لكنه كان يرتب لنفسه شيئًا يخصه.. داهية»

وهتف غريمه حلمى عبد الباقى:

ـ «يجب أن نسلم أنه ذكى وداهية ويملك مشروعًا لا يعرفه إلا هو»

ووافقه أشرف بركات على الفور:

ـ «مشروعه ركوب الموجات، أو خلق هذه الموجات إن لم يجدها.. قلت عنه إنه سياسى بالفطرة.. ها هو يركب موجة المجهود الحربى وولع الرئيس بالشباب الوطنى الناهض..»

وجذب حلمى عبد الباقى نسخة من مجلة المصور وراح يقرأ منها بصوت عال:

ـ «الرئيس عندما تنحى كان يقول للشعب سأنصرف؛ لأنى لن أقبل الحلول الاستسلامية التى تُفرض على، ثم تراجع عن التنحى عندما تأكد أن الشعب فعلًا يرفض الحلول الاستسلامية، وأن الناس يقفون معه.. ما رأيك فى هذا التحليل؟»

فهتف أشرف بركات:

ـ «تحليل عجيب ومقنع لا يرسله ابن النحال للناس، لكنه يرسله إلى جمال عبد الناصر نفسه.. إنه غزل سياسى من ولد عبقرى.. يا ألله.. معقول هذا الولد؟»

ثم لاذوا جميعًا بصمت الدهشة والإعجاب والسخرية..



هل لسافل مثلك أن يصبح ملكًا؟

وصار سيره ركضًا، ثم صار ركضه وثوبًا، وتمادى السيد النحال فى سرعته بأكثر مما استطاع خياله الجامح أن يلهمه به، وصار الإعداد لحفل زفافه على الآنسة فوزية حمدان الموظفة بالعلاقات العامة بمجلس الأمة هو المهرجان المثير الذى سيجمع كل شخوص حيواته المتعددة.. نخبة من أهل البلد.. ونخبة من تجار الحشيش.. ونخبة من حرافيش الجراج.. ولا مفر من زيارة ثانية من أمه وأبيه اللذين أتى بهما عنتر مكاوى، وبعدهما عوض وعاشور وعرفة، وشقيقاته، ثم جوقة أمير ونساؤه المتصابيات.. وفى الصدارة موتور اللذات حشمت بركات، وأفراد مملكته فريق الأحجار الكريمة والأنفاس العطرة والدخان السماوى المنعقد دومًا فى فراغ لا يمل من الشبع. وفى صدر الصدارة مندوب الرئاسة.

وقال لنفسه:

ـ «لا زفاف.. بلا حشيش.. ولا فرحة بلا دخان.. ولا بهجة لحشد يهوى السطل دون أن ينسطل..»

* * *

وعندما أخذ أمير يقلب بطاقة الدعوة المذهبة بين يديه كان يعيد قراءة مسمى وظيفة العروس.. ويغمغم..: «متى.. وكيف؟..» لكنه لم يعثر على إجابة إلى أن تاه مع ضيوفه فى هذا الحشد الهائل من المدعوين الذين احتلوا ركنًا من أرض الجراج داخل سرادق غارق فى سماء من الكهرباء البلورية تتصدره كوشة العروسين ومنصة عالية للفرقة الموسيقية.

لم يجلس مندوب الرئاسة طويلًا وتحرك وسط رجاله مودعًا بسلام موسيقى، وخلا

كرسى الصدارة المذهب العالى من رجله الفخيم، وظل الكرسى المجاور الذى كان يشغله السيد أشرف بركات مشغولًا لدقائق قام بعدها ليصافح العريس والعروس مودعًا.. ولكن العريس كان له رأيه الآخر.. فقد همس لضيفه الكبير وكان يسمعهما حشمت الذى يقف بجانبه:

ـ «وليمتك الفاخرة جاهزة فى مكان لا يخطر على البال.. غرفة نومى.. بعد العشاء المجهز سيكون فى انتظاركم صنف مذهل.. عندما تعطر غرفتى به سأستمد فحولتى من كرمك.. أرجوك لا ترفض دعوتى»

* * *

وفوق مخدع الزوجية ـ الذى لم يمس ـ تربع حشمت بركات وجلس قبالته أشرف على كرسى عريض وأمامه منضدة رخامية، تناهت إلى أسماعهما الموسيقى الصادحة والتحايا الزاعقة، ويدأ عنتر مكاوى «وكله» مشاويرهما من المطبخ إلى المائدة، فهجمت رائحة الطعام الشهى على خياشيم حشمت فسال لعابه، وعلق على ذلك قائلًا لأخيه:

ـ «أراهن أن هذا الطعام من صنع يديها.. العروس.. فوزية»

ـ «إذن، فقد سبق لك أن جربته»

ـ «كثيرًا.. جدًّا»

ضحك أشرف بركات قبل أن يغمز بعبارته:

ـ «وبدون زرنيخ.. طبعًا!!»

ـ «لا وجود للزرنيخ بعد أن نقلت حكمت وبشاير إلى دار للمسنين فى مصر الجديدة.. ظل يحاول فى ذلك ستة أشهر، وقدمت له هذه الخدمة فى نصف ساعة..»

ـ «من أجل هذا أخذ راحته فى تجديد الفيلا من الداخل والخارج»

ـ «من حكم فى ماله ما ظلم»

وبعد العشاء الذى استطعمه أشرف، وفى مهلة عابرة بين تعميرتين، توجه حشمت نحو أشرف بفكرة بدت كأنها قد طرأت على باله حالًا:

ـ «فوزية.. إحدى موظفاتك بالمجلس.. ماذا لو ضممتها لطاقم موظفيك بالقصر؟..

إعارة.. تُشْرف فيها على مطبخك.. وتصفف للهانم شعرها»

تفحصه أشرف:

ـ «أهذه مؤامرة؟»

تلجلج حشمت: «أى مؤامرة؟»

ضحك أشرف: «مؤامرة على قوامى الرشيق لأصير مترهلًا مثلك؟.»

بادله الضحك، ومال إليه متحدثًا بصوت خفيض:

ـ «صدقنى.. الهانم ستسعد بها للغاية.. ولا تنس أن الرجل الكبير صار يعشق سهرات الخميس الليلية عندك.. جدد له فى شكل الأصناف وعددها»

أطرق أشرف بركات برأسه قليلًا ورمق وجه أخيه بنظرة مخاتلة متفحصة:

ـ «دعنى أتحدث مع الهانم، فإذا وافقت سأبلغك بذلك»

* * *

وكان حشمت هو الأسرع بمفاتحة الهانم بشأن هديته إليها:

ـ «خبيرة يا هانم فى تصفيف الشعر.. وطاهية مبدعة، اسألى زوجتى عنها.. هى تعرفها»

ـ «سوف أسألها.. إذا شجعتنى سأطلبها من أشرف»

* * *

ثم أسرع إلى زوجته فأقنعها بفكرته الاقتصاديه:

ـ «وستكون تحت أمرك فى أىّ وقت.. ومجانًا.. كل ما عليك هو إقناع مدام أشرف بالموافقة على نقلها»

* * *

أما فوزية، فما إن قضت إجازتها الاستثنائية التى صرفتها فى شهر العسل، والتى ما إن عادت إلى عملها بالمجلس حتى وجدت قرارًا بانتدابها إلى استراحات الرئاسة..

أسرعت إليه، فظل يسمعها وهى تنقل إليه تعاستها لأنها تخسر مكانًا ارتاحت إليه وارتاحت به وهى لم تكد تهنأ بصديقاتها الجدد فيه.. فأقنعها بما ينتظرها من عز فى موقعها

الجديد.. فهى فى المجلس واحدة من عشرات.. لكنها فى القصر ستكون واحدة تالية لربة البيت.. والمسيطرة الكبرى على مملكة المطبخ، فسألته منزعجة:

- «هل جعلتنى طباخة؟..»

- «لا يا حلوة.. أنت مديرة القصر..»

- «فى أى قصر سأعمل؟»

- «قصر أحد كبار الرجال فى مصر المحروسة.. الرجل الذى يجلس قريبًا من العرش.. لا تقلقى أنى أصعد بك سلم المجد..»

«ما هو المجد لطباخة حتى لو كان مكانها قصرًا منيفًا؟!!»

هكذا همست لنفسها وهى ترمق حشمت بركات بروح المغلوبة على أمرها. فهى لا تنكر أنه نقلها معززة مكرمة من بئر الحيرة والتمزق إلى وادى الأمان والراحة، وأنقذ زواجها من السيد النحال، وقام بتوجيهه إلى ما هو فى صالحها.. فطلق خميسة.. وأخلى لها الفيلا من حكمت وبشاير.. وأتاح للسيد فرصة لقاء جمال عبد الناصر نفسه - هكذا أفهمها - فهو رجل يحرك الدنيا من مقعده.. إذ سرعان ما أتحفها بوظيفة عالية كتبوها بماء الذهب فى بطاقات الفرح. وها هو ينقلها بإشارة إلى قصر عال يقول إنها ستصبح مديرته..

«فإلى أين ستذهب بى يا من عقدت لى زفافًا أسطوريًّا على زوجى.. وعبقت غرفة نومى بالحشيش قبل وصولى إلى سرير الهناء بساعات قليلة!!»

* * *

وذات ليلة من ليالى الخميس دبت حركة نشطة فى قصر أشرف بركات.. وعرفت فوزية من سيدتها أن القصر سيحظى بتشريف ضيف كبير، وقال لها واحد من طاقم الخدمة بقدر كبير من الرهبة:

- «ضيف كبير، يجب أن يسلم المُضيف بأنه هو الذى فى ضيافته.. قولى إنه الكوكب السيّار.. والبحر الذى لا يزور ولكنه يُزار..»

عكفت على تجهيز الأصناف المطلوبة.. وانتهت منها بالانتقال إلى جناح سيدتها

لتصفف لها شعرها.. لم تجدها على حالها المعروف من الهدوء والرزانة.. وجدتها متعجلة مضطربة وهى تلقى بأوامرها إلى الخدم.. وعرفت أن مرور الكوكب السيار هو السبب..

شاهدته من شرفة فى القصر يخطو إلى الحديقة بجسده الفارع وضحكته المشرقة، وأنفه المميز.. وشعره المتموج اللامع..

اقشعر بدنها.. إنه هو.. هو.. لا يمكن إلا أن يكون هو: الكوكب... والبحر.. والبشرى الذى يهرول أمامه كل البشر..

وعرفت أن المجد الذى وعدها به حشمت هو أنه منحها شرف إطعام.. جمال عبد الناصر.

* * *

كانت بين أحضان حشمت بركات تنعم ـ رغمًا عنها ـ بلذة مسروقة من شرف مستباح لسارق عظيم هو زوجها السيد النحال عندما قالت له:

ـ «عندما شاهدت جمال عبد الناصر اقشعر بدنى، وعرفت معنى ما قلته لى أنك ستصعد بى سلم المجد، فمن الفخر لواحدة مثلى أن تطعمه»

ـ «أفهم من هذا أنك تحفظين كل جمائلى»

ـ «مدى الحياة»

ـ «ولن ترفضى لى طلبًا»

ـ «ألا ترى بنفسك أين نحن الآن؟»

أزاح حشمت بركات الملاءة جانبًا فانكشف جسده العارى..

انزلق من حافة السرير.. فتح الدولاب.. أتى بشىء منه.. تبين لها أنها زجاجة الزرنيخ.. رفع الزجاجة المليئة أمام عينيها وهى تدور بين أصابعه:

ـ «سوف تضعين له ضعف الكمية التى اعتدت على وضعها لحكمت وبشاير»

ـ «لمن؟.. أضعها لمن؟.»

ـ «للضيف الكبير..»

فزعت .. وانتفضت.. وهبت من رقدتها.. وصرخت:

ـ «ياهوى.. لجمال عبد الناصر الـ..»

سد فمها براحته.. تخلصت منها.. رفعت رأسها للخلف.. أكملت صرختها:

ـ «يا مصيبتى.. قلت إنه سم.. حرام أن..»

عاد فسد فمها وراح يهز وجهها حتى صمتت.. وراح يحدثها بهدوء:

ـ «تتحدثين عن الحرام أيتها القاتلة.. من قال إنك تعرفين الحرام؟ أنت وابن النحال ما زلتما فى قبضة يدى.. وجسم الجريمة معى، أنا ما وضعت حكمت و بشاير فى الدار إلا لأسيطر على تقرير الأطباء عند موتهما أنتما لن تفلتا بالفيلا والأرض مجانًا... ثمنهما هو شنقكما..»

ـ «لم أكن أعرف.. لم أكن أعرف... ولن أفعل ذلك مرة ثانية»

هوى على وجهها بصفعة :

ـ «أرأيت خداعك؟.. ها أنت ترفضين طلبى..»

صرخت به:

ـ «كنت أقصد طاعتك فيما نحن به الآن.. لم أكن أعرف هدفك القذر»

ـ «زواج.. وفيلا.. ووظيفة.. وعرس كبير.. وتطليق خميسة.. كل هذا حتى أنام معك؟.. لماذا؟.. من أنت؟»

ـ «لو كنت أحب زوجى الكلب ما سلمتك نفسى، فأنت أكثر جبروتًا منه.. ارحمنى»

قام إلى الدولاب فأتى ببعض الملابس وألقاها أمامها:

ـ «ارتدى ملابسك»

ـ «هذه ليست ملابسى، ملابسى هناك على الشماعة»

ـ «ستتركينها هنا.. حتى يراها زوجك»

ـ «هل يأتى إلى هنا؟»

ـ «هنا.. يقابل عشيقاته..»

ـ «أنت تصنع لى فخًا.. ولكنه قد يقتلك»

ـ «هذا لو كان يملك شرفًا يدافع عنه.. إنه يتحرر من كل شىء حتى الشرف نفسه»

- «كلكم بلا شرف.. أقولها من سرير الزنا لرجل يتجه لقتل عبد الناصر»
- «أنتم قتلتم للحصول على فيلا.. ولكنا نقتل للحصول على المُلك يا زانية»
- «وهل لسافل مثلك أن يصبح ملكًا.. حشاش ولص وزان»

تقدم منها، وهوى بكفه الثقيل على وجهها فتكومت على نفسها وانخرطت فى البكاء، ولم تعد ترى أمامها إلا أشباحًا من دنياها الغائمة.. طاهر زين الدين.. أين هو الآن؟.. هو يعبر خيالها ممددًا على الترولى وفى عينيه حسرة وفى قلبه وجع وهو يستسلم لدافعيه إلى غرفة العمليات لبتر ساقه.. إنه استسلامه الأخير لهزيمته الأخيرة فى مسلسل هزائمه المريرة.. الآن فى فمها بقايا طعم عذب لأيام بريئة كان الحب الصادق فيها هو شعورها العظيم بروعة الحياة.. الآن ليس فى فمها سوى طعم القيح والصديد والشعور بالضياع وهى على متن موجة عالية جبارة تتجه بها إلى ظلمة البحر وأفواه الحيتان.

- «أعطنى ملابسى»
- «سأهدم الدنيا فوق رأسك»
- «لو كشفونى سأذهب إلى المشنقة»
- «لن يكشفك أحد»
- «هل سأضعه فى الطعام أم فى الشراب»
- «فى كليهما معًا.. سأعلمك..»

وانكفأت على نفسها تبكى. وعبرت بخيالها فى لحظة خاطفة صورته وهو يلوح للجماهير من سيارته المكشوفة. ثم هو يمرق أمامها بابتسامة المضيئة والناس حوله يجأرون بالهتاف: «ناصر... ناصر...» فعلا نحيبها وهى تنادى: «حرام.. حرام.»



تنصيب اللاعب الغائب ..

انطلت عليه ـ هو نفسه ـ فكرة أنه صار ثوريًّا، وأنه يتمتع بشرعية النظام الذى يدور فى فلكه، وصار يردد فى جلساته جملًا بعينها من خطب جمال عبد الناصر، وتعددت جلساته ثم انتشرت من مكتبه الخاص، إلى المجلس المحلى، إلى مقر الاتحاد الاشتراكى، ثم اختلطت أعباؤه غير البريئة بهذه الأعباء البريئة، وامتزجت شخوصه الخالية من البراءة بشخوص لهم بريق البراءة. وزاد معدل اقتناعه بأهميته عندما رأى هذه الأهمية فى عيون من يتعامل معهم.. لكنه ـ وهو السابح توًّا فى بحر السياسة ـ اكتشف أن العوم والسباحة فى هذا البحر ليسا بحاجة إلى موهبة عظيمة إنما وجد أن حظه العظيم تمثل فى أن من سبقوه إلى هذا العمل تعوزهم الكفاءة .. وكان قد اتفق مع نفسه أن كفاءة السياسة قوامها النفاق وعمقها التآمر، وهو بالصدفة يملك منهما الكثير.

وبدءًا من مشاركته بمؤتمر الاتحاد العام للعمال بحلوان تعمد أن يلفت إليه الأنظار، واستثمر فرصته فى الحصول على مداخلة أمام الرئيس فأعلن، أن ثورة الطلبة ضد أحكام الطيران ثورة نبيلة تعبر عن عمق وطنية هؤلاء الطلبة:

ـ «فهم غيورون على بلدهم يا سيادة الرئيس، ولا ذنب لهم فى توسيع نطاق الإضرابات بعد أن أندس بينهم أعداء الثورة هؤلاء الذين أسميتهم سيادتك بالثورة المضادة..»

وظل ينقر على هذا الزجاج نقرًا خفيفًا حتى أيقظ النائمين خلفه، فتساءلوا: من هو هذا القادم الجديد؟.. هل الثورة ترتدى ثوبًا جديدًا، وتولد وجوهًا جديدة؟..

لكنه بينه وبين نفسه ومن خلال محاوراته مع أشرف بركات تارة وحشمت تارة أخرى أيقن أنه لا ثوب جديد، ولا مرحلة جديدة لكنه الخوف والقلق .. فالهزيمة ثقيلة، والثقة

مهتزة، والإمكانات محدودة، والعدو شرس، وعبد الناصر تولاه الإرهاق، ويوارى ذلك حتى عن نفسه.. وصارت آلامه النفسية أنه لم يعثر على مخرج يحفظ كرامته، ويعزز عزته التى لا يود لها الغروب فهيبته امتزجت بهيبة الوطن.. وهو - والحق يقال - لا يزال حريصًا عليهما ..

* * *

وظل السيد النحال يراقب اللحظة التى من الممكن أن يتحول فيها جمال عبد الناصر إلى كلاف البهائم عباس عبد المحسن النحال.. فأبوه كان راعيًا فقد السيطرة على رعيته بعد أن فقد مقومات الراعى، ولم يكن له أن يقف مع أولاده موقف المربى الفاضل وهو الذى لا يملك لهم فضلًا أو يتقن تربية، فهو ضائع مثلهم فتحول إلى رجل يحركه الضياع ويوجهه ضعفه فصار يشجع مثالب رعيته..

وانتهى السيد عباس عبد المحسن النحال وهو يضع صورتين متقابلتين لكلاف حقير وزعيم مذبوح إلى أن الضياع قتل الأول والخوف من الضياع يقتل الثانى ببطء شديد، وأن الضائع الأول قد نام نومة الاستسلام بعد أن غفت فى أحضانه البائسة فكرة اللاجدوى، أما الزعيم القلق فهو رب المنزل الذى وثق أن اللصوص قد عرفوا طريق منزله وسرقوا طرفًا منه، وقد يكونون فى طريقهم لسرقة الباقى.. وصار القلق لا يجعله ينام وهو ينصت إلى دبيب الأقدام تقترب منه فصار يوقظ رعيته بين وقت وآخر صائحًا بهم: انتبهوا.. انتبهوا..

وفى كرسيه بالصفوف الأولى لم يمل من سماع هذه التحذيرات التى يصدرها الزعيم.. فى المكتب المركزى لاتحاد العمال العرب، وفى المؤتمر الشعبى بالمنصورة، وفى جامعة القاهرة، وفى عيد العمال بكفر الدوار.. وفى المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى بجامعة القاهرة.. أحاديث، وخطب، ولهاث، وخوف، وقلق:

لابد أن يسيطر الشعب على حقوقه.

لابد أن يحافظ الشعب على وسائل إنتاجه.

الثورة المضادة تسعى لتحقيق أهدافها لعودة سيطرة الإقطاع.

الثورة المضادة تسعى لعودة سيطرة رأس المال.

أعداء الثورة يتحالفون فى الخفاء مع القوى الغربية.

العمل السياسى لم ينشط النشاط الكافى.

نحن بحاجة إلى النقد الذاتى لنواجه التجريح فى الثورة والاشتراكية.

* * *

اقترب من مثله الأعلى أشرف بركات وسأله:

ـ «لم أفهم يا فندم موضوع النقد الذاتى ،الذى تحدث عنه السيد الرئيس»

ـ «أنت تفهم، لكنك تريد التأكد من صحة ما تفهمه»

ـ «ولكنى أريد أن أفهم منك»

ـ «أكنس من عقلك أولًا كل مفاهيمك الجديدة. فربما تفهمنى.. فأنت حافظ بدوى جديد يبدأ رحلة صعوده بحفظ بيان ٣٠ مارس..»

ـ «أليس هو الميثاق الجديد.؟»

ـ «إذا كثرت المواثيق زادت الفجوات»

ـ «تقصد أنه مجرد كلام»

ـ «كلام فخيم لا يقوى على حماية مؤسسة هشة»

ـ «لدينا مؤسسات كثيرة»

ـ «هى مؤسسة واحدة يقوم عليها رجل واحد.. ويتكرم علينا أحيانًا بأن ننقده»

ـ «فى المؤتمرات العمالية نتحدث أمامه بكل حرية»

ـ «وإلى أين انتهيتم؟.. التفعيل الحقيقى هو وجود حزب معارض»

ـ «الرئيس قال عن ذلك إنه من الخطر عمل أحزاب.. فالحزب الرجعى جاهز للظهور»

ـ «إذن، هناك سرطان فى جسم النظام، ولكنه يهمل الكشف عنه»

تذكر سرطان فخذ طاهر زين الدين، وتأكد أن سرطان طاهر الحقيقى أنه لم يعقد قرانه على فوزية، وتركها نهبًا له تارة ولأمير تارة أخرى.. فوزية كانت المؤسسة الهشة التى كان

من السهل الاستيلاء عليها.. ووجد أنه وأميرًا إذا كان قد تربصا لفوزية فهناك أمراء وأسياد أخر يتربصون لنظام عبد الناصر.. ووجد أنه صورة مطابقة لأشرف بركات.. فهذا الرجل فى حقيقته خارج ـ موضوعًا ـ عن طوع النظام.. تمامًا كما خرج هو عن طوع أبيه بعد أن تأكد أن البقاء فى أحضانه هو الموت بعينه..

* * *

وعندما شاهده يتحدث فى ندوة شعبية كان ينقلها التليفزيون قالت فوزية:

ـ **«هذا هو أشرف بركات»**

ـ **«لا.. إنه هنا أنور السادات»**

وراح يتابع ما يقوله عن تحالف قوى الشعب العاملة، وكيف أن هذا التحالف يجتمع تحت راية الاتحاد الاشتراكى حسب نص الميثاق ليجمع العمال والفلاحين والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية.. ثم راح يؤكد لبعض من يطالبون بإلغاء الاتحاد الاشتراكى وعمل أحزاب بديلة له أنهم يقومون بالقضاء على تحالف قوى الشعب والدخول بنا فى متاهة ديكتاتورية الطبقة العاملة والأحزاب الرجعية، وديكتاتورية الإقطاع ورأس المال.

وسأله فى أول لقاء:

ـ **«أشرف بك.. حتى الآن لم أفهمك.. ولم أتعرف على سياستك»**

وأجابه أشرف بركات وهو يلقم الجوزة فى فمه مبتسمًا فى خبث:

ـ **«سياستى هى أن تظل حائرًا فى التعرف على سياستى»**

وتذكر نصيحة قديمة لرجل كلاف غارق فى الجوع والبلاهة:

ـ **«أنت تتاجر فى الحشيش.. هذه حقيقة.. ولكن اجعلها مجرد ظن لا يرقى إلى اليقين عند الناس»**

ووجد أن فكرة أن يحتار الناس فى أمرك هى قمة السياسة عند أشرف بركات المعجب دومًا بأنور السادات الذى ما زال التاريخ حائرًا فى أمر هروبه إلى السينما فى ليلة الثورة وأنه لم يظهر مع الضباط الثوار إلا بعد أن تحقق لهم النجاح.

وفى ذلك يقول أشرف بركات: «أنور السادات هذا عبقرى.. فهو لم يهرب لينقذ نفسه

من الإعدام إذا فشلت الثورة، ولكنه هرب لينقذ الثورة نفسها بالإبقاء على واحد منها يستطيع أن يفجرها من جديد..»

ثم يضحك مقهقهًا وهو يقول معلقًا على ذلك:

ـ «ولكن جمال عبد الناصر أكثر لؤمًا منه، فعندما كشف خدعته أمره أن يلقى بيان الثورة بنفسه، حتى يكون أول من يُعدم منهم إذا تمكن الملك والإنجليز من القضاء عليهم..»

ولم يتعجب السيد النحال وهو يتلقى أحد دروس السياسة.. فليس من العجيب أن يتآمر السياسى على رفيق دربه، لكن من الملائم أن يبحث لذلك عن ثوب أخلاقى.. فالهرب من أجل إنقاذ الثورة عند أنور السادات: نبل، وأوامر عبد الناصر له بإلقاء بيان الثورة: شرف، وفيما بين النبل والشرف تكمن المؤامرة.. هذه هى السياسة.. ووجد أنه تربى فى كنف كلاف كان معجونًا بالسياسة دون أن يعرف معنى هذه الكلمة.. فشبكة السمك التى سرقها أخوه الصغير كانت تنبئ عن نفسها أنها مسروقة لكثرة ما بها من سمك لا يمكن أن يصطاده بسنارته، لكن عباس النحال بارك للسارق جهده وأمرهم بطبخ السمك فورًا.. والعنوان «**خذ ما تأخذه عنوة.. ما دامت معدتك تقدر على هضمه**».. وربط السيد النحال بين سياسة عباس النحال فى الإمساك فورًا بالسمك وبين قرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس.

* * *

قال له حشمت بركات.

ـ «أخى أشرف يرقب صعودك باهتمام.. ويوصيك ألا تبالغ.. فالنفاق علم له أصوله.. ويذكرك بأنور السادات الذى دق مسماره فى خشبة النظام فى بدء الثورة وصعود نجم جمال عبد الناصر بكتابه الشهير «يا ولدى هذا أبوك جمال» ثم بكتاب آخر، واكتفى بهما، وأخفى رأس مسماره داخل الخشبة.. واحتارت الكماشات فى خلعه.. فالكماشات دومًا جاهزة لخلع المسامير ذات الرءوس البارزة»

* * *

وفى لقائه مع أشرف بركات قال له:

«وصلتنى نصيحتك.. فشكرًا لك.. بريق النفاق كاد يعمينى»

ـ «هذا ما لاحظته.. ولكن يمكنك أن ترتدى ثوب المعارض الحنون.. المعارض الذى قلبه على النظام.. ضع عينك على وزير تافه من غير أهل الثقة وانهل عليه نقدًا شرط أن تمسك ببعض مثالبه، وافعل العكس مع وزير من أهل الثقة.. وانتظر النتيجة»

* * *

وفى منشية البكرى كان سامى شرف يتميز غيظًا وهو يحاول مواراة ذلك عن الرئيس جمال عبد الناصر إثر انتهائه من تنصيب أنور السادات نائبًا أول له قبل سفره إلى مؤتمر القمة العربى بالرباط.. وكانت المخابرات قد أكدت فى تقاريرها أن هناك مؤامرة على حياة الرئيس وأن هناك خطة لاغتياله، فقال له:

ـ «لم نتعود من سيادتك هذه القرارات المهمة.. السريعة إنه انقلاب وليس قرارًا»

وأخفى عبد الناصر بارقة حيرة فى عينية، ففهم سامى شرف أن الرجل وصل إلى ماوصل إليه بعد إرهاق تراكمت فيه فوق صدرة تلال من هموم الليالى..

ـ «هذا الرجل يا سامى يتحدث عن أشياء فى مجالسه الخاصة لا يمكننى القيام بها.. حسين الشافعى، وعلى صبرى، وأمثالهما ساسة تقليديون سيسيرون على دربى من قبل الحب والوطنية.. وسوف يتوهونَ لأنهم ليسوا.. أنا.»

وتذكر سامى شرف بعض ما يصله من أحاديث أشرف بركات فى مجالسه الخاصه، وكان واثقًا أنها تصل إلى جمال عبد الناصر عبر قنوات أخرى، كما أنه واثق أن الرئيس يمر عليها مرور الكرام لأنه لا يخشى جانب أشرف بركات، فليقل ما يشاء عن خسارتنا للعلاقة مع أمريكا وخسارتنا المضاعفه فى رهان على جواد خاسر هو روسيا، وليقل ما يشاء عن احتضان اليهود، فكلها آراء لا تتعدى حدود الهمس.. ولكن، كيف ينصبه نائبًا رغم علمه بحقيقة ما يؤمن به؟..

* * *

كان كل شىء متألقًا وطافحًا بالسعادة فى قلب الروف الفسيح للإقطاعى السابق فايز

فودة.. وكانت هناك كثرة فى البشر وفى الطعام وفى الحشيش وفى المرح.. وكان حشمت بركات يتصدر الحفل الملىء بالبذخ كالبالونة المتفخة بالغرور، ولسان حاله يقول:

ـ «صار الملك أقرب إلينا من حبل الوريد»

وعلى غير العادة كان المدح من نصيب جمال عبد الناصر هذه المرة وبصوت عال.. فهو الزعيم الملهم الذى اختار فأحسن الاختيار.. اختيار النائب الأول لرئيس الجمهورية.. أو رئيس الجمهورية القادم. فقد هتف فايز فودة:

ـ «لا يصح إلا الصحيح الذى جلس طويلًا طويلًا على دكة الاحتياطى، آن لنا أن نرى اللعب على أصوله»

وقال معوض الجارحى وهو ينحنى بذراع الشيشة نحو سيده حشمت بركات:

ـ «عليك نور يا فايز باشا.. فكم من فريق هزم بسبب غياب لاعب واحد»

وأيدهما ممتاز إبراهيم: **«وكم من انتصار حدث لخيبة الفريق المنافس وليس لشطارتنا»**

وبحث السيد النحال عن مداخلة يداعب بها غرور موتوره الشفاط حشمت بركات فقال:

ـ «ويحسب لرئيسنا القادم أنه عزف عن المناصب ولم يلهث خلفها حتى لهثت المناصب خلفه»

وتنحنح حشمت بركات.. فصمتوا جميعًا.. باحترام مرسوم وفضول باد:

ـ «أهم شىء هو التوقيت.. الحل السلمى يفشل مع إسرائيل يومًا بعد يوم. وجونار يارنج والسلم والحرب معركتان تحتاجان لداهية.. وما فعله عبد الناصر هو أنه قال لإسرائيل لقد أتيت لكم بداهية يا ولاد الـ...»

وانفجروا جميعًا فى ضحك هستيرى ـ نصفه نفاق ـ ولم يتوقفوا إلا عندما استعد لإكمال حديثه:

ـ «أتيت لكم بمنوفى ، فلتجربوا المنايفة يا ولاد الـ..»

وعاودوا ضحكهم الهستيرى الذى قال فايز فودة من خلاله:

ـ «فطنة جمال عبد الناصر كانت خافية عنا»

فلاحقه حشمت بركات ضاحكًا:

ـ «تمامًا مثل عشائك ما زال خافيًا عنا، أين اللحم والذى منه يا فايز؟»

فأسرع فايز بإطلاق أوامره للخدم أن يسرعوا بتقديم الوليمة.

* * *

وفى غرفة نومه قال لها وهو يتمدد بجوارها على السرير:

ـ «منظرك يدل على أنك مقتولة من كثرة استقبال الضيوف المهنئين للسيد النائب»

ولم تعلق فوزية على ملاحظته، ولكنها سألته باستنكار:

ـ «هل إذا مات جمال عبد الناصر سيحل محله أنور السادات؟»

ـ «ومالك تتعجبين هكذا؟.. أراك لا تصدقين ذلك»

ـ «طبعًا، لا يمكننى أن أصدق ذلك، قل لى: هل جمال عبد الناصر يدخن الحشيش؟»

ضحك طويلًا إذ تخيلها قد وصل بها الظن أنه يحشش مع الرئيس بعد أن قابله:

ـ «أتظنين يا مجنونة أن كل من أقابلهم أحشش معهم»

ـ «أنا أسأل فقط.. هل هو يحب الحشيش مثلكم.. ويعشق التآمر مثلكم؟»

ـ «أى تآمر يا مجنونة؟»

ـ «ما يحدث فى المطبخ وأوانى الطعام عند وصوله ضيفًا علينا..»

لمعت عيناه ببريق غريب، ثم صوب إليها نظرة حادة: «مثل موضوع حكمت وبشاير»

ـ «بالضبط..»

ـ «إياك أن تذكرى هذا الموضوع أمام أحد، وإلا فمصيرك القتل..»

وأصابها الخرس.. إلا أنها التفتت مؤخرًا إلى سقطته عندما شبّه مؤامرة المطبخ عند أشرف بركات بمؤامرة دس السم لحكمت وبشاير.. فسقطت فى فراغ جديد وهى لائذه بالحيرة والهم والخوف الشديد..



ترجيح الوزن الخفيف بجرائم ثقيلة

فوزية حمدان ترى ما آل إليه حالها بعد ما شاركت بالتخاذل فى إلقاء حبيبها طاهر زين الدين إلى حافة الغياب.. وشاركت بالغباء فى تدمير حكمت وبشاير وقتلهما بالسم البطىء، فهما اللتان ودعتا الحياة فى دار المسنين الواحدة تلو الأخرى ودفنتا فى مقابر الصدقة لأن صديقتهما مارى الوحيدة التى تعرف مقابر العائلة كانت على سفر طويل..

فوزية حمدان لا تصدق أنها تشارك هذه المرة ـ رغمًا عنها ـ فى مؤامرة لتدمير أكبر رأس فى مصر المحروسة..

* * *

تحركت بإعياء وزهق إلى صالونها القديم فى فسحة من الوقت أتيحت لها.. قابلتها رجاء البدينة بوجه ملىء بالهلع: **«حمدًا لله على سلامتك.. لم أعلم أنك كنت مريضة»**

ـ **«لم أكن مريضة..»**

ـ **«إذن، فما هذا الذى أراه أمامى؟.. أين فوزية حمدان التى أعرفها؟..»**

ـ **«فوزية ضاعت..»**

ـ **«لا.. لا.. تعالى.. اجلسى على هذا الكرسى.. سأعثر عليك بعد ساعة عندما أعيد إليك وجهك الجميل وشعرك المدهش..»**

ـ **«لا رغبة لى فى التزين.. فلمن أتزين يا رجاء؟»**

وما رفضته من رجاء فى ألا تتزين، لم ترفضه من رجاء نفسها وهى تمنحها أسرارًا مجانية حول زبوناتها.. وقد تعمدت المانحة النشطة أن تبدأ بأخبار بهيرة هانم، فهذا هو المدخل الحتمى للأخبار التالية عن خميسة عفيفى.

فبهيرة هانم العاقر التى تعشق تعاطى النميمة ما زالت تتبادل مع صديقات يشبهنها تكثيف الشائعة ضد خميسة عفيفى حتى بدت كأنها حقيقة.. بهيرة هذه وصل بها الكيد لغريمتها أن صارت تكيد لنفسها وتتناول بخاطرها كأسًا من السم تتجرعه بإرادتها ..

ـ «فحلمى خائن.. وخميسة خائنة.. وكان الزوج المخدوع يرصد لقاءاتهما»

وفيما بعد قالت لمن حولها:

ـ «ألم أقل لكم إنهما خائنان.. ها هما قد تزوجا»

ولم تلتفت إلى رأى سديد من صديقة مخلصة ينحى عليها باللائمة:

ـ «أنت السبب.. لم تفهمى زوجك، ولن تفهميه.. رفضت العودة إليه ومشاركته السفر إلى منصبه الرفيع بالسلك الدبلوماسى.. فتنازل عن المنصب والسفر معًا كآخر محاولة لإعادتك.. ما الذى تنشدينه بجلده وجلد ذاتك وجلد خميسة المسكينة.؟»

ويكون رد فعلها أمام هذا الرأى هو الصراخ بصوت عال، فتسب صاحبة هذا الكلام وتسب طليقها وعشيقته والدنيا والناس وكل الرجال.. فالذى يخونها فى مصر مع امرأة ليست من وسطه وفى نصف عمره سيخونها مع الأوروبيات.. فكيف يهنأ لها بال وهى التى لا تملك إلا زوجًا من العيون تراقبه بها فى حين أن مراقبته تعوزها عيون قبيلة من النساء الغيورات..

ـ «فهل أسافر معه لشراء همى وتعاستى؟.. أم لأعود جثة بصندوق خشبى بعد أن أسلم نفسى للانتحار؟»

وعندما تهدأ من لوثتها، وتسترد أنفاسها، وتخرج من الصالون فى صحبة الملل والإعياء تلوذ زبونات الصالون بصمت كله إشفاق، ثم يرهفن السمع لصاحبة الرأى السديد:

ـ «هذا الذى رأيتنه الآن هو الحب.. الحب الذى زاد عن حده.. فانقلب إلى ضده. بهيرة تتجه إلى الموت..»

* * *

أما حلمى عبد الباقى الذى واجه مصيبته بصبر وتحد ووضوح، فإن ما أثمر عنه ذلك التحدى هو تحول حياة خميسة عفيفى تحولًا جعلها تقف ذاهلة ومضطربة وهى تتلمس

حقيقة هذا الرجل الذى أرسل فى طلبها.. حين قالت لها سوسن:.. «اذهبى إليه»

ـ «أين؟»

ـ «إلى نفس المكان الذى لم تكملا فيه حديثكما منذ سبعة شهور»

وفى محل جروبى، كان استقباله لها مختلفًا، وسلامه عليها طافحًا بما يزيد عن الود المعتاد، وحديثه معها مفعمًا بحرارة لم تعتدها من قبل.. وحنوه الآسر بدا لها كنهر فاض ماؤه وانسكب فروى الشطآن العطشى، وكلماته مهذبة ومنتقاة:

ـ «عام واحد واكسر حلقة الأربعين»

ـ «إنه عمر الحكمة والنضوج»

ـ «كنت سأبدأ حياة جديدة خارج البلاد وكأننى تخرجت بالأمس»

ـ «الطموح هو السفر الدائم داخل النفس المفعمة بالأمل»

ـ «لم يكن طموحًا، ولذا فقد عدلت عنه»

ـ «وصلتنى التفاصيل وتعجبت لخياراتك »

ـ «الخيار الأمثل هو ما ترتاح إليه النفس»

ـ «هذا صحيح خاصة إذا كانت نفسًا مطمئنة»

ـ «الاطمئنان لا يفارقنى رغم كل شيء»

ـ «رغم خسارتك المفاجئة لحياة هادئة وزوجة رائعة»

ـ «هل من الروعة أن تضع نهايتها بيدها لحياة كانت فوق صفيح ساخن؟»

ـ «لم يكن يبدو أن أمرها كذلك..»

ـ «كانت كل أمورنا كذلك، حب يقتله اليأس، ويأس تلهبه الغيرة»

ـ «قلة نصيبها مزق سعادتها»

ـ «لم تقتنع أننى طفلها الكبير الذى قدم نفسه لها عوضًا عن أطفال غابوا»

ـ «رب طفل يجمع أبوين، ويُخشى من طفل آخر أن يجمعهما»

ـ «أنت تشيرين إلى حالتك مع زوجك، سامحه الله»

ـ «حالة معكوسة من حالة السيدة بهيرة»

ـ «هذا ما فهمته من سوسن»

ـ «على ذكر سوسن، لقد أفهمتنى أنك تريدنى فى أمر مهم»

ـ «أجل..؟.»

وتوقف عن الكلام.. وأرسل بصره بعيدًا.. لم يكن يبحث عن حديث.. لكنه كان يبحث عن قرار: هل يتحدث أم لا..؟.. وأخيرًا قال :

ـ «فى جلستنا التى لم نكملها كنت سأفاتحك فى فكرة راودتنى وقتها بافتتاح مكتب للمحاماة تعملين معى فيه.. واليوم ما زالت الفكرة قائمة.. ما رأيك؟»

ـ «أنت تقدم لى حُلمى على طبق من ذهب»

ـ «إذن، فهنيئًا لنا..»

* * *

وتعجبت سوسن وهى ترى أن فرحة خميسة الغامرة كانت لحصولها على عمل مع «الأستاذ».. فصاحت بها «ألم يحدثك فى شىء آخر خلاف العمل؟..»

ـ «تحدثنا سريعًا حول السيدة بهيرة»

ـ «وماذا ايضًا..؟»

وراحت خميسة تتذكر:

ـ «وأشياء أخرى حول الطموح والأمل وسن الأربعين»

ـ «الم يلمح بأى شىء آخر؟»

ـ «مثل ماذا ؟»

وصمتت سوسن، ثم رددت: «لا شىء.. لا شىء»

* * *

وذهبت إليه سوسن بما تبقى لديها من تعجب ودهشة:

ـ «قلت لى إنك ستفاتحها فى الزواج، لماذا عدلت عن ذلك؟»

قال لها حلمى صاحب القلم والفكر والفروسية والرأى الجرىء:

ـ «لا أدرى ما الذى ألجم لسانى؟ هل هو فارق السن؟»

ـ «خمسة عشر عامًا، حسبناها معًا واتفقنا أنه ليس فرقًا مزعجًا، ثم اتفقنا أن المقاييس الأخرى هى الأهم..»

ـ «سآخذ فرصة ثانية للتفكير الهادئ»

* * *

وسرعان ما تخلى عن التفكير الهادئ إثر كلمات قالها له أشرف بركات:

ـ «بهيرة ثائرة يا حلمى.. جاءتها أنباء أنك تحوم حول عشيقتك لكى تتزوج بها»

ـ «كيف لطليقتى أن تقتفى أثرى بهذا القدر من الإلحاح.. خميسة امرأة شريفة..»

ـ «لا تخطئ يا حلمى مرة ثانية.. لا تكن طيبًا.. الناس لن يرحموك إذا تزوجتها..»

ثم أطلق أحد أمثلته التى تناسب الموقف حول اللصوص الذين لم يضبطوهم وهم يسرقون ثم شاهدوهم وهم يقتسمون المسروقات..

* * *

وتتذكر سوسن أن حلمى جاءها مملوءًا بالغيظ وكلمات أشرف بركات تطن فى أذنيه، ثم أعاد عليها تلك الكلمات التى أغاظته، وقال لها:

ـ «أنا لم أرد عليه، ولم أعلق على نصيحته الغبية.. أتدرين لماذا؟. حتى يسمع ردى غدًا بشكل عملى، فأنا سأتزوج خميسة الليلة..»

ثم كرر كلمته الأخيرة بإصرار: «الليلة..»

* * *

غادرت فوزية المحل متجهة إلى منزلها وبرميل من البارود يكاد ينفجر فى قلبها، وتمنت ألا تجده فى الفيلا حتى تسارع بالنوم وتختلى بنفسها لتبكى حظها العاثر وحياتها الضائعة، فأىّ رجل يمكنها القول إنها تنعم فى كنفه بالعزة والكرامة قياسًا بما تنعم به خميسة من عز وعزة، وكرم وكرامة.

عاد زوجها بعد منتصف الليل بعدما حصلت على قسط وافر من النوم.. لم تجد ميلًا للتحدث معه.. لم يلق بالًا لذلك. ولكنها وجدت مدخلًا للحديث:

ـ «خميسة حكت لنا مرة قصة العرّافة التى قابلتكما على كوبرى الملك الصالح»

ـ «وما الذى ذكرّك بذلك الأمر الآن؟»

ـ «العرّافة قالت لها يومها أنها ستصبح ملكة»

ـ «وهل صارت ملكة؟»

ـ «طبعًا، فالملكة هى الزوجة التى يجلسها زوجها فوق رأسه لترتفع قامتها»

ـ «وهل إذا تزوج العشيق عشيقته الخائنة يحولها إلى ملكة؟»

ـ «خميسة لم تخنك.. وليس هناك رجل يتزوج عشيقته»

ـ «هذا إذا افترضنا أن حلمى عبد الباقى رجل»

ـ «سمعتك مرة تمنح صفة الرجولة لرجلك «كلة».. هل هذا هو مقياسك؟»

ـ «هو فعلًا كذلك..»

ـ «قل هو فعلًا الزمن المعوج.. «كله» يسبق حلمى عبد الباقى فى الرجولة.. وأشرف بركات يستعد للجلوس مكان عبد الناصر..»

ـ «تقصدين أنور السادات»

ـ «قلت لى إنه لا فرق بينهما»

ـ «الفرق يتوقف على الزمان والمكان اللذين يتواجدان فيه..»

ـ «إذن، فمن منهما يسعى لقتل عبد الناصر؟»

ـ «عبد الناصر دمه سيتفرق بين القبائل فى الداخل والخارج، التفاصيل عند صديقك حشمت»

ـ «صديقى؟.. أنا لا أصادق الرجال..»

ـ «أنت فقط تنامين معهم..»

ـ «مؤامرة جديدة؟.. كمؤامرة خميسة وحلمى»

ـ «لست بحاجة لعمل مؤامرة لفيلم ما زال يعرض أحداثه»

ـ «أى فيلم تقصده؟»

ـ «فيلم بطلته تدخل وكر عشيقها بملابس وتخرج منه بملابس أخرى..»

ـ «أرأيت؟..إذن، فأنت ذهبت إلى هناك وكانت معك عشيقة»

ـ «لم تكن معى يومها من حسن حظى فهى تعرف ملابسك.. دعك من هـذا الموضـوع التافه.. هل ما زلت تدسين السم للضيف الكبير؟»

ـ «وأفكر كثيرًا فى تجرع الزجاجة المشئومة لأتخلص من حياتى»

ـ «ليس الآن.. نحن بحاجة إليك.. فأنت الآن مصدر ثقة بـدليل أن الهـانم أرسـلتك لاستعارة مجوهرات الشيخة صباح..»

ـ «فعلًا.. كيف عرفت؟»

ـ «وأنك أعدتها فى اليوم الثالث..»

ـ «هذا ما حدث.. كيف عرفت ؟»

ـ «إذن، فالمطلوب منك لو تكرر هذا الأمر أن تتصلى بى قبل تسليم المجوهرات للهانم ثم قبل إعادتها للأميرة الكويتية.. وهذه المهمة لا يجب أن يأخذ بها خبرًا عشيقك الحيوان»

ـ «لم أعد أفهم شيئًا»

ـ «من الخطر على البشرية أن تذهبى فى جانب مـن يفهمـون.. أحـذرك مـن ذكـر هـذا الموضوع لعشيقك الذى لا يحسن استخدامك إلا فى السرير، أو فى مشروعه»

نكست رأسها نحو الأرض، وتذكرت ما قاله عنه حشمت بركات من أنه يتحـرر مـن كل شىء حتى الشرف نفسه.. ولكن ماذا عن موضوع المجوهرات الذى يخطط لـه بعيـدًا عن حشمت؟.. هل هى جريمة جديدة يفكر بها ذلك الجبار العتيد الـذى يعـرف كـل مـا يدور حولها فى القصر؟ وأى هـدف يتسـابقان نحـوه هـو وحشـمت بركـات؟.. إنهـما لا يسعيان إلا والجريمة ثالثتهما.. وكلٌّ منهما يستخدمها بطريقته.. وزوجهـا الـذى لا يـرحم يحاول الآن ترجيح وزنه بجريمة جديدة.. جريمة مستحدثة.. جريمة تتعلق بمجـوهرات الأميرات..

ـ «فمتى يتوقفان عن عقد الجرائم حتى أرتاح.. أو أموت؟»



ألا تدري مدى أهميتك يا رجل؟

كان لصديقتيه المبثوثتين: إحداهما فى القصر، والأخرى فى المؤسسة، فعلهما أن يقترب من الأحداث كأنه يصنعها، فقد تعمد أن يمنح حشمت بركات شعورًا بالاستقواء فى مواجهته، ثم منحه العفوية فى إرسال كل جديد لديه بعد أن توقف عن معاملته باستعلاء بعد قفزته الشهيرة فى مقابلة عبد الناصر والتمتع بإعجابه، ثم أذهلته كل تحركاته المعلنة خلف مواكب الزعيم ومداخلاته المنقولة على الهواء فى مؤتمراته الشعبية، وصار حشمت هو الصديق الظاهر والعدو الخفى، وصار لا يعلق على ما يراه من تطور يزداد علوًّا فى شخصية السيد السياسية الجديدة .

* * *

وبعد أسابيع جاء اليوم الذى أنبأته فيه فوزية أنها فى طريقها لاستعارة مجوهرات أميرة الجديدة لتحضر بها سيدتها حفل جديد..

انتظرها قرب بوابة قصر الأميرة ومعه شاب لا يحمل سحنة المصريين وسرعان ما راحا يتفحصان المجوهرات بإمعان داخل السيارة، ثم انتهيا إلى قول قاله هذا الشاب وهو:

ـ «أعطنى ثلاثة أيام..»

واصطحباها إلى محل مجوهرات فى الزمالك.. وصعدا سويًّا إلى دوره العلوى، وبقيت لساعتين بدوره الأرضى قبل أن ينطلقا بها إلى مقر عملها بالقصر.. ثم تكرر نفس الأمر معكوسًا عندما أخبرته أنها فى طريقها لتسليم «الأمانة» إلى صاحبتها. إلا أنها لم تجلس طويلًا هذه المرة قبل أن ينطلق بها إلى قصر الأميرة.

وعندما عادوا كان السيد النحال قد حقق أول قفزة فى عالم المجوهرات بامتلاك غنيمة مذهلة هى تلك التى احتفظ بها ودس بديلًا عنها مجوهرات زائفة دقيقة ورقيقة خالية من أى سوء بعد أن تم تقليدها بمهارة.

وتملكه سعار اقتناء المجوهرات الأصلية التى اجتمع لديه منها كمٌ يشير إلى عدد مرات الاستعارة التى لا تكف سيدة القصر عن تحقيقها فى كل مناسبة مع أميرة جديدة فى كل مرة..

وصارت خطته الجديدة هى اجتياز الحدود المصرية وتحديدًا إلى اليونان لبيع هذه الثروة.. ثم صار يحلم بجلب شحنة حشيش وأفيون يدخل بها عالم الكبار الذين يسمع عنهم ولم يرهم فى حياته.

ووثق أنه لن يقوى على تحقيق هذه القفزة إلا بمساندة كاملة من صديقه حشمت الذى يخطط لاستخدام نفوذه الجديد تخطيطًا ساذجًا، وبدا له أن هذا الرجل لا يعرف بدقة أين يتجه كما لو كان ربانًا فقد بوصلته، وفى لحظة ما أيقن السيد النحال أن هذا الموتور مشغول بتأمل الحلم الذى سيتحقق لعائلته إذا رحل الزعيم وغادر الكرسى الفرعونى المقدس.. مشغول بتأمل الدنيا القادمة عن نهب دنياه القائمة .

* * *

وها هو حشمت يجلس معه أمام التلفاز ليسمع إجابات الزعيم على أسئلة الصحافة العالمية حول موافقته على مبادرة «روجرز» الأمريكية.. وكان من المعروف أن النائب أنور السادات سارع برفض هذه المبادرة قبل أن يطلع على رأى عبد الناصر فيها، فقال السيد:

ـ «السيد النائب كان يجب أن يتمهل فى إبداء رأيه، ولا يرفض شيئًا قبل أن يتأكد أن الرئيس سيرفضه.»

ـ «النائب يا محترم يعرف ماذا يفعل.. النائب لا شأن له بالمبادرة.. النائب يقدم نفسه للشعب ولإسرائيل فى وقت واحد، وهو أنه سيكون أشرس عداء لليهود من عبد الناصر»

هكذا رد عليه حشمت بغيظ شديد، فألقى السيد إليه بما سمعه فى أروقة الاتحاد الاشتراكى:

ـ «سمعت أن عبد الناصر يتبنى موقفًا تكتيكيًّا بالموافقة على وقف إطلاق النار حتى

يتمكن من بناء حائط صواريخ على القناة وفى العمق خلال فترة المبادرة»

فقال حشمت بركات بلهجة مملوءة بالسخرية :

ـ «أى صواريخ؟ وأى حوائط؟ كله تضييع وقت»

ثم أشار إلى عبد الناصر وهو ينهض من خلف المنصة منصرفًا بعد انتهاء المؤتمر:

ـ «انظر.. لقد بدأ ظهره فى الانحناء.. شاخ وعمره زاد عشرين سنة هل هذا منظر رجل سيحارب؟»

ـ «لم يكن هذا منظره بعد أن عاد من «تسخالطوبو».. كانت صحته أفضل.. أخشى أن تكون هناك مؤامرة على صحته..»

تأمله حشمت بعمق وشك:

ـ «ماذا تقصد بهذا الكلام؟»

فقال السيد ببراءة مقصودة:

ـ «المؤامرة على الصحة أسهل من المؤامرة على الحياة، يكفى طبيب واحد يعطيه الدواء الخطأ»

ـ «تقصد أحد الأطباء الجواسيس.. ممكن.. فعالم المخابرات ملىء بهم»

وتسلل السيد النحال مسرعًا إلى بغيته:

ـ «بمناسبة الأطباء، سأطلعك على سرّ: أنا قلق على نفسى كرجل.. فخميسة لم تنجب منى طوال خمس سنوات، وفوزية لم تبشر بإنجاب.. أنفقت نصف أموالى سرًّا على الفحوصات والعلاج دون جدوى، يقال إن العلاج فى الخارج أكثر تقدمًا وفاعلية.. أريدك أن تهيئ لى سفرًا إلى اليونان ولكن بالباخرة وليس بالطائرة، فأنا أخاف منها..»

ضحك حشمت بركات حتى هاجت نوبات السعال عنده:

ـ «أول مرة أراك تخاف من شيء ما.. الطائرة، فكيف يحدث هذا معك وأنت لا تخاف الله»

ظل السيد النحال متمسكًا بحزمه وهيئته الجادة:

ـ «ويمكنك مرافقتى فى هذه الرحلة على حسابى كاملًا»

تأمله حشمت وهو مازال يرسل ضحكاته المتقطعة:

ـ «وما فائدتى معك؟.. ألكى أمسك برجليك عند الطبيب وأنت تكشف»

ظل أيضًا مرتديًا ثوب الأسى والحزن:

ـ «فائدتك؟.. ألا تدرى مدى أهميتك يا رجل؟.. ستُفتح لك صالات كبار الزوار فى الموانئ والمطارات.. ولن تدخل فى متاعب الجوازات والجمارك وتفتيش الحقائب و..»

توقف حشمت عن مواصلة الضحك وتأمله من جديد:

ـ «كل هذه المزايا يا ابن النحال لا يهمك فيها سوى ميزة عدم تفتيش الحقائب.. صارحنى بالحقيقة.. بماذا تنوى أن تعود من الخارج أيتها النحلة التى لا تهمد؟»

أثلج صدره أن موتوره الغبى فهم أنه سيعود محملًا، ولن يخرج من هنا كذلك:

ـ «نحن ونصيبنا.. كل ما يمكننى العودة به لك نصفه.. ربما نأتى بمجوهرات.. من يعلم؟»

ـ «موافق.. جهز نفسك.. أما أنا فجاهز من الآن..»

* * *

وأعد حقائبه ذات الجيوب السحرية والقيعان المزدوجة ودفن بها ثروته استعدادًا للسفر.. وبينما هو يفرك كفيه فرحًا همست له فوزية بصوت لا تغمره الفرحة: «أنا حامل»

قفز من جوارها وراح يتطلع إلى وجهها الحزين الملىء بالخزى والانكسار، واهتم بشىء واحد قاله لها محذرًا بإصرار:

ـ «إياك.. إياك أن تذكرى ذلك لأحد.. خاصة حشمت بركات.. هو يعلم أننى عقيم.. سيقتلك حتى يوارى جريمته.. انتظرينى حتى أعود من السفر لنحل هذه المشكلة معًا.. سأحصل لك على إجازة طوال مدة سفرى..»

ـ «لا علم لى أنك عقيم.. أنت تقول ذلك لسبب فى نفسك»

ـ «ليس هذا موضوعنا الآن.. سنتفاهم بعد عودتى.. إياك أن تخبرى حشمت»

وعندما قالت له بصوت مخنوق: «سأجهض نفسى.. رغم ثقتى أنه ابنك»

قال لها بلامبالاة: «لا شأن لى بك. إنه خيارك.. قومى به بعيدًا عنى..»



يا رجل أنت شقيق الرئيس ..

وكأحد أبناء الدولتين راح ينتقل فيما بين أثينا وقبرص وهو يمهد لاستخدام أمواله التى تعرف على مقدارها عبر مساومات تفحصية خاضها مع محلات الصاغة وتجار المجوهرات .

ولم يكن فى حاجة إلى الانزواء بعيدًا عن حشمت أو الهروب منه حتى لا يطلع على ما يفعله، فقد أعفاه حشمت من ذلك بعد أن تحول إلى جثة طافية على سجاجيد غرفتهما بالفندق بملابسه الداخلية يقلب قنوات التلفاز ويكنس أطباق الطعام ويغازل العاملات الرشيقات، ويجذب سرورهن وضحكاتهن بمداعباته الصبيانية..

وكانت مقاهى المصريين ومن صادفهم من لبنانيين هى مقصده الدائم للعثور على بغيته من السلالات التى ينجذب إليها من أمثال عظماته الخمسة. إلى أن جاءت اللحظة التى أحس فيها بعالميته وهو محاط فى جلساته المسبوغة بكرمه بعدد وفير من الشباب السورى والمصرى واللبنانى والتركى واليونانى.. وعندما أغدق عليهم كئوسه وأطباقه المجانية بكرم مبالغ فيه لاحظ أحدهم أنه لا يمد يده إلى كأس منها، ولما سألوه عن ذلك بادر فأوضح لهم السبب:

ـ «ليس لى إلا فى الحشيش.. ولكن من أين لى به مع أناس لا يعرفون إلا الخمر؟»

قالها وهو يبحث بطرف عينيه على من سيناديه: **«طلبك عندى يا زلمة أو: تكرم عينك خيو حِّنا جاهزين بِكِلِّ طلباتك»**

وسرعان ما تكررت حوله هذه النداءات التى غزت روحه كموسيقى حالمة، وسرعان ما رتب معهم سهرة على شرف صديق له سيأتى به من الفندق، وكان اللبنانى الأنيق مفتول العضلات ذو الشارب المغولى المعقوف أكرم سليمان، هو صاحب المكان دون أن يكون دافع التكاليف.

وفى السهرة التى أحيط فيها بالاهتمام والتدليل كان حشمت بركات يصوب نظراته

المتسائلة فى صمت نحو ابن النحال ليقول: «متى وأين عرفت كل هؤلاء أيها الإبليس؟»

وكانت إجابته الصامته فى خبث تقول ردًّا عليه: «لنا فى كل خرابة عفريت أيها الموتور»

وعندما طرح السورى سؤاله حول مدة تواجدهما باليونان أجابه السيد بلا اعتناء:

«أربعة أيام» فغمغم السورى «يبدو أنكما لا تتابعان ما يحدث فى مصر..».. فقفز حشمت نحوه منزعجًا: «مالذى يحدث فى مصر؟»

طمأنه الشاب:

ـ «لا تنزعج.. فعبد الناصر جمعهم عندكم فى فندق الهيلتون.. وسوف يحقن دماء الطرفين.. الفلسطينيين والأردنيين»

وراحو يتابعون عبر رواية هذا السورى قصة الأحداث الدموية التى تدور فى الأردن بين هذين الطرفين المتقاتلين والتى تناثرت فيها بقع الدم فلطخت وجه العروبة، وتحولت إلى قضية مزعجة راح عبد الناصر يمسك بخيوطها، ودعا كل الزعماء والرؤساء والملوك العرب ليمسكوا معه.

وبعد السهرة وفى طريق عودتهما إلى الفندق قال له السيد:

ـ «أنت تخسر كثيرًا بطول جلستك فى الفندق..»

فأجابه بهدوء: «لست خفيفًا مثلك يا نحال.. فلو بحثوا عن اسمك لوجدوه مشتقًا من النحلة التى تطوف كثيرًا ودائمة الزن وتلدغ ثم تهرب.. ومع ذلك، ففيك بعض العسل مثلها أيها الشيطان»

وقبل أن يخلدا إلى النوم وبعد أن أطفأ السيد جهاز التلفاز قال له:

ـ «أنا أفكر فى شراء سيارة مرسيدس باسمك ونسافر بها على الباخرة»

لم يعلق حشمت على ما سمعه، لكنه قال وهو يتثاءب:

ـ «الولد أكرم اللبنانى هذا.. ماله يعقف شاربه هكذا كمقود الدراجة؟»

وضحك السيد من كلِّ قلبه:

ـ «أربعة أيام بلا حشيش تقصير أساء إلى كيمياء جسدك.. أحدثك عن سيارة مرسيدس نأخذها الى مصر وتحدثنى عن شارب أكرم»

فقال له حشمت وهو يشد الملاءة على جسده ويوليه ظهره:

ـ «**أكرم هذا هو الأهم.. دعه يرتب لنا جلسة أخرى.. تصبح على خير**»

* * *

ومن كثرة كرمه تحول إلى صيد ثمين فى نظر أكرم ومن حوله من الرجال. وكان السيد النحال قد هيأ رداره اللاقط للإمساك بالإشارات الضوئية التى تصدر من أمخاخ محيطيه وهم يفكرون فى استغلال ذلك المصرى السخى المتعش، المثير للتأمل، العازف عن الخمر وبنات الهوى، والمعجون فى خميرة الحشيش، وجاءت اللحظة المناسبة لكسبهم أو إغرائهم بالكسب منه عندما قال أمامهم: «**لو علمتم علاقتى بالحشيش لما تعجبتم، فهو لعبتى فى مصر، وسأدفع غاليًا لمن يأخذنى إلى مصدره هنا.. الأصناف لديكم مذهلة.. حرام ألا يتمتع بها زبائنى فى مصر**»

وهكذا تهيأت لهم الفرصة لحسن استغلال ضيفهم العجيب، فشمروا عن سواعدهم كلٌّ بما يقدر عليه وتولى أكرم قيادتهم بدءًا من لقاء حذر بتاجر كبير هاله أن يرى زبونه المصرى الجديد شابًّا يافعًا سرعان ما وضع يده على جسارته وهم ينقلون له كلماته الرزينة وخطته المجنونة لنقل البضاعة: «سأحشو بها كل فراغات سيارتى المرسيدس»

* * *

وعلى ظهر الباخرة استقرت السيارة المرسيدس السوداء فى مكانها بالمرآب، وقد زاد وزنها عن وزن مثيلاتها بأكثر من نصف طن من المخدرات الفاخرة، فما لم تستوعبه الفراغات المبطنة والقيعان الملحومة تم اخفاؤه داخل بضائع منتقاه بالحقيبة الخلفية والإطار الاحتياطى وحشوات المقاعد وبطانة السقف.. ومن كوة قمريته الأنيقة راح حشمت بركات يرنو إلى البحر متثائبًا وقد زاد وزنه هو الآخر عدة كيلو جرامات فى أحد عشر يومًا قضاها بين الكئوس والأطباق والاسترخاء اللذيذ.. وبجواره كان السيد النحال هادئًا يصفق لنفسه وهو يرى أن خطته تسير قدمًا فى خطها المرسوم، عدا فاتورة الفندق التى أشارت قيمتها المزعجة فجأة إلى أن حشمت لم يرحم نفسه من الخمر ولم يرحمه.. من تكاليف التليفونات..

وفجأة سمعا صياحًا عاليًا وجلبة.. «**ما هذا؟.. هل الباخرة تغرق؟**» هكذا هتف حشمت بركات.

انتفض السيد وأمسك بمقبض الباب الذى واربه.. وراح يرهف السمع.. ثم نادى على أناس يهرولون من المشاية إلى السطوح: «ماذا حدث.. هل هناك حريق؟»

تعالى صوت المجيب حتى طرق سمع حشمت:

ـ «جمال عبد الناصر.. مات»

ـ «كيف عرفتم؟»

ـ «الركاب فى الكافيتريا على السطوح يسمعون الراديو.»

هرولا إلى سطح الباخرة حيث الكافيتريا والركاب والصمت الرهيب وراديو يبث تلاوة القرآن الكريم ثم إعادة متكررة للنعى المؤثر الذى يلقيه النائب أنور السادات بصوت ملىء بالأسى والشجون يعلن للناس موت أعز الرجال.. وعندما عادا إلى غرفتهما لم يستطع السيد أن يفسر سرّ انفجار حشمت بركات فى بكاء مفاجئ.. فالذى يعرفه أن هذا الموتور لم يكن ينتظر سماع هذا الخبر فقط بل تعداه إلى محاولة صنعه.. ألم يقل بنفسه لفوزية إنهم يسعون للحصول على هذا الملك؟ إذن، فما سر هذه الدموع؟

ـ «لم البكاء؟.. أنت غادرت مصر مواطنًا عاديًّا وستعود إليها ملكًا.. فلم البكاء؟»

ولاحت على محيا الموتور ابتسامة النصر.. ثم تحول إليه وراح يصب عليه لعناته لاختياره موعد هذه الرحلة التى وجد نفسه فيها معلقًا بين السماء والبحر فى وقت كان يجب فيه أن يشهد هذا الحدث الجليل.. الحدث الذى يتجه فيه التاريخ نحوهم بخطواته الأولى.. ويفتح لهم بوابته المقدسة.. وشرخ ابن النحال إلى غايته بمشوار ذهب فيه إلى قبطان الباخرة، ثم عاد ليقول له:

ـ «القبطان عرف منى من أنت.. وأبدى استعداده لتذليل اتصالاتك بالميناء أو بأىّ مكان بالقاهرة.. أعطيته بيانات سيارتك.. قال إنه سيوصى على تجهيز أوراقها من الآن حتى تنطلق بها فور وصولنا إلى الميناء.»

وبدلًا من أن يتحرك من فوق سريره جاءه القبطان بنفسه.. ثم أتوا له بجهاز التليفون.. ووقفوا بتأدب وخشوع خارج الغرفة، فارتدى حشمت بركات ثوب المهابة وزيّنه برداء التواضع وهو يهمس لنفسه «**هاهى الأيام الهنيئة تهل على بلا استئذان.. وها**

هى البوابات الموصدة فى مدخل مجرى التاريخ تفتح، وأولها بوابة الميناء»

* * *

وفى الميناء وقف صف من رجاله المخلصين رافعين أيديهم بالتحايا.. وعرف أن: «رخصة السيارة جاهزة يا فندم.. وقمنا بتقسيط الجمرك» وهنا عرف معنى اختصار الزمن.. ووثق أن هذا الزمن لا بد أن يقف فى طابور المخلصين له فيتنازل عن دقته الشديدة واستحكاماته المكلفة، فللكبار شأنهم، ولا يصح أن يستووا عنده شأن الصغار. أشار لرجاله أن يلحقوا به خلف سيارته التى سيقودها بنفسه:

ـ «واتركوا السيد النحال معى ليسلينى طوال الطريق»

وفى الطريق عرف السيد نوع التسلية التى ينشدها صديقه حشمت الذى سأله:

ـ «هل تحدث معك أحد من رجالى فى الميناء؟»

ـ « الحديث العادى.. السلام.. والسؤال عن الصحة»

ـ «ألم يقل لك أحدهم إن فوزية قد ماتت؟»

اعتدل السيد فى مواجهته ونظر إليه بذهول: «ماتت؟.. متى؟.. وكيف عرفت أنت هذا الخبر؟»

ـ «كان لدى الوقت الكافى فى الفندق لاستخدام التليفون..»

ـ «هذا واضح من الفاتورة.. فمع من تحدثت..؟ ولماذا لم تبلغنى بهذا الخبر ونحن هناك»

ـ «كيف أبلغك بخبر لن تصدقه.. فأنت سافرت إلى اليونان لتعالج نفسك من العقم؛ فى حين أن زوجتك ماتت فى عملية إجهاض؟»

ـ «عندما أبلغتْنى بحملها عرفتُ أنك الأب غير الشرعى لجنينها.. فأجْلستها فى منزل أهلها حتى أعود»

ـ «قل حتى تتصّرف فى مجوهراتك المسروقة..»

ـ «لم يكن أحد ليعوقنى عن تصريف مجوهراتى»

ـ «ولم يكن هناك ما يمنعك أن تحيطنى علمًا بما تفعله»

ـ «لم أكن أضمن موافقتك على استبدال المجوهرات بحشيش»

ـ «وهل البديل أن تكتب باسمى سيارة محشوة بالمخدرات دون علمى؟»

ـ «تعمدت ألا تقاسمنى الخوف لأضمن هدوء أعصابك»

ـ «ولكنك لم تقاسمنى المسئولية..» ثم صمت قليلًا وأردف:

ـ «كما حملت الهانم مسئولية تزييف مجوهرات صديقاتها الأميرات»

ـ «كان كل همى تدبير رأس مال ضخم حتى أفاجئك به»

ـ «على حساب سمعة الهانم.. الكويت مليئة بأخبار زوجة النائب اللصة»

ـ «الكبار معرّضون للشائعات.. والشائعات إذا زادت قل مفعولها.. وفوزية ماتت»

ـ «موتها لا يعفى زوجها من جرائمهما المشتركة.. حكمت وبشاير.. والمجوهرات»

ـ «ومن قال إنى على علم بكل ما تفعله زوجتى؟.. عبد الناصر لم يدفن جثمانه بعد.. فهل يعلم أحد أن فوزية كانت تدس له السم بإيعاز منك؟»

ألمت بحشمت بركات هزة مفاجئة.. وضغط خفيفًا على فرامل السيارة.. فهدأت سرعته بشكل واضح.. طابور السيارات خلفه أصابه القلق.. أمعن النظر فى وجه صديقه.. وبعث إليه بابتسامة خفيفة بها استخفاف وتحد:

ـ «أتحاول مساومتى؟»

ـ «وأنت فى وضعك الجديد أكون غبيًّا لو فكرت فى ذلك»

ـ «إذن، فهل تخيفنى بما تعرفه عن موضوع السم؟»

ـ «بكاؤك الشديد على وفاته كان كافيًا ليغفر الله لك هذا الذنب»

ـ «أتغازلنى بكلام الشعر أيها الأفاق»

ـ «لم أعد شاعرًا، فشيطان الشعر هجرنى منذ أن جاء فوجدنى شيطانًا مثله»

ـ «وغادر الأرض وتركك نائبًا عنه..»

ـ «نائبان.. أنا وأنت»

ـ «قل ثلاثة فأمير هو الثالث المبدع فى الوساخة»

ـ «إذن، فأنت تحمل خبرًا عنه»

ـ «خبر بسيط.. تسبب فى انتحار محاسب فى شركته»

ـ «أغلب الظن أن اسمه نجيب أمين النجار»

ـ «بالضبط.. الشياطين كلها على علم بضحاياهم ..»

وراح يقص له حكاية موت نجيب النجاو فى ليبيا برصاصة من مسدسة أطلقها على نفسه.. ففريق العمل الذى ذهب إلى ليبيا بدعوة من حكومة الثورة الليبية لإنشاء مكاتب رئاسية بتكليف مباشر للشركة ترأس أمير النحال هذا الفريق.. وكان من بين أفراده نجيب أمين النجار المحاسب المسئول عن أمانة العهدة المالية.. وحين دخل نجيب قادمًا من البنك ودخل مكتب أمير بحقيبته المليئة بالبنكنوت الذى تزيد قيمته عن مائة ألف جنيه ترك الحقيبة لدقائق حتى ينتهى من صلاته فى غرفة المكتب المجاورة.. وحين كان يغادر الصلاة كان أحد رجال أمير قد أسرع بمغادرة بوابة طرابلس متجهًا إلى القاهرة بذات الحقيبة.. هكذا سرق أمير الحقيبة فى دقائق وسربها فى دقائق وغادر مكتبه إلى الحوش الخارجى يتحدث مع من وجدهم هناك لينطلق معهم نحو مكتبه مرة أخرى على إثر صياح نجيب النجار «الفلوس.. الفلوس.. الحقيبة.. الحقيبة»

وإمعانًا فى إذلال نجيب النجار وجه إليه تهمة الاختلاس والادعاء الباطل بسرقة أموال الشركة.. لينهى نجيب حياته بيديه فى مسكنه من وطأة العذاب.. ويستقبل أمير الخبر دون أن يهتز له رمش عين..

واستقبل السيد النحال هو الآخر هذه الحكاية بنفس برود فاعلها أمير، وكان استقباله لها يختلف عن الآخرين لعلمه الآكيد بالسبب الكامن خلفها ودوافعها المتمثلة فى قنبلة من الحقد الذى عاش وظل طازجًا فى قلب أمير حتى قام بتفجيره ـ أو تفجيرها ـ فى الوقت المناسب..

«اثنان كلٌّ منهما خلع عن الآخر شيئًا يخصه.. واحد خلع عن الآخر سترته ، والآخر خلع عن الأول حياته..» هكذا تمتم سيد قبل أن يعود إلى صديقه الجبار الذى قال له:

ـ «أمير مثلك.. يتمتع بقلب بارد.. وروح مدمرة»

ـ «لذا، فقد وضعنا أشرف بركات فى سلة واحدة»

ـ «لقد جاء زمنكما الملائم، فلتنطلق طيور الحرية وتغادر أقفاصها التعيسة»

ـ «وأىّ تعاسة أكثر من أن تقترض زوجة النائب مجوهرات تكمل بها زينتها..»

ومد يده فى تابلوه السيارة وأخرج علبه من القطيفة الحمراء..

ـ «جئت لها بهذا العقد الثمين.. هدية.. كم كان يقهرنى أن أراها تتسول زينتها»

وابتسم حشمت بركات فى خبث :

ـ «رغم ثقتى أنه عقد ليس مزيفًا.. لكنى واثق أنك تقدمه بمشاعر مزيفة»

ـ «تزييف المشاعر جريمة من الصعب الإمساك بها.. وعزائى هو أنى بـرىء مـن تلـك التهمة لأننى اشتريته لحرم النائب دون أن أعلم أنها صارت حرم الرئيس.. فكيـف أقدمـه لها؟»

ـ «جىء برفقتى.. لتقدم لك العزاء فى فوزية»

ـ «أليست حاقدة عليها؟»

ـ «لم تصلها أخبار فضيحة المجوهرات بعد..»

ـ «ولن تصلها.. الشائعات تستغرق وقتًا طويلًا حتى تصل إلى صاحبها، وقد لا تصله، مبروك عليها هذا العقد الثمين.. ومبروك عليك هذه السيارة المرسيدس»

وما إن دخلا العاصمة الحزينة حتى ذابت سـيارتها فى أمـواج الجماهـير الزاحفـة مـن أنحاء البلاد تسعى لسفح دموعها فى الشوارع والدروب وعند الأعتاب وخلف الأبـواب على رجل كان معهم وفقدوه.. رجل قال عنه نائبه أنه: أعز الرجال.

وعندما أطل نفر من هذه الجماهير على هذا الرجل الأسمر الذى يقـود سـيارة سـوداء مغلقة النوافذ حفاظًا على الهواء المكيف بداخلها قال واحد منهم:

ـ «هذا الرجل يشبه الرئيس القادم»

بادر الجميع بالتلويح له.. فبادلهم الرجل الأسمر التحية فى نفـس اللحظـة التـى كـان يميل فيها على شاب أنيق يجلس بجانبه.. ليقول له عن شىء ما لم يكن له علاقة بفقيـدهم العزيز أو بتحاياهم البريئة، وإنما كان له علاقة بـ:

«السيارة.. سأتركها لك.. صرّف الحشيش بمعرفتك.. واحفظ لى حقـى.. حقـى هـو النصف..»



روح هذا الرئيس

اغتيل الرئيس المصرى أنور السادات بعد مضى أحد عشر عامًا على توليه عرش مصر وبعد ثمان سنوات من ذكرى انتصاره التاريخى على إسرائيل..

وقالت الأنباء إنه كان محاطًا بكل مظاهر القوة والعزة والخيلاء وسط قواته وبين كل رموز نظامه عندما طالته رصاصات ضابط شاب اسمه خالد الإسلامبولى فأردته قتيلًا على منصة المجد والفخار .

وفيما بعد قالت كتب التاريخ إن هذا الضابط الغاضب نفث عن غضبه فاعتلى مركبته الحربية وتمكن من موقعه فوقها أن ينسف رأس النظام. وبذلك صار أشهر من اعتلى مركبة فنسف من فوقها رأس حاكم أذهل العقول بعقله العجيب..

* * *

وفى فسحة الوقت التى ينالها السجناء خارج زنازينهم، ويختلطون فيها ببعضهم البعض كان يروق لهم الإنصات لما يقوله الشيخ فريد هنيدى، الذى لو تحدث فى الدين فهو الحكيم الذى لا يرتدى ثوب الواعظ، والذى لو سخر من بؤس الحال فهو الظريف الذى خلع ثوب المهرج، فالشيخ فريد هو الوجه المقبول فى كلا الحالين، واللسان المعتدل فيهما..

وكم كان يروق للشيخ فريد هنيدى أن يعلق على مفارقة اجتماع سجناء السادات الجدد مع أمثالهم القدامى وأن تواته فرصة لقاء الفريقين فى واقع بدا له كالحلم..

فغرماء السادات القدامى قال عنهم فريد إن السادات تعشى بهم قبل أن يفطروا به فى مايو عام ١٩٧١ . وقد سألوه لِمَ لمْ تسر على المثل يا شيخ فريد وتقول إنه تغدى بنا قبل أن

نتعشى به؟ فقال لهم لأنه فنان لا يبدع لوحاته إلا فى الظلام.. وهنا سأله بعض زملائه الذين جمعهم السادات فى السجن فى سبتمبر ٨١: ولماذا تغدى بنا السادات يا شيخ فريد ونحن لم تكن لدينا النية أن نتعشى به..؟ فأجابهم: إنها شراهة المستبد الجائع الذى يؤمن بما يفعله النمل فى تخزين مؤونته.. وكما يفعله الجمل من اجترار طعامه المخزون.

وهنا صاح به أحدهم:

ـ «ارسو بنا على بر يا مولانا، ساداتك هذا نملة أم جمل؟»

«وتعجبوا عندما قال لهم بثقة وبسرعة: قد يخيل للمرء أن هذا الرجل نملة من منظور رؤية الزائى ثم يكتشف بعد حين أنه كان جملًا.. والعكس صحيح..»

ثم راح يروى لهم علاقته النفسية بشخصية الرئيس السادات، وكيف لفت نظره أنه فلاح متدين منذ الوهلة الأولى لاختياره رئيسًا للجمهورية، وكيف كان فريد هنيدى شهيد حادث الجمل فى هذه الفترة يتلمس طريقًا جديدًا قوامه الدين كملاذ وغاية، ولما بدأ السادات خطبته بآية قرآنية، واستشهد فى داخلها بآيات قرآنية، وأنهاها بآيات ختامية.. لحظتها قال لنفسه:

ـ هذا هو الرجل المطلوب.. هذا هو الرجل الذى جاء فى موعده مع الدنيا والدين.. الجمل هزمنى.. واليهود هزموا مصر.. ولكن الإيمان أنقذنى، وهو نفسه الإيمان الذى سينقذ مصر بروح هذا الرجل السادات..»

ثم قال لهم: كنت وقتها فرحًا لأنى تمكنت من طرد اليأس بعد ثلاث سنوات من الهزيمة، وركنت شهادتى فى التربية الرياضية وقررت الحصول على شهادة فى تربية الروح. فاخترت كلية أصول الدين.. وزاد فرحى وأنا أرى الرئيس الجديد يسعى مثلى لطرد اليأس بالإيمان.. ولكن....

بدا الامتعاض على وجه الشيخ فريد وأكمل:

ـ «ولكن هذا الجمل العملاق الذى أحسسته تحول فى ثوان معدودة يومها ـ فى نظرى ـ إلى نملة، لأنه بعد أن انتهى من خطابه وسط تصفيق أعضاء مجلس الأمة.. اتجه إلى تمثال جمال عبد الناصر.. وانحنى أمامه.. فعرفت على الفور أنه منافق يقول الشىء.. ويفعل

ضده.. رغم ما حاولت أن أقنع به نفسى أن دروب السياسة تستدعى أحيانًا مثل هذه الأفعال البغيضة»

وتدور الحوارات بين السجناء، وكلها تتركز على أول حاكم فرعونى يقتله شعبه فى العصر الحديث فى واقعة مازالت الدنيا تهتز على إثرها بما فيها جدران زنازينهم، فيقول أحدهم عن غريمهم المقتول: إنه كان لاعبًا ماهرًا بالبيضة والحجر.. وقال الآخر: كان يجب أن تسمعوا ما قاله سامى شرف هنا فى هذا المكان من أن مصيبته أنه كان يعرف الكثير عن السادات، وكان على علم أن هذا الرئيس الجديد سيهرب بسفينة العروبة إلى بحر اليهود.. أما ما قاله الشيخ فريد هنيدى ساخرًا فهو أن السادات جعل كل معارضيه يشتركون فى شىء واحد يقومون جميعًا بعمله فى السجن وهو: تقشير البصل.

ثم أنهى قوله ضاحكًا:

- «فمن حبس دموع الألم يا سادة لأنه بطل.. فسوف يذرفها رغمًا عنه بِفعْل بخار البصل»



الانتقال من جُحر إلى جُحر - أفضل

ويعود فريد هنيدى بذاكرته إلى حالة الاشتباك النفسى التى تورط فيها مع شخصية السادات، فهل هو المناضل الوطنى الذى لا يمكنه إلا أن يحبه، أم هو المتآمر السياسى الذى لا يمكنه إلا أن يكرهه؟ ثم تذكر كيف انتهى به الحال إلى اتخاذ جانب الكراهية لهذا الرجل بسبب صعود رجل آخر نما فى معيته هو السيد النحال.

فعندما عاد فتيان فتيان من حفل الزفاف البهيج الذى زفت فيه البنت التى كان يحبها طاهر زين الدين إلى السيد النحال قال للناس إن مندوب رئاسة الجمهورية الذى حضر الفرح كان يجلس بجواره شخص يشبه أنور السادات. ولم يحفل فريد هنيدى بهذه الملاحظة الساذجة.. لكنه بدأ فى الالتفات إلى قيمة هذا القول عندما بدأ اسم السيد النحال فى الظهور على صفحات الصحف كناشط سياسى فى الاتحاد الاشتراكى فى أول عهد السادات، ورغم أن هذا الظهور لم يكن سوى امتداد لواقع الحال الذى كان عليه ابن النحال فى أخريات عهد عبد الناصر إلا أن كثافة الأضواء حوله بدت أكثر تركيزًا وتميزًا..

وقد ظن أهل البلد أن طموح ابن بلدهم جرفه بعيدًا عنهم فنسى البلد عندما ذهب بعيدًا يبحث عن نفسه، ثم نساها عندما وجد نفسه. لكنهم سرعان ما انتبهوا إلى إشارة تحمل دلالات عودة منتظرة للسيد النحال، لكنها عودة مذهلة وثرية، فقد جاءهم من يقول:

ـ «هل تعرفون القصر المهجور الذى يقف وحيدًا عند حدائق الملك..؟ .. لقد فتحوا بوابته الرئيسية، وبدأوا فى ترميمه وتجديده وإعادة الحياة إلى حديقته.»

ـ «وما الذى ذكّرهم به بعد عشرين عامًا من الثورة..؟»

- «السيد النحال» اشتراه لنفسه من الحراسة.. وسيتخذه سكنًا له.»

- «وما الذى ذكّره بنا بعد عشر سنوات من الغياب هذا السيد النحال؟»

- «يبدو أنه قرر أن يعود إلى بلده»

وبالرغم أنه لم يأتهم من يؤكد الخبر أو ينفيه، فقد كان هذا الحديث عن تألق المعمار فى القصر يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر يقترن بحديث عن صاحبه الغائب فيتناقلون آخر أخبار السيد النحال..

وبعد سنوات قليلة لم يكد يهدأ فيها الحديث عن القصر حتى علا مرة ثانية عندما كتبت الصحف خبرًا عن تقدم النحال لانتخابات البرلمان نائبًا عن دائرة البلد. ودار لغط كثير، وسرت بين العباد همهمة..

- «السيد النحال؟ سبحان مغير الأحوال»

ولم يصدق عبد الجليل أبو سنة نائب الدائرة العتيد، وصاحب المجد التليد.. الوقور، الغيور، صاحب العز الموفور، أنهم يجهزون شابًّا تحيطه الأقاويل للهبوط على مملكته الآيلة إليه بالوراثة أبًا عن جد.. ثم لم يصدق عبد الجليل أبو سنة أن إجراءات التجهيز امتدت وكشفت عن نفسها عندما أُعلن أن السيد المحافظ سيكون فى استقبال السيد وزير الصناعة وبرفقته الأستاذ السيد النحال مرشح الدائرة ليقوموا بوضع حجر الأساس لمصنع السكر الجديد.. ثم أخذه الذهول وهو يحاول إحاطة القصر الكبير ذى الحديقة الممتدة بنظرة واحدة.

- «أكل هذا القصر له..؟»

- «ليس بأكبر من قصر قالوا إنه أقام عرسه فى جزء من حديقته بالقاهرة؟»

- «ومن أين؟..»

- «من عند الله..»

ثم قال له صديقه وهو يحاوره:

- «الأيام دُول يا عبد الجليل.. أبوه كلاف بهائم.. وأخته هربت مع إسكافى متجول وتزوجته، وأخوه الأكبر مات متأثرًا بخبطة على رأسه من مسجل خطر.. وإخوته الثلاث

بالكاد خرجوا من إصلاحية الأحداث العام الماضى، وكلها أحداث فى حياة أسرته لا يعلم عنها شيئًا.. مثلما لا يعلم شيئًا عن قصره الجديد..»

ـ «أو لم يره؟..»

ـ «لا يملك الوقت لذلك، فهو يسافر للتجارة، ويمعن فى إثبات الشطارة.»

ـ «تلك مؤهلات الساسة الجدد.. الأصالة تدوسها البهائم.. سيحاكمنا التاريخ إن لم نتصدى لهم..»

ـ «يبدو أن السيوف ياعبد الجليل لن توقف سيل البهائم المنهمر»

***

وقالوا إن السيد النحال خطب فى الناس فى حفل وضع حجر الأساس لمصنع السكر، وقال لهم إنه نشأ فى هذا البلد بسيطًا فقيرًا ينحدر من ظهر عامل بسيط، لكنه فى عز فقره كان يراقب ما يقوم به جمال عبد الناصر من محاولة لتذويب الفوارق بين الطبقات وبناء المجتمع الاشتراكى.. وقد مات جمال عبد لناصر قبل أن يكتمل البناء والدليل:

ـ «ما أراه أمامى الآن من أناس سمان يحتلون المقاعد المخملية فى الصفوف الأولى، وأناس يبدو عليهم التعب يجلسون أو يقفون على كراسٍ خشبية فى الصفوف الخلفية».

وقالوا إن السيد النحال ملك ناصية الحفل، وألهب أكف الناس بالتصفيق، عندما أتى بملاحظة الكراسى الوثيرة والمقاعد الخشبية، وعندما أقسم على محاربة هذا الزيف وهذه التفرقه فى ظل القائد المؤمن أنور السادات، وعندما رفع صوته عاليًا وهو ينطق اسم الرئيس طلبًا لموجة أخرى من التصفيق نالها على الفور.

أما ما قاله السيد وزير الصناعة، فقد أشاد فى كلمته بالمرشح العصامى السيد النحال الذى انتزع هذا المصنع من فم الأسود ليقيمه هنا لأبناء بلده.. لأنه رجل يملك حصافة رجال الاقتصاد، وحنكة أهل السياسة، ونبل أولاد البلد.

وأما ما قاله فريد هنيدى تعليقًا على كل ذلك فقد كان قريبًا مما قاله النائب الشهير عبد الجليل أبو سنة، ولكنه أكد أن سيل البهائم المنهمر والآخذ فى دهس القيم لن توقفه السيوف ليس هناك سوى ذبح دليلهم الراكض أمامهم حتى يتوه القطيع الضال.

ونقلًا عن راضي هنيدى إلى أخيه فريد جاء وصف اللقاء الصاخب الذى افتتح به السيد النحال قصره الجديد على مشارف حدائق الملك فى أطراف المدينة.

فقد فضّل السيد النحال أن يودع السيد وزير الصناعة على باب مبنى المحافظة ولا يسافر معه إلى القاهرة التى جاءا منها معًا رغبة منه فى لقاء أبناء دائرته.

بدأ فذبح ثلاثة عجول سمان وزع لحمها على الفقراء.. ثم راح يستقبل الناس فى الصالون الفسيح ذى الأعمدة الدائرية التى تحمل السقف فوق تيجانها المذهبة، وكان ضحوكًا ولذيذًا ينادى على ضيوفه بأسمائهم، فقد قال لفتيان فتيان:

- **«كيف حالك يا فتيان..؟ وكيف حال الأرانب والبهائم؟..»**

فقال فتيان: **«تركنا البهائم للبهائم، وعملت بالتجارة عملًا بنصيحتك يا أستاذ سيد».**

- **«أىّ تجارة.»**

- **«تجارة الموبيليا.»**

ثم التفت فتيان فتيان إلى الجمع الذى خلفه وراح يشرح لهم:

- **«والله ياجماعة لم أكن أعلم شيئًا عن مسألة تدوير رأس المال هذه.. إلى أن أفهمنى السيد باشا أن رأس المال يدور فى الموبليا بسم الله ما شاء الله ٦ مرات فى السنة. فتركت البهائم التى لا تدور إلا فى الساقية»**

ضجت الصالة بالضحك فشاركهم فيه النحال متخذًا سمت التواضع إلى أن تحدث رجل ما:

- **«السيد وزير الصناعه قال عن السيد باشا إنه يجمع بين حصافة رجل الاقتصاد وحنكة رجل السياسة ونبل أولاد البلد.. فلم التعجب يا سيد فتيان؟»**

عرفه النحال من صوته.. وراح يتأمله بعمق، ثم ناداه:

- **«من؟.. فاروق ابن العمدة.. كيف حالك يا فاروق؟.. أين الكلب؟»**

وقف فاروق الضخم الطويل وهو يبتسم:

- **«الكلب مات»**

فضجت الصالة مرة أخرى بالضحك، وسرح السيد النحال وهو يتذكر كلمة مماثلة

قالها حشمت بركات عن عبد الناصر بعد رحيله..

ووسط زحام الصالة استطاع السيد النحال التعرف على راضى هنيدى، فناداه باسمه وسأله عن الأستاذ فريد ومحمود ثم عرّج على حادث الجمل الذى أكل ذراع البطل، وتساءل إن كانت هذه الواقعة جعلتهم يقلعون عن تربية الجمال، وقد ظهر للناس أن راضى الخلوق بدا مستاء لا يبادله المرح، إلى أن شاهد ابن النحال جوهر البقال فناداه هو الآخر باسمه، فوقف الرجل وراح يجيب عن أسئلة مضيفهم الكبير:

- «**الجرن الذى أمام المدرسة هل مازال خاليًا أم عمرّوه بالمبانى؟**»

- «**مازال خاليًا..**»

- «**جميل.. بعد أسبوع سأنزل البلد لعمل مهرجان بها.. سأكلفك بإقامة سرادق كبير يكون جاهزًا قبل وصولى..**»

- «**ولكنى علمت أن عبد الجليل بك أبو سنة سيقيم سرادقًا هناك فى القريب**»

- «**إذن، يجب أن نقيم سرادقنا اليوم.. يا سنّى.. ياكيمو.. يا بُق.. يا سردينة.. ياكلّه.. تعالوا**»

وعلى غير انتظار هبت عاصفة من الضحك عندما تقدم إليه خمسة رجال اتضح أنهم أصحاب هذه الأسماء.. وكأن السيد النحاس انتبه هو الآخر إلى غرابة أسماء رجاله، فأرسل ضحكة مفاجئة جعلت الحضور يعاودون الضحك معه، ثم توقفوا وهو يصدر أوامره إلى هؤلاء الرجال:

- «**ستذهبون مع عم جوهر إلى البلد لإقامة سرداق فى المكان الذى يحدده لكم.. إذا جاءكم أحد من طرف عبد الجليل أبو سنة لمنعكم فتصرفوا معه..**»

وشاهد الحضور رجلًا من الخمسة يخاطب مرشح الدائرة بلسان ثقيل وصوت خشن:

- «**لو حضر أحد منهم يافندم سنذهب به إلى جهنم ونتركه هناك**»

- «**إذن، لا تتأخروا**»

وعادت موجة الضحك مرة أخرى.. فلم يفهم الحاضرون هل التعليمات هى ألا يتأخروا فى البلد أم لا يتأخروا فى جهنم..

وقال راضي هنيدى لأخيه فريد:

ـ «والله ياأخى إنها جلسة كانت مليئة بقلة القيمة والهزل والاستخفاف بالناس»

وقال فريد:

ـ «جلسه قوامها حيوان يسأل عن باقى الحيوانات.. أرانب وبهائم فتيان.. وكلب فاروق.. وجمل أولاد هنيدى.. ما الذى تتوقعونه من سافل فى طريقه لاعتلاء كرسى البرلمان»

وكان لمحمود رأى مخالف: «يا جماعة يوم الهنا أن تنجب بلدنا عضوًا بالبرلمان.. الرجل أعجب الناس وأذهلهم بجرأته.. فهل عبد الجليل أبو سنة يجرؤ على انتقاد جلوس المأمور والحكمدار ورئيس المحكمة على كرسى صالون فى الأمام والناس على كراسى خشب فى الخلف؟»

فسأله فريد: «هل هذا كل ماأعجبك فى ابن النحال يامحمود؟»

ـ «إنها إشارة إلى الناس تقول إنه يملك القدرة على مهاجمة الحكومة. ومحاربة الزيف والتفرقة»

وصمت فريد هنيدى وقد لاحت على شفتيه ابتسامة مريرة، ثم قال لأخيه:

ـ «هل عرفت أن السيد النحال أخذ أمه وأباه وإخوته ليعيشوا عنده فى قصره الجديد..؟»

فهتف محمود: «أرأيت؟.. ألم أقل لكم إنه.....»

فقاطعه فريد: «لكنه ألقى بهم فى الإسطبل الذى يقع فى الحديقة الخلفية بالقصر»

وقال راضي: «فعلًا.. أنا سمعت بهذا الأمر.. يسكنون فى قسم الخدم بالحوش الخلفى هناك يعنى عباس النحال انتقل من إسطبل إلى إسطبل.. وولده الذى يعترض على الكراسى الخشبية يغلق القصر الفسيح على نفسه و دون أهله، اذهب هناك لترى بنفسك»

فقال فريد هنيدى ساخرًا:

ـ «يعنى من جحر ياعباس إلى جحر أفضل.. هذا هو ابنك البار».



الشيخ فريد الغاضب دومًا

كانت «البلد» فى انتظار وصول ابنها السيد النحال على أحر من الجمر. هكذا تقول اللافتات التى لا يعرفون من أين أتت، ومن هولاء الغرباء الذين جاءوا فعلقوها.

لم تكن اللافتات كاذبة.. فهذا الانتظار كان حقيقة. لكنه ليس انتظار المتلهف لرؤية محبوبه إنما للتأكد أن الله فعلًا يرزق من يشاء بغير حساب.

وكانت حكمة العقل والمهادنة قد دفعت البرلمانى الشهير عبد الجليل أبو سنة أن يعلو بنفسه عن منازلة هذا الشاب الجديد المفتون بنفسه، فتخلى عن مواجهته بعنف مقدرًا أنه إنما جاء - أول ما جاء - ضيفًا على السيد المحافظ ومعه وزير، وبقدر ما كان هذا النبل المحسوب فى صالح أبى سنة إلا أنه صب على المستوى الشعبى بمزيد من القوة فى وعاء السيد النحال.

وبدا أن المرشح الهابط على المنطقة بمظلة النظام استمرأ تعفف أبى سنة ورجاله عن منازلته فأرسل فريق دعايته لإقامة سرادقه بقرية أبى سنة فى وضح النهار، يومها عاد رجاله وهم يتحسسون أقفيتهم وعظامهم من أثر الضرب، ذلك أن العظماء الخمسة لم يجربوا من قبل منازلة الفلاحين بعصيهم، ولم يسبق لهم أن تعرفوا على فكرة التفوق الذى يحرص عليه الفلاح إذا نازل أفنديًّا يحشر مؤخرته فى بنطلون، فمن العار أن يهزمه هذا المحشور الآبق.. أما عرفة وعوض وعاشور ومعهم فتيان فتيان وجوهر البقال، فقد نالوا النصيب الأكبر من هذه العلقة الساخنة.

سارع السيد النحال فشكا لصديقه حشمت بركات ما حدث:

- «وأما ما سوف يحدث ردًّا على أبى سنة، فإنها الدماء التى سوف تصل إلى الركب.. والأرواح التى سوف تبلغ الحناجر».

وما هى إلا أيام قليلة حتى جاءه حشمت بخبر يقين مذهل..

ـ «**الرئيس سيذهب بنفسه إلى الدائرة لتهدئة الجو بينكما: أنت وأبى سنة**»

ثم انتقل حشمت إلى ما هو أهم كما أشار بذلك:

ـ «**سنستورد زيتونًا من اليونان.. ما رأيك؟**»

عبث السيد النحال بشاربه الرفيع وهو يتلمظ: «**وصفائح الزيتون تأتى دائمًا مغلقة.. هذا ما أعرفه..**»

فرد حشمت بثقة: «**حتى لو كانت مفتوحة.. لا تهتم.. واطمئن.. فكل الطرق مفتوحة**»

ـ «**ومتى سأسافر؟**»

ـ «**بعد زيارة الرئيس لك فى الدائرة.. وهناك صفقة أخرى.. سنأتى بجرارات من رومانيا..**»

ففهم السيد النحال أن رجله المتذاكى يوظف كل ما شاهده من إمكانيات وترتيبات خبيثة قام بها عندما جلب المخدرات من اليونان داخل السيارة المرسيدس، فقال له:

ـ «**وطبعًا الإطارات الاحتياطية الضخمة للجرارات حرام أن تدخل البلد مليئة بالهواء فقط..**»

فضحك حشمت عاليًا: «**الهواء عندنا كثير.. فاملأ كل إطاراتك أيها الشيطان حتى تتحرك الجرارات بمزاج**»

وتبادلا الضحك الملىء بالنشوة، وفرحة الإمساك بالزمن القادم التى تهل عليهما سنواته محملة ببشائر الرزق الوفير.

* * *

وصلت الأوامر الرئاسية المفاجئة لمحافظ الإقليم بالاستعداد لاستقبال السيد الرئيس فى زيارة أبى سنة والنحال لحقن الدماء بين أنصارهما.. ثم جاءت التفاصيل التى تفيد أن الرئيس سيصل بطائرته الهليوكوبتر وسيهبط بها فى حديقة واحد من المرشحين مما يستوجب أن يعد كلٌّ منهما مهبطًا للطائرة فى موقع الضيافة..

وسرى الخبر العظيم فى أرجاء البلاد.. ومعه خبر الدوائر الخرسانية العملاقة المجهزة

لاستقبال طائرة الرئيس.. ففى أىّ مهبط منهما ستستوى الطائرة؟ من المؤكد أن الطائرة سوف تتجه إلى صاحب المهبط المشمول بالرضا الرئاسى.

ولأن قصر عبد الجليل «أبو سنة» يقع جهة الشرق.. وقصر السيد النحال يقع غربًا، فإن العيون تعلقت فى سماء الإقليم بحثًا عن وصول الطائرة ومراقبة إلى أين ستتجه: شرقًا أم غربًا..

وظهرت الطائرة فهلل الناس.. ولما انحرفت شرقًا هلل شعب عبد الجليل، وتميز السيد النحال غيظًا وهو يرنو بحسرة إلى دائرة المهبط فى حديقة قصره، ثم وهو يشير إلى ضيوفه أن يلحقوا به بسياراتهم شرقًا إلى عزبة «أبو سنة»..

قالوا إن الرئيس برز من الطائرة بزى ريفى وبيده عصا من الأبنوس اللامع، ثم صافح عبد الجليل «أبو سنة» وقبله فوق وجنتيه ومضى يصافح كلَّ رجالات العائلة وشبابها المصفوفين صفًّا واحدًا على جانب طريق التشريفة المفروش بالسجاد المزخرف ليصل بالرئيس من باب الطائرة إلى باب القصر..

ولم يمض كثير من الوقت حتى وصل موكب المرشح الشاب السيد النحال الذى غادر سيارته المرسيدس الحمراء واتجه إلى الصالون وهو يتقافز فى مشيته كلاعبى الكرة بعوده الممشوق وأناقته الملفتة وخطوته السريعة..

وقف الرئيس وهو يصافحه، ثم أمسك بيده اليمنى وعبد الجليل بيده اليسرى، وجعلهما يتحاضنان، فصفق الحضور لهذه اللفتة.

وبعد تبادل بعض عبارات المجاملة أومأ الرئيس إلى عبد الجليل «أبو سنة» إيماءة أوحت برغبته فى الاختلاء بهما بعيدًا عن العيون والآذان.

صعد «أبو سنه» إلى الدور العلوى وغاب قليلًا، ثم وقف على رأس السلم ونادى بوقار: «**تفضل هنا يافخامة الرئيس**» واحتار الجالسون ـ صمتًا ورهبة ـ فى أمر هذه الزيارة هل هى للمصالحة أم للتفاوض؟

وبدأ القلق يزحف على وجوه آل عبد الجليل وأنصاره وبدا ـ فيما بعد ـ أنه كان قلقًا مبررًا.. فقد هبط الثلاثة ووقفوا فى مواجهة الحضور: الرئيس فى الوسط وعلى يمينه السيد النحال يراوغ ابتسامة غامضة، وعلى يساره عبد الجليل «أبو سنة» ممتقع الوجه..

ابتسم الرئيس ابتسامته الواسعة التى تكشف عن أسنان ناصعة. وقال للحضور: «السيد عبد الجليل «أبو سنة» ردَّلى تحية الزيارة بأحسن منها، وأثبت أنه رجل كريم ذو أصالة عريقة؛ إذ لم يكتف بالمصالحة حقنًا للدماء، بل تنازل بخاطره لمنافسة الشاب السيد النحال.»

علت همهمات خفيفة ألجمها الحياء، وهنا سارع المضيف بالتهيؤ لحديث لا بد منه، فتنحنح باحثًا عن مدخل للقول وليس طاردًا لشىء فى حلقه:

ـ «أهلًا بك يا فخامة الرئيس فى منزلى.. وإذا كان الشاعر أحمد شوقى قد قال: ويهون العمر إلا ساعة، وتهون الأرض إلا موضعًا فأنا أقول: ويهون مقعدى فى البرلمان مقابل زيارتك.. بل يهون العمر مقابل ألا أردَّ لك مطلبًا يا سيادة الرئيس.»

ورغم أن الرئيس احتضن «أبو سنة» معبرًا عن سعادته بهذه البلاغة المعبرة إلا أنه لم يلتفت إلى تناقض كشف عن نفسه فى كلمتيهما.. فالرئيس لجأ إلى الكذب عندما قال إن عبد الجليل تنازل بخاطره.. أما عبد الجليل الحصيف، فقد أوضح للناس حقيقة ما حدث فى جلستهم العلوية.. بما يعنى أن الرئيس هو الذى طلب منه التنازل.

* * *

ويتذكر فريد هنيدى وهو فى سجنه أن معركته مع نظام السادات بدأت منذ هذه الواقعة التى هزت المنطقة عندما وضع رئيس البلاد كل ثقله فى كفة السيد النحال ليتمتع الأخير بنفوذ مفاجئ لا ذنب له فى سريانه واستمراره وترسخه بدءًا من هذا اليوم المشهود، اليوم الذى انحرفت فيه طائرة الرئاسة نحو الشرق لمجرد الخداع؛ إذ إن راكبها طار وهو ينوى أن يرسو بها على شاطئ الغرب.. وقد أفصح فريد هنيدى لمن حوله عن هذه النية المقروءة عند الرئيس قائلاَ إنه سوف يرتمى فى أحضان الغرب فعلًا، والغرب يعنى أمريكا، وأمريكا تعنى إسرائيل.

ثم يتذكر نقاط التحول فى مسيرة حياته فجعلته الشيخ فريد هنيدى الغاضب على النظام.

فبعد حادثة الجمل وبتر ذراعه الفولاذى الذى طالما انسكبت فوقه أضواء التفوق والبطولة كادت نفس فريد هنيدى أن تموت لولا عثوره على ملاذه الآمن فى القرآن الكريم والسنّة النبوية، ولم يكن فى ظنه أن سيتمكن من مواجهة الدنيا بهذا الذراع المبتور وذلك القلب المفطور وتلك

النفس المكلومة التى كادت أن تهوى به فى قرار سحيق من شعور أسود طمس رؤاه، شعور يائس أكد له أنه لا جدوى من الحياة، لولا اقتداؤه بنور شفيف سطع فى داخله.

كان قد وجد سلواه فيهما ـ القرآن والسُّنّة ـ ثم استغرقه هم طارئ؛ إذ وجد أنه هو نفسه صار العون والسلوى الباقيين لصديقه المسكين طاهر زين الدين. طاهر الذى شاركه همًّا بهمٍّ، وانتهى به الحال مثله أن صار قعيد الضياع، وفى تسلله الليلى إليه كان يبثه بعض ما سطع فى قلبه من نور الأمل، فيقرأ له القرآن ويروى له الأحاديث.. ولم يعودا يذكرا أخبار الصحبة التى تصلهم مملوءة بالصراع، فمنهم من يصارع نفسه أو يتصارع مع الحياة، أو يصبو إلى أن يصرع واقعه المقيم.

ويتعجب فريد هنيدى لهذه الشفافية التى ألمت بروح صديقه طاهر قعيد المحبس الدائم الممل فى غرفته البائسة، ووجد أن ما لم يره طاهر بأم عينيه أو يسمعه بأذنيه يراه فى منامه رموزًا معبرة أو صورًا هائمة ذات دلالات. ويتذكر فريد أنه أخفى عن طاهر كل الأخبار التى تصله عن عالم السيد النحال، وكيف صارت فوزية واحدة فى هذا العالم، كما أخفى عنه خبر زفافها الذى حضره فتيان فتيان ضمن المدعوين. وقد أصر فريد على إخفاء هذا الخبر حتى عندما قال له طاهر ذات مساء:

ـ «يبدو لى يا فريد أنك تخفى عنى شيئًا»

ـ «أيُّ شىء؟»

ـ «أخبار فوزية، وماذا يحدث بينها وبين ابن النحال... السيد»

ـ «أنا مثلك يا طاهر لا أغادر البلد إلا لدراستى، فكيف أعرف أخبارها؟»

ـ «إن لم تكن فوزية نزوجته يافريد... فسوف تتزوجه»

ـ «أنت تعرف مثلى ومثل كلِّ الناس أنه تزوج خميسة عفيفى»

ـ «وهل هذا يمنعه؟.. صدقنى لو تقصيت أخبارهما ستعرف أنهما تزوجا»

وثبت لفريد أن طاهر زين الدين قد وضع يده على هذه الحقيقة بعد أن صحا من نومه ذات صباح وراح يعيد على نفسه ذلك الحلم الرامز ويحاول تفسيره.. فقرب ترعة وجه البلد أشرقت نفسه بالبهجة وهو يرى طابورًا من الفتيات رائقات الوجه والهيئة يحملن على رءوسهن جرار المياه ويتبخترن فى دلال ويقتربن من حافة الترعة إلى الطريق وهو

يتفرس وجوههن فى شغف كأنما يبحث فيهن عن فوزية. لكنه وجدها هناك بعيدًا عن حاملات الجرار.. تسير وحيدة منهكة ومتعبة وتحمل على رأسها غلقًا من الوحل والطين السائب الآخذ فى التسرب والسقوط على وجهها وشعرها.

قال له فريد:

ـ «هل الطين الذى حملته فوزية على رأسها فى المنام أنبأك بأنها سقطت فى وحل السيد النحال. هل هذا ما خرجت به من الحلم؟»

وبكل الأسى قال له طاهر:

ـ «الحزن صار يتملكنى منذ هذا الحلم، وكأننى رأيت ما سوف يئول إليه مصير فوزية التى لم تقو على توديعى رحمة بقلبى وبقلبها المكسور من أجلى..»

ويبتسم فريد هنيدى فى إشفاق لحال ذلك العاشق المحب الذى ما زال يجتر ذكرياته النبيلة التى تعيش فى داخله، أما عكسها فهو ما يعيش داخل فوزية، هذا ما يراه فريد، ولا يود أن يراه طاهر الذى يعيش على وجه الأرض كومة من العظام الهشة يحييها الأمل ويغذيها الرجاء أن تطل عليه فوزية مرة واحدة فيراها قبل أن يموت...

* * *

وقبل أن يشفى فريد هنيدى من ذلك الشيء الذى أسماه قسوة القدر أفاق فوجد نفسه يشتبك مع عبث هذا القدر عندما سار خلف نعش طاهر ذات غروب دامٍ يجلله سحاب ثقيل، وكان وهو يذرف الدموع على صديقه الراحل مليئًا بالسخط على فتيان الذى ساقه القدر على غير انتظار إلى طاهر فراح يروى له متباهيًا بصديقه الصاعد إلى المجد ـ بجدارة ـ السيد النحال وإمعانًا فى تأكيد ما يقوله روى له ضمن ما روى حفل زفافه الأسطورى على العروس فوزية حمدان موظفة العلاقات العامة بمجلس الأمة كما أشير إلى ذلك ببطاقات الدعوة.

أرسل فى طلبه على غير العادة وراح يذرف أمامه دموع القهر والعجز وقلة الحيلة مرسلًا آهاته التى لم يقو على كتمانها إلى فراغ الدنيا والكون، مرددًا بين الآهة والأخرى قولًا واحدًا: **«ألم أقل لك يافريد أن حبيبتى حملت الطين فوق رأسها؟.... لماذا يافوزية؟.. لماذا ياحبيبتى؟ ماهذا الذى فعلته بنفسك يابنت الناس؟...»**

وظل طاهر زين الدين يبكى حتى مات...

وعندما عاد فريد من المقابر بعد أن أودع صديقه الثرى فى هذا الغروب الحزين أيقن أن طاهرًا ارتاح من عبث الحياة، وقال إنه عبث تؤكده أشياؤه التى تركها خلفه، والتى تملأ ركنًا صغيرًا من دولاب قديم... ومعها مجموعة من الصور الناطقة بفرحة اللهو، ومجموعة من الملابس الفاخرة التى كانت تؤكد وسامته، ملابس عزّ عليه أن يرتديها فى سنواته الأخيرة، ولم يعد يرتدى سوى جلبابًا قديمًا كالحًا ينام به ويقوم به فوق مرتبة رثة.

يومها قال لنفسه: «**ما أتفه الدنيا، وما أتفهنى عندما كنت أظنها فى قبضة يدى، إلى أن كشف الجمل تفاهتى..**»

* * *

واصل رحلة زهده فى كل شىء إلا الإبحار فى كتاب الله، وأمسك برسالته عندما ثقبت حجب ظلامه حزمة نور بالغة القوة.. فتحول من دارس قديم لأصول تربية العضلات إلى دارس جديد لأصول تربية النفس وتهذيبها بهدْى الدين... وتحول وصفه من «البطل» إلى ندائه «بالشيخ»... ورأى الناس أن الشيخ فى داخله كان مقموعًا، وعندما ظهر وعاد ثبت أنه كان الأقوى والأهم.. وما لبث القوم أن أتوا بلقبه القديم فوضعوه على نفس السطر مع لقبه الجديد ليصبح «الشيخ البطل» هو النداء الذى إذا قيل دون اسم صاحبه عُرف أن صاحبه هو فريد هنيدى.

وبعدما نال شهادته الجديدة فى الدراسات الإسلامية وجاء تعيينه بمسجد سيدى بشر اكتملت حوله كل مشاهد العبث والمفارقة.. فالإسكندرية هى مدينته التى سجل فيها ذكريات غرامية إن مرت بعقله ساءته.

* * *

وفى إحدى زياراته المتقاربة للبلد وجد نفسه مع آخرين يقف على حافة المهرجان الصاخب الذى عقده المرشح السيد النحال أمام المدرسة.. وكان يتميز غيظًا وهو يرى هذا البهلوان الفاجر يستولى على عقول البسطاء بكلام خبيث يغلفه التجمل والرياء، وعندما توجه «الشيخ البطل» إلى الميكروفون تهلل وجه النحال وصفق الناس ظنًا منه ومنهم أن الشيخ فريدًا جاء لتأييد ابن بلدته نجم السياسة الصاعد، لكنهم سرعان ما وجدوه يضع أسئلة بعينها أمام نجم الحفل:

- «أين كنت يا ابن بلدنا طوال هذه السنوات، ولماذا جئتنا فجأة بهذا الطبل والزمر؟»
«ولو سألتنا القرى المجاورة من هو هذا المرشح الذى ظهر لكم فجأة، فبماذا نجيبهم؟»
«وهل جئت إلينا طلبًا لمصلحتك أن تفوز بكرسى البرلمان، أم لمصلحة لنا لا نعرفها؟»
ثم أنهى أسئلته بقول قاطع:

- «ثق يابن بلدنا العزيز.. آسف يابن هذا البلد العزيز، إننا لو كنا بحاجة إليك لذهبنا إليك.. ولكن لأننا لا نعرف لك مكانًا أو مكانة، فاعلم أننا لسنا بحاجة إليك».

ولم يعلم الشيخ فريد هنيدى أنه بهذا الهجوم فتح الباب لمهاجم آخر هو على بن جوهر البقال الذى لم يتمكن والده من منعه عن صعود المنصة، فانفلت الفتى من بين يدى والده، وقفز إلى الميكرفون وتوجه هو الآخر بسؤال واحد إلى السيد النحال:

- «يا أستاذ سيد، أبى دخل السجن فى أوائل الستينيات لمدة ثلاث سنوات فى قضية مخدرات، ويعلم الله من هو المجرم الذى دس له هذه المخدرات فى جيبه، من هو المجرم الذى اتفق مع مرشد المكافحة على توريطه، فهلا ساعدتنا يا أستاذ على أن نعرفه؟»

يومها ظن الجمهور أن الشيخ فريد هنيدى ومعه الفتى على جوهر قد أحرقا السفن الزائفة التى أبحر بها إليهم المرشح السيد النحال، ولم يدم هذا الظن طويلًا عندما تمكن السيد النحال من حرق غريميه أمام الناس بكلمات بسيطة وقوية تبدو لمن يسمعها منطقية:

- «كيف تحاسبوننى على أيام الفقر التى أجبرتنى أن أهرب منها لإنقاذ نفسى؟»
«وكيف تلوموننى أن جئتكم قويًا لأحمل أعباءكم بعد أن كنت ضعيفًا لا أكاد أحمل عبء نفسى؟»
«وكيف تتناسون حركة الزمن ولا تخاطبوننى بوضعى الجديد دون أن تنزعوا من خيالكم صورتى القديمة؟..»
«رئيسنا المفدى أنور السادات عمل شيالًا وتباعًا وسائقًا فى أيام تشرده وصار يفخر بهذا الماضي، وأنا مثله عملت دلالًا مع فتيان وحدادًا وما زلت أفخر بذلك.. فمن يعايرنى بذلك يذهب فيعاير رئيس البلاد بماضيه»
«وأنت ياعلى جوهر، كيف تطلب شهادتى فى قضية كنت أنا طرفًا مختصمًا فيها؟»

ونال السيد النحال من التصفيق والاستحسان ما جعل الشيخ فريد هنيدى يقف مذهولًا لهذه القدرة الفذة التى يستطيع بها الضلال أن يزيح الحق بقول ظاهره الفضيلة وباطنه الباطل.

وسوف يقول التاريخ إن الشيخ البطل تعلم من هذا الدرس ألا يتهاون فى معاركه مع الباطل وذويه.. فالباطل يحتشد أمام الحق بكل أسلحته الزائفة وقد يصرعه، فلا يلومن صاحب الحق نفسه حينئذ، وقد لام الشيخ البطل نفسه لأنه كان مؤدبًا بأكثر مما يجب وهو يطرح أسئلته، وكان النحال لئيمًا بأكثر مما يجب وهو يجيب عليها، أما لو كان الشيخ فريد قد صك أسئلته فأتى بها من المخزون الذى يعيش فى أذهان الناس لكان قد كسبه، فبماذا كان سوف يجيب ذلك المراوغ عن مثل هذه التساؤلات: من هو صاحب الحشيش الذى عثروا عليه فى «كنيف» عفيفى؟... وماذا فعلت لإخوتك الثلاث الذين قبضوا عليهم وأدخلوهم الإصلاحية لإدانتهم بالاتجار بالمخدرات؟.. وأين كنت عندما مات أخوك الأكبر متأثرًا بجروحه إثر شجار عنيف مع غرمائه؟، وأين أختك الكبرى التى هربت مع إسكافى متجول.؟ والخلاصة هى: «**اذهب فعالج مشاكلك الخاصة قبل أن تتصدى لمشاكلنا أيها الأفاق**».

وصار ما شاهده عليه المصلون فيما بعد، وما سمعوه منه من هجوم ضار على النظام كلما هاجت خواطره ضده يؤكد أن هذا الشيخ الشاب لا ينطح الصخر قدر ما يعمل على تفتيته بمتفجرات من صنعه.. فعندما تقبل الناس على مضض قرار السادات بمنع أكل اللحوم لمدة شهر.. وعندما غرقت الأسواق بالدجاج الأمريكى المثلج هتف الشيخ من فوق منبره:

- «**والله ما هذا بقرار اقتصادى، لكنها لعبة حقيرة لصالح تجار النظام وناهبى قوت الشعب.. فلا بارك الله فيكم ولا فى دجاجكم المذبوح خنقًا، يا من تأتون لنا بنفايات الغرب وبعض فتاته**»

ولم يلتفت عسس النظام لتصاعد غضب هذا الشيخ، فقد كانوا قد وضعوه فى جانب المهللين للرئيس إثر المديح الذى منحه له من فوق المنبر بعد انتصارات أكتوبر المجيد، ففى هذه الأيام المشرقة اشتعلت خواطره بالفخر والحماس، وأشعل بالحب أرواح الناس. لكنه صار على العكس من ذلك وهو يلمح ويراقب ويشقى بما يقوم به رئيس البلاد من تعجل

للصلح مع إسرائيل.. ثم ما يراه على شاشات التلفاز من لقاءات شاهد الشعب فيها حرم رئيسهم تتبادل القبلات الودية مع حكام إسرائيل، فهتف من فوق منبره:

ـ «بعض الخجل والتأدب ياسيدة مصر الأولى.. يامن تحولت فى نظر شعبك من سيدته إلى سيئته».

ومنذ هذا الهتاف صار زائرًا تقليديًّا لمباحث أمن الدولة. وصارت الوجوه الجديدة التى تندس بين المصلين معروفة المصدر.. رغم ما يقومون به من استغفار يشاركون به جموع المصلين إذا تطلب الأمر ذلك، وكثيرًا ما يتطلب الأمر الكثير من الاستغفار كذلك اليوم الذى روى فيه الشيخ فريد قصة الاحتفال الذى عقده الرئيس الأمريكى للسادات تكريمًا لأياديه البيضاء فى حل الصراع العربى الإسرائيلى.. وكيف أشادوا بحكمة الرئيس المصرى وعبقريته حتى إن أحدهم قال للحضور فى الحفل عن اعتقاده بأن الله خلق الأرض فى خمسة أيام وتفرغ لخلق السادات فى اليوم السادس.. وعلت صيحات الاستغفار فى المسجد كطنين النحل مع زعيق كالرعد يهب عليهم من فوق المنبر:

ـ «لوذوا بالخجل أيها المخنثون، وارحموا هذا الرجل من هذا التعظيم وهذا التأليه الذى سيلقى به وبنا إلى صحراء التيه والهلاك».

ومع هذا، فلم يلذ رجال الأمن بالخجل وهم يسحبون الشيخ الثائر إلى محبسهم ليلًا.

* * *

وفى البلد.. وفى لقاءات منبرية مختارة كان الشيخ فريد يرصد مساوئ السيد النحال ورفيقه فتيان ويكشفها بأعلى صوته أمام الناس، وحتى يخفف النحال من جموحه راح يكيد له عند المباحث، لكنهم سخروا من مكيدته قائلين: **«الشيخ فريد يواظب على زيارتنا دون أن نطلبه، فماذا تريد؟»**

ولذا، فقد مال النحال على شريكه فتيان بهمس طويل.. طويل..

وهما يبحثان معًا عن حَل جذرى لهذا الثائر المجنون.



التهجي في كتاب اللصوصية

عندما قالوا له إن فتيان فتيان عبد اللطيف انكفأ على يد السيد النحال فقبلها، قال فريد هنيدى لمن حوله:

ـ «هناك بعض الحشرات الغبية تنقض على أوانى السم فتموت فيها غرقًا...»

وكانت هذه القبلة التاريخية من توابع الزلزال الذى أيقظ أهل البلد على صورة السيد النحال يصافح جمال عبد الناصر فى صدر الصحف، ثم ما كان بعدها من ذهول اعترى فتيان وهو يشاهد حفل زواج دلال بهائمه القديم السيد النحال. ثم ما قيل له عن أن السيد يمتلك هذه الفيلا بما حولها من أرض شاسعة أقاموا فى جزء يسير منها سرادق الحفل الكبير، وبدا على فتيان أنه كان مذهولًا ومتلمظًا وحاسدًا عندما سرق نفسه وراح يدور حول الفيلا، ثم يسير بمحاذاة سورها الطويل بالشارع الغارق فى أضواء الفرح الكهربائية المنسكبة بفُحش.

وانخرط فتيان برغبة منه فى الحملة الانتخابية لابن بلده الذى صافحه جمال عبد الناصر وعززه أنور السادات، وتنازل له عبد الجليل أبو سنة فى مفاجأة كبرى هزت المنطقة، هكذا تقول اللافتات الدعائية، وهكذا نطقت الحقيقة.

وعندما اعتلى ابن النحال مقعده السحرى فى البرلمان راح فتيان يطارده ما بين مكتبه فى الفيلا أو مكتبه بالاتحاد الاشتراكى أو فى البرلمان أو فى منزله الجديد بحى الزمالك الشهير.

كان يترك له أوراقًا تحمل اسمه، ويتلقى مواعيد من السكرتيرات، ثم يأتى فى المواعيد دون أن يجده، والسبب أنه سافر فجأة.. أو خرج مسرعًا ليلحق بتشريفة للرئيس، أو ذهب إلى ماسبيرو لعمل تسجيل عاجل.. أو ذهب للمشاركة فى حفل خيرى مع السيدة الأولى... وما إن عثر عليه حتى ألقى أمامه بكل طموحاته المختبئة:

ـ «لن أنسى ياسيد بك أنك بكلمتين اثنتين زمان فتحت لى طاقة القدر وجعلتنى من أكبر تجار الموبيليا، والآن لا تحرمنى بلمسة من عبقريتك وتدلنى على طريق جديد أنمى فيه أموالى، ويابخت من نفع... واستنفع».

وباغته السيد النحال بسؤال مهم:

ـ «ما قيمة رأس المال الذى تريد استثماره؟»

تنحنح فتيان ولاذ بصمت لم يدم طويلًا، وقال باستحياء: «مائة ألف»

عرف النحال بخبرته أن فتيان يكذب:

ـ «هل هو كل المبلغ الذى تملكه، أم هو المبلغ الذي تنوى استثماره؟... إنه مبلغ بسيط»

تنحنح فتيان مرة أخرى:

ـ «إذن فكر لى فى استثمار ثلاثة أضعافه..»

وبدا الامتعاض على وجه السيد، فتعجب فتيان لذلك وسأله:

ـ «ألا يكفى هذا المبلغ؟»

ـ «طبعًا لا يكفى.. اضرب ألف فدان فى ثلاثمائة جنيه للفدان.. خلاص.. انتهى رأس مالك فى ثمن الأرض.. إذن، كيف ومن أين سنزرعها؟»

هتف فتيان بهلع شديد: ـ «ماذا تقول؟ ألف فدان؟ هل هناك من يشترى ألف فدان؟»

ـ «وثلاثة، وأربعة، وخمسة آلاف يافتيان مم تتعجب؟»

ـ «وحدود الملكية المعروفة فى...»

وقاطعه النحال: «ياعم انس كل هذ ا الهجص.. أخى أمير يملك خمسمائة فدان فى الخطاطبة ويشرف له على زراعتها صديقك رأفت إبراهيم.. أليس لديك علم بذلك؟.. ياأستاذ فتيان السادات فتح البلد.. أكتوبر قلبت الموازين»

ـ «بالله عليك ياسيد بك.. خذنى على جناحك.. أمير عنده ٥٠٠ فدان؟»

وذهب معه «نحال صغير» ليزور الأرض التى اشتراها من أعراب المنطقة الذين ذهبوا لسمسارهم النحال حتى مكتبه.. أعطوه أوراقًا عليها توقيعاتهم، وكلها لا علاقة لها بشرعية التملك الرسمى إنما بحق التواجد فى عقر دارهم، ولاحظ فتيان أنه لم ير نهرًا أو

ترعة.. إنها صحراء قاحلة.. «**كيف سأرويها؟**».. قال له النحال الصغير الذى يرافقه.. «**سوف ندق لك الآبار ونأتى لك بالمياه من باطن الأرض**»

مسح الفضاء بنظره فلم يلمح برجًا كهربائيًا: «**آبار. وكيف ستدور؟**» قال له النحال الصغير: «**سنأت لك بمولدات عملاقة**».. عاد فمسح الأفق بعين قلقة فلم يلمح بيتًا أو بشرًا: «**مولدات؟.. ومن سيديرها؟**».. فقال النحال الصغير:

ـ «**سنأت لك بموظفين.. أسطوات وعمال ومهندسين**».. هتف فتيان: «**وأين سيقيمون**» وقبل أن يخبره النحال الصغير بما سوف يقومون به من بناء مستعمرة لأكثر من ثلاثين رجلًا قال له فتيان وهو يلهث: «**خذنى للسيد بك.. خذنى له.. لقد تورطت.. إنها حرب وليست زراعة**»..

وضحك السيد النحال ملء شدقيه وهو يتأمل وجه فتيان المتقع، وجذبه الشعر ليضع به حكمة مقطرة أمام رجل البهائم والأرانب، فقال له:

ـ «**ومن لم يتعلم صعود الجبال، يعش أبد الدهر بين الحفر**».. **يافتيان أتنشد الثراء والرفعة وتظن أنك ستحصل عليهما دون مجهود..؟ افتح أكياسك وأنفق على أرضك وأطيانك يا صاحب الأطيان..**»

عرف فتيان أن السيد النحال لم يحقق له مشروعًا قدر ما حفر له حفرة ليدفن بها كل أمواله، وأن مأساته التى تعلن عن نفسها أنه لا يستطيع التراجع، فمد يديه متضرعًا ووجهه مذعور نحوه:

ـ «**أكياسى خاوية، وعقلى يفوقها خواء.. فدبرنى من فضلك يا صاحب الفضل**»

كان مشغولًا بالرد على تليفون، فأرسل بكلمة عابرة قبل أن يلتقط السماعة:

ـ «**سأشاركك بحق النصف**»

رقصت الفرحة فى قلبه وهو يتابع حوارًا ملغزًا يدور أمامه لا يسمع منه إلا حديث رجله الواثق الرزين، ولما انتهى من حديثه ضغط جرس الاستدعاء، فجاءه أحد الموظفين.. وقف أمامه معتدلًا.. وقبل أن يتلقى منه أمرًا، التفت النحال بسؤال مقتضب إلى صديقه فتيان:

ـ «**ماذا قلت؟ .. موافق؟**»

«أعاد فتيان تقديم كفيه الضارعتين نحوه: «المشاركة؟ طبعًا.. هذا شرف لى و...»

لم يجعله يكمل حديثه، فقد توجه النحال إلى موظفه بتعليماته:

ـ «**الإجراءات التى قمت بها للأستاذ أمير بحصر مساحة المزرعة.. قم بالمطلوب نفسه مع أرض الأستاذ فتيان.. أمامك أسبوع واحد حتى يمكننى مخاطبة البنك**»

واتضح لفتيان أن هذا الموظف هو نحال آخر صغير لم يكلفه سوى تحرير توكيل خاص بالشهر العقارى «**لاتخاذ اللازم نحو حصر وشراء وتسجيل مساحة الألف فدان محل حيازته بجهة الخطاطبة والتعامل مع كافة الجهات الحكومية من وزارة الزراعة إلى وزارة الرى وتعمير الصحارى والمجتمعات العمرانية الجديدة ووزارة الكهرباء و ....**»

وسلمه التوكيل مستفسرًا: «**هل هذا كل المطلوب منى؟**»

وبهدوء شديد طمأنه الأستاذ «شبل» الموظف النشط الذى أنهى التوكيل فى زمن قياسى:

ـ «**سيادة النائب سيطلعك على المطلوب منك فى المساء**»

وفى المساء وجد أن المطلوب منه أن يسلم «شبل» عهدة مالية للإنفاق منها على الإجراءات.. «**مبدئيًا عشرون ألف جنيه**».. «**رسوم؟**» «**لا.. وأنت الشاطر.. أهم من الرسوم.. لا تسأل كثيرًا..**»

ـ «**ياشبل خذ الأستاذ ودبر حالك.. ميعادى مع البنك بعد أسبوع..** »

لم يفهم شيئًا، لكنه اكتشف بعد أسبوع واحد أن هذا الشبل لا يمكن إلا أن يكون أسدًا.. فها هو مدير البنك الذى يجلس أمامه يقلب أوراقًا مختومة تشير إلى حيازته لألف فدان مزروعة بشتلات أشجار الفواكه، ولها مصدر للرى بالآبار الارتوازية:

ـ «**تمام..**»

هكذا هتف المدير وهو يطالع وجه السيد النائب، ثم يكمل: «**أين الطلب؟**»

هذه المرة السيد النائب هو الذى يطالع وجه السيد فتيان ويأمره:

ـ «**اكتب الآن طلبًا للبنك للحصول على قرض بضمان أرضك.. بكم ياراضى بك؟..**»

ـ «**لنقل إن الخبير سيقدر الفدان بستة آلاف جنيه.. وسنرهن الفدان بثلاثة آلاف..**

خمسون بالمائة يعنى.. إذن، القرض ثلاثة ملايين»

كان «شبل» قد أتى بورقة بيضاء وقلم وراح يملى فتيانًا.. ولا يدرى فتيان.. الآخذ فى الكتابة سبب ذلك الصفير الحاد الذى يمر بأذنيه.. فهل السبب ـ كما قال لنفسه ـ أنها المرة الأولى فى حياته التى يكتب فيها بقلمه كلمة «مليون»؟... أم لآن هذه اللحظة جاءت هكذا فجأة دون انتظار أو دون استعداد نفسى للقائها؟

«الصفير أهون من الموت.. ثلاثة ملايين؟.. هل أنا فى حلم؟»

هكذا قال لنفسه وهو يهز رأسه كحمار ينفض ذبابًا عَلَقَ بأذنيه. وقبل أن يدفعوا أمامه برزمة من الأوراق لتوقيعها طلب كوبًا من الماء فقد جف حلقه، ثم سحب منديلًا ليمسح به على عينيه، فقد غام بصره، وفى يده اهتز القلم للحظات عندما وجد شيكًا بالمديونية ضمن المستندات، حاول الخروج عن هلعه بمداعبة عابرة:

ـ «هل هذا هو الشيك الذى سأسجن بسببه؟»

وانتابه الندم:

«لماذا قلت هذه الجملة العبيطة؟.. الآن سوف يتذكر السيد النحال أنه دخل السجن. بسبب إيصال الأمانة وبيدى أنا فتيان فتيان... «ألم يقل لك النحال، ليتك لا تسأل كثيرًا؟ ربنا يستر..»

وأفاق بعد توقيع الأوراق، واحتساء كوب من الشاى، بالقول الفصل يقوله السيد النحال قبل أن ينصرف:

ـ «ضعوا مليونًا ونصفًا فى حسابى.. وافتحوا حسابًا للأستاذ فتيان ضعوا له فيه مليونًا ونصفًا.. سأتركك هنا يافتيان حتى يجهزوا لك دفتر شيكات.. اصرف مائة وخمسين ألفًا من حسابك وسلمها لراضى بك.. نصيبه.. كل مليون عليه مائة ألف..»

ثم التفت إلى راضى بك:

فى الزيارة القادمة سيكون معى فتيان لإنهاء إجراءات عملية استيراد سيشاركنى فيها». لم يفهم شيئًا.. ثم بدا له الأمر كأنه فهم بعض الأشياء.. ثم راوده بعض الأمل أن يفهم ـ بعد حين ـ كل الأشياء.. ثم راودته رغبة جامحة أن يذهب لينام.. فربما إذا ارتاح

جسده قد يرتاح عقله، فهو حتى الآن بحاجة إلى استيعاب حقيقة أنه الآن يملك رصيدًا بالبنك قدره مليون ونصف المليون إلا قليلًا..

فكيف تمكن من ذلك فى بضع ساعات وهو الذى مضى عليه فى سوق الأرانب والبهائم والربا والموبليا ما يقرب من ربع قرن ولم يقترب من ربع هذا المبلغ.. زمان قال له السيد النحال هازئًا إن:

- «المليون عند المليونيرات يسمونه أرنبًا، وأنت أرانبك سهلة الذبح ياحيوان عكس أرانب الوحوش فهى أرانب تَذبح ولا تُذبح»

«صدقتَ يانحال.. ياسليل كلاّف البهائم والبغال.. فأنا الآن أشعر بقوة تجتاح روحى يمكننى بها مواجهة كل هذا العالم.. لأننى والحمد لله صرت أمتلك.. أمتلك.. مليو.. لا.. أرنبًا ونصف أرنب».

* * *

وقبل أن يدخل به السيد النحال فى المشروع التالى لم يحرمه من بضع كلمات قالها سريعًا حول المشروع الأول:

- «انس الألف فدان.. خلاص.. هذا المشروع انتهى.. بعد عدة سنوات سوف يستولى البنك عليها ضمانًا لديونه، ولا أحد سيلوم البنك لأنه دفع أمواله فى أرض بائرة، فالخبير سيؤكد أن الأشجار ماتت بفعل الإهمال»

وقبل أن يفتح فتيان فمه سائلًا عن مصير الشيك المأخوذ عليه واصل النحال حديثه:

- «غدًا سيتحرك معك محام شاب لعمل بطاقة استيراد وتصدير - هذا هو ملعبك الجديد»

- «وبإذن الله.. ما الذى سنقوم بتصديره ياسيد بك»

رمقه السيد النحال بغيظ:

- «بالله عليك استيقظ معى، ماذا فى بلدك يارجل من إنتاج حتى تصدره؟»

تراجع فتيان سريعًا، وراق له أن يبدد غيظ النحال بمداعبة:

- «لا مؤاخذه ياسيادة النائب.. عيّل وغلط.. تحملنى ينوبك ثواب..»

لم يضحك النحال واستمر فى تقديم التفاصيل:

ـ «سنستورد ثلاثة آلاف طن لحوم من إسبانيا.. صفقه سيشاركك فيها أحد أبناء واحد من كبار المسئولين.. شبل.. هل تذكره؟ سيسافر معك.. تفاوض بنفسك للحصول على أفضل سعر.. سيترجم لك ويعرفك على الشركات والمسالخ هناك»

كاد أن يسأله عن الشريك الجديد، وعن طريقة ذبح هذه الذبائح ولكنه آثر السلامة، وفضل السكوت..

لكنه بعد عدة شهور وبعد وصول الصفقة لم يستطع السكوت وهرع إلى النحال هلعًا:

ـ «أغثنى.. سيعدمون الصفقة.. سيخربون بيتى.. الأطباء رفضوا اللحوم»

لم يرد عليه وتفرغ لاتصالاته المتعددة هنا وهناك، وفهم أن التقرير الطبى يشير إلى عدة أشياء أولها أنها لحوم لم تذبح بهائمها على الطريقة الإسلامية، وأن الدم قد تجلط فى أوعيتها الدموية، وأنها غير صالحه للاستهلاك الآدمى..

وفهم فتيان بعد عدة أيام أنه تم التضحية بإعدام خمسمائة طن كحل وسط، لتستقبل مخازن الهيئة العامة للسلع التموينية ألفين وخمسمائة طن استقرت بعد ذلك بالهناء والشفاء فى بطون أصحاب النصيب.. ثم استقرت شيكات الصفقة فى بطن فتيان وشريكه كلٌّ منهما بحق النصف. هكذا تم ترتيب الأمور فى مقر البنك وهم يجلسون فى انتظار «رأفت حشمت بركات».. فتى صغير.. بالكاد ينمو شاربه على استحياء.. ناعم الملمس.. يطفح وجهه بالأدب والحياء.. حتى وهو يثنى الشيك ويسلمه لواحد من موظفين كثر كانوا معه قائلًا: ضعه فى الحساب.

قد يكون فتيان قد فهم من صفقة الألف فدان كيف لشريك لم يدفع فى رأس المال، ولم يذكر اسمه فى العقود أن يحصل على نصف الأرباح، لكنه لم يفهم إلا فيما بعد أن استعراض النفوذ فى إنقاذ الصفقة كلها من الإعدام هو رأس مال صاحب النفوذ، وأن الخمسمائة طن لم تعدم كما أوهموه لكنها ذهبت إلى جيب النحال، فهى مكسبه.. ومع ذلك:

ـ «بارك الله فيما رزق.. العملية «متعشية» والحمد لله»

هكذا قال لنفسه وهو يستعد لصفقة الصِّحة التى حدثه عنها السيد النحال بالأمس.



هات الكتف لنأكله !!

قرأ أمير النحّال صفحة ملعبه ببراعة وبإبداع لم يقدمه كل الـذين سـبقوه عـلى كرسـى المدير المالي، فمنذ لمسته الوقحة التى قدّم بهَا نفسه لمجتمع الشركة وأكد بهَـا جدارتـه عنـد رجال النظام وهو ما زال آخذ فى الصعود.

وهى لمسة أسماها بعضهم «القشة التى قصمت ظهر البعير»، فلـم يكـن سـالم شـاهين الجالس على كرسى رئيس مجلس الإدارة قلقًا ومتذمرًا، أن يجد أنسب من واقعة إهانته على يد موظف صغير ذريعة لمغادرة هذا الكرسى.

يومها قال لأخيه خيرى ولمن حولهما من أصدقاء جلسة شبرد الناعمة:

- «**خذونى معكم يارجال الاستثمار القدامى، نسفح الوقت الطويل عـلى أنغـام الملـل، لأسمع من بعيد صوت المسامير الأخيرة التى تدق فى نعش شركـة أخـى خـيرى.. شركـة المقاولات المتحدة.. خيرى شاهين سابقًا..**».

ولم يكن اللواء مهندس حامد شبراوى بحاجة إلى إخفاء دناءتـه وهـو يسـتوى عـلى عـرش الرئاسة، كما لم يكن بحاجة للبحث عن رجل أبرع من أمير النحـال ليغـذى نهمـه، فقـد وجـده جاهزًا ولديه مشروع مماثل، خاصة عندما فاحت فى مصر حالة تربح فاحشة ومعلنة على مـرأى من الحاكم والدولة والشعب، فكيف يكون عثمان أحمد عثمان وزيرًا للإسكان والتعمير ورئيسًـا لهيئة الاستثمار وهو نفسه المقاول والمستثمر متعدد الشركات التى حصرها المراقبـون بـأكثر مـن أربعين شركة؟ ألم يمنع القانون مثل هذه الازدواجية وهذا التربح وهذا الخلط؟

وكما قال السيد النحّال لفتيان:

«**ياعم انس كل هذا الهجص فالسادات فتح البلد، وأكتوبر قلبت الموازين**» قالها حامـد شبراوى لأمير النحّال بشكل آخر:

ـ «القوانين فى إجازة طويلة.. بل لعلها قد ماتت.. ومرتباتنا الهزيلة تدخل ضمن هذه القوانين.. وما يتقاضاه رئيس مثلى بشركة كهذه فى دولة محترمة هو الحد الأدنى الذى سأمنحه لنفسى وبقانونى الخاص إلى أن تعدّل الدولة قوانينها وتحترمنا وتحترم نفسها».

وغمغم أمير: **«أين الكتف لنأكله؟.. هات الكتف لنأكله».**

وهكذا صارت السرقة احترام للنفس، وتقدير للذات، ووضع الحق فى نصابه، وإعادة ميزان العدل المعوج إلى مجراه الطبيعي، وصارت النسبة السرية المفروضة على الموردين ومقاولى الباطن تذهب إلى حامد شبراوى قبل تحصيل الرسوم والضرائب المقررة قانونًا، فيدفعها الرشاة إلى أمير الذى يوردها لسيده ولا ينسَى نفسه..

ولم يكتف الوزير المستثمر أن يصبح نموذجًا لوأد الشفافية، لكنه منح اللصوص سلاحًا جديدًا، فها هو حامد شبراوى يستدعى رجله المدلل «أمير النحّال» على عجل ليزف إليه هذه البشرى:

ـ «الوزير أطاح بالرقابة الإدارية.. أقنع الرئيس أنه جهاز مُعّطل لسوق واعد يعوزه الانطلاق، فنسفها السادات».

وابتسم أمير بتخابث:

ـ «سمعت أحد المحتجين على هذا القرار يقول إنه قرار حشّاشى.. تم اتخاذه فى جلسة حشيش وفى المسافة الفاصلة بين تعميرتين..»

فقهقه حامد شبراوى بمرح:

«والآن عرفت معنى كلمة التعمير.. ووزارة التعمير.. ووزير التعمير..»

أما ما كتبه صحفى «نحّالى» مشيدًا بهذا القرار، فقد أثلج صدور الغربان الجائعة، ومنحهم لافتة يستظلون بظلها لتحميهم من لهب الحقيقة:

«فالرقابة لم تكن سوى صرحًا من صروح البلاَدة والاصطياد.. والإطاحة بمثل هذه الصروح الزائفة هى الهدية المثلى التى أهداها الرئيس لسوق العمل الذى يعوزه الانطلاق.. فالشرفاء تكفيهم رقابة الذات التى تنبع من ضمائرهم، وليسوا بحاجة إلى رقابة من خارج ذواتهم السوية»

وصفّقا معًا: حامد شبراوى وأمير النحّال لبلاغة هذا التحليل، وأيقن أمير أن هذا الصحفى الصاعد يملك أسباب الرفعة وسيمسك بها

«فيما بعد صار رئيسًا لتحرير صحيفة قومية».

أما السيد النحّال وفتيان فتيان، فلم يرتاحا لما وصلهما من أن الشيخ فريد هنيدى لم يكتف بمهاجمة هذا القرار وإنما ضرب بهما المثل من فوق منبره فأتى على واقعة اللحوم الفاسدة التى دخلت البلاد على أيديهما.. ثم الصلصة المنتهية الصلاحية.. وقال:

«إذا كان هذا قد حدث فى وجود الرقابة الإدارية، فماذا سيحدث بعد الإطاحة بهذا الجهاز المتربص للصوص»، ثم تساءل:

«كيف يمكنك ياسيادة الرئيس وأنت رب المنزل أن تغفل قيمة المبيد الحشرى فى منزل ملىء بالحشرات؟»

ويتعجب فتيان فتيان من أن الشيخ فريد هنيدى لا يأتى على ذكر أمير النحّال فى مسلسل هجومه عليهما: ـ هو والسيد ـ كشريكين فاحت رائحتهما فى سوق العفن.. واكتشف فتيان أن الأضواء المسلطة على السيد النحّال كناشط سياسى هى نفسها التى كشفته كلاعب لا يهمد فى سوق المال.

ثم اكتشف أن أميرًا يجيد الكتمان ويلعب فى ظلام أحاط به نفسه، يكفى أنه لا أحد فى البلد يعلم أنه صار من كبار الملاك ويمتلك مزرعة هائلة يعمل بها رأفت عبد الواحد، حتى رأفت نفسه تعامل مع هذا الأمر بكتمان لا يدرى إن كان نابعًا من داخله أم بواعز من رب عمله..

فلم يكن فى ظن أمير أن يقلد سيده حامد شبراوى الذى حول أمواله إلى مستشفى على شاطئ النيل فى المعادي، وأن يقلده فى استغلال إمكانيات الشركة فى بناء هذا المستشفى، فجرارات الحديد والأسمنت وسائر مواد البناء المتجهة إلى مشاريع الشركة ناحية حلوَان كثيرًا ما يستريح بعضها عند نيل المعادى لتفرغ حمولتها بالمستشفى ليقول سائق ما لزميله:

«لم أكن أعلم أن حلوان قريبة إلى هذا الحد..»

ذلك أن الرجل أمين مخزن حلوان وضع توقيعه على استلام الشحنة وهو فى المعادى.. وإثر هذه اللكزة الموحية يسرع هذا الأمين إلى «أمير بيه» فيهمس له بالمطلوب:

ـ **«اكسر عين هذا السائق.. وزميله»**

فقد صارت من مهامه الرئيسية: كسر العيون.. وملء البطون.

وتدرب فى المستشفى التى بناها لحامد شبراوى على أعمال وتصرفات وعلاقات

وأدوات صار يستخدمها وهو يقيم مزرعته بالخطاطبة.. وصارت الجرارات المتجهة إلى الإسكندرية تختصر مسافتها بالخطاطبة لتفرغ حمولتها هناك.. وصار أمناء المخازن يوقعون باستلام التشوينات تحت ظلال الأشجار وحول موائد الطعام الهنىء يشاركهم به السائقون والعمال وكلهم منهمكون بجد وإخلاص فى عمل يعلمون جميعًا أنه لا يتسم بالشرعية، فهذه الفيلا وهذا المسبح وهذا السور وكل هذه الطرق المرصوفة والبرجولات المظللة تئول إلى أمير بك ابن الحسب والنسب الذى يقال إن لشقيقه النائب الشهير السيد النحّال قصرًا كبيرًا فى مسقط رأسه.. وقصرًا مثله فى ضاحية الزيتون..

* * *

خلف بابه المغلق انفرد أمير بمهندس «نحّالى» صاعد، وسأله:

ـ «خط المجارى الذى تقوم بتنفيذه.. كم طوله؟»

ـ «عشرة كيلو مترات»

ـ «ماذا يحدث إذا اعترضت مسار الخط هضبة ممتدة طولها كيلو متر»

ـ «يجب إزالتها..»

ـ «إذن، ضع لى مقايسة أعمال إضافية لبنود غير منظوره لأعمال قطع وتحميل وترحيل فى حدود مليون أو أكثر..»

وعلى الفور فهم المهندس أن عبقرية النحّال التآمرية أتت بإبداع جديد.. بنود وهمية.. لعبة مستندات يتم ترتيبها مع مهندس الحكومة والمقاول ومهندس الشركة.. وكل هؤلاء لهم النصف وحامد بك وأمير بك لهما النصف.

وخرج المهندس النحّال يردد فى فرح:

ـ «أين الكتف لنأكله.. هات الكتف لنأكله»

* * *

ولما كان حامد شبراوى فى غفله يتلهى بلياليه الغرامية فيما بين شقة وعوامة ويتابع أرصدته التى تعلو فيما بين الداخل والخارج.. فلم يأته خبَر المزرعة كما لم يأته سر البنود الوهمية ومكسبها المضاعف قياسًا بالرشا.. وكان أن همست له بكل ذلك أرملة طروب، اصطادها فى وثبة شائقة بدأت بلغة العيون، ثم حديث صريح كانت البذاءة هى جواز مروره إلى منزلها

فسرير نومها، ثم صارت مصدر أخباره التى راحت تفاصيلها تلقى قرب فخذيه..

فوجئت الشركة برئيسها يصب جام غضبه على صديقه أمير النحّال، وحبسوا أنفاسهم انتظارًا لما سوف تثمر عنه معركة الكبار.. فالرئيس يطلب مراجعة ملفات بعينها.. ويستدعى مدراء مواقع بعينهم.. لم يأبه أمير وارتدى ثوب اللامبالاة، لكنه تحرك خلفه ذات ضُحى دون أن يراه وتأكد أن غريمه الجديد يهنأ بوقته مع إحداهن فى شقة الحظ والمؤانسة، وبعد دقائق من ترتيبه أمرًا ما مع البواب المتمتع دومًا بكرمه تلقت زوجة حامد شبراوى الغافلة هاتفًا من مجهول يؤكد لها أن بعلها الكريم يسبغ كَرم فحولته الآن على عاشقة فى عمر بناته بوكره العتيد الكائن بهذا العنوان.

ـ «وسأسدى لك يامدام خدمة لا تقدر بمال، هناك مفتاح للشقة فى انتظارك عند البواب».

ـ «يبدو أنك شريك له واختلفتما وهذا مفتاحك.»

ـ «لقد سرقته من الفتاة التى سرقها منى زوجك.»

ـ «آه.. فهمت.. وهذا سر انتقامك منه.»

ـ «وأنت سوف تنتقمين لى.»

ـ «بل سأجعله يندم على وجوده فى الحياة.. الكلب..»

وعندما لم يصل السيد اللواء مهندس حامد شبراوى رئيس مجلس إدارة شركة المقاولات المتحدة إلى مقر عمله فى صباح اليوم التالى لم يلتفت أحد إلى ذلك، لكنه فى صباح اليوم الذى يليه جاءت الأنباء تقول إن المذكور رهن الإقامة بغرفة العناية المركزة بمستشفى المعادى:

ـ «لماذا؟.. ماذا حدث له..»

ـ «يقولون إنه يعانى من صدمة عصبية، أفقدته النطق.»

وفى اليومين التاليين لم يتعمد أحد إهماله أو عدم السؤال عنه، فقد اشتعل القطر المصرى كله بانتفاضة الجياع الذين جابوا الشوارع وأحرقوا الممتلكات والمركبات، وصار هذا هو التاريخ المكتوب لاحتراق حامد شبراوى.. فها هو رئيس القومسيون الطبى يوقّع تقريره الطبى القاضى بإصابة المذكور بشلل نصفى يمنعه من مواصلة العمل، وأسفل التوقيع تاريخ ١٩/ ١/ ١٩٧٧م.



مسألة كرامة : هكذا قالت العاهرة

ظل العامة يرقبون قيام الصفوة بنهب أرزاقهم ويتأملون القرصنة التى تحدث فى المحيط الأعلى وهم صامتون يتميزون غيظًا، وعندما انفجروا يومىْ ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ أثبتوا أن الغضب المكبوت لا حدود لانفجاره.

وتعجب أشرف بركات لأن عرش الحكم اهتز فى هذين اليومين بيد الشعب عكس ما حدث يومى ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧ عندما حالت هذه اليد دون اهتزاز عرش عبد الناصر.

وقال حلمى عبد الباقى فى مقاله الأسبوعى:

«لا تنخدعوا فى هذا الجمهور؛ إذ بدا لكم مستسلمًا خانعًا يلوذ إلى النكته، فأقل ما يمكن أن تتأملوه هو المغزى الكامن فى كل نكته يطلقها هذا الشعب المسروق لتتأكدوا أنه حتمًا سينفجر طالما أن النكته لم تعد تشفى غله وغليله»

ولما جاء مقاله التالى ساخنًا بأكثر مما يجب وشامتًا فى النظام الذى تراجع مذعورًا عن قراراته الاقتصادية قالت له خميسة:

ـ «خفف الوطأ.. ليست رحمة بهم، ولكن رحمة بصحيفتك المعارضة التى قد يغلقونها بسببك..»

أما الشيخ فريد هنيدى فقبل أن يسحبوه إلى نومته المعروفة كان قد أطلق آهاته الحرى إلى عنان السماء طالبًا الرحمة لهؤلاء الذين ماتوا برصاص الشرطة من المتظاهرين فى الشوارع، وطالبًا القصاص من رأس النظام مؤكدًا أن حاكمًا يطلق النار على أبناء شعبه هو حاكم فاقد لشرعيته، ولا يليق به أن يبقى يومًا واحدًا فى سدة الحكم.

واختبأ السيد النحّال داخل نفسه وأوصى فتيان فتيان أن يبتعد عن مسار العاصفة إلى

أن تهدأ، ولما علما أن الشيخ فريد هنيدى يحل ضيفًا فى معقله بنيابة أمن الدولة حمدا الله على هذا الحال..

ولأنه كان من اللازم أن يبحث النظام عن حقن مسكنّة لآلام الشعب فإن فضح وتجريس بعض صغار اللصوص قد يوهم الناس أن هذا النظام ينظف ساحته من القاذورات ليبدأ عهدًا جديدًا من النقاء والشفافية، لا سطو فيه ولا تربح ولا متاجرة بمصائر الفقراء.

ولأن حامد شبراوى فقد منصبه بعد أن فقد النطق والحركة، فقد سارع أمير النحّال من خلال أسياده عسس النظام إلى الإشارة إلى «**فُحش ما كان يحصده هذا الرجل من أموال وثروات نهبها من شركة المقاولات المتحدة التى تحولت على يديه إلى عزبة، كأنما ورثها عن والده..**»

كان هذا ما جاء من قول فى شكوى من مواطن وهمى إلى إدارة الكسب غير المشروع ثم من دليل آخر جاء بشكوى أخرى من مواطن جديد يفرد بالتفصيل حجم مسروقات حامد شبراوى أثناء إقامته مستشفى استثماريًّا لنفسه على كورنيش النيل بالمعادى من أموال الشعب.

ولم يدرك أحد إلا عند التحقيقات أن أمير النحّال ترك دليلًا ماديًّا فى فناء المستشفى عند بنائها يثبت لمن يهمهم الأمر أن حامد شبراوى سرق كل أموال هذا البناء من شركته.

فالبرج الميكانيكى الدوّار العملاق الذى يرفع مواد البناء لطوابق المبنى هو من ممتلكات شركة المقاولات المتحدة ومازال رابضًا فى فناء المستشفى حتى الآن بعد أن استعصى على المهندسين أمر تفكيكه وإعادته إلى الشركة. يومها قال أمير للمهندسين:

«**اتركوه.. سأسوى حالته فى قوائم الأصول الثابته للشركة**».. ثم قال لسيده وقتها «**سأرتب لك فاتورة شراء مصنوعة تحمى ملكيتك لهذا البُرج كأنه آل إليك بالشراء من متزايد حصل عليه فى مزاد من مزادات الشركة**».

وهلل حامد شبراوى يومها لعقلية رجله الأثير، ثم نسى أمر الفاتورة التى تناساها أمير..

وفى مسلسل فضح اللصوص والإمساك بالقطط السمان أبدع أمير النحّال فى فضح رئيس شركته السابق، وألهى اللجان عن الاقتراب من تصرفاته المماثلة، وثروته الماثلة.. وبداخله رعدة خوف أن يزج أحد باسمه إلى إدارة الكسب غير المشروع.

* * *

قفز مسرعًا إلى ضيعته الهانئة بالخطاطبة، ومن الفيلا الأنيقة أرسل فى طلب المهندس المسئول رأفت إبراهيم عبد الواحد.

جاءه رأفت هادئًا مؤدبًا ووديعًا فوجده فى صحبة رجل سمين سبق له أن رآه مع ضيوفه الكُثر الذين لا ينقطعون عن زيارات اللهو والمرح وحفلات الشواء بالمزرعة.

- «**اجلس يارأفت..**»

هكذا دعاه بصوت حنون، ثم لاحقه بصوت أحن:

- «**ألم تلاحظ يا رأفت أنك تعمل هنا منذ أكثر من عامين دون أن تكتب عقدًا بالعمل مع صاحب هذه المزرعة؟..**»

احتار رأفت فى الإجابة، لكنه قال على سبيل المجاملة:

- «**ليس بينى وبينك ما يدعونى أن أضمن حقوقى بورقة**»

فقال أمير مسرعًا: «**هذا إذا كنت أنا صاحب المزرعة.. هذا هو صاحبها الحقيقى..**» وأشار إلى مرافقه.. «**الحاج إبراهيم الصعيدى.. رجاله الآن فى الخارج يضعون لافتة على البوابة بالاسم الذى اختاره: جنة أبناء الصعيد**».. **اسم عجيب، أليس كذلك؟.. هو حر: من حكم فى ماله ما ظلم.. على كل حال هذا هو العقد الذى يجب أن توقعه مع الحاج إبراهيم منذ بدء عملك معه..**»

وفتح حقيبته الأنيقة وسحب منها نسختين لعقد ممهور مقدمًا من الطرف الأول إبراهيم عطا محمد حامد الشهير بإبراهيم الصعيدى.. والمهنة صاحب شركة العطا للمقاولات العامة والتوريدات ودفعه إليه ليوقعه.. فوقّعه..

لم يفهم رأفت شيئًا منذ أن خرج من الفيلا وبيده نسخته من العقد، وفى حجرته الصغيرة انتابته كثير من الهواجس التى كثيرًا ما ينفرد بها وتنفرد به ولا يطلع عليها أحد ما

عدا زوجته نادية التى يسرب إليها من آن لآخر بعض هذه الهواجس..

فنادية التى تزوجها منذ ثلاثة أعوام جربت الحياة معه لما يقرب من العام بمرتب الحكومة الهزيل، فتعلمت معه فكرة ربط الحزام حتى يمر الشهر بسلام، ولما جاءه خطاب على عنوانه بالبلد أرسله إليه أمير النحال طالبًا منه أن يسافر لمقابلته فى العاصمة لم يكن صديقه فريد هنيدى بجواره ليبلغه بأمر هذه المقابلة المطلوبة التى عاد منها بمشاعر تجمع بين الفرحة والاضطراب..

أطلع زوجته التى لم تكن من بنات القرية على شخصية أمير النحال، وبعد أن جمعت نادية بين يديها صورة رجل يختلف تمامًا عن زوجها فى خلقه وقيمه ومبادئه سألته:

«وفيم كان يريدك؟»

ـ «يريدنى أن أعمل عنده .. راعيًا لمزرعته».

ـ «وهل وافقت على أن تعمل عنده؟»

خبا بريق الرضا فى عينيه وقال بصوت مكسور:

ـ «المرتب الذى سيمنحه لى جعلنى أوافق.. لكننى ندمت على ذلك طوال الطريق.. فسوف يقاطعنى الشيخ فريد هنيدى إذا عرف منى هذا الخبر، لأننى أحصل على مرتبى من مال حرام؟»

وأخرجته نادية من عذاب هواجسه:

ـ «لا تقل للشيخ فريد، ولا لأىّ أحد، واستفت قلبك.. وجرب هذا العمل لعام أو أكثر، وتذكر أنه قد يلهث الآلاف خلف هذه الوظيفة إذا رفضتها أنت؛ لأنهم لن يفكروا بنفس طريقتك».

* * *

والآن يجب أن أعترف للشيخ فريد بالمكان وصاحب المكان الذى أعمل به منذ أكثر من عامين.. كان صاحبه أمير النحال حتى ساعات قليلة مضت.. والآن صاحبه الحاج إبراهيم الصعيدى.. فكيف ذلك؟.»

* * *

وبوجه مشدوه تساءل الشيخ فريد:

ـ «خمسمائة فدان؟.. يااااه؟.. أمير؟»

فأعاد عليه رأفت المسميات الأخرى:

ـ «وفيلا.. وحمام سباحة، وتعريشة للشواء والسهر..»

ثم يصمت الشيخ فريد ويعاود أسئلته:

ـ «وكيف تحملته طوال هذين العامين؟»

أثنى رأفت بينه وبين نفسه على سؤال صديقه:

فقد كان يجب أن يكون سؤاله الأخير هكذا: «وكيف تنكر عليّ هذا الأمر طوال هذين العامين؟»

ولكن لأنه فريد بكل ما بنفسه وروحه وعقله من نبل شديد فقد تغاضى عن لومه لأنه كتم عنه حقيقة أنه يعمل عند أمير النحال.. فمن المؤكد أن الشيخ فريدًا التمس لصديقه العذر وألبس ما فعله ثوب العمل بالنصيحة النبوية **«استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»** ثم أولى اهتمامه شيء آخر:

«كيف تحملته؟»

ورأى رأفت أنه سؤال حصيف ينطوى على رؤية ثاقبة لخص به الشيخ فريد حجم المفارقة والهوة السحيقة بين رجلين كلٌّ منهما لا يمت للآخر بصلة، ومع هذا فقد اجتمعا على هدف واحد وفكرة جامعة، وراحا يطاردان الهدف والفكرة كل بطريقته فى خلاء الحياة الذى أسماه أمير النحال: «المزرعة..»

ـ «المزرعة يا شيخ فريد لخصت لى الدنيا كلها داخل حدودها الأربعة. فإن رمت فكرة الإعمار والإنبات والإثمار فهى هناك، وإن رمت فكرة اللهو والعيث والقناطير المقنطرة من الذهب والفضه فهى هناك، لكنك تعثر دائمًا على فكرة الغرور والتفاخر الذى سوف يقتل صاحبه، ثم تتذكر ذلك الواهم الذى دخل جنته وقال لنفسه: ما أظن أن هذه تبيد أبدًا. أمير النحال يا شيخ فريد أهاننى ذات ليلة عندما قلت له: «قل إن شاء الله..» وكان لحظتها يصيح فى واحد من العمال آمرًا:

«لا بد أن تفعل كذا فى الصباح».. فى هذه الليلة أفرغ يده من العامل واستدار إلىّ وراح يؤنبنى على هذه الملصقات العالقة بعقلى.. وانتهى إلى تذكيرى بما صرت إليه قياسًا بما صار هو عليه.. وعزا السبب إلى تعلقى العبيط بمكتسبات عفا عليها الزمن.. «انس أبى وأباك.. اتركهما فى غيبوبة الفقر وقلة الحيلة.. أو ابحث لهما عن متحف يليق بهما»

وفى ليلة سوداء أخرى نفد الخمر وتطلب الأمر أن يسرع أحد السائقين إلى الإسكندرية لابتياع بعض منه لإكمال سهرة رأس السنة التى أعدوا لها عدة لا يرقى الخواجات إلى مثلها...

كنت فى غرفتى كالعادة لا شأن لى بحفلاته وطعامه وشرابه وضيوفه بعد أن عاهدت نفسى ألا أقرب شيئًا من ذلك...

أرسل فى طلبى، ذهبت إليه متثاقلًا وقرفانًا.. لاحظ هو ذلك من بؤس ملامحى.. ثم لاحظ ما طرأ على وجهى من تغير إثر تعرفى على المهمة العاجلة التى طلبنى من أجلها:

ـ «ستذهب مع الأسطى محمد إلى محطة الرمل ـ شارع صفية زغلول...»

قاطعته قبل أن يُكمل التوصيف فقد سمعته من قبل يصف محلًّا بهذا الشارع لبيع الخمور.

ـ «لا تكمل يا أستاذ أمير.. الأسطى محمد يذهب بمفرده.. لن أبتاع لك خمرًا...»

ـ «لماذا يا باشمهندس.. حرام؟»

ـ «لا حرام.. ولا حلال.. كرامتى لا تسمح لى..»

كان مخمورًا، ومع ذلك فقد تمكن من تلقينى درسًا قاسيًا فى مسألة الكرامة هذه، فقال إننى ذكرته بامرأة عاهرة أتى بها لنفسه ثم أرادها رفيق الجرسونيره لنفسه أيضًا فسمح له بها.. وأبت العاهرة أن تُصبح هديته لرفيقه:

ـ «لماذا يا حلوة؟»

ـ «أنا ما جئت إلا لك، ولن أكون لصديقك..»

ـ «ولماذا يا حلوة؟..»

ـ «بدون لماذا.. إنها مسألة كرامة..»

تصور يا شيخ فريد؟.. الملعون شبهنى بالعاهرة.. هل لأننى أعيش أنا وزوجتى بالمرتب الذى أتقاضاه منه، ثم أرفض بعض التعليمات التى يصدرها إلى..؟..

فغمغم الشيخ فريد:

- «**يريدك أن تعمل بالمثل القائل من يأكل طعام اليهودى يحارب بسيفه.**»

ثم رفع صوته قائلًا:

- «**عد إلى عملك الحكومى وإن كان فى نظرى قريب الشبه بعملك عند ابن النحال**»

ثم أسداه نصيحة لا بد منها:

- «**ولا تنصرف من عنده تاركًا خصومة خلفكما.. النحالون غدّارون.. لن يتوانى عن تدميرك مثلما دمر نجيب أمين النجار فأنت اطلعت على أسراره ومخازيه، وهذا يتطلب أن تظل خادمًا عنده مدى الحياة.. فهل ستقبل ذلك؟**»

وأطرق رأفت متأملًا كلمة «خادمًا عنده» التى قالها فريد بعفوية ووجد أن أمير النحال لا يعامله إلا من هذا الموقع، ووجد أن أهون ما رواه لصديقه الآن هو أهون ما أهانه به أمير، ووجد أنه تحمّله بأكثر مما يقوى عليه حفاظًا على رزقه ومرتبه العالى الذى يشقى به ليل نهار .. ففى مسلسل صراعه المقيم مع فكرة الادخار لمواجهة نوائب الزمن لم يتمكن من تحقيق ذلك إلا من مرتب ابن النحال، يكفى أنه لم يتمكن من الزواج إلا وهو يقترب من الخامسة والثلاثين، ولم يفعل ذلك إلا تحت إلحاح والده وظهور زوجته ناديه عز الدين العاقلة المُدبرة التى تقبض معه على جمر الدين والعيش الحلال.

وأفاق من تأملاته على صديقه يواصل نصائحه:

- «**اطلب نقلك من دمياط إلى هنا .. عش معنا هنا يا رأفت، ما جدوى غربتك؟. تارة هناك وتارة فى الخطاطبة.. لا تسأم الحياة وحدك بعيدًا عنا.. دعنا نسأمها معًا.. جمهور مسجدى بالإسكندرية ملأ وقتى وحياتى، ومع هذا فأنا أصبو للعيش هنا.. أتدرى لماذا؟.. لن نجد مكانًا يبادلنا الحب مثل هذه القرية التى ولدنا بها ونشأنا فيها..**»

وتسرى رعشة ما فى وجدانه، أجل.. فما يقوله فريد هو الحق بعينه.. لن نجد الحب إلا هنا.. لأنه نشأ معنا هنا.. «**أبى وأمى وليلى وطاهر والريس عفيفى وخميسة والنوايا**

البريئة..»

ويتساءل رأفت أمام صديقه: «ولماذا لم يصل هذا الحب إلى ولديْ النحّال يا فريد؟»

ـ «ولن يصل، فقد حلت محله النقمة، السيد النحال ظل يواريها حتى جاء ينشد الحب المفقود ليجلس به على كرسي البرلمان. وغدًا.. غدًا سوف ترون كيف سيكون عندما تعود النقمة إلى مكانها المختار في قلبه..»

ويتذكر صديقه طاهر زين الدين عندما رفض العودة إلى أرض هو يحبها ويعشقها، وقال له ولفريد في محل تريانون:

«لن أعود» وكان السبب أن هناك قهرًا في انتظاره.

ثم تذكر خميسة عفيفي التي فرت تاركة خلفها أرضًا أحبتها وبلدًا عشقته ودكانًا كادت أن تدفع مستقبلها ثمنًا للحفاظ عليه ثم أبت أن تعود.. وكان السبب أن هناك فضيحة في انتظارها..

وأيقن رأفت إبراهيم أن المكان كائن يتنفس ويحس ويشعر ويعطي الحب ثم يأخذه ويمنح الأمان ولا يأخذه، وعدا هذا فهو سجن كبير بلا قضبان..

ـ «والخطاطبة يا رأفت صارت كذلك.. فلتغادرها بكرامتك التي وضعها أمير الحقير في سطر واحد مع كرامة العاهرة..»



قبل الوصول إلى خط النهاية

كان حشمت بركات يهز رأسه طلبًا للإفاقة وهو يمعن النظر فى شاشة التلفاز وكأنه لا يصدق ما يراه.. إذن، فما قاله الرئيس فى مجلس الشعب لم يكن حديثًا به مزايدة أو تهويش.. فها هو فعلًا يهبط سلم الطائرة فى تل أبيب.. وها هم جميعًا فى انتظاره: جولدا مائير، ومناحم بيجن، وموشى ديان وصفوة المجتمع الإسرائيلى والإعلام العالمى...

ويتذكر كلمات سمعها ذات يوم من شقيقه أشرف عندما كان يحلل له شخصية السيد النحال فأتى بتفسيرات عميقة وعجيبة ثبت لحشمت مدى صحتها، وربط بين هذه التحاليل ومدى مطابقتها لشخصية أنور السادات.. فأشرف قال عن ابن النحال إنه رجل مملوء بقدرات عالية قد يكون لا يعرفها، لكنه حتمًا يحس بها، فهو رجل يسلك طريقه فى الحياه بتناقض من يلعن الواقع ثم يستثمره. رجل يبحث عن المجهول ليجعله واقعًا، رجل كان بإمكان الشعر أن يشفيه، لكن الشعر لا يشفى الشياطين.. رجل لا تشفيه سوى المقامرة والمخاطرة والسعى إلى الانتحار..

ـ «إذن، فهذا الرجل يسعى إلى الانتحار..»

هكذا هتف وهو بين ثلاثة من أصدقاء «البزنس» المتصاعد، فقال السيد النحال:

ـ «عندما يكون الانتحار هو الحل الوحيد عند صاحبه فليس له إلا أن ينتحر»

وقال فايز فودة:

ـ «رب لقاء يفتح لك كل الأبواب العصية.. زمان التقى صعلوك اسمه السيد النحال برجل اسمه جمال عبد الناصر.. وكان ما كان»

ضحك السيد النحال لهذه اللكزة المداعبة، وقال:

ـ «مع الفارق، فأنا أؤكد لك أن أنور السادات سيعلو ويعلو وستفتح له كل الأبواب العصية، ولن يفت فى عضده أن يتمتع مثلى بعدد هائل من الأعداء مقابل قلة من الأصدقاء الذين ستروق لهم هذه القفزة»

أما فتيان فتيان فلم يفتح فمه بكلمة واحدة لأنه لم يجد ما يقوله، فحمد الله على ذلك.

* * *

وفى منزله ألقى حلمى عبد الباقى بالصحيفة الحكومية متأففًا، وراح يروى لزوجته خميسة عفيفى قصة اللقاء الذى جمعه بأشرف بركات فى مكتب سامى شرف مدير مكتب جمال عبد الناصر.. وكيف كان من رأى هذا الرجل أنه لا سبيل إلى احتواء اليهود سوى الارتماء فى أحضانهم، وكيف حذره سامى شرف يومها من التحدث بمثل هذا الرأى أمام صديقه جمال عبد الناصر فى لقاءاتهما الأسبوعية الترويحية على شاطئ النيل أمام قصره.

ثم تساءل حلمى عبد الباقى عما إذا كان هذا الفكر الذى تبناه أشرف بركات قد امتد إلى عقل أنور السادات وتغلغل فيه إلى أن آمن به وشرع فى تنفيذه؟.. ولكن كيف؟.. ولماذا؟..

* * *

وصاح الشيخ فريد هنيدى من فوق منبره مؤكدًا أن هذه الزيارة لا تحمل من فكر السياسة أو من سياسة الفكر شيئًا.. كل ما هنا لك أن كرسى الحكم الذى كاد يهوى تحت ضربات جياع يناير ١٩٧٧ مازال يهتز تحت صاحبه.. وقد مضى على ذلك عشرة شهور لم يتمكن النظام طوالها من تقويم الحال المائل فألقى بورقته الأخيرة. التى لم ولن تحقق مكسبًا لنا قدر ما سوف تحقق للرئيس هدفه فى البقاء طويلًا طويلًا على كرسى الحكم..

ـ «فالبقاء لله يا سادة، وأعزيكم فى موت فكرة النضال من أجل السيادة، ثم أعزيكم فى موت السيادة، فانتظروا معى ظهور طبقة الحانوتية الذين سيحافظون على جثة الميت فى برودة ثلاجاتهم، وصقيع قلوبهم، ويوهموننا أنه حى يرزق، بل سيصورون لنا كم هو فارس مقدام يحارب الأعداء فى الخفاء بسيف المكر والدهاء..»

* * *

ولما امتلأت الصحف الحكومية ببيانات التأييد والانشراح من كل المؤسسات والدوائر ورجال الأعمال الجدد بإيعاز من سدنة النظام تعجب أمير النحال لذائقة النفاق الإبداعية التى تتطور على يد أخيه السيد الذى لم يكتف بنشر صفحات التأييد الكاملة ـ التى تتصدرها صورة الرئيس بطل الحرب والسلام بمساحة طاغية ثم أسفلها صورته بمساحة متواضعة ـ فعمد إلى مساحات أخرى جاءت على شكل حوار يجيب فيه عن أسئلة بعينها وضعت كمفتتح لإجابات منشودة، فاخترع السيد النحال عبارات لم يأت بها أحد قبله مثل «سلام الأقوياء» ـ و«الزلزال» وهو وصف استوحاه من زلزاله الخاص الذى قلب باطن أرضه عندما قابل جمال عبد الناصر. ثم أكد للناس:

«إن مشكلة جاليليو عالم الفلك الشهير قد تتكرر مع السادات؛ لأن كلًّا منهما جاء سابقًا لعصره، وبما أن التاريخ أنصف جاليليو بعد ما أعدمه الجهل والغباء وظُلمة العقل، فإن هذا التاريخ نفسه سوف ينصف السادات فى مستقبل الأيام».

* * *

أسرع أمير إلى أخيه وقال له عبارة ضحك السيد عند سماعها:

ـ «خذنى على جناحك يا أخى.. لماذا تضحك؟»

ـ «لأن هذه العبارة هى نفسها التى قالها فتيان..»

ـ «تقصد رجل الأعمال الشهير فتيان فتيان.. الرجل الذى ضحى بالبطولات الرياضية فى سبيل الاقتصاد.. دارس الآداب العتيد، والقافز بإصرار من تربية العجول إلى إذهال العقول.. ما كل هذا النفخ فى بالون حقير يا سيد؟.. ألا ترى أنك قد صنعت من الفسيخ شرباتًا؟..»

ـ «صناعة راقية لا تشم فيها أثرًا للفسيخ عند رجل يقتنى العطور الباريسية التى تتضوع من أردان حلله البير كاردان»

ـ «الله يرحم..»

ـ «شريكه الجديد فايز فودة، إقطاعى سابق، وكساحة انفتاحية جديدة، يعلمه الإتيكيت بروح النحات الذى يعشق تمثاله..»

ـ «وماذا تفعل «الماشطة» فى الوجه العكر؟»

ـ «نصف وزرائك يرفلون فى حلل إيطالية من هدايا فتيان لهم»

ـ «إذن، فقد عرف الطريق..»

ـ «يكفى أنه شاهدنى وأنا أقطعه.. القرود تجيد التقليد»

وتذكر أمير النحال حواره القديم مع صديقه مختار حول الرجال التماثيل والرجال القرود، وكأنما فوجئ بنفسه أحد هؤلاء الرجال، لكنه لم يوقن تمامًا بأيهما يمكنه أن يصف نفسه هل هو تمثال أم قرد؟.. فسرح طويلًا إلى أن جاءه صوت السيد:

ـ «وأخيرًا جئتنى لتمنحنى شرف مساعدتك.. هات ما عندك»

تمهل أمير قليلًا فقفزت أمامه صورة التلميذ صاحب البدلة الواحدة وهو يجلس مؤدبًا أمام أخيه الأكبر فى مطابع الصباح ليشترى له بدلة أخرى، وعثر مسرعًا على مدخله المناسب للحديث:

ـ «جئتنى زمان لأقاسمك السعى إلى المال والنفوذ وكنت مكابرًا عندما أدرت لك ظهرى، أنا نادم، وأدفع ثمن ذلك خوفًا وقلقًا، لم أجد لثروتى حماية سوى بإخفائها عند الآخرين، أكتبها لهم ثقة بهم.. ومصيرنا ـ أنا وثروتى ـ متوقف على هزة ريح..»

ـ «تريد الحصانه..؟ وأين رجالك الكبار الذين يساندونك؟»

ـ «نصحونى أن أبحث عن غطاء»

ـ «هل منصب الرئاسة فى شركتك مازال خاليًا؟..»

ـ «مكنّونى من شغله بشكل مؤقت بسبب الأقدميات»

ـ «مازالوا يفكرون ببلاهة، من قال إن السن فارقٌ حاكم؟»

ـ «وما الفارق فى نظرك؟»

ـ «أن تكون قردًا لا تمثالًا، اسمعنى جيدًا..»

* * *

ولما طغى ضجيج الزيارة الزلزال وصياح خصومها فى الداخل والخارج على كلّ الأصوات كان صوت الجياع هو الأكثر انخفاضًا وسط هذا الضجيج.. فعادوا مرة أخرى

إلى مواقعهم البائسة يشاهدون عودة مسلسل النهب غير آملين أن تتوهج فى داخلهم فتيلة الغضب التى ذبلت وخبت..

وامتلأت ساحة الانفتاح بنحالين جدد يتقاذفون على مسرح الأحداث بوجوه جديدة تبدو مختلفة فى كل مرة، حتى صاح الشيخ فريد هنيدى من فوق منبره:

ـ «النحالون يتزايدون، فارحمنا يا ألله»

وقد جاءت صرخته بعدما حدث تبادل للأدوار وظهر للناس وجه أمير النحال يبتسم برقة وهو يهدى للرئيس مباركته وتأييده مع كلِّ العاملين بشركة المقاولات المتحدة على صفحات كاملة فى الصحف السّيارة، فهذا هو الأخ الأصغر يفعل نفس ما يفعله الأخ الأكبر وبرع فيه لاحتواء الرئاسة.. وما خفى كان أعظم. وبنفس الحيلة المكشوفة التى يعلم صاحبها أنها مكشوفة عمد أمير إلى فكرة الحوار الصحفى مدفوع الأجر حتى وإن بدا أنه ليس كذلك ـ حتى يأخذ راحته فى الوثوب بين الأغصان كقرد يلهو.. فأوضح أن شركته أخذت على عاتقها مهمة القيام بتصميم وتنفيذ مبنى مجمع الأديان الذى يحلم به فخامة الرئيس وحدد له مكانًا قدسيًّا فى وادى الراحة بسيناء الحبيبة التى يعمل سيادته على إعادتها كاملة غير منقوصة إلى أحضان الوطن.

وقال أمير:

ـ ليتنا نحس بما يصبو إليه الرئيس من عناق يأمله بين المسجد والكنيسة والمعبد فى رمز بالغ التحضر يشير إلى عناق القلوب بين المسلم والمسيحى واليهودى..»

وضحك أشرف بركات ملء شدقيه وهو يحشو غليونه ويلقى بالصحيفة جانبًا، ثم قال لأخيه حشمت:

ـ «الولد أمير..»

وراح يشعل الغليون ويتحدث من خلال نفثات الدخان:

ـ «لعّيب كبير.. هل تقرأ إعلاناته وحواراته؟»

وبادله حشمت الضحك قائلًا:

ـ «إنه حدأة تحوم حول كتكوت صغير، منصب الرئاسة فى شركته»

ـ «إذن، أريحوا الحدأة.. بالكتكوت»

* * *

وفى جلسة أخرى كان أشرف بركات يلقى بصحيفة أخرى جانبًا ووجهه عابس، وعرف حشمت من اسم الصحيفة أن أخاه قد قرأ ما كتبه حلمى عبد الباقى، فتوقع أن يتمدد اسم حلمى بينهما الآن، وصدق توقعه حينما سأله أشرف:

ـ «أما زال حلمى مضربًا عن سهراتكم البريئة؟»

فقال حشمت بمرارة:

ـ «كلنا تحولنا عنده إلى حالات مضادة وأسماء مختلفه، السيد النحال هو الانتهازى الخادم الذى يأكل على كل الموائد، وأمير النحال هو أصغر من سرق منصبًا كبيرًا جلس به على قمه واحدة من كبريات شركات المقاولات فى مصر، وفتيان فتيان هو مربى العجول السابق وناهب العقول الحالي، وفايز فودة باعث نهضة إقطاع جديد اسمه إقطاع السمسونايت..»

زم أشرف بركات شفتيه وسأل أخاه:

ـ «وماذا يقول عنك؟»

تمهل حشمت بركات قليلًا، وقال متنهدًا:

ـ «ليقل ما يقوله.. فأنا الجدول الجاف الذى امتلأ بالمياه من بحر أخيه، هو لا يدرى أن هذا شرف لى»

ـ «وطبعًا ما يقوله عنى معروف، وما يظنه حولى أيضًا معروف»

ـ «وليظن أيضًا ما يظنه: الأيام دول.. وهل كان يتعشم أن يظل مدللًا فتمتد معه كل مكاسبه فى عصر عبد الناصر، كان يكتب فى صحيفة ومجلة قوميتين، ويلقى المحاضرات، ويدير مكتبًا للمحاماة باسم زوجته، العصر لم يعد عصره، فرجال العصر السابق من لم يذهب منهم فهو يستعد للذهاب»

ـ «ظننته قد أوقف نشاط مكتبه فى المحاماة»

ـ «عمليًا: يكاد يكون الأمر كذلك، الزبائن يتوجسون من طلب خدماته لعلمهم أنه

متورط فى قلق من النظام»

- «إذن، فالأفضل أن نريحه من جهد لا طائل منه.. اغلقوا مكتبه»

* * *

ولم تدرك خميسة عفيفى - إلا مؤخرًا - أن محضر الشرطة الذى حرره ضدها زبون مريب جاءها ما هو إلا مقدمة لغيوم كثيرة سوف تنعقد فوق رأسها وحول مكتبها، فالزبون المريب لم يسلمها أصل الشيك الذى ادعى أنها خانت الأمانة وسلمته لخصمه، والعجيب أن الخصم نفسه شهد بصحة الواقعة تبرئة لذمته وضميره الذى عاد إليه بعد أن استجاب لمساومة «هذه المحامية» ودفع لها مبلغًا كبيرًا مقابل الحصول على أصل الشيك، وكان أن تحول إلى شاهد ملك فى القضية..

رأت أنها تمثيلية ساذجة تبدو متقنة رغم ما يفوح بها من تآمر.. فقالت لمحامى الزبون الشاكى وهى تعرف أنه طرف فى المؤامرة:

- «اعرف ما الذى تسعون إليه، قل لمن تعمل معهم أننى سوف أستجيب لطلباتهم»..

قال لها وعلى فمه ابتسامة خبيثة:

«اذهبى للنقيب نفسه، فهو يجهز من الآن لشطبكما أنت والأستاذ»

وفى النقابة عرفت أن السيد النحال سبقها إلى هذا المكان، وقابل نفس الرجل محملًا بتوصية: **«إغلاق باب تهب منه الريح»** فقد قال لها الرجل المغلوب على أمره: **«إذن، فلتغلقيه بنفسك يا أستاذة .. واقنعى حلمى بك أن ينحنى لهذه العاصفة، إنه هو المطلوب ولست أنت، لكنهم وجدوا فى ماضيك جريمة لم تكتمل حيثياتها وهو أنك زمان كنت تروجين الحشيش مع تاجر اسمه بدير وباقى اسمه مطموس فى صورة هذا المحضر، انظرى بنفسك»**

- «إذن، قل لهم إننى سوف ألزم بيتى، وليضعوا شمعهم الأحمر غدًا على مكتبى.. وليرحموا إنسانيتى كأم لولدين ويوقفوا هذه المجزرة.»

* * *

وفى محبسها الاختيارى قالت لزوجها:

ـ «خصومك تحولوا إلى وحوش، إهدأ ودعنا نربى ياسر ويسرى، سنعيش من مدخراتنا حتى تنقشع هذه الغمة»

فقال حلمى:

ـ «الغمة تزداد يومًا بعد يوم.. والوحوش يتكاثرون.. فأىّ أمل لديك أن ننعم بالهناء وقد أغلقوا علينا كل أبواب الرزق؟ إنها فكرة التجويع قبل التركيع.. السادات يجهز الأجواء لترويج مباحثاته التى يعقدها مع اليهود فى كامب ديفيد، فيُعلى من شأن مؤيديه، ويخنق معارضيه، كان يتمنى أن أكون معه ليقتل معنى ثورة يوليو قتلًا مؤكدًا عندما يصبح أول سفير مصرى فى إسرائيل واحدًا من المشاركين بها، هذا ما لمسته من حديث حشمت فى جلسة عتاب»

ـ «هل سيفتح سفارة لمصر فى إسرائيل؟».

ـ «ولن يهتز له رمش عين إذا أغلق كل سفاراتنا فى الدول العربية»

ـ «أألى هذا الحد؟»

ـ «ألم يقل ابن النحال إنه «زلزال»، هل الزلازل تُبقى على شىء دون شىء آخر؟ أنا نفسى صرت من ضحايا الزلازل الذين ليس لديهم ما يخسرونه إذا عاشوا فى العراء، وأنا لم يعد عندى ما أخسره»

* * *

وبعد كامب ديفيد هتف الشيخ فريد هنيدى:

ـ «انكشف المستور، وطارت ورقة التوت التى كانت تستر عورة النظام، فإلى أى جدار ستتوارون أيها العراة»

وكتب حلمى عبد الباقى فى جريدة خليجية:

ـ «يمكنكم أن تؤرخوا لعلو إسرائيل فى الأرض منذ هذه المعاهدة، كما يمكنكم أن تؤرخوا بها لوفاة العرب»

والتقيا لأول مرة فى سجون مباحث أمن الدولة.. عدو النظام، الذى يخطب وعدوه الذى يكتب، وتساءلا فى نفس واحد «إلى أين؟».. فقال حلمى عبد الباقى: «إلى رحلة بلا

عنوان» وقال الشيخ فريد: «إلى عكس اتجاه الريح.. فالذين ركبوا متن الريح يعلون به علوًّا كبيرًا».. وراح يسرد متناقضات العصر بدءًا بعنتر مكاوى الذى يعمل بالحشيش والإنتاج السينمائى معًا، وعرفة وعوض عاشور أصحاب التوكيلات وأطراف الصفقات، وولدىْ فتيان الصبيين اللذين يعيدان بداية أبيهما ولكن بأرقام ذات أصفار عديدة، أما المهندس رأفت إبراهيم فهو المتورط فى تكاليف علاج يقتطعه من ثمن طعامه، وبادله حلمى عبد الباقى الأخبار فروى عن انتقال المافيا من سوق الحشيش إلى ميدان الآثار، وحرص رواد التطبيع على إنجاح المعاهدة برحلات إلى تل أبيب لا يخفون فيها وجوههم، وصارا ـ فايز فودة وفتيان ـ مخلبين لوحش كاسر هو السيد النحال. وأمير النحال أحاط مزرعته بعشرات المزارع مسروقة الثمن لملاّك كلهم من رجاله بعد أن حصل على حصانته كعضو معين بمجلس الشورى، ولم يتأفف عبد الجليل أبو سنة ـ المعين مثله ثمنًا لصفقه قديمه تنازل فيها لأخيه عن كرسى البرلمان أن يجلس بجواره، فالبرلمانى القديم الوارث لحكمة العين التى لا يجب أن تعلو عن الحاجب حجب ـ حكمته ـ وهو يقبل بعين العقل امتلاء الملعب بقرود وبهلوانات لا مفرّ من التسلى بمهاراتها فى القفز والتنطيط، فأىُّ قناعة يمكن أن يدركها المرء وهو يرى أن السيد النحال يضع بصمته واضحة فى تحريك نواب البرلمان صوب مزاج الرئاسة فيخلع النائب كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة فقط؛ لأن الرئيس أراد ذلك.. ويعض عبد الجليل أبو سنة على شفتيه؛ إذ وصلته مؤخرًا معنى فكرة أن تشترى شخصًا لحسابك فى ميدان السياسة فإنها عودة إلى تجارة الرق والنخاسة بفارق عجيب هو أن العبيد يجلسون قرب الأسياد حتى لا تكاد تفرق بينهما،

«ومن هوان الدنيا فى هذا الزمان أن تختلط السلعة بصاحبها على رف واحد فى معرض الحياة.»

* * *

وداخل مقالات حلمى، ومن فوق منبر فريد راح يندد كلٌّ منهما بكل المثالب التى سمعها من الآخر، ذاك يكتب، وهذا يخطب إلى أن اجتمعا فى حملة جديدة فى زنازين النظام، بعد أن رأى العسس أنهما أثقلا من عيار النقد والتجريح فهاجما الرئيس هجومًا

صريحًا لاستضافته شاه إيران الذى صار ديكتاتورًا شاردًا بلا مأوى، وكشفا عداوته للثورة الإيرانية.

«فكيف لطلقة واحدة رعناء التوجه أن تُصب القومية العربية والثورة الإسلامية فى وقت واحد؟» هكذا تساءل الكاتب الثائر حلمى عبد الباقى.

ولما عقد الرئيس جنازة مهيبة للشاه الراحل تساءل الشيخ فريد هنيدى:

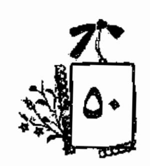
ـ «إن كان يُحسب لأرض الكنانة أنها حنت على جثمان سارق عظيم نهب أموال الشعب الإيرانى ووأد إرادته وحطم روحه؟ أم أن ذلك يدخل فى نطاق كرم الطغاة للطغاة أم أنها مجاملة الأمريكان وحفظ ماء وجههم لتخليهم عن رجلهم الأثير..»

وكان يمكن لسؤال الشيخ فريد أن يمر بسلام لولا أنه تنبأ للرئيس:

«أن يشرب من نفس الكأس ويدير له الأمريكان ظهورهم بعد أن نالوا مأربهم من إصبع الموز الذى التهموه وألقوا بقشرته فى القمامة». ولم يغفروا له هذا القول.. فسحبوه إلى مكانه المعتاد فى الزنزانة..

* * *

وفى ٥ سبتمبر ١٩٨١ وفى زحام إلقاء السادات بكل معارضيه فى السجون بحث كلٌّ منهما عن الآخر وهو واثق أنه سوف يعثر عليه، وما إن التقيا حتى تساءلا مرة أخرى: «وماذا بعد؟».. وبعد حين عثرا على رأى وجداه عند كل السجناء المرورين: **«الرجل يضع نهايته بيديه، فانتظروه مجرد ذكرى قبل الوصول.. إلى خط النهاية»**



مات . فشفي من أحزانه !!

وبأكثر مما كان يحلم أو يتمنى خرج الشيخ فريد هنيدى من السجن متجهًا إلى القصر الجمهورى لمقابلة مع الرئيس الجديد ضمن نخبة من رموز المسجونين.

ولما عاد إلى المأمومين أحبابه ظلوا على اصطفافهم خلفه بعد تمام الصلاة وهم فى لهف إلى حديثه المعهود بعد العشاء، فأى جديد ترى سيقدمه شيخهم بعد هذه الغيبة؟.. ووجدوا أن جديده كان كلامًا كالنواح، فهو ينعى الزمن الذى اضطر فيه المصريون إلى قتل حاكمهم، وراح يتساءل عن الطرف المخطئ فى الخروج عن طوع الآخر: الشعب أم الحاكم؟ فقال إن الشعوب لا تخرج عن طوع حكامها إلا إذا انحرف هؤلاء الحكام بعيدًا عن طريق الحق والعدالة، فالعدالة إذا انعدمت انتشر الظلم كالوباء، وكم من وباء لا يقضى عليه إلا بحرق جثث الموتى ومتعلقاتهم.

وانتهى فى حديثه القصير إلى القول الفاصل بأن أسوأ الناس هم هؤلاء الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، وكم تزداد مصيبة من يفعل ذلك إذا كان حاكمًا.

وفهم الناس ما يصبو إليه شيخهم من إسقاط وإحالة وأيقنوا أنه عافت نفسه أن تنهش لحم رئيسه ميتًا فيكرهونه. وانتظروا أن يروى لهم بعض ما عاناه فى سجون السلطة، أو بعض ما لمسه فى لقاء الرئيس الجديد لكنهم وجدوه لا يقترب من هذه المنطقة. بل وجدوه على غير عادته صامتًا، سارحًا، شاردًا، وفجأة قال للقريبين منه:

- «لى صديق صدوق فى البلد، قلبى يأكلنى من أجله، تركته قبل السجن مسجونًا فى مرضه، عن إذنكم سأخطف رجلى إليه».

* * *

وفى البلد وجد رأفت مستلقى على سريره، دنا منه، أمسك بيده، تهلل وجه المريض بفرحة غامرة:

ـ «حمدًا لله على سلامتك يا شيخ فريد. تمنيت ألا أموت قبل أن أراك وأوصيك على ولدى حسن وزوجتى نادية»

ـ «سوف ينقذك الله من سجنك كما أنقذنى من سجنى وتربى حسن بنفسك»

ـ «حسن؟.. لم يكمل العام ونظراته المصوبة نحوى مليئة بالكلام»

ـ «ربما يلومك لأنك أتيت به إلى الدنيا متأخرًا عن دفعته»

ـ «له الحق .. فوالده لا يصل إلا متأخرًا»

لم يعلق الشيخ فريد على هذه العبارة التى يقصد بها رأفت كل حالات التأخير والتأخر فى حياته، فليلى بنت العم وتوأم الروح اختارت زوجًا آخر فضلته على ابن عمها، وكان أن تأخر ابن عمها بمحض إرادته فى اللحاق المبكر بقطار الزواج ولم يمسك به إلا بعد أن اقترب من الخامسة والثلاثين. ثم لم ينل سعادة الأبوة فتأخرت عنه خمس سنوات من زواجه، أما ما تأخر فى تحقيقه حقًا فهو قتل البلهارسيا اللعينة منذ أن هاجمته صغيرًا، فما قاله الأطباء المعالجون هو أن آثارها كانت كامنة بداخله وصارت تطل عليه الآن دفقًا دمويًا غزيرًا ترسلها دوالى المرئ.

ولم يجد الشيخ فريد إلا أن يحرفه بعيدًا عما يقصده، فقال له:

ـ «من قال إنك لا تصل فى موعدك، يكفى أنك بكّرت بمغادرة الخطاطبة»

لمعت عينا رأفت قبل أن يقول:

«آه.. الخطاطبة؟.. لو هاجمنى النزيف هناك لكنت قد نلت موتتى غريبًا»

وراح يعيد على صديقه ما سبق أن قال له عن النزيف عندما هاجمه أول مرة وكيف تحركت «البلد كلها» فأتوا له بعربة الإسعاف وراحوا يتسابقون فى التبرع له بدمائهم، وحكى كيف تكرر هذا الموقف فى الزيارة الثانية للنزيف الملعون، فقال له الشيخ فريد:

ـ «أنجاك ربك من غزوتين فاستعد للثالثة و...»

ـ «أعرف.. والرابعة والخامسة إلى أن أموت مثل عبد الحليم..»

وانصرف رأفت إبراهيم فى حديثه اللاحق إلى ذكر ما يعرفه عن مرضه من معلومات كان يتابعها طوال معاناة عبد الحليم حافظ أشهر مريض البلهارسيا فى تاريخ هذا الداء اللعين، ثم وهو يشير إلى نفاد مدخراته إلا قليلًا، وإشفاقه على زوجته نادية وولده حسن وكيف سيمضى بهما الزمن القادم بلا سند أو عائل.

تنهد الشيخ فريد مؤمنًا على كل ما قاله صديقه، ثم قال:

ـ «ومع هذا، فليس لنا إلا أن نأخذ بالأسباب..»

* * *

والأسباب التى كان يقصدها وقصدها الشيخ فريد هى طرق أبواب الأطباء لترويض هذا الوحش الهائج داخل جسد صديقه رأفت المسكين.. وفى الإسكندرية أقبلت عليهما نسائم ذكرى أيام التلمذة التى ما زالت محفورة فى القلب والوجدان وهما يجوبان شوارعها بحثًا عن طبيب بعينه ثم معمل بعينه.. وفى محطة الرمل اختلفت صور المرئيات أمام عينى رأفت وداخل عقله عن مثيلها منذ خمسة عشر عامًا مضت.. الناس.. والمركبات.. والشوارع ورائحة الهواء، وواجهة تريانون، وجلستهما الحالية به مقارنة بجلستهما مع المرحوم طاهر زين الدين.. ما الذى حدث؟.. ومن الذى تغير؟.. هو أم العالم حوله؟.. أم أنه المرض الميئوس من شفائه؟.. أم أن مرارة هذا اليأس هى التى صبغت وجدانه بالعناء؟

ومن حال إلى حال أسوأ، ومن طبيب إلى طبيب، ومن خوف إلى خوف راحا يتحركان.. الشيخ فريد يستمد من إيمانه روح الأمل، ورأفت فى كل مشوار يهمس إلى ربه راجيًا:

ـ «لطفك يارب.. أجّل النزيف حتى أصل إلى زوجتى نادية وصغيرى حسن»

وفى كل مشاويرهما العديدة وأماكنهما المتعددة بالإسكندرية لم يحدث أن ذكّر أحدهما الآخر بشىء مما كان فى هذه الأماكن: حديثًا.. أو لقاء.. أو طُرفة. فذكريات الماضى التى كانت لشابين أحدهما مفتول العضلات والثانى يبدو معافى وهما يجوبان مراتع اللهو البرىء صارت الآن واقعًا أليمًا لكهلين أحدهما مبتور الذراع والثانى يتهادى عليلًا، فأين

تلك البهجة الصافية التى تحنو على حلو الذكريات فتأتى بها لعلها تمحو بعض ما عندهما من كدر؟

وفى قطارهما القديم الذى تهالك شأن راكبيه القدامى، وفى إحدى رحلات العودة من ثغرهما الحنون مرقت إلى خيال رأفت صورة صديقه البطل فريد وهو يغازل الفتاة ذات العيون المدهشة قبل حادث الجمل الذى أكل ذراعه، فابتسم فى إشفاق لحال ثلاثة من الأصدقاء تحولوا إلى أشلاء:

ـ «والفاعل جمل تصدى لفريد، وسرطان اجتاح طاهر، وبلهارسيا تنهش كبدى فى نهم».

وما بث أن غابت ابتسامته المريرة وانكفأ على نفسه ممسكًا بنهنهة بكاء مكتوم تتردد فى داخله، إلى أن سمع فريد يحدثه:

ـ «ماذا بك يا رأفت؟ أخرج من حزنك، فالله رحمته واسعة»

ـ «أحس أنه لا طعم للحياة فى فمى، كل شئ صار ماسخًا حولى.. الفضاء ليس فسيحًا، والجو صار خانقًا.. لا نسمة هواء ولا ومضة أمل.. ولا تباشير فرح. أم أنها تباشير الموت يا شيخ فريد؟»

وكما يحب أن يفعل، لم يتمش معه الشيخ فريد فى هذه النغمة المتشائمة، فتحول بحديثه إلى منحنى آخر:

ـ «وتباشير العهد الجديد تدعو إلى التفاؤل، الرئيس يتحدث عن طهارة اليد، وقال على الملأ إن الكفن ليس له جيوب.. مصر لن تُسرق بعد اليوم يا رأفت، وسنجرب أن نكون أثرياء بإمكانياتنا لأول مرة.. تفاءل يا رجل»

عادت ابتسامة الإشفاق إلى وجهه:

ـ «أتريد أن تقنعنى أن ولدىْ النحال سيكفان عن السرقة؛ لأن الرئيس الجديد أصدر قرارًا بمنع السرقة؟.. النَحّالون يا شيخ فريد سرت سمومهم فى جسد الأمة سريان السرطان فى جسد طاهر والبلهارسيا فى كبدي.. اذهب إلى الخطاطبة لترى بنفسك أن مزارع اللصوص تزداد وتتلاصق.. إنهم متمسكون بامتصاص نخاع عظامنا كالجمل

الذى تمسك بتكسير عظامك.. الرئيس الجديد ورث قوافل من الجهال الناقمة والسرطانات الهائجة وديدان البلهارسيا الناهشة.. فليقل ما يقوله.. المهم: الفِعْل.. ماذا سيفعل؟»

* * *

وفى الرحلة المضنية للعلاج المرهق قسّم الشيخ فريد وقته بين مسجده فى سيدى بشر وبين صديقه رأفت فى البلد، وهاجت نفسه بذكريات موحشة عندما طلب الطبيب نقل صديقه الغالى إلى مستشفى المدينة القريب لإمداده بالدم والمحاليل، ففى هذا المستشفى ضاع منه طريق وعثر على طريق آخر بعدما بتروا ذراعه، ولم تمض ليلة واحدة حتى أيقن فريد أن رأفت فى سبيله إلى وداع طريق الحياة، فها هو يناديه بصوت واهن:

ـ «خذنى إلى المنزل.. خذنى إلى حسن ونادية.. لا تتركنى هنا»

وفى منزله وقرب سريره ظل الشيخ فريد بجانبه يقرأ له القرآن بصوت مسموع مخضب بالدموع وحسن الصغير يجوب الحجرة متساندًا على الأثاث مجربًا الخطو للحظات بمفرده، ثم لائذًا إلى الحائط قبل أن يسقط على الأرض، وأمه ترقب صغيرها الذى يعلّم نفسه السير بحسرة من ترى أن وليدها فقد أكثر لحظات التدلل متعة وهو لا يرى من والديه من يشجعه على جسارته ويغبطه عليها.. وأنها ورجلها الغائب عن الدنيا فقدا مع وليدهما تسجيل هذه اللحظات المرحة فى ذاكرة الزمن حتى يروياها لصغيرهما عندما يكبر..

سمعته يغمغم بكلمات مبهمة.. أرهفت له السمع، فهمت ما يقوله، أشارت للشيخ فريد أن يوليها اهتمامه، صدّق الله العظيم وأغلق المصحف وانتبه لها.. أرسلت إليه وجهًا طافحًا بالحزن والرجاء ثم حديثًا هامسًا بالحيرة والدهشة:

ـ «سمعته يتحدث مع طاهر زين الدين، وواحد اسمه زكريا مسعود»

ألقى الشيخ فريد بجسده فوق السرير واحتضن رأس صديقه بيسراه وراح يهدهد على خده بيمناه المبتورة.. ويناديه بصوت حنون سائلًا عما إذا كان يريد شيئًا.. وكأنما أفاق على صوته فصوب إليه نظرة ناصعة ومعها ابتسمة ودودة ثم أدار وجهه باحثًا عن نادية وتهلل

لمرآها ثم أرسل لها بمثلها وراح يدير وجهه فى كل الأنحاء، ففهم الشيخ فريد ما يبحث عنه:

- «**هات الولد.. حسن.. هات حسن**»

أسرعت فرفعت إليهما وليدها فاستقر على صدر أبيه وراح الشيخ فريد يمكنه من تقبيله فى لحظات رأى أنها قد تكون الأخيرة، فانسحب من الحجرة هامسًا لنادية بما يفضله من البقاء قربهما بالصالة، ولم تفهم نادية إلا بعد حين أن صديق زوجها الفطن خصها بما يجب أن تخص به من انفراد أخير تمسك به كلمات الوداع فى لحظات العمر الأخيرة لزوج أحسن منزلتها فى نفسه وفى بيته وفى قلبه الأكثر اتساعًا من عالم ضاق به وشقه دون مرح.

وعلى أحد حوائط الصالة راح الشيخ فريد يتأمل صورتيهما المتجاورتين:

الأسطى إبراهيم عبد الواحد، وزوجته أم رأفت.. وهو يتساءل:

- «**أيهما أشق على النفس: أبوان يعيشان حتى يشهدا موت ولدهما.. أم ولد يفقد والده قبل أن يهنأ بقدوم حفيده المنتظر؟..**»

ولأن الأسطى إبراهيم عبد الواحد وزوجته الطيبة كانا قد عرفا كل ما دار بين ابنهما وأهل حبيبته فى القاهرة، فقد صارت عبارة الأب الملتاعة دومًا:

- «**لو حرموك من الزواج بها، فلماذا تحرمنى من حفيد يا ولدى؟، تزوج يا رأفت قرناؤك أولادهم فى الإعدادية.. لو لم تنجب لى ولدًا ستنقطع ذريتى مدى الحياة**»

وكان الشيخ فريد يحاول أن يتذكر ما الذى كان يرد به رأفت المسكين على المرحوم والده، وقبل أن يمسك بهذا الرد شقت صمت السكون حوله صرخة عالية أرسلتها نادية، فاندفع نحو الحجرة فى هلع وهو يتفادى السقوط بعد ما تعثر فى جلبابه..



استحالة الإمساك بالهواء

احتفظ الشيخ فريد هنيدى لنفسه بملاحظات عميقة حول العهد الجديد الذى أسماه الجمهورية المصرية الثالثة.. ثم يشرع أحيانًا فيختصر هذا الاسم إلى: جمهورية حسنى مبارك.

ولم يمض كثير من الوقت على هذا المولود الجديد حتى بدت قسماته تتضح للشيخ فريد، فقال لنفسه: ما دام كل شىء مازال على ما هو عليه: مؤسسات وشخوص وقوانين وتوجهات، فهذا معناه أن لصوص هذا الشعب ما زالوا يحتلون مواقعهم ولكن خلف ساتر، وأنه إذا كان لا يظهر منهم الآن سوى مبايعات حثيثة مدفوعة الثمن على صفحات الصحف القومية فهذا معناه ـ أيضًا ـ أنهم يستعدون لنشب مخالبهم فى هذا اللحم الجديد الطازج عندما تلوح لهم الفرصة المواتية.

ولأن الرئيس الجديد لم يرفض هذا النفاق المبكر من أكلة الأكتاف، فقد عزا الشيخ فريد ذلك إلى أن هذا الرجل الذى اعتلى الحكم فجأة وعلى غير انتظار كان بحاجة إلى من يعززه فى هذا الجو المشحون بالغضب والتوتر، ومع هذا فقد ظهر للناس ـ بل وللرئيس نفسه ـ أن من يتولون تعزيز العهد الجديد هم أنفسهم الذين تسببوا فى تشويه العهد القديم.

ولم يتعجب الشيخ فريد لهذا السيل من المبايعات الذى يطل برأسه على غير استحياء فى الصحف القومية باسم البرلمانى الشهير السيد النحال تارة وباسم شقيقه أمير تارة أخرى.. ثم لم يتعجب الإمام الغاضب أن رأى فتيان يقلد أبناء النحال باستماته وغباء شديدين.

وبدا أن الأمر عند النظام الجديد كان بحاجة إلى فعل ما يؤكد به للناس أنه ضد الفساد، والدليل أنه سوف يطارده ويطرد المفسدين، وتحت هذا العنوان البراق وصلت إلى القضاء قضية من كل تلال القضايا المتراكمة دون أن تجد طريقها المفترض إلى المحاكم.

وهى قضية اختيرت بعناية من كل قضايا صاحبها حشمت بركات، وبدا أن المطلوب

هو أن يحاسب على بعض ما فعله؛ إذ من الصعب محاسبته على كل ما فعله.

وكانت المفاجأة أن كثرت سكاكين هذا الثور المطروح أرضًا، حتى صارت جرائمه الفعلية لا ترقى إلى نصف ما اتهمه به المغرضون الناقمون الذين تطوعوا بتقديم اتهامات جديدة لهذا الفاسد الكبير الذى سرق أموال الشعب، وظهر أن مغازلة العهد الجديد هو الهدف من أناس يعملون بالقطعة فى توصيل خدماتهم حتى باب الرئاسة.

وكان للسيد النحال مشاركته الفعالة فى ذبح صديقه القديم، ولكن بإخراج مختلف وسيناريو لا يأتى بمثله سوى محترف.

فقد أمسك بإحدى الصحف وهو يشير إلى صورة حشمت بركات داخل قفصه مجيبًا على سؤال حول طبيعة العلاقة التى كانت تربطه بالمتهم، فقال:

ـ «هذا الرجل ظلم النظام قبل أن يظلم نفسه، فهو رجل خُدع أمام إغراءات وانحناءات المنافقين حتى تضخمت ذاته، وإذا اعترفنا بالضعف الإنسانى الذى لا يسلم أحد من سطوته فلابد أن نلتمس له العذر فى قبول الهدايا والصفقات من أصحاب المآرب الذين أحاطوا به. فلا تبحثوا عن مفاسد الحكام وأقاربهم، ولكن ابحثوا عن أصحاب المآرب الذين مهدوا لهم الطريق»

وضرب السيد النحال مثلًا، فذكر واقعة حول منافقة الحكام لم يكن يعرفها إلا قليل من الناس، وكانت عن الأستاذ الجامعى الشريف الذى أطيح به لأنه لم يقبل تغشيش الطالب جمال أنور السادات فى امتحان مادته. ولأنه قام بطرد شلة الأساتذة المنافقين الذين أحاطوا بالطالب فى لجنة الامتحان تطوعًا منهم لمساعدته، ولأنه ما قام به لم يرق للسيد رئيس الجامعة، فقد بادر الأخير بفصل هذا الأستاذ..

وكالكطائر الرشيق انتقل السيد النحال من هذا الغصن إلى غصن مجاور قائلًا:

ـ «لو تعلمون ما قاله هذا الأستاذ المفصول لتعجبتم، فقد أكد أن جمال أنور السادات لم يكن بحاجة إلى هذه المساعدة؛ لأنه استوعب مادته دون الحاجة إلى هؤلاء المنافقين.. ولكن ماذا تفعلون أمام هؤلاء المفسدين الذين يبيعوون ضمائرهم لخدمة الحكام ومن يلوذ بطرفهم من أبناء وأقارب»

ثم عاد السيد النحال إلى سؤال مهم قائلًا:

ـ «فإذا لو حدث مثل ذلك النفاق مع الطالب جمال حسنى مبارك الذى يدرس فى الجامعة

الأمريكية؟.. ووجد هذا الطالب نفسه يتمتع بدرجات عالية لا يستحقها.. أليس مثل هذا الكرم المجانى سيكون له فعله السيئ على المدى القريب والبعيد فى نفس جمال مبارك..؟ للأسف فإن هذا ما سوف يحدث.. أولًا.. سوف يتمتع بحقد وكراهية زملاء دراسته دون ذنب منه فى ذلك.. ثانيًا.. سوف يتعلم الفتى منذ البداية فكرة الاستسهال والتواكل وركوب ظهر المنافقين للوصول إلى غايات بعيدة لم يكن فى ظنه وفى خطته الوصول إليها..»

وأنهى السيد النحال فقرته الاستعراضية مطلقًا حكمة أثيرة:

ـ «نعيب زماننا والعيب فينا، آسف نعيب نظامنا والعيب فينا!»

ولأنه ابتعد بالصحفى عن مجرى الحوار، فقد عاد بـه محاوره إلى متن الحديث فراح يذكره بحشمت بركات وما يعرفه الناس عن رباط الشراكة الذى ارتبطا به طوال سنوات العهد الماضى، ولم يعلم الصحفى الحويط أن السيد النحال الأكثر تحوطًا منه سوف يهديه سرًّا يتلهى به عن محاصرته، فقال له:

ـ «يبدو أنك لم تلتفت إلى مغزى قولى إن حشمت بركات ظلم النظام قبل أن يظلم نفسه، فهل تعلم أن السيدة جيهان السادات قد مسها الظلم وهى زوجة لنائب رئيس الجمهورية وقبل أن تتمتع بلقب السيدة الأولى؟..»

ولما سال لعاب الصحفى وسأله بلهفة:

ـ «كيف؟» راح السيد النحال يشرح له بعض ما يحدث فى العلاقات الخاصة بين سيدات الطبقات الراقية وكيف أنهن يتبادلن استعارة المجوهرات الثمينة للظهور بها فى الحفلات الكبرى.

وهذا ما كانت السيدة جيهان تضطر إلى القيام به فتلجأ إلى بعض صديقاتها الأميرات خاصة الكويتيات اللاتى يقمن بالقاهرة فتحصل على بعض مجوهراتهن لأيام ثم تعيدها إليهن.. وفيما بعد ظهر لصاحبات المصاغ أن ممتلكاتهن الثمينة العائدة لم تكن إلا قطعًا مماثلة شكلًا ولكنها زائفة موضوعًا.. ودار الهمس فى الخفاء بسوء ما تفعله زوجة النائب المظلومة ، ولعلها لا تعلم حتى الآن ما قيل عنها وقتها، ثم ما قيل عنها بعدما صارت زوجة الرئيس.. كل هذا والفاعل يتمتع بحريته فى تصريف المجوهرات الأصلية.

وهب الصحفى من مقعده سائلًا بلهفة:

ـ «هل تقصد أن السيد حشمت بركات كان هو الفاعل؟»

وبهدوء شديد أجابه السيد مراوغًا:

ـ «لك أن تسأل من الذى أوحى له بهذه الفكرة العجيبة.. فالرجل حسب نشأته لا علاقة له بالمجوهرات وعالمها الخاص.. إلا أنهم أصحاب السوء الذين كانوا يحيطونه وييسرون له سبل الكسب الحرام..»

وعاد الصحفى إلى الحاحه:

ـ «وهل تعرف من هم هؤلاء»

وفر السيد النحال إلى غاباته المظلمة:

ـ «اسمح لى أن أحتفظ بالتفاصيل حتى لا تجدد أحزانى على زوجتى التى كانت ضحية هذه المغامرات بحكم عملها بالقرب من حشمت بركات»

وهاج حشمت بركات فى قفصه، فأرسل لعناته إلى السيد النحال مصحوبة باتهامات مثبتة لهذا النائب البرلمانى الكاذب تؤكد ضلوعه فى التزوير منذ نعومة أظفاره، فهو يجيد هذا الفعل فيما بين تقليد المجوهرات وتقليد شهادة أدائه الخدمة العسكرية، حتى إنه شكك فى صحة دبلوم الصنايع الذى يحمله. ثم عاد فأكد لجمهور المتابعين أن زوجة النحال التى كانت تعمل وصيفة لزوجة النائب هى التى تولت معه موضوع تزييف المجوهرات .

وابتسم النحال فى ثقة وهو يرى غريمه الهائج يدخل إلى النفق المظلم الذى أعده له، فرتب لقاء تليفزيونيًا للرد على الاتهامات الموجهه له.. فقال دفاعًا عن شهادته المتواضعة إنه يفخر بها؛ لأن حصوله عليها كلفه سنوات تكفى لنيل الدكتوراة، أما عن شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية فهو لم يكن بحاجة لتزويرها، ولما سأله المذيع:

ـ «لماذا؟» لم يسرع بالإجابة وإنما أسرع بخلع حذائه ثم جوربه وقدم للكاميرا قدمه اليمنى بإمعان ليرى المشاهدون إصبعيه المبتورين.. ثم يستمعون إلى صوت ملىء بالشجن تعمد صاحبه وهو يشرح قصة هذين الإصبعين المبتورين أن يواكب صوته لمعة من الدموع فى مآقيه الحزينة:

ـ «لم يحزننى أن فقدت إصبعىّ هذين وأنا أعمل حدادًا مسلحًا باليومية وأنا شاب فقير قدر ما أحزننى أنهما حرمانى من دخول الجيش الذى يعفى مثل هذه الحالة.. ومن هنا، فأنا

أقول لصديقى الظالم حشمت بركات كيف يتهمنى بتزوير شهادة إعفاء من الخدمة العسكرية، وهذه الشهادة مرسومة على جسدي، وطالما كان ظالمًا فى هذا الاتهام، فهل تراه سيكون بريئًا فى اتهامه لى فى موضوع المجوهرات الذى ماتت زوجتى بسببه...»

وتورط حشمت بركات للمرة الثانية فى الإتيان برد هو نفسه ما كان يريده السيد النحال، فقد جاءه الرد من حشمت فى صيغة سؤال:

ـ «هل نسى هذا الكاذب أن زوجته قد ماتت فى عملية إجهاض؟»

وسرعان ما توارت قضية المجوهرات المزيفة وبرزت قضية أكثر إثارة هى قضية موت إمرأة حامل تنتمى لزوج عقيم، فقد كسا النحال صوته ـ فى لقاء تال ـ بمسحة حزينة وهو يقول:

ـ «لم ولن أنسى أن زوجتى فوزية ماتت فى عملية إجهاض لم أكن أعلم عنها شيئًا.. فهذا ما قاله لى صديقى حشمت بركات وأنا أرافقه فى مهمة رسمية فى اليونان.. وكان يرافقنى فى البحث عن أطباء لعلاج عقمى.. وفى طريق عودتنا أبلغنى بخبر الوفاة الذى كان على علم به قبلى..»

ثم وبنبرة أكثر حزنًا راح يسأل المحاور:

ـ «ضع نفسك مكانى.. فبيدى تقرير عدت به من اليونان يؤكد عقمى، وصديقى يبلغنى بوفاة زوجتى فى عملية إجهاض..»

وبدموع انهمرت طيعة استدر النائب الشهير إشفاق الرأى العام على شرفه الذى ديس بالأقدام لأنه اقترب لسوء حظه من بعض أقارب أحد حكام مصر الذى قال عنه:

ـ «ولم أكن أستطيع مواجهته أو محاسبته أو القصاص منه.. فقد ألقى بهذا الخبر فى وجهى ونحن فى طريق العودة من اليونان.. هو يختال بسيارة مرسيدس جديدة محشوة ببضائع أخفاها عن العيون.. ومرور بخبر سار جاءنا ونحن على ظهر الباخرة وهو موت جمال عبد الناصر.. أما أنا فقد تسربلت فى حزن ثلاثى الفجيعة، هو موت زوجتى، وموت الزعيم، وموت خصوبة الرجال والحياة فى ماء رجولتى، وباختصار كان حشمت هو الرجل الذى عثر على قوته فى لحظة هى نفسها اللحظة التى عثرت فيها على ضعفى وهوانى، فكيف لى أن أواجهه؟»

وللمرة الثالثة يخطف السيد النحال متابعيه من مقاعدهم برشاقة.. فمن المجوهرات المزيفة.. إلى الإجهاض الغامض.. إلى السيارة المرسيدس المحشوة ببضائع مخفاه..

ـ «ترى ما هذه البضائع؟..»

وكأنما سمع حشمت بركات هذا السؤال ينساب من بين ملايين الشفاه، فآثر السلامة وانكفأ على نفسه ولم يشأ أن يبرز من جديد معلقًا أو نافذًا لأقوال صديقه القديم.

وكان أن اكتفى السيد النحال بهذا النصر الحاسم وهو الذى خشى أن يتمادى حشمت بركات فى غبائه ويفجر أمام الناس قصة استيلائه على فيلا وأرض حكمت وبشاير أو يشير من قريب أو بعيد لجريمة قتلهن بالسم البطىء.

ولم يكن السيد النحال يعلم أن صديقه الحبيس اكتفى هو الآخر بهذه الهزائم وانسحب خوفًا من أن يجرفه غريمه إلى قضية دس السم لجمال عبد الناصر دون علم من مضيفه أشرف بركات.

ومع هذا، فقد تقدم إلى النائب العام رجلان هما جلال وعمر حمدان شقيقا الراحلة فوزية حمدان ببلاغ يتهمان به حشمت بركات بقتل أختهما ليس لأنها شاهدة على تزييف المجوهرات، ولكن لأنها كما أبلغتهما أجبرت على دس السم فى طعام الزعيم جمال عبد الناصر بتحريض من حشمت بركات نفسه..

وفور أن خرج السيد النحال من مكتب النائب العام الذى استدعاه فى لقاء سرى وخاص على وجه السرعة اتجه إلى عين شمس وهناك كشر لولدىْ حمدان عن أنيابه:

ـ «اسحبا بلاغكما فورًا.. لن أقف معكما.. سأقف ضدكما.. أنتما تخوضان قضية خاسرة، مات فيها المجنى والمجنى عليه ولا تملكان شهودًا.. كفى ما قدمته أنا لأختكما من فضيحة.. كفاها فضائح فى حياتها وبعد موتها»

وعندما خرج حشمت بركات هو الآخر من مكتب النائب العام لم يكن يعلم أن السيد النحال سبقه فى وأد فضيحة فى مهدها.. فضيحة كان يمكنها أن تهز العالم فيما لو لم يسبقه إلى إنكارها مثلما أنكرها هو.

وفيما بعد عرف حشمت أن صديقه لم يكن مدفوعًا إلى هذا الإنكار بأى واجب من

واجبات الشهامة بعد أن تأكد أن الرذاذ المتطاير من هذه القضية سيغرق كل ملابسه التى تبدو حتى الآن ناصعة. فبنفس هذا السم، وبنفس هذه الطريقة، وبنفس يد الفتاة القاتلة تم التخلص من سيدتين للاستيلاء على أملاكهما.. إنها الأملاك التى تحولت من أرض فضاء إلى أرض عامرة بالمبانى متعددة الأغراض ، فالمسجد الكبير الذى يتصدر مقدمتها تبرز على واجهته الآية الكريمة:

«هذا من فضل ربى» والمبنى المستطيل بطوابقه الخمس تقول لافتته إنها: مدارس النحال النموذجية الخاصة.. والمبنى الفخيم ذو المدخل الجانبى الخاص يشير اسمه على أنه «المبنى الإدارى لمجموعة شركات النحال»..

* * *

الشيخ فريد هنيدى سلم ببساطة وهو يتابع حوارات النحال وبركات بأنها ثقافة الأنذال.. ونذالة اللصوص إذا اختلفوا ، وفرار القبيح على جثة الحقير إذا اشتد الحصار .. لكنه تذكر ضحيتين.. طاهر زين الدين الذى افترسه الهم والسرطان ، وفوزية حمدان التى افترسها الطموح الواهم ومال حالها منذ أن وقعت فى حبائل النحال.

أما خميسة عفيفى، فقد تابعت الحملة المدروسة التى أدارها طليقها السيد النجال بإمعان وخبث شديدين ضد ولى نعمته المهان حشمت بركات قائلة لزوجها حلمى عبد الباقى:

ـ «النحال يا حلمى هو رجل العهد القديم والعهد الجديد.. وكل العهود الآتية.. فموهبته أكبر من أن تقف عند عهد بعينه؛ لأنه الهواء الذى يدخل كل البيوت، ويلفح كل الوجوه.. ويهز كل الأشجار دون أن يراه أحد..»

ويبتسم حلمى عبد الباقى فى مرارة مؤيدًا لرأيها:

ـ «ناهيك عن أنه من المستحيل أن يمسك أحد بالهواء وهو يشلح عن الرجال جلابيبهم ويطير فساتين النساء..»

فتقول خميسة:

ـ «لك الحق.. فكم من هواء راكض تآمر على عوراتنا فجأة ونحن نلوذ بالأمان..»



كل المواقع امتلأت بالنحالين

تأمل الشيخ فريد هنيدى طفله «معاذ» وهو يلهو مع أخيه حسن الذى يكبره بثلاثة أعوام وقلبه يلهج بشكر الله على نعمته المهداه. ثم تأمل زوجته نادية عز الدين التى حولت حياته إلى عالم من الهدوء والرضا وأضفت عليه شعورًا مفعمًا بروح السكينة، ثم عاد فتأمل خفوت غضبه القديم فى خطبه الأسبوعية على المنبر وتساءل:

- «هل هدأت ثورتى على المنبر، وخف غضبى على النظام بفعل هدوء الدعة والراحة فى منزلى، أم بفعل هدوء الصدمات الكهربائية فى هذا العهد الجديد قياسًا بعهد السادات؟..»

فالرئيس الجديد لم يسلك درب سلفه المغتال فى مضايقة الحكام العرب، وبدا أنه يحرص على إرضائهم أسوة بكل الأطراف الأخرى فى الداخل والخارج بما فيهم إسرائيل التى سلمته الجزء الباقى من سيناء منقوصة السيادة. ثم بدا أنه يحرص على الإمساك بمنظومة اقتصادية توقف التدهور الذى آل إليه اقتصاد البلد بعد عزل مصر عن أشقائها العرب إثر معاهدة كامب ديفيد.

وفى خضم البحث عن مخرج للاقتصاد التائه ظهرت إلى حيز الوجود فجأة شركات توظيف الأموال التى تعمل بعيدًا عن الدولة وعن النظام. على جذب رءوس الأموال وملايين الممولين على اختلاف مشاربهم وقدراتهم الائتمانية.

وتعجب الشيخ فريد على ظهور أسماء شركات لا تخلو لافتاتها من ظهور كلمات: الإسلام.. أو الإسلامى.. أو الإسلامية.. ومع هذا، فلم يأخذه التوجس موقنًا أن إشكالية الزج بالإسلام فى السياسة وما يجره ذلك من ويلات ليس شرطًا أن يجرنا إلى

نفس الويلات فيها لو تم الزج بالإسلام فى الاقتصاد..

ولما راح يراقب ترهيب بعض الشيوخ من ربا البنوك ذات الفوائد المعلنة سلفًا اكتشف أن الشركات الجديدة تعمل هى الأخرى بنظام الفوائد المعلنة مؤقتًا ولكن بميزة جديدة هى أنها ضعف فوائد البنوك..

ولما ظهر نفر من شيوخ النظام ينتصرون لفكرة فوائد البنوك اكتشف الشيخ فريد أن التاريخ يعيد نفسه؛ إذ يكرر فكرة الشيخ الخادم للسلطة، وبدا ذلك جليًّا فى الصراع الدائر بين شيوخ الدولة وشيوخ الشركات.

* * *

ولم ينتبه الشيخ فريد إلى أنه أب مسن لطفل صغير لم يتجاوز الرابعة إلا بعد أن شاهد ولدَى فتيان: «أحمد وفتحى» فى إعلانات شركة الفتيان لتوظيف الأموال، فتعجب أن يكون الزمن قد مر بهذه السرعة حتى إن فتيان قد صار لديه شابان يعملان معه.. ثم يزول عجبه عندما يتذكر أن معاذًا إنما قدم إلى هذه الدنيا من أب وصل متأخرًا فى ركاب الأبوة.

ولما راح يتأمل صورتَىْ أحمد وفتحى كأصغر نجمين أخذا فى التألق بسماء الاستثمار وتوظيف الأموال شعر من ابتسامة فتحى المتكلفة أنه وجه ناعم يفتقد البراءة، وأن التجمل الذى ينطق به حديثه حولِ نشاط شركته يخبئ كمّا من الزيف لا يدرى الشيخ فريد كم من العمر مضى ـ على هذا الولد ـ حتى تعلمه.. يومها طوى الصحيفة، ثم غمغم:

ـ «هذا الشبل من ذاك الأسد»

واستأسد الشبل فسطا على بؤر الأضواء وهو يتمتع بمباركة تعزيزية من أب كشف البئر غطاءه فى أول عهده بسوق الانفتاح.. إذ عرف أنه ليس شرطًا أن تكون الألف فدان مزروعة فعلًا حتى ترهنها للبنك، فأنت يمكنك أن تملؤها بالأشجار على الورق وأن تأخذ أضعاف ثمنها كقرض مقابل مائة ألف جنيه تدفعها لمدير البنك عن كل مليون تقترضه. هذا الأب لم يشغل نفسه لحظة واحدة بمدى صحة ما يقوله ولده عن مشاريعهم الضخمة، وهو يطمئن المودعين على أموالهم.

كانوا يحثون الخطا ـ فتيان وولداه ـ إلى ولى نعمتهم السيد النحال ليستلهموا منه الرأى

والمشورة فقد يدلهم على عدد من المشاريع الكبرى لاستيعاب مئات الملايين من الجنيهات والدولارات التى جمعوها من السوق. ولكنهم يعودون برءوس ثقيلة؛ لأنه لا يد لهم إلا على شيء واحد:

ـ «لا تتوقفوا عن جمع الأموال.. ما دمتم تقدمون ربحًا سنويًا وهميًا لعملائكم مقداره خمسة وعشرون بالمئة.. فإن العمر الافتراضى لنشاطكم سيكون على الأكثر أربع سنوات..»

ثم يأتى لهم ذات زيارة بفكرة ـ قال لهم إنها جهنمية ـ يمكنهم بها جلب أموال المصريين العاملين فى الدول العربية بشكل غير مسبوق.

ـ «يجب أن نسعى إلى نشر صورتك يافتيان مع رئيس الوزراء وأنت تصافحه فى الصفحات الأولى من كل الصفحات القومية..»

وسأله فتيان: «**كيف؟.. كيف يمكننا ذلك..**»

وبهدوء شديد يرد السيد النحال: «**كلها بضعة أسابيع وتنعقد مباراة فى كرة القدم للمنتخب القومى فى ستاد القاهرة ..**»

ولم يفهم فتيان ما المقصود بذلك.. وتسربل فى البلاهة.. لكنه عندما ذهب برفقة صديقه البرلمانى اللامع السيد النحال وجلسنا سويًا فى المقصورة الرئيسية على قيد خطوات من الدكتور عاطف صدقى، جاءت لحظة مواتية غمزه السيد فيها وهو يرسل نفس الغمزة لمصور صحفى يعرفه:

ـ «قم الآن فصافح الدكتور عاطف.. ابتسم وأنت تصافحه، وقل له: سنفوزبالمباراة بفضل حضورك الكريم يا باشا..»

وفى اليوم التالى ظهرت ابتسامتان متبادلتان على متن الصحف الأولى أرسلها صاحبها وفى ذهنه مؤامرة، والثانية بعثها صاحبها على سبيل المجاملة.. وقد تكون هذه الصورة قد فعلت فعلها داخل مصر، أما خارجها فقد فاق فعلها كل التوقعات.

هرول فتيان ووالداه إلى السيد النحال فى هلع مصطنع يوارون به غبطتهم:

ـ «كل موظفى فروعنا لا يرفعون رءوسهم لحظة عن الأوراق وهم يسجلون ما يلقى

في خزائننا من أموال.. لقد قاربنا على رقم المليار.. فأسعفنا بمشاريع كبرى حتى لا ننكشف»

وظل ما يسعفهم به هو نفسه القول القديم:

ـ «استمروا في جمع الأموال.. ولا تستمر أطول من ذلك في النوم على مستحقاتنا يافتيان.. الجماعة الجورنالجية الذين وبخهم رئيس الوزراء شريكك في الصورة.. وزمايلهم في الخليج.. هل تظن أنهم يتبرعون لك بحملة مجانية؟.. أنت تجمع المليارات وهم يصفقون لك؟.. العدد هنا وهناك عشرة.. ضع شيكات بهذا العدد.. كل شيك بثلاثمائة ألف دولار.. لأمر: حامله.. وأسرع بكتابة الشيكات حتى لا أنسى الفكرة الجهنمية الثانية..»

ـ «فكرة ثانية؟».

وبعد أن يسلمه الشيكات منصاعًا كاتمًا غيظه سرعان ما ينسى ذلك وهو يتأمل ذلك الكنز المختبيء داخل هذه الرأس الجهنمية التي لا تتوقف عن التفكير والإبداع والدس والتآمر وجلب المصائب بسرعة ثم تصريفها بمزيد من هذه السرعة..

وهتف فتيان بولديه وهو يغادر مكتب النحال :

ـ «أسرعوا بتنفيذ خطة هذا الرجل المصيبة.. أسرعوا »

وكان أن انتشر في كافة العواصم العربية البترولية عشرات من مندوبي شركة الفتيان لتوظيف الأموال.. وانتشر في ربوع مصر أضعافهم من المندوبين الذين يستقلون سيارات مزودة بتليفونات حديثة.. والمهمة ببساطة تتمثل في عمل خدمة غير مسبوقة السرعة للمصري المقيم في البلد العربي: أعطنا مدخراتك بالعملة الصعبة الآن وسوف تصل قيمتها بالجنيه المصري إلى أهلك في مصر بعد ساعة واحدة.. لا تدفع لنا قبل أن يتسلم أهلك تحويلاتك لهم ويطمئنوك بالتليفون على وصولها..

وانتشرت مزايا هذه الخدمة بين الجاليات المصرية انتشار الوباء..

وهرول آل فتيان إلى النحال مرة أخرى:

ـ « المليارات تزيد.. ماذا تفعل؟»

ـ «ضعوا الكبار فى جيوبكم.. قدموا السبت اتقاء السعير يوم الأحد.. وعليكم بـلبورصة.. ضاربوا فى البورصة»

ـ « كيف؟.. لا علم لنا بهذا الشىء..»

ـ «مروا على غدًا»

ووجدوه فى انتظارهم.. كهل باكستانى أشيب الشعر.. متين الجسد.. يتحدث العربية بطلاقة.. قدمه لهم النحال:

ـ «هذا هو مستشارك المالى يا فتيان.. خبير فى الأوراق المالية.. يعرف الدروب دربًا داخل بورصات لندن ونيويورك وطوكيو.. وهذا هو عقد العمل بينكما.. وقعه الآن»

وبعد شهور انتشى فتيان زهوًا بثلاث عمليات ناجحة فى بورصة نيويورك.. فراح يبشر الناس بمشاريعه الكبرى التى تدر ما لم يكن يحلم به من مكاسب..

وفى قلب نشوته راح يغمره القلق وهو يرنو إلى وجه ولده فتحى الذى تحولت حمرته إلى صفرة وبياض عينيه إلى احمرار.. إنه التعب والإرهاق.. وقلة النوم.. ويتساءل إلى أين نحن ماضون ويأته ـ من داخله ـ جواب سؤاله: «لا يهم أن نعرف وجهتنا.. المهم أننا نتحرك..»

وعندما خسر ملياره الأول توافق احتياجه لذلك مع احتياج مضاعف حينما وضع يده على خسارة أخرى.. ولده فتحى.. لقد سقط المذكور فى بئر الإدمان.. وعالم النساء، منذ زمن طويل دون أن يلحظ فتيان ذلك، ناهيك عما بعثره ولده من أموال المودعين..

وفى غمرة حزنه وهو يخسر ملياره الثانى لوح للباكستانى بقبضته فى الهواء:

ـ «ماذا فعلت بى؟..»

ـ «حساباتى لا غبار عليها.. ابحث عن اليهود الذين يتربصون بأموالكم فى الخارج..»

ـ «لا تبحث عن ذريعة..»

ـ «لن أبحث عن سبب لفشلى.. اليهود هم الذين هربوا بأموالكم فى العهد القديم ما زالوا على عهدهم بمطاردتكم حتى اليوم»

ـ «أنت تأتى لى بحوادث من الكتب الصفراء لتبرر فشلك»

- «أيها الراكض الفاشل.. لو عطست الآن فسوف يخرج يهودى من منخاريك.. أنت تعرفهم جيدًا لأنك عملت معهم أنت والنحال»

- «ابنى سيموت.. وسوف ألحق به»

- «وهذا هو هدفهم.. أن يمسكوا بلحمكم ويمزقوه أشلاء، فالفراعنة الذين ألقوا بهم إلى الشتات فى الماضى آن لهم أن يتوهوا فى شتات العصر»

* * *

فتيان وولداه أخذتهم لوثة الجنون فراحوا يتخبطون.. ومع هذا فقد واصلوا نشر إعلاناتهم الكاذبة التى تدر عليهم المزيد من مدخرات المصريين فى الداخل والخارج ، ولم يسلم الأمر فى كثير من الأحيان من انتزاع مريضهم فتحى من سرير مشفاه الذين يعالج به من الإدمان ليحضر مؤتمرًا صحفيًا لطمأنة مخدوعيهم أنهم جميعًا بخير..

واقترب من فتيان شيخ كبير تورط بإيداع أمواله عندهم، وقال له:

- «قلبى يحدثنى بأنكم مخادعون، فأعطنى أموالى..»

قال له فتيان:

- «خروجك المعلن بأموالك سيكون ضربة قاصمة لى ولشركتى.. فقف معى.. وسأجلب لك ربحًا خاصًا.. فأنقذ نفسك وأنقذنى معك»

وامتشق الشيخ الشهير حسام الإسلام يدافع به عن آل فتيان فى شهادة زائفة يعلنها على رءوس الأشهاد فيؤكد لجمهور المودعين الزحفين إلى الصحراء لمعاينة مشاريع الشركة فى أتوبيسات مكيفة أنهم فى أمان.. ويزدرد هذا الشيخ ريقه مع بعض الماء المثلج ويهتف:

- «ألا يعلم أصحاب البنوك أنهم يجرون زبائنهم إلى إثم الربا.. وألا يعلمون أن عقوبة هذا الإثم ترقى إلى عقوبة من زنى بأمه فى حجر الكعبة؟»

وهنا برز لهم الشيخ فريد هنيدى من مكمنه فشن حملة شعواء لم يعدم فيها الحيلة فى كشف التاريخ المزرى لرجل الاقتصاد الإسلامى فتيان فتيان ثم أدار مدافعه الثقيلة نحو ولدى النحال فألهب بها ماضيهم المزرى وحاضرهم الزائف حتى لقد:

ـ «صار سوق النحال رائجًا.. وصاروا كالجراد الشره يهبط على المراعى الخضراء فيحرقها.. النحالون يا سادة أعلوا من شأن الكذب بعد أن قتلوا فضيلة الصدق.. النحالون يا سادة انتصروا لسياسة الفهلوة والانحناء والمقايضة بديلًا عن الصدق والشموخ والالتزام.. النحالون يا سادة أعلوا من شأن الاستيراد بديلًا عن الإنتاج.. ومن شأن العمولة بديلًا عن الأجر.. والاستسهال والتواكل بديلًا عن المكابدة والإصرار..»

وفى مكتب السيد النحال اجتمع ثلاثتهم هو وأخوه وفتيان وفى شعور مشترك أحسوا جميعًا أنهم كلهم فى خطر.. واقتربت رءوسهم للمرة الثانية يتهامسون للعثور على حل يسكتون به هذا الصوت الزاعق لبطل كمال الأجسام القديم. ولم يمض كثير من الوقت إلا وكانوا قد اتخذوا بشأنه قرارًا..

* * *

ولما راق للشيخ فريد أن يصحب زوجته وولديه فى زيارة إلى البلد.. وفى المسافة التى يترجلونها من محطة القطار إلى هناك فى تمهل ومتعة انحرفت نحوه سيارة طائرة طائشة وقذفته فى الهواء..

شاهدته نادية مضرجًا فى دمائه أمام ولديها.. وشاهدتهما يصيحان فى هلع.. وهرع المارة يقبلون عليها.. رأت أحدهم يمسك فى يده بصحيفة فأرسلت إليه رجاء دامعًا أن يغطى بها وجه زوجها الدامى المسكون بالصمت..

ولما فرش الرجل صحيفة اليوم على وجه وصدر القتيل لم تعلم نادية عز الدين أن الوجه المبتسم فى صورة الصفحة الأولى بالصحيفة هو وجه أمير النحال الذى أمسك بحقيبة وزارة التموين.. اليوم..



السيف الوحيد الباقي

وانضمت نادية عز الدين إلى موكب الأرامل، مرة ثانية.

انضمت وفى يديها ولدان أتى كلّ واحد منهما من صلب رجل أحبها بقدر ما كان محبًّا لصديقه الزوج الآخر..

وقيل لها خبر كانت تثق من صحته حول قَتَلةَ زوجها الشيخ فريد.. وعرفت أن ولدىْ النحال ومعهما فتيان فتيان هم الجناة المتسترون خلف رجل اسمه عبد الرحمن أبو الوفا عجيزة وشهرته السني الذى كان يقود السيرة وبجواره فى المقعد الأمامى رجل آخر اسمه خالد السيد محمود الشهير «بخالد بق»

وفى البلد زارتها سيدة أنيقة وبصحبتها شابان تطفح هيئتهما بالصحة والهناء يرافقهم الريس عفيفى الذى قدم لها ضيوفها قائلًا :

ـ «هذه ابنتى الأستاذة خميسة المحامية.. وياسر ويسرى والداها التوأم، فى الطب والهندسة..»

وتحدثت خميسة:

ـ «جئت أعزيك يا نادية فى رجل كان كفيلًا برفع رأس أمه بأسرها.. فلنبك على هذه الأمة قبل أن نبكى عليه»

وفى جلستهم الحزينة أعاد عليهم الريس عفيفى أخبار الجنازة المهيبة التى ودع فيها الناس الشيخ فريد هنيدى إلى مثواه الأخير..

وتنساب الدموع من عينى نادية وهى تحنو على ذكرى الروح الآسرة لرجل ملك قلوب الناس قبل أن يمتلك قلبها..

«لم يعد هناك فريد..

لم يعد هناك أىّ شىء..

الدنيا خلت من حولى فجأة..

كيف سيأتى الفجر وأصليه بمفردى..؟

فليأت الفجر كعادته..

إنه ليس الفجر الذى عرفته مع رجل لخص لى أمان الدنيا وسلام العالم فى حضن دافئ احتوانى فيه بذراع وحيد وزند مبتور..»

وعادت إلى ضيوفها، تسمعهم دون أن تتحدث، تراهم دون أن تشاركهم.. ثم تتأمل ما يقولونه عن المجرمين الذين يمرحون والشرفاء الذين يدفعون الثمن.. والقتلة الذين يرتفعون فوق جثث ضحاياهم.. ومعالى الوزير أمير النحال والنائب السيد النحال الذى تنبأ منذ زمن بعيد ببطل كمال الأجسام فريد هنيدى حين قال لمن حوله: أولاد النحال سيكونون من حكام القطر المصرى.

وكيف مات يوم أن تحققت نبوءته..

وانتبهت إلى ضيفتها المهذبة تطلق عبارة من عبارات الشيخ فريد قبل أن تنصرف:

ـ «لقد صار سوق النحالين رائجًا.. فارحمنا يا الله..»

* * *

وتحول طيف الشيخ فريد إلى غول يطارد قاتليه ويقض مضاجعهم.. فما زالت عباراته طازجة ومسمياته عالقة بالأذهان.. فالنائب النحال هو الوصف لكل النواب اللصوص، والوزير النحال هو الوصف لكل الوزراء المنبطحين، أما تابعهما فتيان فقد نال وصفًا منفردًا «النحالى فتيان».

ولأن النظام كان قد رسّخ عند الناس فكرة أنه نظام لا يعبأ بانتقادات المعارضين ولا بصرخات المظلومين، فقد استمرت السلطة فى تجاهل المقالات التى تندد بقتل الشيخ فريد هنيدى، واستمر المعارضون فى كيل الاتهامات لنظام يتستر على القتلة.

وعندما جاء تقرير النائب العام نافيًا أن يكون حادث قتل الشيخ فريد هنيدى، مدبرًا

بدا للناس كأنها جاءت صياغته من السيد النحال نفسه؛ إذ يقول:

- «إن غياب الدليل القاطع على تورط أحد المسئولين فى تدبير هذا الحادث يجعل استمرار تمتع هذا المسئول بحصانته حقًّا شرعيًّا»

وهتف حلمى عبد الباقى باستياء وهو على مقربة من زوجته خميسة:

- «لا تأملى خيرًا فى نظام استمد وجوده من سلطة ساداتية مغتالة.. لاجديد هناك.. ولن يكون هناك جديد..»

وقالت خميسة وهى تهز رأسها أسفًا:

- «خروج السيد النحال من هذه القضية دون أىّ خدش يعتبر إدانة لهذا النظام المتبلد»

- «وماذا تريدين من نظام لا يعبأ بالحس الشعبى ولا يحترم توازع الرأى العام ولا يعمل حسابًا لغضب الجماهير»

- «يتعاملون معنا كأننا قوالب من الطوب.. حتى الذين يتعاملون مع هذه القوالب يحرصون عليها حتى لا تكسر، كل ما يحدث ليس فى صالح النظام..»

ابتسم حلمى فى مرارة:

- «وليس فى صالحى أيضًا»

- «كيف»

- «السيد النحال ذاق سهولة استخدام القتل كوسيلة لحل مشاكله.. وسوف يعشق هذه الوسيلة.. وأنا تصديت له بشراسة فى قضية الشيخ فريد وفضحته هو وفتيان.. فخذى حذرك.. وانصحى ياسر ويسرى أن يأخذا حذرهما»

وسرحت خميسة وهى تفكر فى ولديها ذوى العشرين ربيعًا.. فهل من الممكن أن يوجه السيد النحال انتقامه لأسرتها عبر اصطياد أحد ولديها بسيارة مجنونة؟

ألمت بجسدها رعدة، ثم تذكرت بداية النهاية للسيدة مارى صاحبة بنسيون السعادة التى وجدت نفسها متورطة فى قضية آداب محكمة، وتحولت بين يوم وليلة إلى ضحية من ضحايا شيطان كانت قد آمنت به اسمه السيد النحال استولى على أرض وفيلا صديقتيها حكمت وبشاير بأوراق مزورة محكمة المظهر والجوهر تمامًا كقضية الآداب التى ورطها

فيها بإمعان لأنها طعنت ـ قولًا لا فعلًا ـ فى صحة عقود البيع التى يملكها ذلك الشيطان.

وارتعد جسدها وهى ترى أن الخوف منه صار يقف جنبًا إلى جنب مع كراهيتها له، وتعجبت أنها لم تكره فيه إلا كل الأشياء التى جذبته إليها، فقد كانت قد أحبت جسارته وطموحه وذكاءه.. والآن وقد تحولت جسارته إلى إجرام.. وطموحه إلى جشع، وصار ذكاؤه لا يخدم إلا مؤامراته الدنيئة اكتشفت أنها كانت تراهن على جواد خاسر أساء إلى ماضيها لولا أنها تخطت حزام النار فيه بعفوية الريفيات دون أن تحترق..

خميسة التى تجيد محاسبة نفسها لم تجد غضاضة فى أن تبعث ندمها بصوت عال أمام حلمى عندما كادت أن تساق عمياء إلى حتفها وهى تسعى لكسب قلب حبيبها.. وكان من الممكن أن تصعد سلم الإجرام لو أكملوا القبض عليها وهى صغيرة.

ويهون حلمى عليها أمرها قائلًا:

ـ «لأننا بشر فليس المطلوب منا أن ننخرط فى صفوف الملائكة.. أنت لم تسمعى الشيخ فريد هنيدى وهو يحكى بأسلوب ساخر عن مغامراته الشبابية دون أن يخجل من ذلك.. ويتعجب أنه كان ماديًّا وجسديًّا وشهوانيًّا كالحيوان إلى أن جاءته لحظة الإفاقة من حيوان أعجم دله على الإنسان السوى الذى يعيش بداخله، ودفعه إلى الخروج من جبه المعتم إلى نور الحقيقة.. وكم كان الشيخ فريد يردد دائمًا :

الجمل دلنى على الحقيقة.. ثم انتحر.. فلتبحثى عن جملك يا خميسة، ولأبحث عن جملى.. وليتذكر كلٌّ منا أين ذراعه المبتور.. وأين واعظه الذى انتحر..»

* * *

خميسة لم تتخل عن حذرها واحتضان قلقها خوفًا على أسرتها الصغيرة، ومع هذا فلم تتقدم ذات مرة إلى زوجها برجاء أن يخفف من حدة مقالاته فى صحف المعارضة، وعرفت أنه ما من رجاء سوف يجبره على العودة إلى المياة الضحلة وهو الذى توغل مجازفًا إلى الأعماق المغرقة، فها هو يكمل مسيرة الشيخ فريد هنيدى بطريقته.. وتحول بكلمة النحال إلى أن جعلها صفة وليست اسمًا.. فصار يخاطب أباطرة الانفتاح النحالين.. وتحالى التطبيع المقيت.. فنحالو البنوك.. ونحالو الآثار المنهوبة.. ونحالو بيع شركات

القطاع العام حتى نحالو الثقافة والسينما وتجار الرقيق الأبيض فى ماسبيرو.

بل إنها باتت تحمد لزوجها حسن ما فعله من كشف بعض الأقلام التى جندتها إسرائيل لصالحها تحت ستار المصالح المشتركة بعد أن تسارع نحالو الأقلام المأجورة إلى دس سمومهم فى العسل دون أن يبدو أنهم يحقرون الهوية العروبية ويهشمون الروح الوطنية ويدعون إلى الاستقواء بأصدقاء التفوق: الأمريكان والصهاينة.

وصاح بهؤلاء الذين يروجون لثقافة الهزيمة نيابة عن إسرائيل قائلًا:

ـ «أنتم تمهدون للهزيمة الكبرى التى لن تشهدوها فى حياتكم وإنما ستشهدوها ـ حتمًا ـ الأجيال القادمة بعد موتكم، وسيظل الحديث عن أجيال ٥٦، ٦٧، ٧٣ـ كأقوى من تصدى لإسرائيل وواجه صلفها الإجرامى ـ مجرد ذكرى بعد أن تنكفئ على أرواحنا فى مستنقع الذل والمهانة»

* * *

وصحا المودعون لأموالهم فى شركة الفتيان على خبر موت ولده فتحى بشكل مفاجئ بعد أيام قليلة من مغادرته المستشفى، ومالم ينشر حول هذا الخبر هو أن هذا الشاب ذهب ضحية جرعة ثقيلة من الهيروين فجرت رأسه مع آخر نفس سحبه من شهيق الحياة. وامتصاصًا لغضب الناس أصدر النائب العام قرارًا بمنع فتيان وولده أحمد من السفر..

وكان أن صحا المودعون بعد أيام قليلة على خبر هروب ولده الثانى أحمد خارج البلاد، ومالم ينشر حول هذا الخبر ـ أيضًا ـ هو أنه فر بمساعدة مدفوعة الثمن لوزيرين سهلا له الفرار خلف ثروته.. ولم يكن من الصعب أن يتعرف الناس على أحد هذين الوزيرين المأجورين دون عناء..

وقال حلمى عبد الباقى إن الجديد فى هذا الأمر هو أن الوزراء صاروا موفورين الدناءة حتى أنهم يعملون لحساب لصوص هذا الشعب.. فما المانع أن يكون أمير النحال الوزير خادمًا عند مربى الماشية فتيان وبهائمه.

وقال إنهم أتوا جميعًا من مزرعة آثمة تربوا فيها مع الحقد والدناءة وأنهم لم يجتمعوا فى طفولتهم على مبادئ الأسوياء من الناس، وأنهم عندما تفرقوا فى سنوات التكوين عادوا

فاجتمعوا فى شكل منقار مدبب نهشوا به لحوم المصريين.

* * *

فر فتيان إلى شيطانه الكبير هلعًا ومكسورًا ورفع إليه كفه متضرعًا:

- «بع لى أكبر رأس يمكنه أن ينقذنى، وسوف أشتريه»

قال له بهدوء:

- «غضب الناس عاصفة تنعقد فى السماء، وأنت محسوب على وأخشى أن تقتلعنى عاصفتك..»

- «لكنها نصائحك القديمة يا سيد..»

- «نصائحى لاقت هواك.. فلم تلومنى؟»

- «أراك تتخلى عنى»

- «لست بأفضل من ولدك الذى هرب وتخلى عنك قبلى»

- «صار ثلاثتنا من ضحاياك: ميت وهارب وأنا السجن فى انتظارى»

- «كلكم ضحية القدر..»

- «أىّ قدر؟.. الذى أودى بحكمت وبشاير.. أم بالشيخ فريد.. أم بالسيدة مارى.. أم بحشمت بركات.. أم بإسكافى متجول دهسته سيارة مجهولة؟..»

نهض السيد النحال واقفًا وضغط جرس الاستدعاء متحدثًا بميكروفونه:

- «أين رجال الأمن ليزيحوا هذا الحيوان من أمامى»

وعرف فتيان الجبار أن الدنيا قد تخلت عنه، وأنه سقط الآن فى فراغ سحيق، وقبل أن ينصرف طوعًا متفاديًا الوقوع فى يد شلة من الثيران البشرية جاءت لاقتلاعه أرسل برجائه الأخير:

- «بيتك من زجاج يا ابن كلاف البهائم.. فقف معى ولا تقف ضدى»

- «زجاجى أقوى من حجارتكم أيها الحيوان.. فوفر أعيرتك الطائشة»

- «عيار اليائس الناقم .. قد لا يطيش دائمًا»

- «ومن ذا سيسمع صوتك وأنت فى زنزانة مساحتها متر مربع»

ـ «إذن، فأنت تعلم مصيرى»

ـ «حفاظًا على مصير أموال الأرامل والثكالى»

ـ «الأرامل التى ازددن واحدة هى نادية عز الدين.. وربما يزددن واحدة أخرى هى خميسة عفيفى»

ـ «وقد تنضم إليهن زوجتك لتتحول أسرتك كلها إلى ذكرى»

ـ «بعض الرحمة أيها الجبار»

ـ «رحمتى لا تليق إلا بمن يستحقها وأنت لست منهم»

ـ «لم نعهدك رحيمًا فى أيام صعلكتك ألقيت بجوهر البقال فى السجن»

ـ «وأنت فى أيام نذالتك ألقيت بى فى السجن»

ـ «لم يخف حقدك على من يومها..»

ـ «قد يخففه أن أراك محشورًا فى زنزانتك»

وخرج فتيان يتخبط فى ساقيه بغشاوة ألمت بعينيه وتساءل وهو يصر على أسنانه:

ـ «أين كلُّ من ساندونى ونالوا أموالى؟ أين أصحاب المقاعد العالية.. أين الكبار الذين ناموا معى فى سرير الزنا؟»

ثم هتف به ضميره المتردى فى الضياع:

ـ «أين أنت يا شيخ فريد؟.. لماذا لم أدخرك لهذا اليوم؟.. أين أنتما يا فلذة كبدى وقد صرتما ذكرى مؤلمة : ميت هنا وهارب هناك»

وبرقت فى خاطره صورة رجل انسدلت أمام خياله العائم.. رجل ثورى قديم ومناضل أشيب لا يكف عن النزال اسمه حلمى عبد الباقى..

«أنه الضحية القادمة..

فليأخذ حذره..

وليقبض بشده على سيفه الوحيد الباقى..

السيف المشرع فى وجه الخيانة والجبروت..

فماذا لو احتميت به؟»



جهزوا أشلاءكم حطبًا لأفرانهم

اتجه فتيان فتيان لمقابلة رتب لها مع خميسة بنت الريس عفيفى ـ كما ظل يسميها ـ وبيده مظروف ملىء بالأوراق، فقال لها وهو يريح كفه عليه:

ـ «هنا ستجدين ما يدين عهدًا بأكمله وليس رجلين فقط أنت تعرفيهما»

تأملته خميسة بتأدب يشوبه التعجب، ففهم ما ترمى إليه:

ـ «أعرف يا أستاذة أننى متهم فى قتل الشيخ فريد هنيدى.. وها هى نقمة السماء قد حلت بى..»

سألته خميسة سؤالًا عابرًا:

ـ «عندما كنت تملك المليارات، وقبل أن يكف النائب العام يدك عن التصرف فيها منذ أسابيع.. لماذا لم تسدد ديونك للبنك؟»

ـ «أىّ بنك؟..»

ـ «البنك الذى اقترضت منه ثلاثة ملايين جنيه منذ خمسة عشر عامًا الآن صار المبلغ خمسة عشر مليونًا..»

لاذ فتيان بصمت طويل وهو يسترجع الأحداث منذ أن كان يتهجى فى كتاب اللصوصية.. ولم يفهم حتى الآن كيف يمكن للبنك أن يستولى على الأرض المرهونة ويعامله على القرض كمديونية دائمة.. أخرجته خميسة من صمته ليشرح لها ما يعتمل فى صدره.. وبعد حين كانت هى الأخرى تلوذ بالحيرة وتلخص حالة ضيفها فى جملة:

ـ «لصوص البنوك يسرقون على الوجهين ويطعمونك للدولة إذا شاءوا.. فاستعد للسجن الذى وعدك به صديقك البار.. ماذا فى هذا المظروف؟»

ناولها المظروف وهو يتأمل نظراتها المتفحصة، فقال لها:

ـ « لن يغفر لى أننى كنت لعبة فى يد الشيطان.. ولن تغفر لى محاولتى اليائسة لكشف جرائمه التى ستجدين بعضها فى هذا المظروف»

وعندما كانت خميسة تتأنى فى قراءة بعض الصفحات.. وعندما كانت ترفع حاجبيها بين الحين والحين كان ضيفها يعرف أنها لا تصدق ما تقرأه.. أسماء لآلاف قطع الآثار المهربة.. أسماء لشخصيات معروفة شاركت فى هذا التهريب.. عقود شراء أسلحة.. صور شيكات بمئات الملايين تم غسلها.. قصاصة من صحيفة يديعوت أحرونوت تحمل صورة ناطقة بابتسامتين تجمع السيد النحال وموشى ديان وأمامهما بعض قطع الآثار.. صورة أخرى له بصحبة فتيات يهوديات فى شوارع تل أبيب.. وعشرات من حالات التربح والتزوير والابتزاز وجلب المخدرات.

ـ «كيف حصلت على كل هذه الأوراق؟»

هكذا سألته وهى تلقى بنظارتها جانبًا، فقال لها:

ـ «نحال صغير من رجاله.. يرتقى نفس السلم بنفس الطريقة.. لم أتعب فى إقناعه أن أشترى سيده.. بالغ فى الثمن مدعيًا أن القيمة تشمل رقبته..»

وصمت فتيان قليلًا وبدا أنه فى حرج من إطلاق قول جديد يلوح فوق شفتيه.. فعاجلته خميسة بسؤال:

ـ «ماذا بك؟.. تبدو كمن يكتم شيئًا..»

ـ «لا.. لن أكتمه.. خذى حذرك يا أستاذة أنت والأستاذ»

ـ «هل نحن فى خطر؟»

ـ «أجل..»

ـ «وكيف أثق فى كلامك؟»

ـ «ليس لدى الدليل على جريمة لم تتم.. ولكنى أملك السبب..»

ـ «تقصد مقالات الأستاذ حلمى ضده وكشفه لجرائمه خاصة جريمة الشيخ فريد»

ـ «لا..»

ـ «إذن، فما السبب؟»

ـ «ألا تصبحين الملكة التى تنبأت بها العرافة على كوبرى الملك الصالح»

واعتدلت خميسة عندما أتى فتيان بهذه العبارة.. ثم ازداد اعتدالها وهى تسمع ما يأتى به فتيان من تحاليل وليست أخبارًا حول صديقه الذى لم ينس ما قالته العرافة من أنه سيملك مفاتيح الدنيا التى ستفتح الطريق إلى نهايته، وأنها ـ أى خميسة ـ ستنتقل من رجل نذل إلى رجل حرّ وأنها ستغدو ملكة.. وأن النحال التفت إلى نبوءة العرافة يوم أن تزوجت طليقته من حلمى عبد الباقى وهو الذى أخذه الظن أنها ستعود بعد طلاقها منه إلى البلد مهزومة منكسرة تجتر ذكرى سنوات عابرة وغابرة عاشتها فى القاهرة.. وراح يراقب صعودها الهادئ ونجاحها كمحامية تحولت إلى ملكة بين زميلاتها المحاميات لكونها فى كنف رجل ملء السمع والبصر.. وعندما كان النحال يفشى فضيحته بنفسه كرجل عقيم ماتت زوجته فى عملية إجهاض توافق أن شاهدهم جميعًا فى سيارة واحدة.. حلمى وخميسة وولديها التوأم.. أكله الحسد وراح يأكله القلق.. واكتشف أن الدنيا أعطت طليقته بحب فى حين تعطه بغضب.. وأن خميسة نالت مالم يمكن أن يناله.

الذرية.. والرضا.. والأمان.. وصارت أسرة خميسة هى الحالة التى تمناها وحرمه منها القدر.. الحالة التى لن يبلغها.. فأصبحت هى وكلّ من يتمتعون بالأمان والذرية من ألد أعدائه حتى لو كانوا من أقرب أصدقائه: حشمت بركات الذى يملك قافلة من الأولاد فتيان فتيان وولديه.. الشيخ فريد هنيدى الذى أنجب ولدًا وشرف بولد آخر من صلب صديقه رأفت إبراهيم فى واقعة حميمة أحيط فيها بولدين وزوجة صالحة.

سألته خميسة:

ـ «أهو عقيم فعلًا أم كان يدعى ذلك فى معركته مع حشمت بركات؟»

قال لها بتشف:

ـ «لن يهنأ بذرية من صلبه، فظهره خال من البذور»

ـ «ألهذا أضرب عن الزواج ؟»

ـ «يقول إن الزوجة فى حالته طرف يأخذ ولا يعطى، وهو لا يحب مثل هذه العلاقة»

ثم يغمغم فتيان كأنها يحدث نفسه:

ـ «وعطاء غرف النوم متاح له فى غرف الآخرين، فلماذا يتزوج؟»

قالت خميسة:

ـ «لعلها مشيئة الله أن يرحمنا من ذرية تأتى من صلبه»

فقال فتيان:

ـ «ولكن والده عباس النحال له رأى آخر، فما زال يواصل الإنجاب ويهدى للبشرية أطفالًا جددًا وبكثرة من نساء متعددات»

فغرت خميسة فاها دهشة:

ـ «هل ما تقوله صحيح؟.. قيل لى هذا الكلام.. فتعجبت»

واصل فتيان:

ـ «لك الحق، فهو كلام يصعب تصديقه.. رجل عمره أكثر من خمسة وسبعين عامًا لا يكاد يرى أمامه.. منذ ماتت زوجته أم الخير وهو لا يكف عن الزواج بأخريات.. يميل إلى البدينات.. خادمة.. بائعة خبز.. بنت الجناينى.. ممرضة كانت تضرب له الحقن.. أطفاله اختلطوا بأطفال العمال والخدم فى القصر.. لم يعد يعرف لهم شكلًا أو عددًا»

وغمغمت خميسة:

«وكأن الدنيا القادمة بحاجة إلى نحالين جدد الذين تربوا فى إسطبل القصر، لا أظن أنهم سينخرطون فى صف الملائكة.. الإنتاج لن يختلف عن سابقه.. فالمنتج هو نفسه.. عباس النحال».

عادت به خميسة إلى الخطر القادم الذى حذرها منه، فسألته إن كان يملك أطراف مؤامرة طليقها ضدها هى وأسرتها.. فأفهمها فتيان أنه لا يملك خبرًا يقينًا عن مؤامرة قدرما يملك إبعاد كمية الحقد التى يحملها السيد النحال ضدها منذ أن زارت نادية عز الدين ودلتها على محام بعينه فى قضية مقتل زوجها الشيخ فريد هنيدى، فقالت خميسة:

ـ «تمنيت لو كنت أنا بديلًا عن هذا المحامى الزميل لولا خشيتى من هذا الخصم البعيد عن الشرف أن يزج بى فى قضايا واتهامات شخصية..»

أيدها فتيان قائلًا:

ـ «لك الحق، فهو يوظف كل شيء وأيّ شيء لصالحه، فهل لنائب محترم أن يخلع جوربه أمام الكاميرا ليطلع الناس على إصبعين مبتورين فى قدمه؟»

وتذكرت خميسة أن السيد النحال حرص على إخفاء إصبعيه هذين فى ليلة عرسها وكأنهما عورة.. وفيما بعد وعندما كثرت عورات نفسه تعجبت أنه لم يحاول مواراتها كإصبعية اللذين بترهما مقص الحديد.. ثم راحت تتساءل عن المقص الآخر الذى شوه كل دواخله؟

***

أغرق الذهول وجه حلمى عبد الباقى وهو يتفحص أوراق المظروف الأسود، وما إن انتهى من التعرف على ما به حتى انتهى إلى رأى مؤكد قال فيه:

ـ «إن ارتقاء هذا الوطن هو الوهم البعيد الذى لن يتمتع به طالما جلس على دكة الحكم فيه أناس يعانقون النقيصة ويعشقون الفجر والدناءة».

وبعد حين عرف السيد النحال أن هناك من اخترق مواقع قلعته الحصينة وأن فتيان اشترى رجلًا من رجاله، فها هو حلمى عبد الباقى ومعه كتيبة من الصحفيين يدكون معاقل رجال النظام اللصوص، وهو على رأسهم، ويكشفون أوراق جرائم عديدة: المتاجرة بديون مصر، المتاجرة بالسلاح، نهب البنوك، استيراد الأغذية الفاسدة والأدوية المسرطنة، سرقة الآثار، نهب المحفوظات النادرة، التفريط فى سوق القطن المصرى، إغلاق مصانع الغزل والنسيج، التمسح فى التطبيع مع إسرائيل وجلب خبراء الزراعة اليهود بدعوى التطوير فأمسكوا بلحومنا على طريقتهم ونشبوا فيها أسنانهم.

ولم تهتز مقاعد اللصوص.. فثقافة النظام غير المعلنة هى اتخاذ الصمت والتجاهل سبيلًا لمواجهة منتقديه، وكأن شيئًا لم يكن.

***

ورفع فتيان عبد اللطيف يديه مستسلمًا وهو يهش عن وجهه غبار انهيار مملكته بيأس وذهول، واكتشف أن الشيك القديم كان لظهوره المفاجئ فى هذا التوقيت وظيفة

واحدة، وهو أن يشير للصحافة والرأى العام ولجمهور المودعين أنه رجل مجبول على السرقة والنصب منذ زمن بعيد، ناهيك عن سهولة الإمساك به وتقييد حركته فى قضية لن تستغرق وقتًا ينال بعده حكمًا مستحقًّا ومضمونًا.. ذلك أن قضاياه مع المودعين بما بها من طابع التراضى بين طرفى التعامل المالى قد ينجح محام بارع فى كسبها لصالح شركة الفتيان.. فالعلاقة تصبو إلى الكسب لكنها لا تمنع الخسارة وأن يكون الفتيان قد خسر أموال المودعين فلا مانع من ذلك.. فليس هناك ما ينص على غير ذلك.

وهكذا وقبل أن تفتح ملفات شركة الفتيان كان فتيان الأب قد نال حكمًا بالسجن المشدد لعشر سنوات فى قضية الشيك الذى قال عنه وهو يوقعه منذ خمسة عشر عامًا

- «هل هذا هو الشيك الذى سأسجن بسببه؟»

يومها قالها ساخرًا.. دون أن يعلم أن سخريته سترتد إلى نحره..

* * *

وفى مشاويره المتكررة إلى تحقيقات النائب العام مكبلًا بالقيود كان يمد الصحفيين المهرولين خلفه بمعلومات جديدة فى كل مرة، ولما سألوه عن قاتل الشيخ فريد هنيدى قال إن السيد النحال هو الذى خطط لهذه الجريمة أمامه..

ولما رفع صحفى عقيرته سائلًا:

- «أمامك أم معك يا شيخ فتيان؟»

رد مسرعًا وباستهتار:

- «أمامى.. يا حيلة أمك»

وضج الطابور المتحرك خلفه بالضحك.. وكأنما اكتشف فتيان هذا الشىء الذى غاب عنه طويلًا: «الضحك» فتسلل إلى البحث عنه فى خضم مُأساته، فصار يروى ما يرويه لشباب الصحفيين بروح الهذر والسخرية. خاصة ما رواه عن الوزير المستشيخ الذى هاتفه ذات ليلة قائلًا:

- «ولد يا فتيان.. علمت إنك عندك دولارات من أم جنيه للدولار.. سأرسل لك مليون جنيه.. أرسل لى مليون دولار يا ولد فتيان»

- «يا فندم الدولارات سعرها الآن ثلاثة جنيهات ونصف»

- «يا ولد يا لئيم.. اطلع من دول يا عفريت.. إنت عندك دولارات من أم جنيه.. هات لى منهم.. واحنا برضه رجالك يا فتيان جايز الزمن يرميك علينا»

وفهم فتيان أن وزير الداخلية صار من رجاله بقرار من الوزير نفسه.. والمقابل دولارات من النوع القديم..

ويكمل فتيان روايته قائلًا:

- «ويعاود الوزير الشيخ الاتصال بى.. ولد يا فتيان عندى مليون دولار سمعت أن السعر وصل أربعة جنيهات.. ابعت لى البنكنوت كله من فئة المائة جنيه»

ويكسب مولانا المتدين ثلاثة ملايين من الجنيهات فى عدة شهور حامدًا الله الذى هداه أن يكسب قوته بالحلال؛ فالله حلل البيع والشراء وحرم الربا، وأمام هذه الرواية ينبرى صحفى شاب فيكيل اللعنات لفتيان وللحكومة والوزراء الذين تلاعبوا بأرزاق الشعب دون رحمة أو خجل فيرد عليه فتيان ساخرًا :

- «إذا كان الوزراء الشيوخ فى هذا العهد الرشيد يتلاعبون بالله وبكلام الله.. فماذا سيحدث لك لو سمعت منى مهازل الوزراء الكاجوال.. ارحم نفسك يا بنى.. فنصف خطط بلدك ترسم قرب أفخاذ الراقصات..»

* * *

وأخذًا من اعترافات فتيان أعاد حلمى عبد الباقى فتح ملف مقتل الشيخ فريد هنيدى.. بل إنه أشار بوضوح إلى ما حذره منه فتيان من أنه صار مستهدفًا - هو وأسرته - من غريمه الدائم السيد النحال.

وكالعادة واجه النظام كل ما قيل عن رجله الأثير بالصمت والتجاهل، ولما صاح حلمى عبد الباقى محتجًا ومفصحًا عن إدانته لهذا التدليل وتلك الحماية التى يتمتع بها رجل تسبقه جرائمه أينما ذهب، رد عليه كنت موجوعًا مثله بصحيفة معارضة أخرى:

- «السيد حلمى عبد الباقى يتعجب لكل هذا التدليل وتلك الحماية التى يتمتع بها السيد النحال.. ألا تعلم يا سيدى أن النحال هو الإرث المنقول من عهد إلى عهد؟ ألا

تعلم أنه خادم كل العهود.. أليس هو البادئ دومًا بفتح مبايعة جديدة للرئيس فى كل مرة؟ أليس هو قامع أصوات المعارضة فى مجلس الشعب فيسكتها وهو يلوح بحذائه؟.. إنه البلدوزر الجاهز دومًا للكسح والاكتساح طيلة النهار، ثم يعود إلى نومته الهنيئة فى حضن الحكومة ليلًا.. **فليوفر حلمى عبد الباقى مجهوده، وليقمع ثورته بنفسه.. فمجهوده وثورته لن يغيرا من الأمر شيئًا.. فكلّ ما تريده الحكومة سيتحقق وكلّ ما يشير به النحال سيكون رهن التنفيذ.. والقافلة تعوى والكلاب تسير»**

وفى تحقيق صحفى جديد قام حلمى عبد الباقى بنشر صورتين متجاورتين لتلميذين صغيرين تعلوهما صورة أمهما، وفوق الجميع عنوان عريض مثير:

ـ «دم عائلنا فى رقبتك يا سيادة الرئيس..» وأسفله عنوان آخر:

ـ «عائلنا كان يحارب الفساد، فقتله الفاسدون..»

وفى التحقيق جاء على لسان الصبى حسن رأفت إبراهيم قوله:

ـ «إن قاتل أبى ينعم بعطفك يا سيادة الرئيس.. فمتى ننعم نحن بهذا العطف؟»

أما ما جاء على لسان معاذ فريد هنيدى، فهو نداء منه إلى الرئيس:

ـ «نظرة حقيقية إلى المظلومين يا نصير الظالمين»

وقد قالت أمهما نادية عز الدين قولًا فصلًا:

ـ «بعض الخجل وأنت تعاملنا كالعبيد يا سيادة الرئيس»

ولأن كلَّ هذه الأقوال وضعت على لسان قائليها عمدًا، ولأن النظام ورجاله يعرفون من الذى وضعها فقد تجاهلوا أصحاب الصور والأقوال، واتجهوا إلى منزل حلمى عبد الباقى فجرًا وسحبوه من سريره ، ولم يجيبوا على أسئلة خميسة وولديها الشابين اليافعين سوى بجملة واحدة:

ـ «سنأخذ منه كلمتين ثم يعود..»

وانتشر خبر اعتقال الكاتب الثائر حلمى عبد الباقى أحد ضباط ثورة يوليو البالغ من العمر سبعة وستين عامًا، فهتف كاتب من منبره:

ـ «اللعنة.. ارحموا الشيوخ البررة الذين يحبون هذا الوطن أيها السفلة»

وفى تحليل موسع لتاريخه المجيد انفردت صحيفة بسرد هذا التاريخ قائلة إن مصيبة هذا الرجل هو تمسكه بما آمن به من أن السلام المزعوم مع إسرائيل هو الوهم بعينه، فلا أمان لصلح مهادن بين ذئب وحمل، ويمكنكم أن تروا أثر ذلك فى أشلاء الحملان الأخرى، ثم راحت صحيفة أخرى تثنى على رجلها الوطنى وثوب وطنيته الذى ظل ناصعًا عندما رفض أن يكون ذيلًا للسلطة وأن يكون أول سفير مصرى فى تل أبيب، وأن يصبح «نحالًا» مختالًا يهنأ بالنعيم المسروق شأن كل النحالين.

وطالت غيبة حلمى عبد الباقى فى أسره إلى أن عاد إلى أسرته جثة هامدة فى صندوق خشبى..

ونادت خميسة على صديقتها المخلصة وشقيقته البارة المهندسة سوسن أن تسرع إليها لتدلها على مقابر الأسرة..

ـ «المقابر.. لماذا يا خميسة؟»

ـ «لندفن حلمى يا سوسن.. أبلغونى الآن بموته فى السجن»

ـ «من هم هؤلاء..؟»

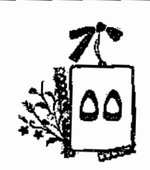
ـ «لا أدرى..»

ودفنوه فى ليلة مظلمة وسط إجراءات أمن مشددة ، فنعاه كاتب شاب بقوله:

ـ «لتلحق أيها الفارس النبيل بشيخك الراحل فريد هنيدى رفيقين على صراط الجنة وشهيدين تحفكما الملائكة لتؤكد بموتك أن ثورة يوليو لم يتبق منها سوى اسمها..»

وتساءل كاتب مهموم فى صحيفة أخرى:

ـ «ليس صدفة أن يغتال كلُّ من تصدى لإسرائيل فى الخارج وللنحالين الطواغيت فى الداخل.. لقد خلا الميدان من الأبطال الذين يمكن أن يواجهوا الخونة.. فهنيئًا للخونة بالنظام.. وهنيئًا للنظام بهم.. أما أنتم يا أبناء الفراعنة العظام فجهزوا أشلاءكم حطبًا رخيصًا لأفران أبناء صهيون وأتباعهم من النحالين الخونة..»



نانو أمين ...

وباختيار عشوائى ـ لا سبيل إلى الإقتناع بأن له قيمة ـ حمل أمير النحال حقيبة وزارة التضامن الاجتماعى ـ فبدلًا من الإطاحة به ـ لكثرة ما أخذ عليه من تصرفات وعلاقات مريبة توحى بالتربح والمتاجرة فى حقيبة وزارة التموين ـ تم إهداؤه وزارة أخرى.. حتى إن سؤالًا علق فى الأجواء حول مصير الاستجوابات المعلقة فى مجلس الشعب ـ والتى لم يفلح أصحابها فى محاصرة الوزير بها ـ أين سيكون مصيرها؟.. وأجاب من أجاب على هذا السؤال قائلًا: **فى سلة المهملات طبعًا.. يا بنى هذا وزير مسنود»**

وقال الوزير فى أول تصريح له بعد تسلمه الوزارة الجديدة إنه يقبل على العمل فى هذه الوزارة بروح المشتاق الذى تحققت أمنيته فى الاقتراب من المشاكل الحقيقية للجماهير المطحونة للعمل على حلها .. فمثل هؤلاء الناس المقهورين لا يمكن أن يحس بهم إلا واحد مثلهم ومن محيطهم ويعانى نفس أوجاعهم.

وفى البلد تساءل رجل فى مثل سن الوزير وأمامه الصحيفة:

ـ **«ألن يكفوا عن الكذب؟»**

ثم فرد الصحيفة أمام ولده وأشار بأصبعه على صورة الوزير:

ـ **«هذا هو الرجل الذى قلت لك عنه، وضع لنا الطين مكان الحلوى ونحن صغار، وأكلناه علقة..»**

وفى غرفة نومه أطلقت إحدى عاهراته ضحكة رقيقة انسيابية النهاية وهى تشير إلى نفس صورته الوقورة فى الصحيفة وهو أمامها نصف عار:

ـ **«قل لى.. من أين تأتون بهذا الكلام.. المطحونين.. الموجوعين.. المقهورين.. حتى**

صاحبك وزير الإسكان اتمسح فى الفقر وهما بيسألوه عن القصور اللى عنده.. قال إيه «لازم أسكن كويس عشان الفقير يثق إنى حاسكنه كويس».. الله يخرب بيوتكم.. ولا صاحبك وزير الصحة غاب حارم الرجالة والنسوان من الفياجرا لغاية ما قبض المعلوم من شركات الأدوية .. وصاحبك وزير الثقافة اللى مسمى الشخابيط اللى بيرسمها موسيقى بصرية . هو فى موسيقى من غير صوت؟ والنبى لما تقابله ابقى اسأله هما الموسيقى والجنس ينفع يتعملوا كتيمى؟»

ولأنه يعلم أىّ واحدة هى من نسائه البارعات سليطات اللسان، فقد اكتفى بها سمعه وهو يعلم أن مادة هذه التهكمات كلها من عنده.. فهو الذى حكى لها عن بعض مثالب وأسرار ونوادر زملائه الوزراء ومنهم الثلاثة: الإسكان، الصحة، الثقافة ولو جاءت سيرة أىّ وزير آخر فسوف يجد لديها ما تخزنه عنه من محفوظات ونوادر، هو بالطبع مصدرها.

فالعاهرة التى أذابت بمواهبها الخط الوهمى بين كونها وسيطة صفقات لعدد من الشركات التى يتربح منها ووسيلة اطلاعه على عالم البزنس المترامى، ثم هى فى النهاية حالة أنثوية ناعمة مثقفة تستطيع إطلاق مارد الجنس المأسور عنده منذ بلاهة المراهقة، وتفاهةالرجولة المصطنعة، وفجور استعراض الفحولة الغبى. هذه العاهرة تعلم أن هذا الرجل المرسوم هو ابن كلاف حقير.. وأن وزير الإسكان ابن نجار طبالى متواضع.. وتعلم أن الطريق إلى مثل هؤلاء يبدأ بإضفاء مديح العراقة على أصولهم العالية، وبعد السقوط يبدأ الحديث المباح علنا عن جذورهم المزرية، فلا خجل بين عراة السرير المشترك.. وعراة النفوس الوضيعة..

سألها ـ مواريًا بعض شكوكه ـ :

ـ «نانو أمين.. هل تعرفينها؟»

ـ «كنت أنتظر أن تسألنى عندما قرأت فى الصحف أنها ستفتتح بك المبنى الجديد لأطفال جمعيتها..»

ـ «إذن، فأنت تعرفينها..»

ـ «هى التى سعت إلى معرفتى عندما تأكدت من حقيقة قربى منك..»

ـ «هل هى نجلاء أمين النجار؟..»

ـ «بالضبط»

ـ «هل تحدثت معك بشأنى؟ أقصد ألم تقل لك شيئًا عنى؟»

ـ «كانت تخشى أن ترسل إليها مندوبًا عنك ولا تحضر بنفسك»

ـ «يظهر أن هذا ما سوف يحدث»

ـ «هل يمكننى أن أعرف السبب؟»

ـ «سأحتفظ بذلك لنفسى»

ـ «أنت حرٌّ فى رأيك ولكن أرى أن الناس لا يعلمون أن هناك سببًا خاصًّا يجعلك تفسد برنامجًا معلنًا لجمعية «نحن معك» وسوف يكون هذا سببًا فى دفعهم للبحث عن هذا السبب.. فحاول أن تعدل رأيك..»

وعدل عن رأيه..

وفى الحفل الخيرى الكبير تمنى أمير النحال لو كان قد تمسك بعدم حضور افتتاح المبنى الجديد لدار أيتام جمعية «نحن معك» التى ترأسها نجلاء النجار.. نجلاء التى ظلت طوال هذا العمر تقف خلف اسم «نانو أمين» دون أن يتأمله مرة واحدة..

فبعد افتتاح المبنى.. وفى جلسته المكرمة على رأس الصفوف أخذ يتأمل حبيبته القديمة ويتأمل جمالها الخريفى الوقور الذى لم يغرب مع مرور الزمن، واكتشف أن صورتها وهى ابنة السابعة عشرة لم تفارق خياله رغم أنه لم يلتق بها سوى لحظات خاطفة، مرة عند باب شقتها، ومرة عند باب مدرستها وهو يدس لها خطابه اللعين.

لقطتان عابرتان هما أكثر اللقطات فى عمره عذوبة وعذابًا.

أحس فى لحظة ما أن نجلاء استدرجته بنعومة لتؤدبه على مرأى من الناس.. صحيح إنه أصبح «ملقفًا» للصحفيين الشبان فى الصحف المستقلة وصحف المعارضة.. وصحيح أنه تعلم أن يكسر نصالهم المسنونة على صخرة الصمت والتجاهل عملًا بحكمة الرئاسة الذى تعلم منها أن الفضيحة فى هذا العصر صارت كالحزن تولد كبيرة ثم تتلاشى.

«فلا تعيروا اهتمامًا للفضائح واتركوها تموت مع نفسها..» ثم علمته الرئاسة الحكيمة

ما لم يكن يعلمه عن فكرة العيار الذى لو لم يصب «يدوش»، فقد ثبت أن هذه فكرة قديمة عفى عليها الزمن لأن كثرة الأعيرة الطائشة لا تصم سوى أذن من يطلقونها..»

بالنسبه له، فقد تم إغلاق ملف آل النجار منذ زمن بعيد، فنجيب قتل نفسه بيده، ومحمد ناجى اختار مغادرة الشركة واختفى بعيدًا مع نجلاء زوجته دون أن يخشاهما، فليس لديها إمكانية اتهامه بشيء أو قدرة الانتقام منه.. فلا أحد يعلم أن «نجيب» الذى خلع عنه الجاكت ومزق له قميصه لم يكن فى ظنه أنه سيدفع حياته ثمنًا لهذا الفعل الذى قام به تحت لافتة الحفاظ على كرامة أخته..

وبدا له أن نجلاء أسرت لمن حولها ـ ومنهم عاهرته السليطة ـ بحكايته معها ومع أسرتها، وبدا له أن كل هؤلاء الذين يجلسون خلفه فى هذا الحفل يعرفون هذه الحكاية.. لذا، فقد راح يبحث فى خطبتها عن اللكزات المختبئة خلف الكلمات.. فوجد أن السيدة لم تخرج عن حدود اللياقة حتى الآن كل ما هناك أنها تتحدث عن الطفولة وكيف تحرص فى تربية أطفال المؤسسة أن تسلمهم للمجتمع رجالًا أسوياء.

«فالرجال كما تقول نوعان: رجل سَوى، وآخر قاتل هدفه يتمثل فى القضاء على الآخرين.. وأن ضمائر الرجال نوعان: إما ضمير حى، أو لا يكون هناك ضمير على الإطلاق.. وأن الطفولة شيء رائع وإنها لجريمة أن نحرم منها الأطفال، فطفل تعيس يعنى مجتمعًا مريضًا.. وأن من بين ما تحرص عليه المؤسسة فى تربية أطفالها: أن نعلمهم ألا يرتكبوا فى رجولتهم فعلًا لا أخلاقيًّا باسم الفضيلة العامة ذلك أن فضائلنا تبدأ من الطفولة، وأن الأوطان لا يمكن أن تُخدم سوى بالشجاعة الشخصية والأخلاقيات الرفيعة..»

وها هى السيدة نانو أمين تنتقل برشاقة من الحديث عن أهداف مؤسستها إلى الحديث عن نفسها كفتاة انحدرت من ظهر أب حنون علمها الحنان وأورثها العطف، وكيف أنها لم تنس ما قاله لها من أن السعادة هى الشيء الوحيد الذى يكبر إذا قسمته فيما بينك وبين الناس.

وها هى تستشهد به كشاهد حقيقى قدر له أن يقترب من أبيها التربوى الصالح..

ودق قلبه بعنف وهو يجد مضيفته تقترب بخفة من الحديث عن علاقته بأسرتها. وتوقع أن تشير بشكل ما إلى علاقته بأخيه الراحل منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا..

ثم تعجب أنها لم تقترب من ذكر هذه العلاقة فأيقن أن الموضوعية هي التي جرفتها بعيدًا عن هذا الموضوع الشخصي، إذن فلا مجال أن تحشره حشرًا دون سبب في كلمتها.

وصحا من خواطره على مذيع المنصة يقدمه للحضور لإلقاء كلمته.

ومن وقفته عند المنصة رنا على الحضور بنظرة هادئة، فهاله أن وجدهم جميعًا يحملون فوق أكتافهم رأسًا واحدًا هو رأس نجلاء أمين، ووجد كل رءوس نجلاء تحمل ابتسامة تحقير واستخفاف، فاستدعى كل ما يملكه من لباقة ونعومة، فقال لها عبر الحضور:

ـ « أشكرك يا سيدتي لما نلته على يدك من شرف هذه الليلة: فقد عرف هذا الحضور الكريم أنني وأنا الطالب الصغير كنت أتعامل مع والدك التربوي الفاضل.. وقد صار يحق لي أن أتباهى بهذا الأمر بأثر رجعي وأن أفخر بأنني كنت كبيرًا حتى وأنا طفل صغير، وأنني كنت أحس بقامتي العالية منذ بدايتي فترأست اتحاد طلاب الجامعة.. ثم رأست شركتي مسجلًا أنني أصغر من جلس على مقعد الرئاسة بها.. وهذا ما حدث مع منصبي الوزاري.. ولكني آخذ عليك شيئًا واحدًا هو أنك لم تتكلمي عن صداقتي بأخي الراحل نجيب أمين النجار الذي أترحم عليه هنا ثم أترحم على رقته ووداعته وتربيته العالية.. وقد تبين لي من حديثك عن المبادئ والقيم التي تزرعونها في أطفال مؤسستكم أنكم تحرصون على الأخلاقيات الحميدة وهذا شيء طيب، ولكن هل تكفي الأخلاق وحدها لمجابهة أعاصير الحياة؟.. أظن ـ وبعض الظن إثم ـ أن الأخلاق وحدها لا تكفي؛ إذ يجب أن تكتمل بخصال أخرى مثل القوة والشدة والبأس والمجابهة ، أقول ذلك يا سيدتي حتى لا يسقط أطفالك صرعى ضعفهم إذا قلب لهم الزمن وجهه. ولعل هذه كانت مأساة صديقي الخلوق نجيب أمين النجار..»

لم تصدق نجلاء أن غريمها سحب منها السجادة بهذه الوقاحة واقتحم ـ غير مبال ـ قضية انتحار شقيقها بإدانته تحت مسمى الأخلاق الفاضلة والرقة الشديدة التي عاب عليها أنها مغلفة بالضعف دون أن تكون مسلحة بالقوة.

كتمت غيظها ولم تبال بنظرات من يعرفون قصتها مع هذا الوزير الحقير، فكلهم تمنـوا لـ تسلحت مضيفتهم بنفس هذا السلاح الذى يتحدث عنه ناصحها الآبق وأطلقت عليه أعيرتها أمام هذا الجمع.. وقد قالت ـ فيما بعد ـ أنها تمنت لو كانت قد استطاعت أن تفعـل ذلك لولا أن حنجرتها تحجرت بفعل المفاجأة واقتربت الدموع من مآقيها بفعل الحزن على هذا الظلم الذى حيق بأخيها حتى بعد موته.

ولهذا، فقد تساءلت عن هذا القدر من الوقاحة والفجـور اللـذين يمكـنهما أن يسـكنا روح رجل ما بهذه الكيفية. ثم تساءلت عما إذا كان الشعور بالخزى أو الندم أمرًا يصـعب عن يعثر عليه بعض البشر ومنهم هذا الوزير الفاجر.

ظلت إجابتها معلقة إلى أن رن هاتفها المحمول فى منتصف الليل ووجدته هو.. معـالى لوزير..

ـ «يا للوقاحة»

هكذا هتفت من داخلها وهى تتلقى تقديمه لنفسه:

ـ «أنا أمير»

وكان ردها مقتضبًا لا يحمل ترحيبًا بقدر ما ينم عن قرف ظاهر:

ـ «خير»

طال صمته وكأنما فوجئ ببرود الاستقبال، ومع هذا فقد بادر بالقول:

ـ «كان من الممكن أن تختلف شكل الحياة عندى لو عرفت مبكرًا أن «نـانو أمـين» هـى نجلاء النجار»

وسمعها زوجها ترد على متحدث منتصف الليل بهذا القول:

ـ «من فضلك.. قف عند حدك، لا تنس أنك تتحدث مع سيدة متزوجة..»

أشار لها زوجها مستفسرًا عن المتحدث، فهمست لـه باسـمه وقبـل أن يـتمكن معـالى الوزير من الرد عليها فوجئ بصوت رجولى:

ـ«هل من اللياقة يا محترم أن تتحدث مع سيدة فى منتصف الليل هكذا؟»

ـ «من؟.. محمد؟.. وماذا فى ذلك يا رجل؟ لسنا غرباء عن بعضنا البعض حتى تنفعـل

هكذا»

ـ «إذن، فلتنه المكالمه بنفسك إنقاذًا لكرامتك»

ـ «وهل إذا أغلقت الهاتف فى وجهى سأتركك فى حالك؟»

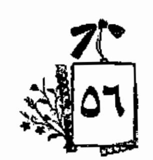
ـ «وماذا ستفعل ؟»

ـ «أستطيع أن أسحبكما فى مكان ما أتعرف فيه على لون ملابس السيدة حرمك الداخلية»

ـ «أنت حقير.. ومن أصل حقير.. وسفالتك ليست من أصلك فقط، ولكن من موقعك كوزير حقير يحتمى فى نظام سافل»

وعندما حدث ما توقعه وأغلق الخط فى وجهه قام أمير النحال على الفور بفتح خط آخر كان طرفه البعيد شخصية أمنية مهمة، وفور أن انتهت مداعباتها الصبيانية وبعد أن جاء دور الحديث الجاد لخص الوزير مطلبه لصديقه فى جملتين:

ـ «ثبت لى بالبحث الدقيق أن السيدة نانو أمين وزوجها محمد ناجى يتلقيان دعمًا ماليًّا مشبوهًا من جهات مشبوهة.. رجالى فى الوزارة لا غبار على تحرياتهم وتقاريرهم لى.. فقم بعملك وشتت هذا النشاط المشبوه»



مدوّنة : شجرة أبي...

قضى الدكتور ياسر حلمى عبد الباقى عشرة أيام كاملة فى إجازة مرحة بمنتجع شرم الشيخ مع زوجته ريم الشرقاوى وابنته حليمة ذات الثلاث سنوات.

وظلت خميسة فى انتظار عودتهم وهى فى شوق بالغ لحفيدتها. وفى الليلة الأولى من وصولهم استسلموا للسهر والمرح إلى وقت متأخر من الليل.

وفى الصباح وعلى مائدة الفطور سرح ياسر ببصره بعيدًا وهو مأخوذ بالشرود، ثم ألقى نحو أمه بابتسامة مريرة ففهمت أن ولدها لديه شيء سيرويه:

ـ «قابلتها هناك.. صورتان كبيرتان تحتلان مكانًا بارزًا فى مواجهة القادمين إلى شرم الشيخ عبر المطار.. الأولى للرئيس مكتوب أسفلها نعمة الحاضر، والثانية لولده جمال مكتوب أسفلها نعمة المستقبل.. أتدرين من الذى أقام هاتين الصورتين على نفقته هناك؟»

ردت خميسة على الفور:

ـ «السيد النحال طبعًا..»

ـ « مضبوط.. تصورى؟»

ـ « وما الجديد فى ذلك يا ولدى؟ إنها مهمته..»

ـ «تقصدين مهمته الجديدة لتوريث الحكم»

ـ «لا.. إنها مهمته الدائمة كقواد سياسى»

ـ «وهو طبعًا يراهن من الآن على كسب الرئيس القادم»

ـ «ولم لا تقول إن الرؤساء هم الذين يراهنون على كسبه هو؟ أليس هو الذى يفتح الباب لجموع النحالين خلفه لإطلاق المبايعة لكل ولاية رئاسية جديدة، ويتولى إنجاح

ذلك فى كلّ مرة؟..»

ـ «ولكن الحديث صار معلنًا حول اتجاه ابن الرئيس فى التخلص من الحرس القديم ليستبدلهم بشباب من لجنة السياسات»

قالت خميسة فى يأس وقرف:

ـ «ديكور.. وإعادة طلاء لشقة حل بها ساكن جديد.. هل الطلاء يغير من جوهر الشقة شيئًا؟»

* * *

وفى زيارتها الدورية لولدها المهندس يسرى وعلى مائدة الفطور فى الصباح كانت الجدة خميسة تضم حفيدها ماجد إلى صدرها وعلى فمها ابتسامة، ثم سألت ولدها بصوت خفيض:

ـ «عندما كان وزير الإسكان يتحدث فى التليفزيون ليلة أمس.. حاولت أن تعلق بشىء ما، ثم «قطمت» الكلام فجأة لماذا؟»

أشار يسرى بطرف خفى إلى طفله ماجد، أسرعت الجدة خميسة بإطلاق الطفل من حضنها، وكلفته بإحضار نظارتها من غرفة النوم، وما إن أسرع الحفيد بالذهاب حتى تحدث الأب بحريته:

ـ «ماجد ولدى هذا مثل حليمة ابنة أخى ياسر لا يكفان عن طرح الأسئلة.. جيل يعشق التساؤل وتفحص كلّ شىء بملل، فإذا سمعنى أحكى لك عن هذا الوزير الذى لم يجد وسيلة لتأنيب إحدى موظفاته أمام جمع من الناس إلا بأن فتح لها سوستة بنطلونه.. لو سألنى ماجد عن معنى هذه الحركة السافلة فبماذا أجيبه؟»

ابتسمت خميسة بمرارة وغمغمت:

ـ «السفالة.. لها تاريخ معروف، وجغرافيا أيضًا..»

تساءل يسرى:

ـ «هل تقصدين يا أمى أنه نشأ فى بيئة فقيرة..؟»

قالت خميسة:

ـ «لا.. لا.. أغلبنا نشأ فى أوساط فقيرة. ومثل هذا الرجل يشير إلى أنه ترعرع فى بيئة منحطة.. والانحطاط هنا لاعلاقة له بالفقر والغنى.. فكم من منحط يسكن قصرًا..»

قالت هذا وهى تتذكر كل الرجال الذين أحاطوا بولدىْ النحال: طليقها السيد، وشقيقه أمير، وكيف نزل الإقطاعى القديم فايز فودة من عليائه ليصبح تابعًا من أتباع السيد النحال فى هوجة الانفتاح.. ثم كيف ارتقى مختار عبد العليم ـ مكتشف أمير النحال ـ سلم المناصب العليا حتى صار محافظًا، ولسبب ما، وعلى غير العادة أسلمه النظام الذى كان خادمًا له للضياع إثر قضية رشوة كبرى أسلمته للسجن المشدد.

وما تعرفه خميسة عن مختار أنه ينحدر من بيت طيب وأب حسن السمعة. إذن.. كيف طاله الفساد؟.. ولماذا تمادى فيه؟ هل هى لغة العصر، عصره هو، وليس عصر أبيه؟..

ومع نهاية تأملاتها العابرة أنهت رأيها إلى يسرى بهذا القول:

ـ «.. وأغلب الظن يا ولدى أن التمسك بالأخلاق الفاضلة من عدمه هو عملية استعداد».

* * *

وكانوا جميعًا فى ضيافتها عندما تطرق بهم الحديث إلى نادية عز الدين وولديها حسن رأفت، ومعاذ فريد، اللذين أسماهما ياسر: «فرعنا الذى فى البلد»

تحدثوا عن حسن رأفت الذى التحق بكلية الطب فتمنت خميسة أن يلحق به أخوه معاذ فريد فى نفس الكلية بعد عامين، ثم راحت توصى ولديها بدعم ميزانية صديقتها نادية بما يتناسب مع مسئولياتها الجديدة.

ثم أرسلت سؤالها المعتاد:

ـ «وما هى آخر الأخبار التى أتى بها حسن من البلد؟ ما هو الجديد الذى كتبه فى مدونته؟»

وسرعان ما قفزت أمامهم صورة هذا الشاب الجامعى الذى لا يكف عن السخرية وإطلاق الدعابات وبث المرح حوله أينما ذهب، فلاحت على وجوههم ابتسامة قبل أن يروى لهم ياسر شيئًا عنه.. وكان ما رواه ياسر نقلًا عن حسن هو ما يتردد فى البلد حول

مصنع السكر.. فالمصنع معروض للبيع فى نطاق الخصخصة.. وهذا أمر عادى صار لا يلفت أنظار الناس بما فيهم العمال الذين يعملون فى المصانع والشركات المخصخصة.. أما الأمر غير العادى، فهو أن المتقدم لشراء مصنع السكر هو السيد النحال نفسه، وقد سرت حول هذه الصفقة شائعات كثيرة منها أن النائب المخضرم يتستر خلف مستثمرين أجانب قد يكونون من رجال الأعمال الأمريكان، وفى هذه الحالة لا مانع أن يكونوا من اليهود.

ومن هذه الشائعات أن العكس هو الصحيح، فهؤلاء المستثمرون هم الذين يتسترون خلف السيد النحال. أما الأهم من كلّ هذا وذاك أن الاتجاه الذى يفرض نفسه على بنود الصفقة هو الاستغناء عن عدد كبير من العمال والموظفين.. ناهيك عن أن كيلو السكر سوف يباع بضعف ثمنه.

هذا هو الخبر، وما يحيطه من تحاليل واشتاق الحضور إلى معرفة وقع هذا الخبر عند حسن رأفت إبراهيم: كيف تلقاه؟.. وكيف تعامل معه فى مدونته المشاغبة فى جهاز الكمبيوتر كشأنه فى التعامل مع أىّ أخبار مماثلة خاصة ما يتعلق منها بأبناء النحال..

ففى مدونته المقروءة تحت عنوان «شجرة أبى» كتب قائلًا:

ـ «عندما أراد السيد النحال أن يضع الناخبين فى جيبه أنشأ لأبناء دائرته مصنعًا للسكر، وعندما وضع النظام فى جيبة أخذالمصنع لنفسه»

وتعقيبًا على ذلك طرح بعض أسئلته على القارئ:

ـ «هل يمكنكم قياس مساحة الجيوب التى يملكها النائب المخضرم السيد النحال؟»

ـ «يقولون إنها جيوب تتسع للمكاسب الصغيرة «أربعون ألفًا تضمن بها مكانًا لولدك فى كلية الشرطة أو الكلية الحربية» والمكاسب الكبيرة «مليونا جنيه تضمن بهما مقعدًا فى مجلس الشعب»

وصارت مدونة «شجرة أبى» كما قالت عنها خميسة نافذة تتيح للأجيال الجديدة منظورًا من الرؤية يطلون منها على ماضٍ مسكوت عنه، ورسم لصراع دار بين أشرار وأخيار فى ربع القرن الأخير.. فالمدونة تقدم خدمة جليلة لقرائها بنقل فقرات كاملة من خطب الشيخ فريد هنيدى ضد نظامى السادات وحسنى مبارك.. وفقرات بعينها من

مقالات الكاتب الثائر: حلمى عبد الباقى.

فعن الأفعال اللاأخلاقية التى يقدمها أصحابها باسم المصلحة العامة دوّن حسن رأفت ما كتبه حلمى عبد الباقى حول ذلك ضاربًا المثل باتفاقية كامب ديفيد « فهى فعل لا أخلاقى معلن لا يقل عن الفعل اللاأخلاقى غير المعلن الذى قام به رئيس السودان الأسبق جعفر نميرى بالحصول على رشوة لتهريب يهود الفلاشا إلى إسرائيل ورشوة أخرى لدفن النفايات الذرية فى صحراء بلاده».

وفى تعليقه الخاص على هذه العبارات المنقولة من مقالات حلمى عبد الباقى يبدى الشاب حسن رأفت رأيه قائلًا:

ـ « ولأن كلا الرئيسين السادات ونميرى لم يؤاخذا على ما فعلاه، فإن كل الأفعال اللاأخلاقية صارت تنهمر وتمر مرور الكرام مثل مرور عشرات السفن الحاملة للحوم الفاسدة بأمر وزير التموين أمير النحال.. ابن مصر البار»

قالوا لحسن : «كن مسالمًا مثل أبيك»

فقال لهم معاذ: **«أتمناه صورة من أبى، اتركوه واتركونى معه..»**

وما لم تقله خميسة لولديها عقب الموت الغامض لأبيهما هو أنها آثرت السلم عندما زارها رجال غامضون وانفردوا بها خلف باب مغلق لمدة تزيد عن الساعة، وكان خروجهم هو بداية صمتها الذى بدا أنه سيكون أبديًّا.. لكنها تذكرا ما قالته لهما باقتضاب:

ـ «لقد نالوا من أبيكما عندما فضحهم.. وما أسهل أن ينالوا منكما إذا حاولت أنا فضحهم»

فهل ستكون مدونة «شجرة أبى» بداية النهاية لولدى نادية..؟

فكم من مرة هتفت خميسة بولديها:

ـ «ياسر.. يسرى.. أرجوكما.. اكبحا جماح حسن ومعاذ، فلا شىء قد تغير حتى تضمن لهما الأمان»



ميكافيللي العصر

ـ «صدقيني يا أمى.. أنا واثق أنه هو..»

ـ «وكيف تأكدت أنه هو..»

ـ «من إصبعيه المبتورين فى قدمه اليمنى. والتكتم الشديد الذى يحيطونه به، وحالة الطوارئ التى غرق فيها المستشفى.. والكبار الذين يزورونه.. والتليفون الذى جاءه من الرئاسة»

ـ «الإصبعان المبتوران هما أصدق إشارة أتى لك بها صديقك الطبيب.. فأىّ ساق بتروها له؟»

ـ «اليسرى.. تهشمت بدفعات مركزة من المدفع الرشاش..»

ولم تمض أيام قليلة حتى كانت شائعة محاولة اغتيال البرلمانى الشهير السيد النحال تملأ البلد.. ولم تفلح محاولة التكتم على هذا الحادث فى منع التحدث عنه باستفاضة، بل والاستعانة بالخيال فى تبرير اتجاه الرصاص بكثافة على ساقة اليسرى دون أن ترتفع رصاصة واحدة إلى قلب المذكور فتقضى عليه وهو يجلس فى سيارته خلف السائق.. فهناك من قال إن المهاجم كان منبطحًا وركز رصاصته على باب السيارة، وهناك من تخيل ارتماء المجنى عليه فى قاعها فحمى رأسه وصدره باقى جسده من الرصاصات الناقمة.

وبغباء متكرر تم نشر خبر عابر حول ما حدث للسيد النحال من كسر فى ساقه إثر سقوطه من مرتفع وهو يمارس لعبة الجولف فى منتجع القطامية، وكالعادة اعتبر القراء أن هذا التخفيف الإعلامى الساذج ما هو إلا تأكيد لصحة ما أشيع عن محاولة اغتياله .

أما عن الجناة، فلم يعرف أحد من الناس عنهم شيئًا.. ولكنهم وثقوا أن هذا الحادث

ليس إرهابيًّا وإلا كانت الحكومة قد قامت بتوظيفه على خير وجه.. إذن، فهو انتقام شخصى.. وممن؟.. من المؤكد أنه من واحد من عداد العشرات بل المئات الذين عبث النحال بأرزاقهم أو بأعراضهم.. أو بمصائرهم..

وبتوجه أكثر غباء وبعد مرور أكثر من شهر على الحادث نشروا خبرًا حول القبض على شاب بتهمة محاولة اغتيال إحدى الشخصيات المهمة. الشاب ينحدر من ظهر أب كان يعمل إسكافيًّا ومات فى حادث غامض.. أما الشاب نفسه، فهو يعمل حارسًا ليليًّا بإحدى القرى السياحية بمدينة دهب.

ولم يكن من الصعب على أىّ متابع لبرنامج السيد النحال الربط بين إقامته فى مدينة دهب على مدى الأيام الثلاثة السابقة لمحاولة اغتياله وبين القبض على هذا الشاب . وأنها لم تكن إقامة ترفيهية بقدر ما كانت بغرض عقد لقاءات عمل مع شخصيات يهودية فى مجال السياحة .

أما ما قيل عن أن الجانب اليهودى أسرع بشريكهم إلى تل أبيب لمحاولة إنقاذه وأنهم أعادوه إلى مصر بساق واحدة، فإن القلة الذين تأكدوا من ذلك كان من بينهم الدكتور ياسر حلمى عبد الباقى عبر صديقه طبيب المستشفى (الذى استقبل المجنى عليه): فقد قال له:

ـ «قاتل أبيك يا ياسر جاءنا وقد ترك شلوًا من أشلائه فى مكان ما.. من حاول قتله لم يفلح فى الإجهاز عليه..»

ثم داعبه قائلًا:

ـ «ألا تتمنى أن أجهز عليه أنا؟»

تعلقت ابتسامة مريرة فوق شفتى خميسة عفيفى وهى تسمع ولدها يطلق دعابة صديقه بمرارة لا يتبعها بما تفرضه من ضحك أو ابتسام وإنما غرق فى صمت حزين، فأيقنت أنه سرح فى ذكرى أبيه الذى خطفوه ذات ليلة من أمامه، ثم أعادوه فى صندوق خشبى.

* * *

وعملًا بأصول اللياقة السياسية، وحتى لا يبدو اهتمامه مركزًا على رجال لجنته فقط، تحرك السيد جمال مبارك إلى المستشفى لزيارة السيد النحال أحد أهم رجال النظام، فسوف يفهم الناس من هذه الزيارة المعلنة أنه لا فرق بين شباب اللجنة عنده وبين العجائز فى كتلة الحرس القديم الذين يصفهم كتاب صحف المعارضة «بالعجزة».. لا بالعجائز.. لطول جلوسهم غير المفيد على المقاعد العلية لأكثر من ربع قرن من الزمان.

وقد رتبت الزيارة بحيث لا تطول عن عشر دقائق تكفى لدخوله المستشفى وخروجه منها والتقاط عدة صور تبثها صحف الغد بما يحيطها من تعليق مناسب.

قيل ذلك للسيد النحال، وكان للثعلب العجوز رأيه الخاص وترتيبه المعد سلفًا، فقد غمغم بصوت خفيض:

ـ «برنامجكم ملك أيديكم.. أما زائرى، فهو ملك يدى»

ثم قال لنفسه وهو يرنو عبر الشباك إلى حديقة المستشفى:

ـ «يبدو أن الرئيس القادم الذى أسميته أنا «بنعمة المستقبل» يريد أن يبدو عطوفًا وشفوقًا وكريمًا مع رجال والده «الكسر» كما يطلق عليهم فى جلساته الخاصة.. ويبدو أن المطلوب منى أن أبدو «كومبارسًا» فى خلفية صورة تتركز أضواؤها على نجم ساطع.. ولكن هيهات..»

دلف جمال مبارك من باب الجناح الفخيم نحو لاعب الجولف العتيد السيد النحال وأقبل نحوه بابتسامة واسعة.. وبدا أن مريضه ـ ذا الساق الواحدة ـ معافى وهو يبادله الابتسام من فوق سريره.

وفيما بعد قال المرافقون لجمال مبارك إنهم شاهدوا السيد النحال يهب واقفًا لمصافحة زائره الكبير. ولأن الجلباب الأبيض وعباءته الحريرية سترا ساقاه حتى الأرض فلم يتبين لهم مكان عورته الجديدة. إلا أنهم فوجئوا بعد التقاط الصور المطلوبة بالسيد النحال يرفع يمناه فى مواجهتهم بالتحية والشكر قائلًا لهم:

ـ «شكرًا لكم.. من فضلكم اتركونا على انفراد لبعض الوقت»

ثم أشار إلى كرسى قريب من سريره قائلًا لزائره الكبير:

ـ «تفضل ياباشا..»

ثم قالوا إن «بعض الوقت» الذى تمناه مريضهم العجوز امتد إلى أكثر من ساعة كاملة.. وصاروا لا يدرون ما الذى دار بينهما فى هذه الساعة.

* * *

بادر السيد النحال فكرر ترحابه بضيفه الكبير بعد أن أغلقوا عليهما الباب.. وكانت ملامحه تطفح بخلطة مثيرة من الود والامتنان والأسى والحب والحزم.

وقبل أن يبحر به فيما أجلسه من أجله كان جمال مبارك المدجج بكل سيماء القوة والنفوذ يراوغه إحساس غريب بأنه يجلس الآن فى حضرة عدد من الرجال لا رجل واحد.. رجال ذوى سحن مختلفة.. كلّ سحنة تتماهى مع سحنة أخرى لرجل مختلف.. الفارس، والمعلم، والدجال، والناصح، والقواد، والقديس.. وهذا ما يثير العجب..

ـ «ما كلّ هؤلاء الرجال؟!!»

هكذا همس جمال مبارك لنفسه قبل أن يعطى أذنيه لأول المتحدثين من هؤلاء الرجال.. فالمريض هو الذى يتحدث الآن:

ـ «لو كنت أعلم يا باشا أن بتر ساق واحدة من جسدى سوف تأتى بك إلى هنا لبادرت ببتر ساقى الاثنتين منذ زمن لأتمتع بزيارتين»

وأمام هذه التحية الرقيقة المغالى فيها ظهر الخجل على وجه الضيف الكبير، فقال:

ـ «لا بأس عليك.. كلنا حزانى من أجل ساقك..»

وقفز الرجل الثانى مسرعًا بقول جديد:

ـ «كل أشلائى فداء لك.. ولا تستحق حزنك.. فكم يكون البتر أحيانًا أجدى من الزرع إذا جاء فى موعده.. فصديقى طاهر زين الدين تأخر فى بتر ساقه المسرطنة، فتسرطن باقى جسده، ومات فى عزّ شبابه»

ثم قفز الرجل الثالث بقول آخر:

ـ «وخوفًا من أن يكون هذا مصيرى، فقد تمسكت بفرصة الاختلاء بك لأقدم لكما نصيحتى»

واجهه السيد جمال مبارك بسؤال فورى:

- «تقدم لنا؟.. تقصد من.. ومن؟..»

وقفز الرجل الرابع بجسارة ناطقة: «أنت.. أقصد سيادتك.. والسيد الوالد.. فخامة الرئيس»

كرر السيد جمال مبارك سؤاله:

- «أتقدم لنا نصيحة..؟.. أيّ نصيحة؟»

واستمر الرجل الرابع ممتطيًا صهوة الجسارة:

- «أجل.. وقبل أن أقدمها فسوف أسألك سؤالًا»

- «تفضل..»

وبرز الرجل الخامس: «المعلم» بسؤاله:

- «هل قرأت كتاب «الأمير» لميكافيللى؟.»

رفع جمال مبارك حاجبيه إلى أعلى علامة للدهشة، فواصل المعلم:

- «من المؤكد أنك قرأته، وتعلم أن صاحبه نصح أن يقرأه الأمراء والملوك وأبناؤهما قبل أن يقرأه العامة.. وأنت، أقصد سيادتكم يا ولدى ملك البلاد القادم ولا بد أن تعى ما يحيط الملك من فتن، ولابد أن تضع يدك على كل ما يحبط هذه الفتن من نصح ومشورة.. وهذا الكتاب يجعلك تفهم ذلك درءًا لسقوط العرش وتثبيتًا لقواعده»

وصمت الرجل «المعلم» قليلًا قبل أن يواصل حديثه بصوت متهدج:

- «ولولا الأحداث التى زحفت نحوك بسوء الحظ لكان فيها كتبه ميكافيللى الكفاية.. ولهذا فنحن بحاجة إلى مخرج لم يفكر به ميكافيللى أو عمل حسابه.. وهو معذور، فللرجل عصره ولنا عصرنا.. ففكرة الاستفتاء لم ترد فى كتابه لأن الغرب لا يعرفها.. أما فكرة الجمهورية الملكية، فلم تخطر على باله لأنه لا يعرف إلا شيئين لا ثالث لهما: الجمهورية والملكية..»

ولاحظ «المعلم» أن ضيفه الكبير صار مشدود الانتباه وهو يتفحص عباراته باعتدال وتأن قبل أن يسأله: «الجمهورية الملكية.. ماذا تقصد بذلك؟»

وكان ردُّ المعلم جاهزًا:

«الجمهورية السورية.. أول جمهورية ملكية فى التاريخ»
وفهم جمال مبارك ما يقصده هذا الثعلب العجوز، فاعتدل فى كرسيه وواجهه بسؤال حازم:
ـ «قلت الآن شيئًا عن سوء الحظ الذى زحف نحوى، ما الذى تقصده؟»
ـ «آآآآه..»

قالها السيد النحال بصوت عميق وبمعنى أن هذا السؤال هو مربط الفرس، وسارع بالقفز فوق جواد الرجل السادس «الصديق المحزون» وحزنه كما بدا من حديثه سببه أن الفرصة قد ضاعت على مصر أن تكون هى الرائدة فى هذا الاتجاه الذى استشرى فى ضمائر الرؤساء العرب.. فالقذافى يجهز ولده ليرث الحكم.. وعلى عبد الله صالح يفعل ذلك فى اليمن، وصدام حسين فى العراق.. وقبلهم حافظ الأسد فى سوريا.. أما عن عرش المغرب وعرش الأردن، فإن توريثهما لولى العهد أمر مسلم به بحكم ما هو كائن..
وبعد أن دار حول نفسه بهذه المقدمات سارع بالدخول فى عمق السؤال، فقال ببعض لأسى:
ـ «إن الموت المفاجئ لحافظ الأسد مكّن لولده بشار أن يرث الحكم بسيناريو محكم سبقنا به السوريون فى مضمار التوريث»
بدا على السيد جمال مبارك أنه بحاجة إلى مزيد من التوضيح، فتخلى السيد النحال بمزيد من السرعة عن غموضه، وعلق بصره بالسقف كمن يبحث عن شىء ما، ثم راح يتحدث دون أن يحول بصره عن السقف:
ـ «قد تستاء من قولى، ولا لوم عليك، فسوء الحظ الذى أقصده هو أن حافظ الأسد تلقى قدره فى الموعد الخطأ بالنسبة لنا، فأفسح الطريق لولده بشار، وأغلق الطريق علينا..»
ظهر الانزعاج على وجه جمال، ثم لاحت منه ابتسامة بها مرارة وسخرية:
ـ «تقصد أن حافظ الأسد كان يجب أن ينتظر حتى يسبقه أبى فى الرحيل و....»
أسرع السيد النحال فقاطع ضيفه الكبير قبل أن يتمادى فى تعليق قد يحرجه، فقال:
ـ «.. وكنا سنصطف لمبايعتك ، ومنطلقنا فى ذلك هو الحرص على الانتقال الهادئ للسلطة.. واثقين أن مشاعر الحزن على رحيل الرئيس كانت كفيلة بقمع أىِّ رأى مخالف

لهذا الانتقال..»

ثم راح يوضح كيف أن ما حدث فى سوريا لم يلق ارتياحًا لدى شعوب الجمهوريات العربية عكس ما كان سوف يحدث لو كانت فكرة التوريث خرجت من مصر.. فالعرب لم يعتادوا التشبه بدولة أخرى غير مصر لكونها دولة رائدة فى كافة المجالات.. ومن هنا يمكن القول إن ثقافة التوريث ولدت مشوهة لأنها لم تصنع فى مصر.

ـ «انظر مثلًا إلى آخر بضاعة صدرتها مصر للعرب.. بضاعة الصلح مع إسرائيل.. ثم بضاعة التطبيع معها.. هذه البضاعة لم يكن من الممكن تصديرها من دولة أخرى غير مصر.. صحيح أن الصدمة جعلتهم يترنحون من هول المفاجأة، لكنهم الآن يلهثون سرًّا أو علنًا خلف إسرائيل.. الأردن فعلت ذلك.. وقطر.. أما الإمارات والسعودية، فيفعلان ذلك على استحياء..»

هزّ جمال مبارك رأسه وابتسامة السخرية ما زالت على حالها معه:

ـ «إذن، فعدم تمتعنا بأسبقية التوريث هو الذى أحزنك؟»

ـ «ليس هذا فقط..»

ـ «أهناك شيء آخر..»

ـ «أجل.. الباب العالى.. الأستانة الجديدة.. أمريكا»

ـ «وماذا عن هذه أيضًا»

ـ «اللغط الذى تثيره حول الإصلاح السياسى والديمقراطية وتداول السلطة وكل هذه الترهات التى تقفز بها علينا «كونداليزا» حتى إنها أخذت تداعب أيمن نور حينًا والإخوان المسلمين أحيانًا»

ابتسم جمال مبارك لجسارة هذا الرجل المحير وراح يتأمله بدهشة وهو يقول لنفسه متسائلًا:

ـ « أمن أجل هذا ظل هذا القواد متربعًا على عرشه طوال هذا الوقت؟»

ثم التفت إليه باهتمام وسأله: «وماذا ترى فى ذلك؟»

فأجابه السيد النحال بسرعة فائقة:

ـ «نفعل ما تفعله أمريكا.. نتشبه بها.. نحذو حذوها.. نسير على طريقتها ولكن

بطريقتنا.. نداعبها كما نداعب الناس هنا.. نعقد انتخابات رئاسية.. نحصل على الولاية الخامسة بشكل ديمقراطى، نبحث عن مرشحين يتنافسون على مقعد الرئاسة ضد الرئيس.. مرشح الحزب الوطنى.. أليس هذا ما يريدونه؟..»

وتوقف السيد النحال فجأة عن الحديث، ودقق النظر فى وجه زائره ببعض الأسى:

ـ «سيادة الرئيس أضاع فرصة ذهبية عندما رفض نداءات دكاكين المعارضة ومطالبهم بتعديل الدستور..»

ثم خبط ظاهر يمناه بباطن يسراه متحسرًا:

ـ « يا سلام لو كان قد طاوعهم فى مطلبهم هذا.. يا سلاام.. كان سجل هدفًا فى المقص.. لا أدرى لماذا رفض طلبهم بعنف شديد؟»

ثم هدّأ من نبرة صوته مكملًا:

ـ «على كل حال حصل خير..»

ثم رفع رأسه إلى السماء وأسبل جفنيه فى خشوع، وقال:

ـ «أنا استخرت الله.. وجاءتنى البشرى.. ووجدت أن تعديل المادة٧٦ من الدستور هو الحل.. فعندما نجعل اختيار رئيس الجمهورية بالانتخاب وليس بالاستفتاء سنكون قد تخلصنا من عورة دستورية شوهت ديمقراطيتنا لأكثر من نصف قرن.. وقد زاد تفاؤلى عندما اكتشفت أن السيد الرئيس أطال الله فى عمره ـ بلغ هذا العمر ٧٦ عامًا ـ سبحان الله.. مفارقة عجيبة.. أليس كذلك..؟..»

رمقه جمال مبارك بعين فاحصة:

ـ «هل هذا ما انتهت إليه استخارتك؟»

فرد مسرعًا:

ـ «وهذا ما أبقيتك هنا من أجله.. فقل لفخامة الرئيس أن يلقى بثعبانه الأكبر ليبتلع كلّ الثعابين الهزيلة.. ويفاجئ الرأى العام فى الداخل والخارج بشطب هذه المادة الملعونة.. وسوف يحسب له أنه الرجل أو الرئيس الذى قام بفعل لم يسبقه إليه غيره..»

اعتدل جمال مبارك فى مواجهة السيد النحال، ثم سأله:

ـ «ألم تواتك الفرصة لعرض هذا المشروع بنفسك على سيادة الرئيس؟»

ـ «والله يا باشا فكرت فى ذلك.. ولكن أيناها فرصة الاختلاء بسيادته.. وكم تمنيت أن أتمكن من هذه الفرصة قبل سفرى إلى الخارج»

ـ «ألديك مشروع بالسفر إلى الخارج؟»

ـ «نعم.. إلى أمريكا.. رتبت زيارة إلى مركز مشهور لتركيب الأطراف الصناعية.. هناك يصنعون سيقانًا تنبض بالحياة، وسوف أواصل لعب الجولف بساقى الجديدة بأزيد من كفاءتى المعروفة.. على فكرة.. موضوع استبدال الاستفتاء بالانتخاب سوف يثير ضجة.. وسوف تجد المعارضة فرصتها فى تشويه الفكرة، وسيقولون إنها ترتيب مدبر لتمكين نجل الرئيس من مقعد الرئاسة مستقبلًا.. ولكننا سنرد عليهم ونسفه أقوالهم ونواجههم بما يستحقونه»

ابتسم جمال مبارك قائلًا:

ـ «هم يفهمون أن المعارضة معناها أن تعارض على طول الخط.. المعارضة فقط حبًّا فى أن تعارض لا أن تعرض وجهة نظرك»

وبدا للسيد النحال أنه جذب ضيفه إليه، وأنه نجح فى الوصول إلى نقاط التقاء ، فها هو فى عباراته الأخيرة يؤيده فى موقفه من المعارضة.. ومن هنا فقد انفتحت شهيته لمزيد من البوح فسارع بامتطاء صهوة حصانه الرابح..

ـ «اسمع يا أستاذ جمال.. مقعد الرئاسة فى انتظارك إن آجلًا أم عاجلًا، ولو نظرت إلى الأمور بشكل عملى فسوف ترى أن فخامة الرئيس بعد أن يحصل على ولايته الخامسة بانتخابات ديمقراطية تنافسية فسوف يتمنى أن يهنأ باستراحة المحارب وأن يسلم الراية لمن هو أحق بها، ولن يجد أفضل منك وعيًا وأمانة وإخلاصًا، وطالما أن المعارضة تنادى ألا يجمع الرئيس بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الحزب فسوف نستجيب لمطلبهم للمرة الثانية ونفصل بين الرئاستين وتتولى أنت رئاسة الحزب، وبما أن دواعى الديمقراطية تتيح للرئيس الحاكم أن يعقد انتخابات رئاسية مبكرة، فسوف يطرح الحزب اسمكم للترشيح.. والباقى معروف»

وقبل أن ينهض للانصراف ربت السيد: جمال على ركبتيه وألقى إلى مريضه العفى نظرة كلها إعجاب، فلاحقه السيد النحال بسؤال عاجل:

ـ «هل فهمتنى..؟»

ـ «أجل.. استأذن الآن.. خذ بالك من صحتك، وسوف أحمل للسيد الرئيس كل أفكارك..»

فصاح السيد النحال محذرًا:

ـ «لا.. لا.. أرجوك.. قدمها على أنها أفكارك أنت»

ـ «حاضر.. حاضر.. هل من شيء آخر؟»

ـ «آه.. آه.. هناك شيء مهم.. سنكون بحاجة إلى فلتر من نوع خاص لتمرير أسماء بعينها للترشيح وحجب الأسماء التى قد تثير المتاعب»

تأنى جمال مبارك ولم يواصل الانصراف، وسأله بدهشة:

ـ «أىّ أسماء تقصدها؟»

رد السيد النحال مسرعًا متجاهلًا علامات عدم الارتياح التى بدت على وجه ضيفه:

ـ «أبو غزالة.. الجنزورى.. عمرو موسى.. فأنت لا يمكنك أن تجد سببًا مقنعًا لاهتمام الناس بهم وبأخبارهم رغم خروجهم من السلطة.. كأنهم نجوم تم إطفاؤها بفعل فاعل»

ولما تأكد المريض العجوز أن ما قاله أخيرًا تسبب فى تكشيرة عبرت ملامح ضيفه عنها سارع بالتلطيف:

ـ «ثق أننى أصدقك النصيحة، والاحتياط واجب.. ومن الحكمة أن نسد كل المنافذ المريبة.. وهذا ما فعله السادات بعد رحيل عبد الناصر عندما وجد زكريا محيى الدين وكمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى يقفزون أمامه ليضعوا أنفسهم فى الصدارة أمام الشعب.. فسارع بإقصائهم..»

وتهدج صوته بأسى:

ـ «الله يرحمه.. كان معلمًا.. الله يرحمه..»

وابتسم جمال مبارك وهو يكمل انصرافه الذى كان قد توقف عنه ـ وزادت ابتسامته عندما رنت فى أذنه كلمة «الله يرحمه»، فقد تعجب أن السيد النحال نطقها كما كان ينطقها الرئيس السادات.. تمامًا.



الفصل الأخير .. الموتى لا يشيخون

تجديدًا لصيحة الشيخ فريد الشهيرة التى قال فيها :

ـ « صارت مصر المحروسة مليئة بالنحالين.. فارحمنا يا ألله»

قام الشابان معاذ فريد هنيدى، وحسن رأفت إبراهيم بإطلاق صرخة من عندهما فى مدونة «شجرة أبى» فكتبا:

ـ «يمكنكم أن تذهبوا إلى القصر ـ المسروق ـ الذى يقع على مشارف حدائق الملك قرب بلدنا لتروا المشتل الجديد للنحالين الجدد الذين سيهبون على مصر فى مستقبل الأيام هبوب السحابة السوداء وينقضون على أرزاق الناس انقضاض الجراد الجائع ..».

فعباس عبد المحسن إبراهيم النحال المولود عام ١٩٢٠ والمتزوج لأول مرة عام ١٩٤٠ والذى ينحدر من ظهر أب حدائقى لم ينجب إلا ولدًا واحدًا وهو عباس نفسه. هذا الرجل فقد أغلب حواسه البشرية بحكم إيغاله فى عمر تخطى الثمانين عامًا بكثير، لكنه ما زال مخلصًا لموهبته الذكورية فراح يملأ بها ـ عبر زيجات سريعة ومتكررة ورخيصة ـ ملاحق قصر ولده السيد النحال وحجراته وردهاته بالخلفة الطالحة.. ذلك أن هذا الذكر الفرعونى النشط الذى ظل يعمل تحت أرجل البهائم كلافًا منذ تاريخ زواجه الأول أصابته عدوى القفز على الإناث تشبهًا بفحول أبقاره وذكور جواميسه، وكان أن امتد به هذا الحال لأكثر من خمسة وستين عامًا ولا يزال، فاطلبوا الرحمة من الله الواحد المتعال..

ولما وصلتها تساؤلات شتى كلها تعجب واستغراب سارع معاذ فريد بتدوين هذا التوضيح اللازم:

- « هذا الفحل البقرى العجوز، المتمتع بآلة ذكورية خرسانية لم يدب فيها الوهن، اتضح أنه يحمل كمًّا هائلًا من البراءة العفوية، فالرجل لم يقصد بهذا الإمعان التناسلى أن يشج رءوسنا بالكرب والكدر وهو ينثُر ذريته كحبوب اللقاح فى شقوق الحياة، الرجل لم يتعمد أن يسد علينا منافذ الأمن والفضيلة، كل ما هنالك أنه يلهو بالشىء الوحيد الذى يعرفه ولا يعرف غيره وهو مفاخذة النساء ثم لا يعنيه بعد ذلك ما يثمر عنه هذا اللهو من أشياء..

فيا أبناء الأجيال القادمة..

نصيبكم من الطرح النحالى استوى..

طرحكم قادم، وسوف يجد مرتعه فى انتظاره..

ولأنه لا شىء قد تغير من مكونات التربة المصرية الصالحة لنمو واستفحال هذه الكائنات..

فليس أمامكم سوى أحد أمرين: «إما أن «تقلبوا» بطن التربة، وإما أن «تقبلوا» طرحها المرير..»

ولم تتوقف المدونة عن السخرية من تمثيلية انتخابات الرئاسة، فتعمدت أن تتحيز لواحد بعينه من المرشحين، فقالت عن الشيخ الصباحى إنه:

- «يصلح رئيسًا لهذه البلاد بكل جدارة.. فهو يتمتع بحكمة الشيوخ.. وجسارة الشباب..»

واستمرت المدونة فى القول:

- «الصباحى يمكنه أن يأخذ بأيدينا إلى مصاف الدول الراقية.. الصباحى يمكنه أن يجعلنا من عتاة المنافسين فى الإنتاج والتصدير.. الصباحى يمكنه أن يوقف مهزلة استيرادنا لكلّ شىء حتى الأستيكة وعلبة الكبريت.

الصباحى أو ما يماثله من العجزة والعواجيز يمكنهم أن يحققوا المعجزة الاقتصادية المنتظرة شرط أن يخلصوا النية، ولا يعملوا لحساب أنفسهم.

الصباحى يمكنه أن يُحدث نقلة تاريخية لمصر شرط ألا ينشغل عنا بملء خزائنه

وخزائن أولاده بالأموال التى يجب أن تنفق على نهضة هذا الشعب»

وجاءتها ردود على نفس المنوال فى مدونات أخرى منها مدونة اسمها «الجوع الكافر» قال لها صاحبها:

ـ «ما لكما تتعجبان لهذه الأسماء المحنطة التى قبلت أن تدخل فى هذه المنافسة البلاستيكية.. منافسة انتخاب الرئيس؟ وما لكما تجهدان أنفسكما فى أن تثبتوا لنا أن السيد الصباحى يصلح رئيسًا للجمهورية..؟»

يا سادة..

لقد ثبت أن أسهل وظيفة فى التاريخ هى وظيفة رئيس الجمهورية المصرية، وثبت أن أسهل شعب يمكنك أن تحكمه هو شعب مصر.. الله يرحم المماليك وتجار الدخان اللى ميعرفوش ولا كلمة عربى.. وكنا بنركع لهم..»

* * *

وفى أمريكا التى ابتعد فيها السيد النحال عن حلبة الأحداث الساخنة راح يتابع ما يدور بعيدًا عنه باهتمام وتركيز عبر الفضائية المصرية .

ولم يكن بحاجة إلى قناة أخرى من تلك القنوات التى تجهد نفسها ومراسليها فى متابعة ومطاردة المجازر التى يقيمها الأمريكان للعراقيين، والمذابح التى يقيمها اليهود للفلسطينيين.. ويتعجب لعزوف هذه القنوات عن متابعة الشىء الأهم.. الانتخابات المصرية.. أول حالة انتخاب رئاسية حقيقية فى العالم العربى.. ومقرها مصر.. الحالة التى رسمها بنفسه للرئاسة شأن كل ما كان يرسمه من خطط ومؤامرات للمحيطين به :

«عنتر مكاوى ، فوزية حمدان ، فايز فودة ، حشمت بركات ، العظماء الخمسة، إخوته: بديرعوض، عنتر عاشور، معالى الوزير أمير، وأخيرًا فتيان فتيان، وولديه..»

«كل هؤلاء لا ذنب لى نحو من سقط منهم: «فوزية ، بدير وحشمت وفتيان «إنه القدر نفسه الذى نال من «طاهر وفريد ورأفت «دون أدنى تدخل منى..»

«أما من نجا منهم، فذلك لأنهم اتبعوا نصائحى».

هكذا قال لنفسه وهو يتابع سير نصائحه فى انتخابات الرئاسة.

وفى انتقاله الهنىء من منتجع صحى فى ولاية إلى منتجع جديد فى ولاية أخرى لم يكن مهمومًا إلا بمطاردة شيء واحد هو الزمن.

الزمن الذى زحف ببعض التجاعيد على وجهه والصدأ والتسوس فى بعض أسنانه والصلع فى رأسه.. والترهل فى وزنه.. ناهيك عن ساقه التى فقدها ـ أو التى كما قال عنها سرقت منه ـ فى غفوة نام فيها عن نملة فى جحر النقمة البعيدة، لكن هذه النملة تمكنت منه فكلفته ساقه..

التجاعيد اللعينة اختفت، وظهرت مكانها نضارة مباغتة بدت فى جلد الوجه الناعم المشدود.. والصلعة اللعينة اختفت هى الأخرى تحت شعر جديد زرعوه فى فروة رأسه.. والأسنان المتآكلة ذهبت إلى صندوق القمامة وزرعوا له مكانها أسنانًا جديدة ثبتت فى لحم الفك وصار يمكنها تذويب قشر البندق بأزيد من كفاءة الكسارة.. أما الساق البديل المذهل فهو ينثنى ويتمدد ويستجيب لكل مطالب صاحبه..

ولم ينس فحولته، فقد استدعاها ومطلبه فى ذلك هو حفظ كرامته أكثر من إرضاء لياليه القادمة مع فتياته الصغيرات أو غانياته المجربات.

* * *

وراح يرنو بعين الحب والرجاء أن تسير مواكب الخير العميم فى طريقها المرسوم فى مصر وأن تظل الإشارة الخضراء مضاءة، ودروبها مفتوحة، وراح يتمعن فى الأسماء التى تقدمت لمنافسة السيد الرئيس فى انتخابات الرئاسة وعرف أن هؤلاء الخاسرين سلفًا يرفعون سيوفًا خشبية فوق أحصنة تموء كالقطط، وتساءل عن المدة التى يمكن فيها لقطة أن تصهل كالجواد، وجاءت الإجابة من عنده فى شكل ضحكة استهجان، ثم غمغم:

ـ «الانتخابات بها حصان واحد.. ومجموعة من القطط المنتقاة»

وعندما أعلن فوز الرئيس على منافسيه وتوليه الحكم لولاية خامسة أسرع السيد النحال بتجهيز حقائبه للعودة الميمونة إلى الوطن الحنون وهو يدندن بأغنية شبابية قائلًا: «فلتنزع القطط رءوسها من فوق هامات الخيول.. ولتظل الخيول الأخرى بلا أدمغة، وليذهب صهيلها إلى حناجر القطط لتموء. مواء الخيول»

وفى حفل تنصيب الرئيس المنتخب كان السيد النحال يقف منتصب القامة فى خلفية المنصة وابتسامته الواسعة تشع بالبياض وتومض بالبريق، فكل شىء فيه مشع وجديد.

وبعد الحفل تحرك الرئيس مغادرًا المنصة، فتحرك خلفه طابور طويل من وجوه القوم ليودعوه حتى باب سيارته.

الكاميرا تلتقط ضحكاتهم الرائقة، وابتساماتهم البيضاء، ووجوههم الشابة اللامعة الحليقة.. هذا هو عنتر مكاوى يقف على خط واحد مع أصهاره: عنتر وعاشور وعرفة النحال، وكلهم من كبار رجال الحزب الوطنى.. إنهم يطلقون للبهجة ابتساماتهم. وللفرحة أكفهم المصفقة، ويرسلون للسيارة التى تتهادى على مهل برئيسهم المفدى دعوات السلامة .

فهذا هو السيد النحال يداعب جاره الوزير اللامع «أمير النحال».. الكاميرا اصطادت ابتساماتها فى لقطة عابرة.

وهذا هو السيد فايز فودة يقترب منهما بابتسامة مشرقة وكف ممدوة لمصافحة شائقة وهذان هما صاحبا حدوتة «شجرة أبى» يراقبان ما يدور أمامهما على شاشة التلفاز باستسلام من يعرف أن هذا هو الأمر الطبيعى الذى لا أمر بعده ، لكنهما ـ على أية حال ـ يكتبان تعليقهما كلٌّ على حدة فى أوراق صغيرة تمهيدًا لتغذية المدونة بآراء وتعليقات طازجة المشاعر حول هذا الموكب التاريخى المثير، وكان أول ما خطر على بال معاذ فريد سؤال من أسئلته المشاغبة نوى أن يصكه هكذا:

ـ «ما الذى يمكنك أن تتذكره إذا شاهدت طابورًا واحدًا يضم كل أبناء النحال ومعهم عنتر مكاوى وفايز فودة؟»

ثم رصد جائزة ثمينة للإجابة الصحيحة..

وها هو حسن رأفت يقترح عليه أن يختتما هذه الفقرة بهذا القول:

ـ «فاز المواطن» سلامة سعد أبو الخير «بجائزة المدونة الثمينة وهى عبارة عن أول «أستيكة» تم صنعها أخيرًا فى مصر بنجاح منقطع النظير، وذلك عن إجابته التى قال فيها:

ـ « أعرفكم بنفسى اسمى «سلامة».. وأصله ندامه.. ثم «سعد».. وصحته: شقاء، ثم

«أبو الخير»؛ حيث لا خير فى حياتى.. فأنا خريج كلية التجارة عام ١٩٩٤ ومنذ أحد عشر عامًا لم أعثر على وظيفة، ولن أعثر.. أتدرون لماذا؟.. لأن الطابور الذى يضم الأسماء التى ذكرتموها ذكرنى بمليارات الجنيهات المنهوبة من البنوك، ثم ذكرنى بملايين العاطلين مثلى.. فهل هناك علاقة بين النهب والبطالة؟»

وكانت الجدة خميسة عفيفى ترعى حفيدها بعيدًا عن ولدها ياسر المشغول بمشاهدة التلفاز عندما ناداها أن تسرع إليه بالحضور.

أسرعت إليه وجدته يصلح من وضع نظارته الطبية فى مكانها، ثم يقترب من الشاشة بوجه هلع وفك متدلٍ:

ـ «**انظرى معى يا أمى..**»

اقتربت أمه من التلفاز وولدها يكمل حديثه متسائلًا:

ـ «**أليس هذا هو السيد النحال؟ أم أننى مخطئ فى رؤيتى؟**»

أمعنت خميسة النظر فى الشاشة وهى تصلح من شأن نظارتها وتدقق النظر فى وجوه كلّ المحيطين بالرئيس فعرفتهم جميعًا، ثم تمتمت:

ـ «**لست مخطئًا.. إنه هو بالفعل**»

ـ «**لم يكن بهذا الشباب قبل السفر إلى أمريكا**»

ـ «**إنها مطالب التجديد**»

ـ «**لقد اقترب عمره من السبعين**»

ـ «**الرئيس نفسه يقترب من الثمانين ويتمتع بهيئة ابن الأربعين.. فما الذى يزعجك؟**»

ومدت إصبعها، فأطفأت التلفاز بامتعاض:

ـ «**لا تبحث عن قناة أخرى.. فسوف تجدهم على كل القنوات.. فهؤلاء هم رجال المهمة القادمة.. مهمة التخطيط لمستقبل أحفادنا.. فهم الذين سيتولون حكمهم أيضًا..**»

ـ «**أىّ مهمة؟.. وأىّ تخطيط؟.. هل نسيت حديثك السابق يا أمى عن الديكور والطلاء؟.. كلّ هؤلاء ليسوا سوى جثث مزخرفة.. كلهم يحاولون صلب طولهم موارة لانحناء ظهورهم..**»

ـ «وسوف يعيشون بظهورهم المحنية طويلًا طويلًا.. فالانحناء هو شرط البقاء»

ناداها حفيدها من غرفته فاتجهت إليه مسرعة، ثم تمهلت قائلة لولدها:

ـ «الطغاة لا يشيخون يا ياسر»

ولما عادت وبيدها صغيرها أكملت عبارتها:

ـ «والموتى أيضًا... لا يشيخون»

(تمـــت)

القاهرة. الإسكندرية. كفر الشيخ

من ٧/ ١٠/ ٢٠٠٤

إلى ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٧

نبذة عن المؤلف (أحمد ماضى)

* مهندس معمارى.
* خريج كلية الفنون الجميلة (قسم عمارة)، عام ١٩٦٨م.
* من أبناء قرية القرضا ـ مركز كفر الشيخ ـ محافظة كفر الشيخ (ويقيم بها صالونًا أدبيًّا منذ عام ٢٠٠٠م فى الإثنين الأخير من كل شهر).
* خاض معركة أكتوبر ١٩٧٣، من موقعه كضابط احتياط، يقود فصيلة بسلاح المهندسين العسكريين.
* شارك فى الموجة الأولى لعبور قناة السويس، وشارك بفصيلته فى فتح ممر بالساتر الترابى لخط بارليف يوم ٦ أكتوبر، وسجل ذلك بروايته الممر.
* منحه اللواء التاسع مهندسين وسام الجمهورية العسكرى، ونال ميداليا جرحى الحرب.
* رئيس جمعية أصدقاء الصالون الثقافية.
* عضو اتحاد الكتاب المصرى.
* عضو نادى القصة.
* يعمل بهندسة العمارة، وعضو اتحاد المقاولين المصرى.
* للتواصل معه: ٠١٦٨٨٤٢٠٨١ ـ ٠٢٢٢٧٣١٩٧٣

www.qradaa.com
* للمراسلة: ٦ شارع الصحابة الكرام ـ حى السفارات ـ عمارة شهرزاد ـ مدينة نصر.

إصدارات الكاتب

١ ـ «الممر» ط١، ١٩٩٨م ـ ط٢، ٢٠٠٧م

(رواية تجربته فى حرب أكتوبر والفائزة يالجائزة الأولى من القوات المسلحة).

وبها القصص القصيرة:

«الدم» والفائزة بالجائزة الثانية من القوات المسلحة.

«العودة» والفائزة بالجائزة الأولى من مجلة الهلال.

«مأمورية» والفائزة بالجائزة الأولى من نادى القصة.

٢ ـ «إسكـــات الماضى» (مجموعة قصص قصيرة).

٣ ـ «الخـــروج من عالــم الأربـعة فى خمـسة» (مجموعة قصصية قصيرة).

٤ ـ «النــاى الحزيــن» (ديوان شعر بالعامية المصرية.. حول الشاعر عبد العليم عيسى).

٥ ـ «أوراق شاعــر مـــن الزمـن الجميـــل» (حول حياة وتجربة الشاعر عبد العليم عيسى).

٦ ـ «جمـــال عبـد الناصـــر..أمير الفقراء..» ط١، ٢٠٠٢م ـ ط٢، ٢٠٠٧م، ط٣ . ٢٠١٠م (تأملات فى حياة زعيم).

٧ ـ «الظـلام الدافـئ» (رواية طويلة).

٨ ـ «صحوة الموت وغفوة الحياة» (شاعر شاب مات عجوزًا، وشاعر عجوز مات شابًا).

٩ ـ «جمرات خابية» (مذكرات).

١٠ ـ «لست أنـا لكنـه اسـمى» (رواية).

١١ ـ «دموع النــوارس» (رواية).

١٢ ـ «الخوف» (مجموعة قصص قصيرة).

١٣ ـ «ابحثوا لنا عن إمام آخر» (رواية).

١٤ ـ «كيفية ألا أكون هكذا» (رواية).

١٥ ـ «البلاد وأشلاء العباد» (رواية).

- (ط١)، يوليو ٢٠١٠.

- (ط٢)، ديسمبر ٢٠١٠.

* تحت الطبع

ـ «طائر الشـــوك» (رواية).

ـ «مآذن قريتى» (رواية).

ـ «غدير.. قصة النهر الظمآن» (رواية).

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

